جائزة نوبل ٢٠٠٨

جان لوكليزيو

ثورات

@ketab_n
Follow Me
23.6.2014

ترجمة
بشرى أبو قاسم

دار نينوى
للدراسات والنشر والتوزيع

رواية

@ketab_n
Follow Me
www.kutub-pdf.net

جان ماري جوستاف لوكليزيو

J. M. G. Le Clézio

ثــورات

Révolutions

ترجمة

بشرى أبو قاسم

© Éditions Gallimard, 2003 / Folio

@ketab_n
Follow Me

Twitter: @ketab_n

www.kutub-pdf.net

اسم الكتاب: ثـــورات – رواية

تأليف: جان ماري جوستاف لوكليزيو

ترجمة: بشرى أبو قاسم

عدد الصفحات: 480

القيــاس: 14.5 × 21.5

1000 / 2014 م - 1435 هـ

© جميع الحقوق محفوظة بموجب عقد مع الناشر الفرنسي /غاليمار/ ٢٠١٣

Copyright ninawa

دار نينوى

للدراسات والنشر والتوزيع

سورية . دمشق . ص ب 4650

تلفاكس: 2314511 11 963+

هاتــــف: 2326985 11 963+

E-mail: info@ninawa.org

www.ninawa.org

العمليات الفنية:

التنضيد والإخراج والطباعة

القسم الفني ـ دار نينوى

لا يجوز نقل او اقتباس، او ترجمة،

اي جزء من هذا الكتاب، بأية وسيلة كانت

دون إذن خطي مسبق من الناشر.

Twitter: @ketab_n

www.kutub-pdf.net

جان ماري جوستاف لوكليزيو

حائز على جائزة نوبل للأدب عام ٢٠٠٨ عن كافة أعماله. قال في سؤال طرح عليه في هذه المناسبة:

"رسالتي ستكون واضحة للغاية وهي أنني اعتقد أن علينا ان نستمر نقرأ روايات لأني أعتقد أن الرواية هي وسيلة جيدة جداً لمناقشة الواقع الذي نعيشه بدون أن تكون هناك ردود آلية جاهزة، فالروائي ليس فيلسوفاً ولا هو فني لغويات وإنما هو شخص يكتب في المقام الأول ومن خلال ما يكتبه يسأل المجتمع بعض الأسئلة الصعبة."

ولد جان ماري غوستاف لوكليزيو في نيس عام ١٩٤٠ من أب بريطاني ذي أصل بريتوني وموريسي ومن أم فرنسية. قبل التحاقه بوالده عام ١٩٤٨ في نيجيريا، ربته أمه وجدته، حيث كان لتلك المرحلة أكبر تأثير على اتجاهه نحو الكتابة، فقد اكتشف فيها الكتب التي كانت تملأ المنزل العائلي، إضافة إلى أن الجدة كانت تمتلك مخزوناً كبيراً من الحكايات. عند رحيله إلى نيجيريا للقاء والده الذي كان طبيباً استعمارياً في الجيش البريطاني -حيث يمضي عاماً-، يكتب خلال الرحلة البحرية التي أخذته إلى هناك محاولتين روائيتين، سفر طويل، وأورادي الأسود، استعادهما فيما بعد في عدد من أعماله.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

شخصيات الرواية

عائلة مارو:

جان مارو: بطل الرواية والذي سنرافقه من الطفولة لنعيش معه أحداثاً تاريخية هامة.

جان أود مارو: الجد الأكبر للعائلة وأول المهاجرين إلى جزيرة موريس والذي تطوّع في الثورة الفرنسية.

ماري آن ناور: الجدة. زوجة جان أود مارو.

العمة كاترين: امرأة ضريرة طاعنة بالسن، هي ذاكرة الرواية التي تربط الماضي بالحاضر والسلف بالخلف.

جيلدا: أخ العمة كاترين.

سيمون: أخ العمة كاترين.

هيريف: أخ العمة كاترين، جد جان مارو.

ماتيلد: أخت العمة كاترين.

سومباريا: صديقة طفولة العمة كاترين.

ميرفان: صديق جان أود مارو.

موراند: صاحب مصرف، والد زوجة ميرفان (أليس).

العمة اليونور: اليونور جوسنيل، إحدى أقارب جان.

العم فانيا: فانيا فالتيف، زوج اليونور.

السيدة روزيلا: ممرضة العمة كاترين.

رايموند مارو: والد جان مارو، ضابط متقاعد.

السيد بيرتان: صاحب المنزل في موريس.

جان شارل: والد العمة كاترين.

ديزيريه: والدة العمة كاترين.

لويس بيللوته: صديق جان أود مارو.

لور: زوجة لويس بيللوته.

ساموسان: متطوّع في الثورة الفرنسية.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

جان في المدرسة وفي فرنسا:

أموريتو: هاجر إلى السويد.

أروزا: صديق في المدرسة.

مالاتيستا: عمل في السياسة.

كيرنس: تطوّع في البحرية.

دروست: في السجن. (معارفه: أني ومونديلنو).

سانتوس بالاس: صديقه الذي علّمه الفلسفة، عائلته:

ليا بالاس: والدة سانتوس، لبنانية تعمل بالتمثيل.

جان أوديل: حبيبة سانتوس بالاس.

بالاسما: أستاذ اللغة الفرنسية.

ريتا: ممرضة في المستشفى، حبيبة جان.

ميلاني: صديقة ريتا، زميلتها في السكن، ممرضة.

مريم: فتاة جزائرية، تدرس الفلسفة، حبيبة جان وزوجته.

مارسيل اليوناني: عجوز من الهند.

سكان مبنى لاكاتافيفا:

الجنرال حامون.

الآنسة جانيت بيكوت.

عائلة جندر: تسكن في الطابق الخامس.

أورو دوسوميرفيل: تسكن مع عائلة جندر.

ميريل أنزيوني: الساكنة الجديدة بعد رحيل عائلة جندر، محامية.

في المخيم:

فريدي فونتانا لاجئين من الجزائر.

وعائلة بايز:

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

في بريطانيا:

جورج بورير: صديق جان، تعرّف عليه في الفندق، يدرس الأدب.

الآنسة إيما: مسؤولة الفندق الذي نزل فيه جان في لندن.

روزي: صاحبة متجر الكحوليات.

السيد لورروكس: صديق روزي في متجر الكحوليات.

كورنارد إيفتيشوشنكو: رجلٌ أوكراني قوي البنية يعمل كحارس للمتاجر.

أداموني: صاحب متجر المفروشات.

سارة: صديقة أداموني، امرأة يهودية، تعمل في التمثيل.

إنجي: فتاةٌ ألمانية رائعة الجمال.

بوبل: صاحبة حانة "لافوال".

جون جيمس: حبيب إنجي، شابٌ كالوحش.

يكسون: أستاذ رسم.

إيماجو: مطربة.

في جناح المسنّين:

إيرفان ماك لاغلي: بحّار اسكتلندي.

جاك والسي: موظف في البنك.

أندرو: على الكرسي المتحرك.

جيرما

بولا

أليسون: حبيبة جان في بريطانيا، ممثلة.

في المكسيك:

باميلا: فتاة بالعشرينات تعمل سكرتيرة.

جوكان: أخ باميلا طالب في مدرسة البولتيكنيك.

جوان كوشران: أميركي، مدير معهد اللغات حيث يعطي جان دروساً في الإنكليزية.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مارسيل جوسيل: مدرس في معهد اللغات في مكسيكو.

السيد رولسي من أثرياء مكسيكو.

لالان:

الآنسة رولسي: ابنته، طالبة.

رويز وعائلته (مارتينا وإيفا الصغيرة): متسولون في مكسيكو.

الأب أندريس: في دير غريرو.

في كيلوا:

كيامبي: هي الفتاة التي تم سبيها وقتل والدها والتي تزوجت من راتسيتاتان لاحقاً.

راتسيتاتان: قائد ثورة الرّق.

فيوليت: صديق كيامبي من أتباع راتسيتاتان.

الآنسة أليكس: سيدة كيامبي.

لوبان: العبد الذي أرغمت كيامبي على الزواج منه.

لايزاف: العبد المتآمر ضد راتسيتاتان.

Twitter: @ketab_n

www.kutub-pdf.net

"ما يقتلني في الكتابة أنها قصيرةٌ جداً تنتهي الجملة ولكن كم من الأشياء تبقى خارجها".

جان ماري كوستاف لوكليزيو

حقاً هذا ما يراودنا كقرّاء مع جمل لوكليزيو واسعة الغنى بكلماتها الموجزة المؤثرة ومشاعرها المتدفقة الجيّاشة وأحداثها الواقعية الدقيقة.

يغربل التاريخ الأحداث مما علَق بها يوم مخاضها، اليوم يبوح لنا لوكليزيو بأسرارٍ غفت بين الصفحات وتعثّرت بين التواريخ حيث لا يتسع المكان سوى للقادة والحروب والمدن التاريخية، سيكشف النقاب عن خفايا التاريخ، عما تعجز عن سرده الأحداث والمعارك التي دارت رحاها غير آبهةٍ بما تطحن من أحلامٍ وأفكار وحكايا ناسٍ عاصروها.

بلسان جان أود مارو، يسلّط لوكليزيو الضوء على زوايا الثورة الفرنسية التي حملت شعار "الحرية – العدالة – الأخوة" بيد أننا ما سمعناه من الأفواه التي نطقت به وما علمنا بما دفعهم لتبنّيه.

خلافاً للتاريخ، سيحطُ كاتبنا الرحَّال رحاله لبرهةٍ عند القادة الذين قادوا حروب الثورة آنذاك ضد من حاول وأدها ليطيل عند الجنود الذين شكّلوا الجيوش، نعيش أحوالهم وآلامهم ونقاسي معهم بالليالي الباردة التي قضّ فيها الجوع والبرد مضجعهم ليجوبوا مساحاتٍ شاسعة بأقدام حافية أدماها الشوك والحجارة القاسية وصولاً إلى ساحات الوغى. ماراً شرق باريس حيث نشبت حرب شعواء مع الجيوش المتحالفة بقيادة "برونزويك؟ التي تناصر الملك المخلوع ضد الثورة، وحّد كلرمن وديموريه صفوفهما في وجه العدو فأحرزوا نصراً مؤزراً غسل عار الهزيمة النكراء التي لقوها على يد النمساويين في بلجيكا، نشرب نخب الانتصار على الجبهة، ذاك الانتصار المكتوب بدماءٍ طاهرة تتلألئ بنور الشمس.. لحظةٌ غير متوقعة.

نقرأ البؤس والشقاء الذي لفَّ فرنسا آنذاك والجوع والبرد الذي حصد أرواحاً بريئة في التحوّل من مملكة يحكمها الدين لجمهوريةٍ تحكمها الحريّة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

حيث أعلنت حقوق الإنسان عام ١٧٨٩ وشهدت فرنسا سقوط الباستيل ١٧٨٩ نقطة التحول الهامة في تاريخ فرنسا وأوروبا.

أحداثٌ نقرأها مؤرخة لكن هذا التحول هو انصهار وفي الانصهار تتخلّى المواد عن خصائصها وهذا التخلّي آلم الشعب آنذاك، المهم تخلّيهم عما ترعرعوا عليه من عادات دينية لتصبح جرماً يحاسب عليه القانون في حكم الإرهاب الذي تلا سقوط الملكية وهو حكم اليعقوبيين بقيادة روبسبير (١٧٩٢ – ١٧٩٤) والذي كان أحد أبطال الثورة الذي قال للويس XVI "يجب أن تموت لأن الأمة يجب أن تحيا" إلا أنه أصبح سفّاح الثورة إذ أنزل عقوبة الإعدام بالمقصلة بأكثر من (٦٠٠٠ شخص) خلال ستة أسابيع حتى سقوطه على يد "حكومة المديرين" "١٧٩٤-١٧٩٩" والتي ألحقت به نفس المصير. ثم يعتلي نابليون بونابرت العرش "١٧٩٩" وتبدأ معه حقبة الإمبراطورية.

شهدت الأعوام (١٧٨٨-١٧٩٨) ولادة حقوق الإنسان سطرت بدماء شبّانٍ ضحّوا لتحيا فرنسا ولتنتصر العدالة.

كما فصلت الثورة الفرنسية ما بين مناصري الثورة والمدافعين عن الحكم القديم وما بين الكنيسة الكاثوليكية والمناهضين لرجال الدين مما أثار الضغينة بين أفراد الشعب، سئم جان أود بعد استقالته من الجندية من الخلافات الرائجة ومن النظرة التي يضمرها له من حوله بعد أن جاهر بأفكاره الدينية المناصرة للثورة فقرّر الرحيل إلى إحدى المستعمرات الفرنسية "موريس"، عبّرَ مذكراته المؤرخة حسب الروزنامة الفرنسية إبّان الثورة (فانديمير / برومير / فريمير / نيفوز / بلوفيوز / فانتوز / جيرمينال / فلوريال / بريريال / ميسيدور / تيرميدور / فروكتيدو) سيروي له تفاصيل رحلته إلى موريس بعد أن باتت الحياة في باريس قاسية يقضي الناس جوعاً وبرداً بعد الحصار الإنكليزي الصارم الذي منع دخول القمح والطعام لتصبح كسرة الخبز ثروة والحصول عليها هاجسٌ، والأطفال يهيمون في الشوارع بثيابهم الرثة والدفء غاية صعبة المنال وهذا ما ترويه العمة كاترين عبر ذكرياتها الدفينة، أما الحياة في موريس مختلفة كلياً فهنا يحظى الفرنسيون "ذوي البشرة البيضاء" بامتيازات أنستهم أصولهم التي تعود لمزارعين وعمال،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يسيئون معاملة الرق "ذوي البشرة السوداء"، نزلوا بهذا العرق إلى الدرك الأسفل وعرّضوهم لأقسى أنواع الذل والعبودية فنأى بعائلته بعيداً عن هذه المآسي وبنى جنّته في "روزيليس".

هذا ما ترويه كيامبي من كيلوا لتؤيد جان أود وتتحدث عما يلقاه ذوي البشرة السوداء من خطف واغتصاب وضرب ومهانة، احتلّ الغرب بلادهم وحوّلوهم لعبيد يباعون في سوق النخاسة ويُضربون ضاربين عرض الحائط "بحقوق الإنسان" التي تصدح بها الحناجر في باريس.

كيامبي لسان الرِّق الذين ثاروا بقيادة راتسيتاتان لنيل حريتهم لكنه لقي مصرعه بشناعة على يد "الحاكم فوكهار" حيث قطع رأسه (١٥/٤/١٨٢٢) ورأس كل من "لاتوليب" و"كوتولوفو" وعلّقت ليكونوا عبرة لبقية الرّق ليمعنوا بالعبودية.

لكن الحرية التي وعدهم بها راتسيتاتان ستأتي على جنح عاصفةٍ تنبأ بها كاهنه بعد عامين من وفاته لتحيا ذكرى راتسيتاتان في قلوب "ذوي البشرة السوداء" كالمخلّص.

يقدّم لنا لوكليزيو الأحداث بعدّة وجهات نظر وبعدّة ألسنة حتى نحيط بها بشكلٍ وافٍ ونمعن بأدق التفاصيل كأننا عاصرنا تلك الأحداث وتطورها عبر الزمن الذي يقبع في ذاكرة العمة كاترين كنقطة وصل ما بين الحاضر والماضي حيث تلقي بين يدي حفيدها جان أور فيضٌ من الذكريات يغفو في صندوقٍ من الأشياء البسيطة يتعلق بكل منها حقبةٌ من زمنٍ عاشته وعاشت من أجله.

يتردد جان مارو، بطلنا الشاب، إلى مبنى "لاكاتافيفا" ليحلّق على جنح خيال تلك القصص التي ترويها العمة كاترين إلى أن يقرر تقفّي أثر أجداده في روزيليس بعد أن طردوا منها ليفهم ماضيه ويفهم خفايا نفسه.

نرافق جان مارو في أيامه في المدرسة ونعيش قصص أصدقاءٍ له خاضوا غمار الثورة الجزائرية بعد أن تم تجنيدهم إثر فشلهم في فحص البكالوريا، فمنهم من لقي حتفه على الأراضي الجزائرية تاركاً خلفه أماً ثكلى وحبيبة أرملة وطفلاً لم يرَ النور ليجترّوا علقم غيابه يوماً بعد يوم، وآخر ودّع طفولته

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

البريئة في همجية الحرب ومنهم من كابد الغربة فراراً من التجنيد. يروي لنا لوكليزيو بعض التفاصيل التي يندى لها جبين "حقوق الإنسان" جرت في مدنٍ عدة من الجزائر "وهران" و"طرابلس" وغيرها.

غادر جان باريس ليدرس الطب في لندن، نعيش معه مغامراتٍ في تلك المدينة الباردة حيث سيعلم بانتصار الثورة الجزائرية واستلام يوسف بن خدة رئيساً للبلاد، بعد كل ما أدمى فؤاده من ذكريات أصدقائه سيقول: "هكذا إذاً انتهى كل شيء".

لدى عودته إلى فرنسا سيتعرّف بفتاةٍ جزائرية لوعتها نيران الحرب وأبقت الرعب متربعاً في ذاكرتها البعيدة التي أقفلت عليها أبواباً لا ترغب بفتحها.

بهدف العمل ومتابعة الدراسة، يسافر جان مجدداً إلى المكسيك فيكشف عن الحضارة المكسيكية المتنقلة بين شعوب الأولمبك والأزتيك مروراً بالحضارة الإسبانية. يشهد برفقة "باميلا وجوكان" مجزرة تلاتيلولكو في الميدان الذي يحمل نفس الاسم والذي شهد مظاهرات طلابية تطالب بالديمقراطية راح ضحيتها ٣٥٠ طالباً أعزلاً بعهد الرئيس "كوستاف دياز أورداز".

يلتقي خلال تجواله بالأب أندريس الذي يقول له: "إن حالفك الحظ ووقعت بحب شخص فعد وابقى بقربه هذه هي رسالتك في الحياة".

يكبر حب مريم في غربته ويذكّره الرعب الذي لاقاه في المكسيك بذاك الرعب الذي خطف عبثية طفولتها في وهران.

يعود إلى باريس ويلتقيا مجدداً ويضفر الحب ما بين قلبيهما وترافقه ليلاقي آثار سلفه في روزيليس، يتكأ لوكليزيو على الحب كقوةٍ تجمع بين قلوب الشعوب باصقاً في وجه الحروب.

المترجمة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

طفولةٌ حالمة:

شهد المبنى الذي تسكنه كاترين مارو في شارع رين جان بعض الرفعة حين حملت القطارات أسراباً من أولئك الأغنياء العاطلين عن العمل القادمين من باريس ولندن وموسكو مع كل فصل من فصول السنة، ليس بحوزتهم ما يكفي للإقامة في "فيلا" على شاطئ البحر، إلا أنهم مهتمون بالاحتفاظ بمستوى حياةٍ معين في هذه الأحياء الجديدة حيث حلَّت الأبنية ذات الطوابق الخمسة والعليات محل الحدائق الصغيرة وأكواخ المزارعين.

حُفر أعلى مدخل المبنى اسمٌ من ذهب على خلفيةٍ من الموزاييك اللازوردي. يصعب على جان تحديد متى تمكن من فك رموز هذا الاسم العائلي ذي المقاطع الخمسة الذي ينثر وميضه البرّاق العجيب على واجهة المبنى.

روت له والدته "شارون" بأن هذا الاسم كثيراً ما أغرقه بموجات من الضحك حين كانت تصطحبه لزيارة العمة كاترين، يكرره كما لو أنه كلمةٌ سحرية: لاكاتافيفا. يتساءل في سرّه: من أين أتى هذا الاسم؟ من إفريقيا أم من جزر السند؟

تحوم في ذاكرته أسماء "موريس" العائدة لوالده ولكل من سلف، تلك الأسماء الطريفة التي تلقي بظلال القلق مثل تاتاماكا، كورماندويل، مينسي. إلى أن أخبرته الخالة "اليونور" ذات المزاج الساخر بأن "لاكاتافيفا" هو اسم محطة صغيرة على السكة الحديدية التي تمر عبر "أروال". لا شك أن من شيَّد هذا المبنى هو أحد الارستقراطيين الذي فاض به الحنين لأيام روسيا العظمى وأبهتها، فهاهو الاسم يلمع على شعار الشرف اللازوردي كأيقونة. باختصار لاكاتافيفا هي عالمٌ بأسره.

يعيش في كل طابقٍ حالةٌ خاصة لا تقارن بغيرها. يلقي المدخل المظلم لهذا المبنى ذي الاسم المبهر الرعب في قلب جان ببواته الضخمة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

المصنوعة من الحديد المصقول يتخلله بعض الزجاج المقسى. يبقى مفتوحاً قليلاً فلا يُوصد ولا يفتح تماماً كمان لو أن نابضاً خفيّاً ومعطلاً يمسك به ليكشف في بعض الأحيان متسكعون أمر هذا الباب فينسلون ليتخذوا القاعة مسكناً لهم. يرقدون ككلاب الصيد على علب الكرتون أمام مكب النفايات.

يتوجس جان خيفة من العبور في تلك القاعة، حيث يشعر بأنفاسٍ باردةٍ تنفخ في رقبته وتتراءى له يداً خفية تسعى للإمساك به وسحبه إلى غياهب القبو الذي لم يجرؤ أحد على اقتحامه منذ زمنٍ طويل، لذلك كان يركض لاهثاً حتى الباب الثاني الذي يؤدي إلى فاصلٍ زُيّن قديماً بزجاجٍ قوطي يتم تبديله تدريجاً بزجاج خشنٍ ضارب للصفرة.

توزعت الشقق المفروشة على الطابق الأرضي والطوابق النبيلة، لم تكن شققاً رديئة إنما بائسةً وحسب ينزل فيها عابرو سبيل، لا يقيمون إلا لشهرين أو ثلاثة أشهر دون أن يتعرف أحدٌ على أسماءهم حتى. سكان لاكاتافيفا الحقيقيون في الطوابق العليا، نبدأ أولاً بالجنرال حامون وهو رجلٌ عجوز سريع الغضب، تعرّض لإصابةٍ خلال حملة المغرب جعلته يعرج برجله اليمين. قيل أنه مترجمٌ قريبٌ من "ليوتي"، إلا أن جان لم يكن يدرك معنى هذا. تعيش معه امرأةٌ اسبانية طويلةٌ وسمراء البشرة ترتدي فستاناً بدائرٍ وتسرح شعرها "بصنارة القلوب"، أما صوتها فجهوري كالرجال. كانت ترميه بنظراتها الغرامية المرعبة حين يحمله سوء الحظ للقائها على الأدراج.

يسكن أناسٌ عاديون في الطوابق الأخرى، طبيبٌ متقاعدٌ يتهافت على الويسكي، وآنسة عانس بجوارب بيضاء وصندل تدعى الآنسة جانيت بيكوت ليس لديها سوى التنزه مع كلب أبيض كبير وقذرٍ طيلة الوقت.

يرتقي جان الأدراج يقوده النور الذي يبعثره الزجاج الكبير في بيت الدرج حيث يُسمّع أكثر فأكثر ذاك الصوت الذي يظن جان أنه يصف

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

"لاكاتافيفا" بشكلٍ أفضل. يَلتقط ذاك الصوت ما إن يضع قدمه في مدخل المبنى، ليُزرع في أذنه ويملأ رأسه طابقاً بعد طابق حتى يبتلع كل الأصوات الأخرى، إنه صوت طائر النَغر الثاقب الذي وضعته الآنسة بيكوت على شباك مطبخها الصغير المطل على الطابق الرابع. يحوم صوت العصفور السجين بحزن يهز القلوب في بيت الدرج، يراوده شعورٌ بأنها تشدّه إلى الأعلى كبرغيٍ لا نهاية له، لعلها تعلقه من شعره أو من منتصف جسده ثم تشده للأعلى خطوةً خطوة ورأسه مقلوب للخلف وعيناه معلقتين بالسقف الزجاجي الشفاف حيث ترسم القطع الخشبية صليب القديس أندريه.

تبتلع عتمةُ حالكة الأدراج، يدوِّي فيها صوت طائر النغر كرسالةٍ فوق طبيعية تحذر جان من خطر يحدق به أو ينبئ بالفقر والوحدة كمكائد وقع بشركها سكان "لاكاتافيفا" مثل ذاك العصفور في القفص. لصوت عصفور الآنسة بيكوت معنىً يلقي الرعب في نفس جان ويجذبه إليه في آنٍ واحد، لذلك كان يهرع إلى الأعلى إلى الطابق الخامس حيث تعيش عائلة "جاندر" وابنتهم الصماء - البكماء "أورور دوسوميرفيل". أما العمة كاترين فتعيش في تلك الغرف ذات الأسقف المنحنية.

يتردد جان إلى "لاكاتافيفا" مساء كل يومٍ بعد المدرسة، لقد أصبحت بالنسبة له عادةً أو نوع من الطقوس، بالحقيقة إنه لا يعرف تماماً لماذا كان يأتي لزيارة العمة كاترين ربما ليبعد اللحظة التي يجد فيها تحت وطأة شقةٍ يملؤها والده بالغضب بعد أن اعتزل الناس جرّاء تصلب أصابه. العمة كاترين كانت سيدةً ضريرة، تعيش حياةً منزوية أعلى ذاك المبنى الآيل للسقوط، يظن الجميع أنه يزورها دون انقطاع لأنه فتىً شجاع وحسن النوايا، حتى والدته وأفراد أسرته والجيران كانوا يظنون ذلك. أما العمة كاترين فلم تكن تطرح السؤال على نفسها فجان حبيبها وهذا كل شيء. إلا أن جان ما رأى في نفسه قط الفتى المميز بل لعل

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أكثر ما يزعجه هو الشعور بالشفقة. تعرف كاترين موعد مجيئه بالفطرة ربما من الضجيج الصادر من الشارع أو عبر إشارات لا يميزها سواها. تنهض عن كرسيها تتحسس طريقها إلى المطبخ لتعدّ مكونات "الخبز الضائع" قطعاً من الخبز البائت والبيض والحليب والزبدة والسكر المحروق حيث تذوب أصابع من الفانيلا. تضم خزائنها دائماً خبزاً بائتاً تحمله "أورور" كل يوم إلى الصيادين بعد أن تحضِر للسيد والسيدة جاندر حوائجهم.

ما إن يطرق مرتين أو ثلاث مرات على الباب حتى يشم تلك الرائحة الشهية، رائحة الخبز المطهو في السكر المحروق. كثيراً ما كانت السيدة الضريرة تفتح الباب قبل أن يطرق، يعتقد جان أن طائر النغر في منزل الآنسة بيكوت هو من ينبئها بقدومه بالترانيم الخاصة التي يصدح بها لدى صعود أحدٍ ما الأدراج.

كثيراً ما يصادف "أورور" على الأدراج، تقوم بترتيب بعض الأشياء في علبٍ كرتون أو في الممر تكنس وتنظف. لكن بالحقيقة كان يعرف أنها تتصنع الصدف لترمقه بنظراتها الخاطفة. تتسرع نبضات فؤاده، إلا أنه ما اعترف لأحدٍ أبداً أنه يعود العمة كاترين بزيارةٍ دائماً ليرى أيضاً الفتاة الشابة في الطابق الخامس.

إن عائلة "جاندر" عائلة مميزة. عاشت لزمنٍ طويل في "أبيدجان" حيث كان السيد جاندر يعمل مدير أعمال لا يخلو من الاحتيال. عادوا إلى فرنسا بعد أن وافت المنية الأخ الأكبر للسيدة جاندر وهو جنرال "سوميرفيل" ومنذ ذلك الحين و"أورور" تعيش معهم. كان عمرها حوالي ثلاثة عشر عاماً حين رآها للمرة الأولى، فتاةٌ رقيقةٌ وضعيفةٌ و ملفتةٌ للنظر بشكلها الآسيوي وشعرها الطويل الحريري الأسود وعينيها اللوزيتين.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

حسب رواية والده فهي ذات عرقٍ أوروبي آسيوي حيث ربطت والدها علاقةٌ غير شرعية مع امرأة "هندية صينية" حين أمضى زمناً في هانوي. بيد أن والدته كانت تعتبر هذا الكلام هراء فالسيد سوميرفيل تبنى هذه الفتاة واصطحبها إلى فرنسا عندما تقاعد. لم يبقَ من أثر جنرال أدهيمار وسوميرفيل سوى القطعة النحاسية التي رُسم عليها حروف اسمه والبطاقة المشبوكة على صندوق رسائل عائلة جاندر،لا يعلم إلا الله لم لا تتلقى "أورور" رسائلاً أبداً. نال اسم "أورور" إعجاب جان وخاصة أن معناه "فجر"، إنه اسم بسيط لكنه غريب وباعثٌ على الأحلام. لذلك قرر في أحد الأيام و هو في عمر الحادية عشر أن ينزع البطاقة عن صندوق الرسائل ويدسّها بين أغراضه المدرسية ليرافقه اسم "أورور". على ما يبدو كانت عائلة جاندر تحتفظ بالكثير من البطاقات لأنهم عوضوا البطاقة المفقودة بأخرى للتو على صندوق الرسائل القديم المخلوع.

تستقبله العمة كاترين بنفس الطقوس دائماً تفتح الباب دون أن تتفوه بأي كلمة ثم تعود إلى مطبخها لتراقب طهي "الخبز الضائع" أما هو فيبقى واقفاً في عتمة الممر يمسك بيده الكيس الورقي الذي وضعت فيه والدته ما حضرت للسيدة العجوز من فاكهة ورزٍ بالطماطم، يحمل إليها في بعض الأحيان حساءً مسكوباً في وعاء ذي غطاءٍ يعود للفترة التي كانت فيها والده جندياً في ماليزيا.

تعود العمة كاترين بعد ذلك إليه ويداها ممدودتان إلى الأمام حتى تلمسه، تمرر كفيها ببطء على وجهه و ترسم بأناملها خط الجبين والحواجب والعينين ثم أرنبة أنفه وشفاهه لتحطّ على ذقنه. بالكاد تداعب يداها النحيفتان الجافتان والخفيفتان وجهه حتى تسري في جسده رعشةٌ، ثم تفتح كفيها نحو الأعلى ليدسَّ يديه بينهما دون أن ينطقا بكلمة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يخفق قلبه بشدة في كل مرة وكذلك السيدة العجوز، لتمضي لحظة طويلة وصامتةُ وشجية تلحقها العمة كاترين بضحكة تكفي لترمي كل ذلك في جعبة الدعابة، ثم تقول: حسناً جان، مضى وقتٌ وأنا انتظرك، هيا سيضيع حقاً "الخبز الضائع".

تضع قطعتين من الخبز المذهب في طبقه بينما يجلس هو على مقعد أعرج ثم تقول له: خذ، تناوله ساخناً وإلا سيقسو. تبقى واقفةً قرب المائدة دون أن تتناول شيئاً كأنها تراقبه وما إن ينتهي حتى تضع طبقه في حوض المطبخ وتفتح الصنبور حتى يغمره الماء. تصطحبه إلى الغرفة الكبيرة فيجلس على الكنبة أما هي فتجلس على كرسيها ذي الذراعين وتدير ظهرها للنافذة فالنور يلقي في نفسها الخوف. "حسناً، دعنا نتحدث قليلاً؟ ماذا فعلت منذ تركتني البارحة؟. يبحث جان عما هو طريفٌ ليرويه لها لكنها دائماً أكثر نشاطاً: "لا تعلم ماذا سمعت في المذياع؟".

تبدأ بالكلام عن الأخبار والسياسية وما تجده رديئاً وعن وضع "موريس" وحزب "غايتان دوفال" الذي لا تؤمن به والقلق الذي يساورها بسبب الاستقلال، معقبةً: "لا مستقبل ترجوه هذه الجزيرة فقد ولّى زمن المستعمرات".

تنقل لمسامعه ثرثرة الشوارع التي تصعد إليها طابقاً طابقاً، تشتكي من جارها كانديلا السكير الذي يعمل جابياً. يختنق صوتها غضباً حين تأتي على ذكر عائلة جاندر والصغيرة أورور: "لا بد أن يأتي يومٌ ويقيمون فيه وزناً للطريقة التي يعاملونها بها وكل ما ألحقوا بها من أذى فقط لأنها لا تقوى على الدفاع عن نفسها. لابد أن يذكروا كل المال الذي سرقوه منها والآن يريدون رميها في دار للمعاقين!». لم يكن جان يصغي إليها فذهنه شاردٌ في هذه الغرفة ذات السقف المنحني حيث حطّ الزمن رحاله، كمدٍ قد انحسر مخلفاً في الزوايا الحثالة والأشياء الميتة، ذكريات

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

روزيليس والزينة البالية القيّمة من الهند بالإضافة للألبومات المصفرَّة واللوحات التي تنوء تحت الغبار الأسود ناهيك عن تلك الكتب التي لا نفع لها.

كانت كاترين تتحدث في كل مرة عن الحيوانات التي لها عميق الأثر في قلبها رغم أنها وبعد أن فقدت بصرها لم تعد تعتني بأيٍ منها، لكنها تكنُ شفقةً لأولئك القطط والكلاب المسروقة والتي تباع من جديد لتشرَّح في مختبرات الصيدلة. تعيد على مسامعه ما رواه لها أحد الرجال البيض في موريس لعله قريبٌ من قردة غابة شاماريل الذين تتم تربيتهم في أقفاص ليتم بيعهم للمخابر الأميركية والأسترالية. ثم يعقب ذلك سؤالها: "هل تعرف لماذا يكثر الطلب على هذه القردة؟"

لأن موريس جزيرة و المخبريون على ثقة بوجود عيناتٍ تحمي من كل الأمراض. كانت تحتدّ لدرجة أن تنسى أنها ضريرة فتبعثر رزم الأوراق التي سلمها إياه الساعي لتقول: "أترى هذا الحيوان المسكين، زرعوا في طحاله أنبوباً ليسحبوا المادة الصفراء مباشرة والحيوان على قيد الحياة محتجزٌ في قفص، قوائمه مربوطة لئلا يؤتي بأي حركة حتى أنهم وضعوا الأغلال حول رقبته!"

يتجول بعينيه في هذه الرسومات الخرقاء وعلى الأوراق المطبوعة، وكاترين تمرر أصابعها الطويلة النحيلة على الرسم لتشير لهوله وتقول: "جان، أنت شاب عليك أن تمنع هذا، عليك رؤية هذا السيد في موريس، عليك أن تطلق حرية القردة، عدني بذلك".

يعدُها جان وقد غابت أحداقه في موجاتِ دمعٍ يدفعها عجز العمة كاترين. حان وقت الشاي الذي تقدمه له بإبريق صيني من بقايا زمن روزيليس، في سلّة من السوحر يغطيها الأطلس الأرجواني تقدمه إلى جان في مراسم تشبه "المارو" في الزمن الغابر.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يسكب جان الماء في الغلاية المحدبة ويضعها على الغاز القذر جداً حيث يفرقع الشحم، وعندما يصدر الصفير عن الغلاية يصرخ جان قائلاً:" ديلو يغلي " لتأتي كاترين وتسكب الماء المغلي في إبريق الشاي فوق عدة ملاعق من الشاي بنكهة الفانيلا. دائماً يكون الحليب على وشك أن يحمّض فليس لديها براداً، كما أنها تكره الحليب وكل مشتقاته. تشتم ما تبقى من حليب الأمس ثم ترميه في الحوض وهي تقول: أترى جان هذا هو الاشمئزاز بعينه "مشدّدة" على المقطع الأخير. عادةً ما كانت تستخدم حليب البودرة.

يفوق شاي العمة كاترين بنكهته كل ما تذوّق، رغم كل شيء فهو لذيذٌ بشكلٍ لا يوصف وناعمٌ ومعطّرٌ، أما الشاي عند "اليونور" فهو غثٌّ، وفي مقاهي مركز المدينة فهو كالبول. حقاً الشاي الذي تقدمه له قويٌ وناجعٌ يكاد يثمله. تحلّق به هذه الغرفة الخانقة على جنح الأحلام، فيسترخي متدثراً بنور شمس الخريف على الأريكة ويتصفح بعض المعاجم. تتوقف العمة كاترين عن الكلام وهي تحتسي الشاي في حين يتأمل جان خيالها في النور المعاكس، تعبث أشعة الشمس بشعرها حتى يلمع سواده محدداً خطوط وجهها ذي الوجنتين الناتئتين الآسيويتين. إنها الصورة التي يفضل أن يحتفظ بها، الصورة التي طالما عرفها، تلك السيدة العجوز النحيلة الجالسة منتصبة الكتفين بعكس النافذة، السيدة المتيقظة والصامتة بين النفخات الحلزونية التي يخطها بخار إبريق الشاي.

لقد تعلّم هنا، في هذه الغرفة، كل شيء عن موريس وعن "عائلة مارو" وعن منزل روزيليس.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لا تنضب ذكريات العمة كاترين. تبدأ بنفس الجملة في كل مرة يأتي لزيارتها: "بالماضي في روزيليس حين كنت بمثل عمرك..." لقد مضى زمنٌ طويلٌ على ذلك. كان يعاني جان بالحساب ترى هل مضى خمسون عاماً أم ستون عاماً. كان ذلك قبل أن تُدق طبول الحروب عندما كان العالم بريئاً. لم تبح بمكنون ذاكرتها سوى لجان، فهو الوحيد الذي تحدثه هكذا، تروي له عن "عائلة مارو" وعن أختها "ماتيلد" التي كانت تناديها "مود". لم تسرد يوماً لوالده هذه الحكايا رغم أنه ابن أخيها الحقيقي ولا لأي شخصٍ آخر، ربما لأنهم لا يفهمون ما تسرد أو لأنهم لا يستحقون عندها مشقة الكلام.

لا تعرفُ كنوزها حدوداً، لم تكن تقتصر على الكلمات بل الأشياء أيضاً. بقايا عظام، حصى وقطعاً مصقولة. تستخرج أشياءً من أعماق دروج غرفتها وتريه إياه الواحدة تلو الأخرى كما لو أنها مفاتيحٌ لألغاز الماضي. كثيراً ما تعثر على أشياء جميلة مثل كلب صغيرٍ من البرونز يعود لوالدها الذي كان يستخدمه كثقالة للورق، وحبةً من الهند ثقيلةً بسمرة النار محفورةً بدقة متناهية. كما وجدت ساعةَ يد لا تتحرك عقاربها ومحبرةً نقش عليها: "*إلى السيد شارل مارو. مع كل الامتنان سكان جزيرة "رينيون" ١٨٦٠*". عقَّبت كاترين بأن "الجد كان يعالج المرضى في مصح بوكان كانوت في "رينون" من الجدري، ثم في موريس إبان الاجتياح الكبير للوباء". منظاراً صغيراً يعود لجان أود مارو، أول من وطأ إيل دو فرانس من عائلة "مارو". تتحسس كاترين بأناملها كل هذه الأشياء ثم تضعها على الطاولة قرب إبريق الشاي. يأخذ جان وقته قبل أن يلامسها بخفة، الوقت الكافي لتداعبه الحرارة التي تبثها هذه الأسرار. وميضٌ وحرارةٌ تهبّان من الطرف الآخر للعالم الواقعي.

-: "لم يكن هناك ساعاتٌ في الماضي لنعرف بالضبط في أي ساعة نستيقظ صباحاً، لكنه كان باكراً جداً مع بزوغ الفجر ربما كانت

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الخامسة صباحاً، في روزبليس. لا شيء يسحب الفلاّحين من دفء فراشهم صباحاً لا إشارات ولا أجراس. كان الجد مارو يكره ذلك، بل يكره كل ما يوحي بزمن العبودية، الصافرات والسردارات[1] ورؤساء العمال والنداءات وبطاقات الهوية التي تحمل اسم كل عاملٍ هندي وصورته، كل هذا وليد اختراعات الإنكليز، يقول الجد دائماً: "أنا لست فاشياً".

أنا وأنت نشبه جدنا وكل عائلة "مارو"، لم يكن طويل القامة وإنما نحيلٌ، لا يبدو عليه المرح، رقبته طويلةٌ جداً وشديدة النحول كرقبة السلحفاة حتى أن الناس لقبوه "سلحوف"، طبعاً لم يكن على علمٍ بذلك. كنت أنا وأختي نذهب لرؤيته، يجلس دائماً في الزاوية ويتردد لزيارته أناسٌ من "بوباسات" ومن "روزهيل"، أشخاصٌ يسألونه النصح في أمرٍ ما وآخرون يطلبون أن يقرضهم المال، فقد ذاع صيت كرمه بينما كانت الجدة "ليز" تعاني الأمرّين وتقول أنهم سيبقون على الحصيرة، أترى، لم تكن مخطئة".

تلتقط أنفاسها للحظة ترشف فيها الشاي، تجنب جان أن يتناول قطعة من الحلوى القاسية التي تضعها العمة كاترين في طبق، لأنه يعرف كم هي بائتة فهي تضعها نفسها دائماً، ويبدو أنها هي أيضاً لا تتناولها.

تتابع:- "يلامس الجد شارل وجداننا فهو طاعنٌ بالسن تعرّف على جدّه الذي جاء إلى موريس زمن الثورة، أتعرف يصعب عليّ تصديق ذلك رغم ما مرّ عليه من زمن. كان يكلمنا بصيغة احترام وكأنه من الواجب احترام الأطفال فيما مضى. كانت أختي مود تختبئ خلف ظهري يأسرها الخجل، كثيراً ما اعتقد الناس أنها تصغرني بأربع سنواتٍ على الأقل لأنها قصيرة القامة في حين كنّا مثل التوأمين لا أكبرها إلا بسنةٍ واحدة. هل أخبرتك أننا ولدنا في ليلةٍ عاصفةٍ في نيسان؟".

---

(1) – سردار: ضابطٌ كبير في تركيا قديماً.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يحب جان أن يمسك محبرة شارل مارو المصنوعة من البرونز ويتخيل أنه كان يغمر فيها ريشته ليحرر رسائلاً لأصدقائه أو ليرسم مخططاتٍ لمنشرة "إيبين" التي كانت تعمل بمياه نهر "كاسكاد" قبل سقوط روزيليس. يتأمل كل علامة، كل بقعة حبرٍ والأحرف المحفورة على القاعدة "إلى السيد شارل مارو" ويفكر فيما كانت تروي له العمة كاترين عن نهاية وباء ١٨٥٩ حين رموا الموتى في خنادق كبيرة مليئةً بالكلس والأغصان. يتخيل الرعب السائد مع حصار الجيش الإنكليزي لحارات ذوي العرق الأسود والهنود في "بلين فيرت" ووادي "بيتوت".

التقى شارل بليز لوران خلال رحلته إلى "رينيون" أما هي فقد جاءت من فرنسا برفقة والدها، ثم عقد قرانهما بعد مضي عامٍ. كان عمرها سبعة عشر عاماً، لُقبت "أرازنو" لأن أصولها تمتد إلى تلك القرية في بريطانيا.

يا لذاكرة كاترين الضاربة بالعمق! بمقدورها التحدث لساعاتٍ طوال دون توقفٍ تقريباً وبصوتٍ ناعمٍ جداً لكأنها تكلّم نفسها وتبدأ بعبارة: "في الماضي أيام روزيليس..." يداها متكئتان على ركبتيها وظهرها شديد الاستقامة، ورأسها مائلٌ لليسار قليلاً ككل من يحيا بالخيال. تمتلئ الغرفة ذات السقف المنحني بالأصوات والألوان والحركات. تتابع: "كانت حديقتنا كبيرة، قد يقال اليوم أنها بستان، لكنها كانت بالنسبة لنا تضاهي الكون بحجمها، تبدأ من واد نهر "بلين ويلهيلمس" شمالاً حتى "إيبين" جنوباً، والشلال كان قريباً لدرجة أن خريره يصلنا على جنح الريح. على مد البصر تنبسط حقول القصب تفلت من "إيبين" وتنطلق لتعانق الأفق فلا تلوح بينها سوى المداخن البعيدة كالمنارات، مينيسي وفاليتا وسان جان وباغاتيل...

بعد زوبعة عام ٩٢، زرع والدي ممرات من النخيل تمتد حتى الوديان. يستكشف الأطفال كل عامٍ المناطق الأكثر بعداً نحو الشمال

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

قليلاً ولكن لم يجرؤ أحدٌ البتة على تخطّي ذاك المكان الذي كان يسمى "آخر العالم" حيث تلتقي الأنهار والشلالات في الغابة.

يخيّم الهدوء في أمسيات الصيف فلا يرتعش إلا بالضجيج الصادر عن القطار الذي يصفر لدى تسلقه منحدر "موكا" ثم يطلق صفارته في الفضاء ليعلن وصوله إلى محطة "ريدوي". ما إن نسمع أنا ومود صفيره حتى نركض على طول ممرات النخيل بانتظار الصبية المرغين بالغبار بعد أن ساروا طويلاً على الطرقات. يتوافدون الواحد تلو الآخر من كبيرهم حتى صغيرهم "هيري" وهو جدك يا جان ثم جيلداس وسيمون الذي يجر قدميه، أرهقهم ثقل الحقيبة وحَرّ الطريق. أما نحن الفتيات فكنّا نستمتع بالاختباء خلف الأدغال الصغيرة ورميهم بالحصى وتقليد نقنقة الدواجن. كانت مود تخاف إخوتها وتختبئ خلف ظهري، أما الصبية فكانوا يعلمون بوجودنا هنا ويرموننا هم أيضاً بالحصى والحبوب وينهالون علينا بالشتائم، كانوا يتشاجرون كالطيور الغاضبة.

لم تنسَ كاترين لغة المستعمرات، تتهافت تلك الكلمات بسلاسةٍ لتمتزج "بالخبر الضائع" ورائحة الشاي مع الفانيلا وأنغام تلك المفردات التي توقظ في جان ذكريات بعيدة، ذكريات طفولته عندما كان يأتي إلى "لاكتافيفا" مع والدته وتغنّي له العمة كاترين أغنياتٍ طفولية عذبة وتقول له بعض الأحجية. لم يكن جان يعرف جدته فلعلّ العمة كاترين حلّت محلها، مضى وقتٌ طويلٌ بيد أن الغرفة الخانقة على حالها لم تتغير، بفيء السقف نفسه ونفس لغة المستعمرات التي حلقت به إلى أطراف روزيليس كما لو أنه عاش هناك وأن حياته اليوم عبورٌ سريعٌ ليعود بعدها لأحضان روزيليس.

كان الجميع يظن أنها شريرة، حتى أن "شارون" والدة جان تذكر أنها ارتجفت أمامها حين قدّمها "رايموند مارو" إليها للمرة الأولى. في تلك الأيام، كانت كاترين تعيش في الطابق الأرضي في فيلا "جوانفيل" مع

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

"ماتيلد" أختها وبضع قططٍ مشردة وكلب أختها. لم يكن جان شارل مارو قد فارق الحياة لكن مصيبة الإفلاس أقعدته فما عاد يغادر غرفته وأحاطته ابنتاه برعايتهما.

رأت شارون كاترين لأول مرة وبدت لها كئيبة وصارمة، طيفاً بعينين رماديتين كالفولاذ. حدّقت كاترين بالشابة حتى اعتلت الحمرة وجنتيها ثم قبّلتها لترى بأيِ حالٍ هي، خاطبتها برقةٍ بل لاطفتها وكانت تلك المرة الأولى التي يسمع فيها والد جان كاترين تقول "هل تعرفين أنك امرأةٌ فاتنة!"، ثم استمر الحوار طويلاً، أخبرها "رايموند" عن عزمه بزرع شجر المطاط في ماليزيا وأنه سيطلب تقاعده باكراً ليبقى لديه متسعٌ من الوقت ولم تكن العمة كاترين تجبه إلا "*ومن ثم*" كلمةً قالت بها كل شيء، كل ذلك في جعبة الماضي.

لم يكن جان يخاف العمة كاترين. توطدت بينهما ومنذ البدء أواصر ثقة لم ينقضها شيء، لم يكن يطلب شيئاً ولم تكن بدورها تنتظر شيئاً، إنها المرة الأولى في حياة كاترين التي لا تربطها أي نوعٍ من المسؤولية بشخصٍ ما ولا يعلق عليها أي أملٍ بشكلٍ مباشر.

عندما فقدت بصرها، لم تتخذ من الضَّرارة ذريعة لتمارس ضغطاً على كائنٌ من كان حتى أنها رفضت عرض ابن أخيها بالدخول لمأوى تحظى فيه برعايةٍ يومية، بل أنكرت أنها ضريرةٌ لتكرر دائماً: "نظري ضعيف هذا كل ما في الأمر". متذرعةً بأنها ترى نور الصباح وبوسعها أن تميز بعض الخيالات. تخرج بين الفينة والأخرى بأوائل الصباح حين تكون الشوارع مقفرة، ممسكةً بعصا طويلة من الخيزران التي تشبه عصا الراعية تتجسس بواسطتها الجدران وأطراف الأرصفة. تحاذي السكة الحديدية حتى الجسر، تدخل إلى المحلات التي تستدل عليها بعدد الخطوات لتشتري بضعة أغراضٍ تافهة، أوراقاً وحبالاً وخيوط،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أشياء لن تستخدمها أبداً. أحياناً ترافقها "أورور" حين تأخذ الإذن من السيدة جاندر فتمسك بيدها وتساعدها على شراء حاجياتها. لم تقبل أبداً أن يعتني جان بها، لا ترغب بأن يكنّ لها شعوراً بالشفقة. أرادت أن تبقى فترات بعد الظهيرة لتناول وجبةٍ خفيفة والحديث معه بمطلق الحرية كما لو أنه يجتمع بأصدقاءٍ حميمين، واستمالت جان فكرة أن تعامله سيدةٌ بمثل هذا العمر كندٍ لها.

قلّما أتت العمة كاترين على ذكر أواصر القربى التي تجمعهما. لعل الفائدة الوحيدة التي جنتها من الضّرارة هو نسيانها لفارق العمر، فلا تقيم وزناً لفكرة أن جان هو ابن ابن أخيها وأن هاويةً ضاربةً بالعمق من السنين تفصل بينهما بالحقيقة.

تستحضر أحاسيس الطفولة مغمضة العينين وتسرد وحدها وببطء وبصوتٍ واضح يذهل جان كما لو أن هذه الشقة، بعيدةٌ جداً لا تتوسط هذه المدينة الشريرة اللامبالية، تنبثق من أعماق هذا الغلاف لامرأة هرمة منهكة ببشرتها المجعدة غيمةٌ رطبة ببخارٍ لطيفٍ خفي لكنه طريف لتتجلى الروح البريئة لتلك الفتاة الصغيرة التي تركض حافية الأقدام في حديقة روزيليس مع أختها ماتيلد و هما يلحقا بطيور المازور.

"يستحيل عليك أن تتخيل كم كان عدد الطيور هناك في "إيبين"... طيورٌ لا تتوقف عن الزقزقة، طيورٌ جميلةٌ مغرورةٌ وأخرى صغيرة صفراء اللون، عصافير البنغال والكردينال حمراء اللون وهناك طيورٌ لها قُنبرة، كنا نسميها "الكوندي". تلحقنا حيثما ذهبنا تنتقل من غصنٍ لآخر وتتسلى بأن تتحدانا، تسخر من القطط. كم كنت أكره القططَ إنها بالنسبة لي عدواً لدوداً، يصعب عليك أن تصدق ذلك الآن ولكن في روزيليس لم يكن هناك قطط فوالدتي تعاني من الربو وكل قطط الجيران تلهث خلف الطيور... كنت أعرف كل أنواع الطيور حتى أنني كنت أقلّد غناءها وهي تجيبني.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أمام منزلنا شجرةُ تمرٍ هندي، كان يحطُ على أغصانها طير كاردينال سمينٌ أحمرُ اللون بوجهٍ أسود ويصدح برولاد[1] بمنتهى النعومة "توير.. توير.. " ثم بالكاد يفتح منقاره مصدراً نوعاً من النداء الحاد "فويت.. فويت.. فيوتي" فأرد عليه، إلا أنه كان ينشدُ لوالدي الذي كان يعبر الدرب حتى المضاءة لدى عودته من المدينة مساءً، وفي قبضته حفنةٌ من حبوب الذرة البيضاء أو بعضاً من المعجنات بالجوافة وينتظر باسطاً يده دون حراك حتى يأتي طير "الكاردينال" بهدوءٍ يحجل من غصن لآخر ويحط على يده لينقر الطعام، أظن أن عيناي لم ترَ قط أجمل من هذا: "يحط هذا الطير الصغير أحمر اللون على يد والدي القوي طويل القامة وهو ينقر الطعام".

يتبادر لذهن جان أنهما تبادلا الأرواح، فصوتها المفعم بالشباب والمرح يأسره بإحساس عجوزٍ منهك القوى بعد أن سلبت لبّه تلك المدينة بزوبعةٍ من السيارات والأبواق تمتزج بصرير القطار في المحطة.

تتضافر هذه الحقيقة العنيفة والمرعبة مع صوت السيد جاندر الذي يوبخ "أورور" وعقوبات المدرسة، ليزيد حلول حر الصيف الشديد من وطأة كل هذه الأعباء التي تحول بينه وبين الحلم والتحرك لا بل ترديه مغلوباً على أمره، كان يأتي غالباً لزيارة العمة كاترين، يصغي إليها وهي تروي له حكاياتها الطريفة والخفيفة بصوتها الطفولي وتلك النبرة الغنائية التي تحطُ به أخيراً في عالم روزيليس هرباً من هنا.

جان مستعدٌ ليقدم كل ما يملك مقابل ساعة واحدةٍ يعيشها في روزيليس، هارباً من مستقبلٍ يبتلعه كحفرة، ذاك المستقبل الذي يرغمه على النمو، على أن يصبح شخصاً ما، شخصاً ناجحاً، لأن يصبح رجلاً.

إذاً وبعد كل شيء، فكل ما ترويه العمة كاترين كان موجوداً، بل حقيقياً أكثر من الواقع، تضيء فيه ماهية الخلود، ترانيم العصافير،

---

(1) – رولاد: تعاقب نغماتٍ سريع في مقطع واحد.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الحديقة التي تمتد إلى اللانهاية لتلامس أطراف الكون حيث تركض حافية الأقدام مع ماتيلد، الوادي الذي يعانق جدول "أفوش"، الأزهار التي تقطر ندىً في الشفاه، حتى الليل بنسماته التي يتمايل الحرير بأحضانها طرباً بنقيق الضفادع وطنين البعوض.

بدأت كاترين بالقول: "فيما مضى في روزيليس... "

"كانت طيور "الترغلة" توقظني أنا وأختي كل صباح. لم يكن النهار قد لاح بعد إلا أنها تستيقظ وتأتي بهدوء، تتحرك إحداها قرب النافذة. نبقى أنا ومود في الفراش دون حراك ونراقب حركاتها. كانت الطيور تحرك أجنحتها وتهزها. تطلق إحداها صرخةً صغيرةً "أورو.. أورو" فتجيب الأخرى مختبئةً في مكان ما في الظل "أورو.. وو" ثم أخرى وأخرى، جميعهم بالقرب منا عند النافذة، قريبة لدرجة أنني أخالها على وجنتي بل كنت أشعر بحرارة ريشها، يصرخ طير الترغل بصوتٍ ناعمٍ وقوي جداً، فجأة تبدأ الطيور جميعها بالصراخ بنفس الوقت مصدرة صوتاً كالمحرك يعلو وينخفض مع خفقان أجنحتها التي تطرد الليل بصخبٍ كالعاصفة لا بل كالرياح".

يراود جان شعورٌ بأن العمة كاترين تطوف في الهواء الرمادي لغرفتها على بساط ذاكرتها وهي جالسةٌ على كرسيها مستقيمة الظهر ورأسها منحنٍ إلى الجانب قليلاً.

"إنها الموسيقى التي أحب، لكأنها تطرق مسامعي الآن. أراقب النافذة المفتوحة من سريري والناموسية التي تتمايل بين أنامل الريح. تعود مود للنوم رغم ما تصدر طيور الترغل من صخب، ما إن أمسك بيدها حتى ينهزم خوفها، فهي موسيقا سماوية، مواءٌ مستمر يقطعه بين الفينة والأخرى صرخةٌ صغيرةٌ كالأنين، تلك الطيور صغيرةٌ وبريئة إنها تخاف يوماً جديداً، مثل أختي مود، وتفرح بالإحساس الذي تنثره الشمس. بعد

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

برهة، ستذهب لتحلق أعالي الشجر، تطقطق بأجنحتها فوق سطوح المنازل. ستلاقي حقول القصب وتلقي التحية على الأنهار المنسكبة في الوديان حول روزيليس، ما اسم كل تلك الأنهار المحيطة بروزيليس، نهر سيش وكاسكاد وفوكلوز وكاميسنيل ونهر إيبين وتاتاماكا وماغرابول وفاليتا وسيحات وماغاندو وبومباي.. " تذكر هذه الأسماء كما لو أنها الأسماء الأكثر أهمية في العالم على الإطلاق، كما لو أنها تحلّق مع تلك الطيور فوق الأنهار والسواقي، فوق رداء حقول القصب الأخضر. تتأمل كل أكمةٍ وكل دربٍ مضرجٍ باللون الأحمر وكل مدخنة. إنها أسماءٌ يعرفها جان تماماً، هي الأسماء التي رافقته منذ ولادته. "

أرخى الليل سدوله لكن العمة كاترين لم تعره انتباهاً، وجان لم يجرؤ أن يضغط على المحول الكهربائي. ومن جهة أخرى، فقد أُتلفت جميع المصابيح وما من أحد ليبدلها.

إنه الصيف وللنهار أذرعٌ طويلة حتى لليل عُتمة خجولة. يبعثر غروب الشمس أشعته الذهبية على جدران الغرفة، ثم يحلُ محلّها وميضٌ وردي اللون يتسلَّل حزيناً من النوافذ. لم تكن هناك مصابيح كهربائية أيام روزيليس، لعلَّ بوسعنا الاستغناء عنها. فكّر جان، أنه يكفي إشعال "ضوء غاز" في قاعة الطعام الكبيرة لتنجذب إليها النملات الطائرات وتلاقي حتفها بنيرانها وهذا كل شيء.

على جان الآن أن يرغم نفسه على الحياة مثل العمة كاترين. لم يدر زر الإنارة في غرفته عندما عاد إلى منزل والديه، سار في الشقة دون نورٍ يتحدى العتمة التي يحاول هزيمتها باستحضار أماكن الفرش والأبواب.

في إحدى الليالي، التقى بوالده في الممر قرب المرحاض، فأشعل حزمة مصباحه وسأله: "ماذا تفعل في هذه العتمة؟"

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بقي جان جامداً يرفرف بعينيه المنبهرتين بالنور.

-:"هل تسير وأنت نائم؟"

عاد جان غاضباً إلى النوم.. لابد أن والده قد روى الأمر لوالدته "شارون" فقد تحدثت معه في اليوم التالي بصوتٍ يشوبه القلق:

"هل تسير وأنت نائم منذ وقتٍ طويل".

رفع جان كتفيه: "لا أدري، نعم، أظن ذلك، أظن منذ وقتٍ طويل.

- هل تتذكر ما تفعل؟ أتذكر إن كنت تخرج دون أن نعرف؟

أجاب جان: - كلا، إنني لا أخرج. إنني أقوم بجولةٍ في الممر عندما يجافي النوم أحداقي هذا كل ما في الأمر.

- ولِمَ لا تدير النور، لقد أدخلت الخوف لقلوبنا.

- كل ما في الأمر أنني أتدرب.

لم يعد والد جان يتمالك أعصابه منذ الحادث الذي أصابه، جعله الفراغ قلقاً وشرساً. بالوقت نفسه فإن جان يكنُ كل الاحترام لهذا الرجل وللمغامرات التي عاشها في غابة ماليزيا والحياة الجديدة التي أرادها له ولزوجته في "إيبو" وحتى الفشل الذي لحق به وكل ما يتكتم عن ذكره.

يوماً ما، قرر جان تغيير قواعد خبرته،وهو في طريقه إلى المدرسة، سيرغم نفسه على إغماض عينيه. حتى أنه ألصق عينيه في أحد الأيام بلاصقٍ، وسار بالشارع بخطىً مدروسة، أمسك بكتبه بيده اليسرى وألصقها على وركه ومدّ ذراعه الأيمن إلى الأمام. كان يعرف عن ظهر قلب كل العقبات في طريقه وكذلك أعمدة المصابيح واللافتات. يبتعد عن بسطات المحال التجارية وعن الدراجات والنارية منها على الرصيف.

تقع المدرسة على بعد سبعة مفارق طرق عن شارع بيري بعضها خطيرٌ بل قاتل. لم يطرح أن يسأل العون من كائنٌ من كان فالعمة كاترين

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لا تطلب شيئاً من أحد. عليه أن ينتظر على ممر المشاة ويصيخ السمع فما إن تتوقف الضوضاء الصادرة عن السيارات للحظة وقبل أن يقلع خرير المحركات في الشارع المقابل حتى رمى بنفسه لعبور الشارع دون تردد كما لو أنه يسير بعينين مفتوحتين.

انضم مارسيال لرفقته على طريق المدرسة كالعادة، سأله: "ماذا جرى لعينيك؟" فأوجز جان بالإجابة: "لا شيء مجرد خبرة". سار مارسيال بجانبه إلى أن صرفه جان بفظاظة قائلاً: "اسمع إنك تزعجني". فعقَّب مارسيال: "إنك مجنون، ستدهس نفسك". اكتشف جان خلال درس التاريخ، حين تابعه مغمض العينين بأن تركيزه تضاعف لعشرات المرات في العتمة. تمكّن من رصد كل كلمة يلفظها الأستاذ لا بل تكوّن لديه انطباعٌ بأن نهاية كل جملة تتشكل وتنبثق منبسطةً لتعزف داخله أنغاماً كالموسيقى تنقش في أعماق ذاكرته. تمكن من تكرار كل ما قال المعلم مع نهاية الدرس، حتى ضجيج الشارع وطقطقة كراسي زملائه، لكن الأمر كان شاقاً.

ذاع صيت تجربته وعمّ الضحك بين رفاق صفّه. وضعت أمانة سر مدير الثانوية نهايةً لتجربته بقولها: "سيد جان مارو، تصرفاتك غبيةٌ ومجردةٌ من التفكير ليس هذا فحسب بل إنها تحرّض في الصف أسباب للتسلية نحن بغنى عنها".

خُفف الطرد الذي قُرّر بحقه إلى مجرد تنبيه بعد مجيء والدته للدفاع عن قصة ابنها، لم تضع والده بالصورة وقالت له: "لن تعود أبداً لمثل هذه الأفعال، أتفهم جان، لا تنسَ أن والدك مريضٌ جداً عليك أن تفكّر به ملياً".

أصيب والده "شارل مارو" بمرضٍ في القلب بعد المصيبة التي حلَّت به حيث عاد من ماليزيا إثر خسارته لكل ما يملك بسبب الحرب ضد الشيوعية الإرهابية، لكنه لم يحتمل الصدمة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

طالما استمع لهذه القصة شارد الذهن، فهي تفسّر كل شيء، نقص المال والهُزال الشديد بالإضافة لاصرار والده على التزام الصمت فضلاً عن ذاك الجدار الذي شُيّد حولهم فحاصرهم. في إحدى المرّات عبَّر عن وضع "الهند الصينية" أو "مدغشقر" بالقول: "يندى جبين تاريخنا عاراً جرّاء حقبة الاستعمار". هذا كل ما سمعه يقول. كانت عبارةً مترعةً بالقوة لفظها ضابطٌ قديم بالجيش البريطاني.

اقتصرت تجربة جان منذ ذلك اليوم على تمارين بعيدة عن المراقبة في غرفته أو في بيت الدرج البناء. في تلك الفترة أيضاً رسم مخططات آلة، خلية كهرضوئية يتم إرسال رسائلها عبر الالتحام بحزم الأعصاب العينية. داعبه حلم أن يطبق هذه الآلة على العمة كاترين حيث سيعلق تلك العين الخارقة وسط جبينها عبر قبعة عندها ستقترب ببطء نحو نوافذ الصالون لتظل للحظة طويلة دون حراك يديها متباعدتان أمام النافذة ثم فجأةً ستصرخ بموجة سعادةٍ يداعبها الصبا: "فليبارك الرب! إنني أرى! إنني أرى! إنني أرى مربعات الضوء، أرى كل شيء الشمس والسماء والمنازل.."

لعل تلك الكلمات ستكون كلماته الخاصة، إلا أنه على ثقة من عبارة "فليبارك الرب!" كما كان يعلم أن عليه التأكد من الوصلات وتحديثها ومضاعفة المستقبلات، ومن المفترض أن يخصص لوناً من ألوان الطيف لكلٍ منها حتى تبرز الأشكال البشرية والوجوه كضبابٍ منير لكأنها ترى من خلف زجاجٍ مقطورةٍ يلفها البخار. ترى هل تعود تلك الأيام الخوالي في روزيليس، ويعيد البصر إليها الحياة من جديد.

تبدو "أورو" امرأةً ناضجةً قد كابدت حياةً ممتعةً ومرعبةً مع أنها لا تكبره إلا بعامين لعل هجرانها المطلق لعالم الطفولة هو السبب.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يكتنف هذه الفتاة سرٌ دفينٌ، علم جان بذلك ما إن وطأ "لاكاتافيفا" حيث روى والده بأنها ولدت في هانوي من أمٍ مجهولة، وقبل الكارثة بعدة سنوات، اصطحبها جنرال "سوميرفيل" إلى هنا على أنها ابنته بالتبني، بيد أن الجميع كان يظن أن هذه الفتاة الصمّاء والبكماء هي ابنته الحقيقية.

جاءت أخته لتستقر في منزله بعد وفاته، مع السيد جاندر وبقيت "أورور" عندهم لتفوق حكايتها قصة سندريلا حسب ما يروي والده، فهي بالنسبة لأولئك الأشخاص المرعبين مجرد خادمة يعاملونها بسوءٍ ويستغلون عجزها عن الشكوى. ما أرسلوها قط إلى المدرسة ولم تكن تطأ عتبة المنزل إلاّ لمرافقة "كاترين مارو" في شراء حاجياتها أو لتؤدي بعض الخدمات مقابل حفنةً من المال. تعيش فتاةٌ همجيةٌ صافنة بنظراتٍ هاربة كالحيوان المطارد سجينةً في شقة كبيرة. يكمن اللغز فيما يحصل هناك من رعب، لم يكن يعرف لكنه يتوقع أنها تكابد شراً وذعراً.

وقف جان في أحد الأيام بجانبها في بيت درَج الطابَق الخامس ففوجئ أنها قصيرة القامة فهو أطول منها ببضعة سنتيمترات إلا أن أسلوبها بالتعامل ونظراتها الهاربة توحي بأنها راشدة.

في الماضي قبل أن يتغمد الله الجنرال برحمته، يذكر أنه قابلها إلا أنه لا يذكر متى وقع بحبها، لطالما رأى فيها شابةً صامتةً ومتوحشة. يحمل لها في ذاكرته ذكرىً ضبابية لفتاةٍ صغيرة نحيلة بضفائر جميلة، ترتدي فستاناً ذا صدار، تنتقل كفأرةٍ رمادية بين الراشدين عند عتبة الشقة. ثم مرّت سنونٌ حتى قابلها مجدداً أثناء تردده الدائم لزيارة العمة كاترين.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أحياناً كانت تقف عند بيت الدرج وترمقه بنظرةٍ بعيدة متدثرةً بعتمة الممر تهمس محركةً يديها، فلم تكن أنيسةً جداً. ألقت في قلبه ظلال خوفٍ لكنها جذبته بوجهها وغرابتها. اعتاد عليها فبدأ يوجّه لها بضع كلماتٍ تقرؤها بشفاهه لكنه لم يكن واثقاً من أنها فهمت شيئاً.

المرة الوحيدة التي اقتربت بالفعل نحوه كانت مطأطأة الرأس بعض الشيء ويديها كقوقعة أمام بطنها وعندما فتحتهما لمح كرةً صفراء ذات زغب، آه إنه صوصٌ صغير، قدمه لها بعيد الفصح أحد الفلاحين الجالسين تحت دعائم جسر السكة الحديدية لبيع الخضار والبيض والأرانب الحية.

إنها المرة الأولى التي يراها تشعُ فرحاً ويخترق وجهها الحزين ابتسامةٌ فاتنة. يقف الصوص بين يديها يزقزق بمنقاره الصغير صرخاتٍ لطيفة. حاولت أن تكلمه فتحت ثغرها ونفخت الهواء كفحيح أفعى لا كزقزقة عصفور، إلا أن هذا الصوت كان له عميق الأثر في نفس جان.

لم يقبل جان أبداً أن يقال أنها "غير طبيعية"، فهي بالحقيقة لم تكن فتاةً غير طبيعية وإنما ساذجة، ربما فيها مسٌ من جنون ومعاقةٌ قليلاً.

استشاط غضباً، ذاك اليوم، حين سمع والديه يتحدثون بهذا المعنى ملقين اللوم على عائلة "جاندر" وما تكابده عندهم، لم يرموها بسوء ولكن بشفقةٍ لاذعة، لم يتمالك أعصابه وصرخ "هذا غير صحيح! هذا غير صحيح! كفا عن الكذب" والدموع تغمر صوته فتوقفا حالاً عن الكلام. دخلت فيما بعد والدته إلى غرفته واعتذرت منه، فأصابه بعضٌ من الحياء من أجلها.

وجه "أورور" دائري كالقلب يخطه فمٌ جميلٌ بشفاه حمراوين مزينٌ بوجنتين بارزتين إلا أن ما سلب لب جان هو تلك العينان كالعقيق

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الأسود، مقوّسة ومشدودة نحو الصدغين كما لو أن ريشةً قد رسمت خطوطها بأنامل سحرية لتنثر نظراتها اللامعة والغامضة التي تشبه العقيق فعلاً.

مرات تبدو وكأنها بحفلةٍ راقصة بفستانٍ أحمرٍ كالدم من فيتنام ووجه ملوّنٍ، ينساب شعرها كالشلال على كتفيها، وفي مرات أخرى تعود تلك الخادمة الرمادية، صغيرةً وهزيلة وكأن الحزن والتعب قد أوسعا بها ضرباً.

لم يكن جان يعي ما وراء هذا التغيير فتخيل أن هناك حفلاتٌ سريةً تبدو فيها "أورور" كالأميرة مثل ساندريلا، ثم تستسلم للأيام الطوال التي تمضي بتنفيذ المهام التي تلقيها الأم الشريرة على كاهلها.

عاش جان، منذ صدفة الصوص، بأمل لقاءٍ مفاجئ آخر في الطابق الخامس. ذات مرةٍ صادفها في شارع "رين جان" على مقربةٍ من جسر السكة الحديدية، لم تكن تشتري بعض الحاجيات، كانت تبدو غريبة الأطوار، مذعورة ومتشوقةً بآنٍ واحد. ما إن رأت جان حتى ابتسمت له لتطفئ ابتسامتها سحابة الدخان التي تلفُّ الشارع بصخب سياراته ودوي عربات القطار الذي عبر بهذه اللحظة. تنثر الشمس عليها نوراً فيضيء وجهها كالبدر بثوبها الأحمر القاني.

خفق قلبه مع خطواته نحوها، فأتت بحركةٍ غير معقولة، لقد قبلته! طبعت قبلةً لطيفةً على وجنته، شعر لبرهةٍ بجسدها قرب جسده وخصلات شعرها تداعب فمه،تفوح رائحة العشب. تعانق وجهيهما ليلعق عبق الأرز عن وجنتيها. بشرتها بنقاء الماء وحاجبيها مخطوطين تماماً تحيط خطوطٌ بشفتيها الحمراويين.

للحظةٍ وجيزة تأملها عن قرب، كما لو أنه ما رآها سابقاً، داعب أنفه شذى بشرتها وفستانها الحريري، وأُشبع بالرسم الكامل لجفنيها، بذاك

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الخط الضيق الذي يحيط عينيها فيرتمي في طي زاوية عينيها، فتنه سواد عينيها الحالك كالحبر حيث يرى صورته.

صنع بيديه شكل قوقعةٍ وهو يسألها: "كيف حال الصوص؟" فابتسمت وأشارت بيديها كأنها رمته. لم يفهم جان اعتقد أنه ضاع أو التهمته أحد القطط الشاردة التي تجذبها السيدة بيكوت بوجباتها.

بقيا ساكنين على حافة الطريق يتلاطمهما ضجيج السير والضوضاء التي لا تسمعها أورور. تلقي أشعة الشمس على شعرها وميضاً برّاقاً.

يلقي المارة نظرةً عابرةً على تلك الفتاة الغريبة التي ترتدي كدمية صينية وذاك الفتى إلى جانبها كأنهما بانتظار باص أو قطار أو الله أعلم ماذا يترقبان. جاء رجلٌ طويلُ القامة قويّ البنية ببزةٍ رمادية فاتحة. تعرَّف جان فطرياً أنه عسكري. اقترب من أورور، لم يكن يرى سوى أورور وبيده طاقةٌ من الزهر ثم حدجه بنظرةٍ ليرى من هذا الفتى الأخرق على ناصية الطريق. أمسك أورور بذراعها وابتعدا حتى ابتلعها الزحام. كصاعقةٍ أصابته شَعر بغصةٍ في قلبه وأدرك أنها أفلتت منه ورحلت مع هذا الرجل، ستغادر لاكاتافيغا، ستختفي إلى الأبد.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

سجنٌ حجري قذرٌ وغير مطلي، هذا حال مدرسة الصبية المحاطة بأشجار الكستناء العالية تضم باحةً من الاسفلت. أدرك حين وطأها للمرة الأولى أن حياته لن تعود أبداً كسابق عهدها قبل أعوامه الثمانية لدى عودته من ايبو في ماليزيا، فهنا تدور رحى حربٍ أو ما شابه.

يحمي تلاميذ الابتدائية رؤوسهم بين أكتافهم لدى عبورهم تلك الباحة مترامية الأطراف فهم عرضة لكل أنواع الخطر. يحتشد حوالي ألفي طالبٍ في الباحة أثناء استراحة الساعة العاشرة الطويلة، يتدفقون من كل الاتجاهات من صفوف الطابق الأرضي والبهو والمشاغل الغافية في القبو ومن قاعات الطوابق العليا، ويختلط الجميع بعضهم ببعض.

لم يكن النظام ليسود بهذا العدد من المدرسين وعلى كل حالٍ فهم لا يتقاضون أجراً يجعلهم يقحمون أنفسهم بمثل هذه المخاطر. يعرف التلاميذ الصغار أن عليهم أن يلتزموا المخرج المركزي حيث يتجول المدرسون، لم يكن كل الطلاب الأكبر سناً مفسدين ومشاغبين إلا أنهم غير آبهين لما يعانيه الأصغر سناً منهم، ربما لأنهم سبقوهم إلى تلك المرحلة، يتظاهرون بأنهم لم يروا شيئاً أو يسارعون بالابتعاد إذا ما اصطدم تلميذٌ صغير بفتىً بالرابعة عشر أو إذا ما ضرب رأسه بمفتاحٍ معلقٍ بالرقبة أحياناً، ينظرون بطرف أعينهم متابعين حوارهم وكأن ما يحدث يجري في كوكبٍ آخر لدى القردة والخنازير البرية.

تعلم جان أن الخطر ينبثق من جهة المرحاض، لا يُترك تلميذٌ صغير يغامر وحده هناك، عليه أن يتدبر أموره ليبول أثناء الدروس بشرط أن يسمح له المدرس أو عند الساعة التاسعة مع وجود عقوبة للتأخير أو أن ينتظر حتى انتهاء الدروس مجازفاً بموقفٍ يجعله عرضةً للسخرية.

المرحاض هو عبارة عن كهفٍ في طرف الباحة مجهزة بمراحيض على الطريقة التركية بأبواب صفاقة، الجدران مكسوة بخربشاتٍ ورسومات فاحشة والأرضية مغطاة بقذارةٍ منفرة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

في المرات الأولى التي دخل فيها جان إلى المرحاض تسمّر عند عتبة الباب بمنظرٍ فظيعٍ، حيث وضعت عظمةٌ تقطر دماً مكان اللمبة التي كُسرت منذ زمن طويل، وعلّقت بخيطٍ كأنها قضيبٌ منتصب. منذ ذلك الحين يتحاشى جان الدخول إلى هـذا المكان، يتماسك حتى درس الرياضة فالمرحاض هناك يُقفل بالمفتاح، لم يكن أكثر نظافة لكنه أكثر أماناً. البعض كان يقضي حاجته في مساكب الحديقة بعيداً عن مرأى الآخرين وكم مرة عُوقب البعض بأن يسجن في المدرسة يوم الأحد ولكن هذا أفضل عندما نكون صغاراً لا حول لنا ولا قوة من الدخول إلى المرحاض حيث يُشاع عن حوادث مرعبة، فقد يهاجمك بعض الفتية ليتفاخروا بقوتهم أو تتعرض لحادث استمناء أو أسوء من ذلك.

مدير الثانوية رجلٌ طويل القامة عصبي المزاج، يرتدي ملابس غريبة بيدٍ من الجلد تحمل اسماً يدب الرعب في القلوب "ماشيفر"، فرض في مؤسسته نظاماً عسكرياً. تُشيع الأقاويل أنه كان قائد سرية مشاة وأنه فقد ذراعه اليمنى لدى تفكيكه لغماً في "الهند الصينية". تروي مقولة أخرى أن الفيتناميين قد عرضوه للتعذيب بهرس ذراعه بطاحونة اللحم. إنه يخاطب التلاميذ بصيغة الاحترام ويناديهم بكلمة "السيد" ولدى سرده لإبلاغٍ ما يتهلله بكلمة: "أصدقائي الصغار..."، أما حين يثيرون غضبه يردد عبارة تعكس تجربته العسكرية: "إنكم أسوأ من الفيتنامين "يلفظها فيتامين"، فأنتم تضربون بعضكم بالظهر". "أنتم تؤتون بعضكم من أدباركم"

كانت والدة جان مؤمنةً فسجلت اسم ابنها في صف التعليم المسيحي، لكن كل شيء في المدرسة يسير بالخطى ذاتها، فما لبث جان أن روّعته كنيسة المدرسة الصغيرة. الأب كوتانسون الذي يردد القداس يهمل دروس الديانة، كان رجلاً قصير القامة وبدين ببشرة وردية وشعرٍ أشقر جعد وكان يعير الصبية الصغار اهتماماً خاصاً. مرّت السنون واعتاد جان على مقت التعاليم الدينية وخاصةً في كنيسة المدرسة، ففي كل مرة يصدر أحد الحمقى صوتاً ترافقه رائحةٌ مقززة في اللحظة الاحتفالية لرفع كؤوس القربان.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كثيراً ما استغل جان هذه الطقوس ليتوارى عن الأنظار هو ومارسيال وآخرون ليدخنوا في كراج الكنيسة، يخاطرون بأن يمسك بهم "ماشيفر" فمكتبه بالأعلى تماماً.

أكثر من يثير السخرية في الثانوية ودون منازع كان مدرس اللغة الفرنسية اسمه "ليزيور" ولقَّبه الطلاب "بلاسما" وهم يجهلون سبب هذا اللقب في الحقيقة، ذُهل جان بمقابلة رجلٍ بهذه الوضاعة فهو هدف الاستهزاء الأساسي لجيلٍ بعد جيل وتسبقه حكايا الشغب إلى الصف فتحكم عليه بالرضوخ.

يداعبه الوهم مع مطلع كل عام بأن شيئاً ما سيتغير لتغمره الفوضى ما إن يتفوه بكلمتين يتعالى صراخ التلاميذ ويبدأون بالغناء والصفير ويقرعون على طاولات الدراسة كالطبول. يحضر بعضهم قنابل وكريات من ورق أو علكة قديمة، وأحياناً يضع بضعة تلاميذ جانبهم بعد وجبة الغداء البطاطا المسلوقة لهذا الغرض. فما كان للمدرس سوى أن يخفض رأسه ويتحمل ما يتعرض له.

في أحد الأيام، دخل بلاسما إلى الصف كالمعتاد يعرجُ مرتدياً بزته الرمادية البالية مع ربطة عنقٍ لولبية، علّق قبعته وعصاه على المشجب. بدأ هذه المرة جان بالشغب أيضاً في موجةٍ من المتعة لا تقاوم يصرخ ويرمي أبشع الشتائم بأعلى صوته. كان يشعر بالأمواج التي تتلاطم على وجه المدرس العجوز المتورم فتغيره وتحفر أخاديداً حول فمه لترتعش ذقنه. تتطاير الكريات والقصاصات الورقية والقشور في أرجاء الصف وبلاسما يحتمي خلف مكتبِه باسطاً يديه على الطاولة، جامداً تلمع عيناه خلف زجاج نظارته وهو يتفحص تلك الوجوه الكريهة الواحدة تلو الأخرى وكأنه يلتقط لها صوراً.

ذاك اليوم، أدرك جان أنه لا ينتمي لهذا المكان مهما كان، لابد أن جذوره تمدد في مكانٍ آخر، لهذا قرر اختيار "روزيليس".

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

هناك سرٌ ما، جان واثقٌ من ذلك، لعل السر في اسم "لاكاتافيفا"، في تلك المقاطع الصوتية الغامضة التي تعلمها ما إن بدأ بالكلام حتى حملها معه إلى آخر العالم، إلى تلال ماليزيا. كم مرة روت والدته له أنه بدل أن يقول "بابا" و"ماما" كان يقول هذا الاسم فقط "لاكاتافيفا". كلما خطرت لها روتها له ليغرقا بموجة من الضحك. لاكاتافيفا! لو لم يكن هناك هذا الاسم، لما كان لديه سرٌ يلقي الرعشة في أعماقه ويأسره وميض سحره.

لماذا غادرت العمة كاترين "موريس" وجنة "إيبين" لتنتهي حياتها في هذه الشقة، في هذا الشارع، في هذه المدينة الفظة المسكونة بالبائسين؟

لم يكن هذا السؤال يعبر في ذهن جان بطريقة منطقية، فقد عانى من بقايا هذه القصة، كابد من المرارة التي تفيض بوالده حين يأتي على ذكر "روزيليس" والتاريخ الذي قُدِّر به يوم الرحيل عام ١٩١٠ والغضب الذي يتملكه ما إن يلفظ اسم "بَّابا"، ذاك المدير الذي هدد مراراً وتكراراً العمة كاترين بالطرد رافضاً أي تعويض.

المكائد التي قام بها هذا الرجل الجشع ليرغم العمة كاترين على الرحيل. كم وضع أمام باب منزلها حصىً وألواح خشبية قديمة وحتى أنه ذات يوم رمى حوض مرحاض ليرغم تلك المرأة الضريرة على الذهاب إلى المستشفى، تمتزج كل هذه القصص مع الحكاية القذرة التي كان بطلها رجل الأعمال "شومان" والذي تسبب بدمار عائلة مارو. لم يكن "رايموند مارو" قد فقد قواه بعد، في تلك الأيام، فيعلو صوته محتجاً: "سأهشِّم وجه هذا القذر!"، ولم يكن أحدٌ يعرف هل يعني "شومان" أو "بَّابا" المرعب. اختفى "بَّابَا" وأغلق مكتبه ولم يعد يجيب على الاتصالات الهاتفية. تقيم سكرتيرته كل صباح حاجزاً فتسجل ملاحظة ولا يأتي من أمرها شيء. أشاع "بَّابَا" ما ألحق الخزي بحق العمة كاترين حيث وصفها بالجنون وأن لابد أن يُحجر عليها في ملجأ ما، وأن القذارة التي تحيط بها جعلت الطفيليات تجتاح المبنى.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أمل جان أن يلتقي "بَأبَا" يوماً ما أثناء خروجه من المبنى ليتجه نحوه ويوسعه ضرباً حتى يطلب الصفح. للأسف لم يقابله أبداً، إلا أنه واثقٌ بأنه سيتعرف عليه، رجلٌ ضخم كبير البطن، تحيط حواجبٌ بسواد الفحم عينيه الشريرتين مثل الشرطي الذي يلاحق "شارلي شابلن" و"جاكي غوغان" في "لوكيد".

بالحقيقة، هذا السر ضاربٌ بالعمق، إنه لا يعود لحقبة "روزيليس" فقط ولا حتى لشباب العمة كاترين الذي أمضته في روزيليس، إنه سرٌّ تمتد جذوره إلى ما قبل الميلاد قبل الحروب، إلى حقبة سحيقة. سرٌّ تضرب جذوره فيما وراء البحر حيث فقد أصوله ليس "روزيليس" وحسب، "فروزيليس" بالنهاية مجرد منزل كسائر المنازل، وإنما أضاعوا "موريس" كلها بسمائها وجبالها وأنهارها، حتى الزوايا ذات الأسماء المألوفة وتلك الأشجار القديمة التي تروي كل ورقةٍ فيها حكايا.

فقدوا كل من ترعرع هناك والذي تقاسموا معه كل شيء، كل ذلك اضمحل مع الأيام، غاب وراء النسيان وذاقت عائلة "مارو" التشرد والضياع. قدموا إلى أوروبا أثناء الحرب وقد تعرضوا للضرب، بعضهم من لقي حتفه فوراً ومنهم من ضحى بحياته في سبيل الوطن مثل "سيمون رايموند" و آخرون قتلهم الحزن كوالد كاترين وآخرون صرعهم "الكريب الاسباني" كوالدتها مع نهاية الحرب.

أما كاتي ومود فقد التمستا العيش في باريس بشتى السبل وقامتا ببيع كل ما تسنى لهما . عملت كاترين في ورشة لصنع الستائر بما أنها كانت تجيد الرسم ثم عملت كمخرجة عند "باتيٍ". التم شملهما مجدداً مع اندلاع الحرب الأخرى بيد أن ماتيلد وافتها المنية إثر صراعها مع السل بغياب الأدوية لا بل تضورت جوعاً حتى الموت بفقدان الطعام، بل أكثر من ذلك فقدان الفحم جعلها تستسلم للبرد .

في بعض الأحيان تضع كاترين ألبوم الصور الكبير المُذَهّب قليلاً والمزين بأرابيسك أحمر على أرضية سوداء على الطاولة لكي تتصفحه

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

صفحةً صفحة كما لو أنها تستطيع القراءة. تمرر طرف اصبعها على كل صورة وتروي الذكريات التي تمثلها.

ذات مرة، توقفت عند إحدى الصور القلائل في روزيليس حيث كانت تقف بجانب أختها في الحديقة، عمرها في الصورة سبعة أعوامٍ تقريباً، فتاةٌ نحيلة بفستانٍ أسود، تبدو مثل "الغجرية" بشعرها البني الغامق، أما ماتيلد فتجلس على كرسيٍ منخفض، شقراء شاحبة بعينين رماديتين فاتحتين كأنهما غائبتين بنظرةٍ تائهة وغامضة لا بل مذعورة.

علّقت كاترين على الصورة قائلة: "ها هو حبي الأوحد".

أمعن جان النظر بهذه الصورة التي تزرع في قلبه الألم، ففي هذه الصورة ذات الحبر الممحي يلوح وجها فتاتين واقفتين هناك بعيداً جداً عند ناصية الزمن. خلفهما أعمدة السفينة والأدراج الخشبية وبضعة نباتات في أصيص بالإضافة لنبتة السحلب الخلابة. بالكاد تبدو في العتمة تلك النوافذ الأبواب ذات المصراعين المغلقين قليلاً. لقد كان هذا فيما مضى، في السابق، عندما كان كل شيء بسيطاً وكأنه يستمر أبداً.

تريثت كاترين عند صورة زفاف والدها ووالدتها. جان شارل وديزيريه عام ١٨٨٠ لدى نزولهما من القارب في موريس، كانا في ريعان الشباب وجميلين – كما تقول كاترين – وأنيقين. جان شارل كان شاباً وسيماً بذقنٍ مشذبة وشعرٍ طويل، يرتدي سترةً داكنةً تبدي قوامه الرشيق وكتفيه العريضين. أما ديزيريه فكانت ترتدي فستانها الأبيض ذي ياقةٍ من الدانتيل، يضم حزامٌ خصرها الرشيق ويرسم شعرها البني وجهها النقي، يتطاير دون قبعة حتى أنها لا ترتدي قفازات كفتاةٍ قروية بامتياز.

حضرت من "بروتان" لتخدم كمربية لعائلة إنكليزية مع أطفالها على متن سفينة "موماندان هويديك" حيث التقت بجان شارل الذي أنهى دراسة الحقوق في لندن.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

في كل مرة كانت تكرر العمة كاترين الحكايا من بدايتها وتضيف عليها تفصيلاً ما، تابعت: عقد قرانهما في ميناء "لويس" دون شهود على عقد الزواج وتخلت ديزيريه عن خدمة العائلة الإنكليزية، اقترح جان شارل أن يعوضهم بتكاليف رحلتها إلا أنهم رفضوا بل واشتروا لها جهاز العرس فهي شابةٌ فقيرة الحال، اضطرت للعمل من أجل كسب قوت يومها بعد وفاة والدها وهي طفلةٌ صغيرة.

حلَّق جان على جناح الحلم أمام صورةٍ لجد كاترين شارل وزوجته ليز أرازانو. صورةٌ تبدو فيها الجدة أرازانو في أرذل العمر ترتدي الأسود في دير "ماهيبورج" أنفها صغيرٌ وعيناها شاحبتان وتعلو هامتها جديلةٌ من شعرها البني. إن "أورو سوميرفيل" تشبهها، هكذا قال جان في سره ولكن يبدو أن كاترين قد سمعته فأعقبت بالقول: "صينية عجوز. صينية بعينين زرقاوين تشبه فتاة من "لابوني"، على كل حال، طالما ردد والدي أنه سيصطحب والدتي للعيش في أحضان عائلتها في "لابوني".

لامست كاترين وجه جان، كما تفعل في كل مرة يزورها، وقالت:

"إنك تشبه جدك الأكبر، نحيلٌ ورأسك طويل لكن وجنتيك بارزتين مثل جدتك "أرازانو"، أنا واثقة مما أقول."

هاهو شارل في صورةٍ أخرى يقف في حديقة روزيليس حيث تبدو النباتات كديكور من المقوى العجيني ما عدا شجرة المسافرة الكبيرة المترامية الأطراف بشكلٍ مروحي: "هذه الشجرة زرعها شارل بعد أن أتى بها من مدغشقر عندما أراد استعادة مزرعة البن. بعد الرحيل القسري، اقتلع قطّاع الطرق شجرة المسافر، وفي فرنسا قُتل سيمون، بنفس الفترة تقريباً عام ١٩١٥ في شهر شباط. فوافت الجد شارل المنية في الشهر التالي. طالما اعتقدت أن وفاة سيمون ووفاة شجرة المسافر هما السبب الذي دفع بجدي شارل إلى الرحيل".

في الصور، يبدو الناس راسخين لا يقهرون فالقوة التي تجمعهم لا تضاهى ومع ذلك، إذا محصنا جلياً للاحظنا ارتعاشاً صغيراً ورجفة خفيفة لأن الأبدية هي الهشة لا الحياة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ما أتى بجان إلى "لاكاتافيفا" هو هذا الشك، هذه الرعشة، أراد أن يتقاسم هذا الشعور أن يكتشف السر الذي كانت كاتي مارو آخر حواسه.

لم يعد يذكر كيف بدأ كل ذلك، لدى عودته صغيراً من ماليزيا، كانت تصطحبه والدته لزيارة العمة كاترين بين الفينة والأخرى بدافع التهذيب، يذكر جيداً أنه كان يخافها فهي نحيلةٌ جداً وعيناها ذابلتان وأكثر ما كان يخيفه تلك اليدان الممتدتان لملامسة وجهه في تلك الأيام، كانت العمة كاترين تبدو له غريبة كسائر أفراد العائلة، مثل الخالة "إليونور" مثلاً التي تعيش في منزلٍ تجتاحه القطط والنباتات أو العم "فانيا" وهو بالحقيقة عشيق اليونور، وقد أبعدته إلى كراجها حيث يقوم باختراعاته التي لا جدوى منها.

لاحقاً وبعمر الثانية عشر أو الثالثة عشر، تكررت زياراته مأخوذاً بذلك السر. وهكذا بدأت طقوس لاكاتافيفا، الخبز الضائع وألبوم الصور والأحاديث التي لا نهاية لها عن روزيليس.

ما إن تنتهي الدروس حتى يتجه نحو المحطة، عوضاً من العودة للمنزل، ثم يتجه إلى شارع رين جان ثم يصعد الدرج حيث تلاقيه صرخات طائر النغر المخنوقة ويمتلئ قلبه بالأمل والشك.

إن العمة كاترين مختلفةٌ عن كل الناس الذين عرفهم. كانت اللهجة التي تتكلم بها فاترة وعندما تغضب تقول: "يا يسوع المسيح!" بلهجة تمتزج بين الفرنسية ولغة المستعمرة. تضافرت هذه الأمور لتضفي عليها طابعاً غريباً، ليس هذا وحسب بل هي مختلفة لأنها تبدو قادمةً من عالمٍ آخر ومن زمنٍ آخر.

ليس لعمرها علاقة بهذا فالخالة اليونور والعم فانيا بعمرها تقريباً. في كل مكانٍ هناك أشخاصٌ طاعنون بالسن مهووسين بأفكارٍ عن "ذاك الزمن" ولا ينفكون يقولون: "في زمننا ... " لكن العمة كاترين تبدو هاربةً من حكايا. كأنها نامت لمئتي عام واستيقظت فجأة بهذا العصر وظلت

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

جاثمة هناك في أعلى المبنى مطلة على مدينة مجهولة. أو كما لو أنها تعيش بإيقاعٍ مختلف كشجرةٍ جذورها ضاربةٌ بالعمق شهدت حروباً وحرائقاً لكنها لم تصب بأذى خلا أخاديد الهرم وبعض الجفاف. كأن بلدها وعائلتها، وأصدقاء طفولتها وكل من عرفتهم قد اختفوا ليتركوها وحيدة في شقة تتحسس طريقها بالعكاز متخبطةً بضرارتها.

كانت كاترين تعرف أموراً يعجز غيرها عن البوح بها. قصصاً قديمة انغرزت في خافق جان، هذا هو السر. أموراً تشرح له لم هو هكذا، لم هو جان مارو، لِم يشعر أنه مختلفٌ عن رفاق عمره، وتفسر له سبب يأسه وتخبطه وسوء تصرفه.

كانت تقول له أحياناً ببشاشة، مصطنعة: "لا تنسَ أنك من عائلة مارو من روزيليس، مثلي، أنت سليل مارو الذي ترك كل شيء واستقر في موريس، دمه يسري في عروقك، إنك هو." تقول هذا وهي تشد يديها على صدغيه فتسري في جسده رعشةٌ وينتابه دوارٌ طفيف وتتابع: "إنه هو من يحيا داخلك، عاد ليحيا فيك بحياتك وأفكارك، إنه يتحدث من داخلك. لا تعتمد على ما أقول لك لأنه هو من سيكلمك. لو أصغيت جيداً ستسمعه لا محالة. بالنسبة لي، كل شيء انتهى، لقد عشت حياةً طويلةً جداً، لم يعد بوسعي الإصغاء إليه. فاضت بي الذكريات واكتسح الحزن أوقاتي ودثرتني الحياة بردائها الأسود أما أنت، أنت حرٌ لذلك اختارك ليعود من جديد".

ذات مرة، روت له حكاية عائلتها:

عقد جدها شارل قرانه على ليز التي لم تكن قد تجاوزت السبعة عشر عاماً أثناء رحلتها مع والدها إلى الهند سنة ١٨٦٠. رزقوا بثلاثة صبية: جان شارل والد كاتي، رايموند الذي لم يرزق بأطفال والأخير هو "تادي" الذي كان أول من شهد خراب روزيليس. إن اختصار أجيالٍ بعبارات يسبب الدوار:

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وهكذا ولدت كاترين عام ١٨٩٠ وفي صغرها عرفت شارل مارو من مواليد عام ١٨٣٣ والذي عرف بدوره جده جان أود من مواليد رونيلو ١٧٧٠!

لقد تحدثت إليه وأمسك بيدها حين تنزها في ممرات حديقة روزيليس حتى أنهما استقلا سيارةً رديئةً للنزول نحو مرفأ "لويس" وسارا على قارعة الطريق حتى وصلا حديقة "كومباني".

يا للدوار الذي يتملكني مع قصة ليز أرزانو التي ولدت عام ١٨٤٩ وشهدت حروب عدة بدءً من حرب السبعين وكان عمرها آنذاك عشرين عاماً، وناهز عمرها الخامسة والستين حين دارت رحى الحرب العالمية الأولى وبعد مضي عدة أشهر شهدت أهوال الحرب العالمية الثانية.

رغم كل هذا، تمسكت بجزيرتها ورفضت مغادرتها إلى أن هزّت المأساة حياتها بمقتل حفيدها سيمون في الحرب ثم غيَّبَ الموت زوجها عام ١٩١٥، دخلت إثر ذلك إلى دير وما خرجت منه قط.

سأل جان: "لِمَ لم تتزوجي أبداً يا خالة؟".

-: كنت أنا وأختي شابتان يحيط بنا العشاق، كنا نحلم بالذهاب إلى فرنسا، طبعاً ليس كما جرى... ثم عزفت أختي عن الزواج ولم يكن بوسعي تركها وحيدة.. لفَّ دولاب الحياة، هذا كل ما في الأمر".

بعثرت كاترين كنوز صندوقها على الفراش ثم تناولت كتاباً صغيراً قديماً جداً، مقروءً ومستعملاً، يحمل عنوان "قواعد اللغة اللاتينية". خطت الريشة على صفحتها الأولى صورة صبي بزيٍ أسود وشعرٍ طويلٍ، يعتمر قبعةً مميزة بشرائطها مثل قبعة البروتون القدماء.

كُتب تحت الرسم بيدٍ لطخت الصفحة: جان أود مارو الطفل الطيب آب ١٧٨٨. قالت له كاترين: "اقرأ لي ما هو مكتوب هنا.." وعندما قرأ لها أعقبت ببساطة: "أما الآن فهو أنت جان مارو الطفل الطيب".

احتفظ جان بالكتاب الصغير في جيبه كجواز سفرٍ لا بل كتعويذة، ليتمكن من قراءة جمل مارك أوريل المقدمة في نهاية الكتاب كأمثلة. انكب

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

على دراسة اللغة اللاتينية مستعيناً بمعجم والده وقد بذل جهده لحفظ أقوال الكتاب دون أن يفهمها تماماً. يشبه هذا الكتاب صورةً شخصية لولا أنه مؤلفٌ من كلمات ولولا ذاك الرسم الكاريكاتوري على صفحته الأولى. تراءى له للحظة أن أسلافه ينبعثون بما يشبه الرسم الذي صوّر فيه " فيرلين" "رامبو" بقامةٍ طويلة ونحيلة، يرتدي سترةً طويلة ويعتمر قبعةً منتفخةً ومستديرة يتساقط منها شعره الكث على كتفيه.

إنها مكيدة. بيد أن كاترين هي الشخص الأكثر براءة ممن عرف، تعجز عن تدبر حيلةً لتستحوذ على اهتمام أو شفقة زائرها. يغفو صندوقها الفاغر تحت السرير يتوارى على أنه طاولة للأقدام على غرار ما قد نصادفه في البواخر على خط مارسيليا – عدن – موريس. لم يكن يحق لأحدٍ بأن يلمسه حتى أنها كانت ترفض أن تغير أورور مكان حمولتها الثمينة عندما تأتي لتكنس وتنظف من وقتٍ لآخر.

جان هو الوحيد الذي شاركها الكنز. في أمسياتٍ عدة، كانت تسحب الصندوق حتى الفراش رافضة أن يمد لها يد العون. تسحبه على الأرضية بأرجلٍ مثنية وجذعٍ منتصب كأي شخصٍ يحسن استخدام قواه. ثم تبدأ بإخراج رزمٍ، الواحدة تلو الأخرى وتضعها على فراشها بترتيبٍ واضح.

توحي تلك الغرفة بأنها حجرة في سفينة رغم سقفها المنخفض وجدرانها البالية لعل هذا بسبب الريح المالحة التي تمتطي النور المصفر المتسلل إلى الغرفة بنوافذها القذرة التي تلقي عليها عتمةً غريبة.

الصوت الحاد والحزين الآتي من صخب السيارات المارة في الشارع وصرير دواليب القطارات على تحويلات السكة الحديدية يحمل الذاكرة لتلك السفن التي تدفعها الأمواج الصاخبة إلى الرصيف الشاطئي مصدرة أنيناً بالصيانة ورفع الحبال. تبعثر تلك الطلاسم المترامية على مخمل الفراش الأسود غباراً قديماً يملأ عيني جان بالدموع.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تبسط العمة كاترين أوراقاً وتطوي أخرى، تمرر أصابعها عليها وكأنها تقرأ ما يشير إليه، الختم والأحرف المكتوبة، لم تكن تؤتِ بأي تعليق، كل ذلك كان طقساً من طقوسها في صمت مطلق.

لم تكن العمة كاترين بحاجة لأن يقرأ جانٌ المكتوب. كيف له أن يقرأها وحارستها تسهر عليها الليل؟ لم تَخلق هذه الأوراق للقراءة وإنما فقط للمس وللشم وللعشق. ليتشبَّع بحرارتها، بشعاعٍ من السنوات الهاربة فيخفق القلب بنورٍ من سماءٍ أخرى ومن أرضٍ أخرى.

يلتقط صدفةً نصاً أو نهايةَ جملةٍ مثل: ***الوطن والقانون والملك***. أو مثل: "***نحن الموقعين أدناه، نؤكد لكل من يهمه الأمر أن المواطن جان أود مارو المتطوع في الحملة الثانية، القائد دوكسينيل الابن البكر.***

في ٢٧ نيسان ١٧٩٣ السنة الخامسة للحرية الفرنسية"

ليس هناك ما يفهمه، استسلم جان لأحلام اليقظة مثل العمة كاترين فبدأ يمرر أطراف أصابعه على الوثائق ليتحسس الفارق الضئيل الذي يخلِّفه الحبر على الورق، ويتابع الخط الممتلئ والرفيع والتأشيرات اللولبية للتوقيع، والأختام والزخرفات. تأمل تلك العبارة أسفل الرسالة والتي كان لها أثر عبارةٍ سحريةٍ:

سلامٌ واحترام.

غادر أخيراً شقة العمة كاترين، نزل الأدراج أربعة أربعة ليجد نفسه في شارعٍ صاخب يهدر بزمجرة السيارات وفرقعة الحافلات ذات الإيقاع على انحدار الطريق المنحني وارتجاج دعائم الجسور. أُنيرت المصابيح بعد أن تلاشت أعالي الأبنية كما لو أن شقة كاترين بكل كنوزها وأطيافها قد رحلت إلى آخر العالم. امتزج كل هذا في رأس جان ولفَّ فيه حتى تملكته الرعشة. حاذى شارع رين جان مأسوراً بشعورٍ عارمٍ بالعزلة المطلقة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تموز ١٧٩٢

غادرت رونيلو في يوم ميلادي الثامن عشر، في تلك اللحظة لم أكن أعرف أنني لن أعود للعيش فيها مجدداً. في الشباب لا نفكر بعواقب قراراتنا يدفعنا الحماس والاحتداد دون حساب. لم أكن الوحيد الذي التزمت، هناك غيري ممن غادروا أيضاً من المزارع المجاورة والقرى، من نويلاك وبونتيطي فاويت وميردو بروتاني. شاعت شائعات الحرب، ترك الشباب خلفهم كل شيء الحيوانات والمواسم لتتلقفهم الطرقات. لم أتحدث بما في رأسي لأحدٍ وخاصة والدتي لأنها لن تحتمل الأمر. كنت الرجل الوحيد في المنزل فلم تكن تجد عمالاً، والطاحونة لا تعمل جيداً. كنا نلتمس العيش بشتى السبل من أجرة المنزل في شارع فولفي في لوريان ومن بيع الخضار والحليب. رغم ذلك فقد اعترفت لبولين بكل شيء، أمسية الرحيل، لتعرف فقط أنني لم أهرب وإنما ناداني الواجب. سيثير الأمر الريبة في قلبها لا محالة، على كل حال فقد سمعتني أتحدث عن "الثورة" وعن العالم الأفضل وعن سقوط الطغيان. بذلت جهوداً لتثني عزيمتي متذرعةً بوالدتي، وعندما أيقنت أنني حزمت أمري، شاحت بناظريها كفكفت الدموع بعينيها وقالت له بصوتٍ مخنوق: ارحل، إن كان هذا ما تريده ولكن لا تنسانا.

حدثتها عن خطيبتي "ماري جان" وطلبت منها أن تقبلها وتسهر على راحتها وتخبرها أنني سأتزوجها لدى عودتي.

حضرت لي بولين أمتعة السفر، مجرد حقيبة ظهر ذات حمالات وضعت فيها بعض الملابس وخبز وجبنة. ألحّت أن أحمل معي ناي والدي الفضي، الإرث الوحيد، الناي الذي تعلمت معه الموسيقا في المدرسة. رفضتُ متحججاً بأنه قد يُسرق، إلا أنها أصرّت بقولها:

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الأنغام التي ستعزفها من هنا ستذكرك بنا. ثم أضافت: لا تنسى أن تضع الزيت على أجزائه المتحركة.

أردت أن أحمل معي كتاباً فما عثرت إلا على القواعد اللاتينية يضم في صفحاته الأخيرة فكر "مارك أوريل" وما علمني إياه الخوري جاندرون لدى نهاية دروس البلاغة.

سخرت من نفسي وأنا أضع الكتيب أعلى الأمتعة: هكذا سأصبح الجندي – الفيلسوف.

في صباح ٢٥ تموز الباكر، خببت بالمسير على طول طريق السفن المحاذي لـ"إيلي". كان الدرب مزركشاً بالبرك التي خلفتها أمطار الليل وتتلألأ قطراتها غنجاً بأشعة الشمس المبعثرة على أدغال الزعرور. تتراكض الغيوم الخفيفة في سماءٍ صافية، فخلت أنني لن ألاقي سعادةً تفوق سعادتي الآن.

لم أعد أذكر أنني استدرت لألقي نظرةً أخيرة على "رونيلو" كما يقال: ماذا يفعل الراحل إلى الأبد بوطنه.

يشقُ عليَّ استحضار ذكرى ما جرى، ذكرى الأحداث وكل تفاصيل المغامرة، لا عيباً بذاكرتي، لكن طالت أيام وليالي الحرب ورزحتُ تحت المهام فما عرفتُ لها مجرىً محدداً أسير معه.

كما لو أنها أيامٌ لم أقضها أنا، كأن غيري قد رواها لي. أيامٌ بدأت قبل ولادتي وتعيش في ذاكرة غيري. مزيجٌ من أحلام وصور، ضجيجٌ وصراخ وأوهام. أيامٌ تختلط بأيام الغير وذكريات الغير، بآمال ويأس الغير. كل ما يمكنني تأكيده بثقة هو أنني: كنت هناك.

لم ألقى مصرعي في غابة "آرغون"، خرجت حياً من هذه الحرب الضارية. لكنني تحولت لشخصٍ آخر. لقد فقدت في ساحة المعركة جزءً مني، طفولتي وشبابي، بل مستقبلي دون شك. مازلت أشعر بالمطر حتى

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

اليوم، المطر الهاطل ليل نهار في الغابة حتى نخر الصقيع عظامنا. لم يخطر لنا هذا البرد حتى وقعنا في براثنه، فالصيف في رونيلو حارٌ جداً.

كان يسود جو أعياد في ساحة الكنيسة حين وصلت بصحبة شبان آخرين إلى لوريان حيث سيتم انضمامنا. كنا نتدافع للتوقيع أولاً على القائمة. يتردد صدى تلك الأسماء الآن في أذني وأنا في غابة آرغون التي حط الليل رحاله فيها، صدى كل تلك الأسماء: كابان، نيكولا، سوزون، بيزو، تينارد، بونو، كيروارکه، كيركادو، كيرفين، كيرغاس... لا أقوى على النسيان. أجهل مصيرهم رغم أنهم كانوا برفقتي، يراوحون في الطين، إنني أسمع ضجيج خطاهم وقعقعة بنادقهم. أسمع أنفاسهم اللاهثة والتي تصدر صفيراً بينما نرتقي الطريق الجبلي ونعبر الوديان.

تشهد ساحة الكنيسة تسليم شارات الجندية وهم يرفعون أصواتهم بلهجة "البروتون". أصغيت لأصواتهم وهم يغنون. يقف المترجم بجانب طاولة المجنِّد: اسمك؟ بلدك؟ عمرك؟ مهنتك؟ هل أنت متزوج؟ لم يفهموا تماماً ما أقول، ضحكوا وتناقلوا المزاح "بالبروتون" بعد سؤالهم عن الزواج. وقعت تحت اسمي، الأحرف الأولى وثلاث نقط.

حدجني الرقيب بنظرةٍ شريرةٍ من بين حواجبه الشعثة ثم سأل هل أنت ماسوني أم مواطن؟ أعرف أنني لم أكن أشبه الآخرين، لم أكن أرتدي زياً بل اكتفيت بصُدرة والدي السوداء، لم يكن لدي متسعٌ من الوقت لأجيب على سؤال الرقيب. توقيعي كان زخرفةً مضحكةً على صفحة الدفتر إلى جانب تلك الغابة من شارات الصليب المنحنية.

كتبت المهنة: تاجر. تاجر ماذا؟ ليس لدي سوى حفنةً من الخبز والجبن في حقيبتي. تاجر ريح وأمطار، تاجر وحلٍ ودروب لا نهاية لها في غابة أرغون المعتمة، تاجر بارود المدافع ورصاص وحراب، تاجر لحم ودم. سرية المتطوعين من الفوج رقم "٨"، القائد "ووكسينيل" الابن الأكبر، ذهابٌ مباشر إلى الحدود الشمالية – الشرقية بسيرٍ حثيث.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تعيش ساحة الكنيسة أياماً كليالي العيد حيث مدت طاولاتٌ مليئةٌ بالطعام، يسيل النبيذ وخمر التفاح كالسواقي. وقفت الفتيات على الشرفات أو عبرن الطرقات ليروننا ونحن نمر.

انطلقت في الساحة زمارة القرية والرماثة[1] لعزف الغانوفة[2] بدأوا بنغمٍ بضعة إيقاعات ثم توقفوا بأنينٍ فالعازفون ثملين، كان زمنٌ ضائعٌ زمنٌ عاجلٌ.

كم يوماً سرنا؟ شهراً لا بل أكثر دون شك. يبدو لي أننا أمضينا سنين على الدرب. عبرنا الحقول وفي عرض المدن، على ضفاف فيلين، حلَّ بنا حرٌ زوبعة، افترشنا الحَشفة[3] في الحقول المحصودة.

في إحدى الليالي، على مقربة من "لافليش" تراقص البرق على الملفوف. تبعتنا فئران الحراج وفئران اسم يوماً بعد يوم كجيشٍ خفي. سمعنا مساءً أصواتها تقضم ما تبقى من طعامنا. ينضم لسرينا في كل مخيم وكل مدينة رجالٌ جدد. كنا نرتدي ملابس مدنية وننتعل أحذيةً بالية. يختلط شعرنا مع ذرارة العشب، أطلقنا اللحى والشوارب، ألهبت ألسنة الشمس وجوهنا وأيادينا. أصبح عددنا كبيراً لدرجة أن شقَّ على الرقباء إجراء التفقّد.

بعد أن نتناول في كل مساءٍ عصيدة شحم الخنزير والشوفان، نذهب لرؤية الرجال الجدد وهم يسجلون أسماءهم في القوائم، متكئين على طاولاتٍ سريعة الصنع فهي مجرد قطعة خشبية مستندة على برميلين، علّق الرقباء الأغطية التي استخدموها كمفرشٍ للطاولة بشارات التجنيد من باب الرفاهية أو ليكافحوا هيئاتنا السيئة. كنت أصغي لتلك الأسماء التي لم أكن أعرفها ولكن لم يعد بوسعي نسيانها: لوكوك،

(1) – الرماثة: آلة من آلات النفخ.

(2) – الغانوفة: رقصة ريفية فرنسية.

(3) – الحشفة: أصل الزرع يبقى بعد الحصاد.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ترووزي، فوزي، بوميي، مالون، جانتوت، ريو، دو جاردان، دوبري، كامو، جابريل، تينارد، انفوراند. أغلبهم كانوا فتياناً لم تنبت ذقونهم بعد بوجنات حُمرٍ كالفتيات وشعرٍ طويلٍ مربوط. ما إن رسموا صليباً بجانب أسماءهم على الدفتر حتى ركضوا عبر الحقول ورموا بقبعاتهم نحو السماء وهم يصرخون: فليحيا الوطن! ثملين دون خمرٍ.

تم تجنيدي أنا وميرفان منذ أسابيع فقط ولكن يبدو أننا من المحاربين القدماء خاصة حين نجلس على العشب الغليون في فمنا ونطلق التعليقات على كل من يتقدم، أما فيما يتعلق بباقي التفاصيل فلا نبدو بهيئة برّاقة بثيابنا الرثة ونعولنا البالية. يتقدم بعض الصبية للتجنيد من منطقة كارهي وأعلى بروتاني، حافي الأقدام لا يكسوهم سوى قميصٌ بالٍ دون معطف ولا حتى غطاء بل لا يحملون بحوزتهم خرجاً لما يدخرون من طعام. يلقي بؤس هؤلاء الرجال الغصة في القلب أكثر من المجهول الذي ينتظرهم بعيداً عن موطنهم. لم يتجاوز بعض أولئك الصبية الخامسة عشر أو السادسة عشر إلا أنهم ادّعوا أنهم بالثامنة عشر لكي يتم تجنيدهم. تقاسمت أنا وميرفان خبزنا مع أولئك الفتية فقد مضى وقت الحساء ولن يتم تقديم الطعام حتى صباح اليوم التالي. يا للشراهة التي انقضّ فيها أولئك البؤساء على الخبز رغم أنه بائتٌ منذ يومين أو أكثر والتهموا أطرافه التي بالكاد تحمل طعم الجبن. كم أخذتني بهم الشفقة! لم أستطع منع نفسي من التفكير بأن ما يدفع هؤلاء الفتية للتجنيد هو الجوع لا حب الوطن، إلا أنني آثرت الصمت على أن يشيع ميرفان ما قلت. استشطت غضباً بالوقت نفسه وأنا أفكر بحالة العدم التي أوصلت إليها حكومة بروتاني السكان، فهؤلاء ليسوا ثوّاراً أبداً ولكن لا خيار لهم سوى أن يصبحوا قطّاع طرق مثل سائقي نانت.

الذكرى التي وددت الاحتفاظ بها من هذا المسير الطويل عبر فرنسا، ورغم كل شيء هي الحماس الذي يدفعنا. ليس بشعورٍ غريبٍ عن

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الدين، كان يضحك الرفيق ميرفان مما أكتب فهو ملحدٌ مقتنع. لقد كان حماساً يشقُ عليَّ وصفه بصفة أحياناً، تترامى مجموعتنا على مد النظر في سهول مين وشارتر، رتلٌ بشريٌ بعرض عشرة أو اثنا عشر قدم وبطولٍ يتجاوز الفرسخ[1]. يتقدمون دون صخبٍ تقريباً فقط احتكاك آلاف الأقدام على التراب المغبَّر ورنين البواريد والبنادق ممتزجٌ بقعقعةِ الرماح والسيوف. لم يكن هناك صراخ ولا غناء بل اقتصر الصوت على الصخب الثقيل والحازم لخطوات حشود تسير. لم يكونوا جنوداً بالخدمة وإنما شبانٌ فلاحون قدموا ليحموا حدود بلادهم من المحتل الغريب. ما حلمت بحياتي أن أرى هذا المشهد. رووا لي أحداث باريس حيث انتفض الشعب برمته كرجلٍ واحدٍ ليقلبوا رموز الديكتاتورية والجموع المحتشدة في شامب دومارس. لكن ما شهدته هنا يفوق بعظمته كل ما نُقل إلي، كان ذلك بسبب ذاك الصمت أو بالأحرى للانتباه الحاد الذي أوليته لكل صوت ولكل قعقعةٍ ولكل نفسٍ في ذاك الامتداد مترامي الأطراف وبرفقة كل هؤلاء الرجال. أدركت فجأة إرادة الشعب ومصير بلدي، لم أتغير لكنني صرت جزءاً من الحركة. أكثر قوة واتساعاً.

لم نعد نعاني من البرد والمطر، في هذه الأوقات (حيث كنا في الأسبوع الأخير من تموز)، على العكس فالسماء زرقاء صافية وقرص الشمس يلتهب. لم نكن نشبه جنوداً بخدمة الجمهورية وإنما متوحشون في كندا نعيش في الخارج في المروج العشبية والحقول المحصودة، ننام بالعراء شبه عراة بعد أن خلعنا صداراتنا وسترنا وكشفنا عن رؤوسنا مطلقي اللحى والشوارب.

عبرنا حقول قمحٍ في سهول شارتر، وقد كان بعضها محصوداً فنعمنا بوليمةٍ من القمح الطازج مع الحليب ذي الطعم اللاذع. منعنا الطقس

---

(1) – الفرسخ: أربعة كيلومترات.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الحار من النوم تحت الخيم التي كان يدعوها ميرفان أغطية الجبن، فافترشنا ثلوم المحرات وسط جموع الحشرات ورقصات فئران السم الليلية.

تنتظرنا الموائد بعيداً على الدروب الفاصلة بين الحقول حيث توزع حصص من عصيدة الشعير والشوفان مع الخبز وشحم الخنزير.

كنا نتحدث طيلة تلك الأمسيات ممددين على الخشَف تدثرنا سماءٌ مرصعةٌ بالنجوم. لم أمضِ بحياتي لحظات كتلك اللحظات. تداعب الريح اللطيفة وجوهنا لتخفف من سعير النهار ويهدأ الليل ألم أرجلنا وأقدامنا جرّاء ساعات طوال من المسير. تجري الحوارات وقد تلاقي بين الفينة والأخرى ضحكةً أو أغنيةً.

أصغيت لسكان بروتاني وهم يتحدثون بلغتهم، مزيجٌ من أحرف حلقية مع نغمٍ غنائي للهجتهم. يهبط الليل فيلتهم بعتمته الأرض، تلمع من كل جانب نيران التخيم على امتداد السهول. يبزغ القمر مختبئاً خلف غيومٍ تُحاك بالظلام وتتبعثر في السماء كالرعشات، كم كان الجو جميلاً!

تجرأت على إخراج الناي من حقيبتي وعزفت متوارياً بجنح الليل. عزفت الأنغام التي أحب سكارلاتي وميهول وأنغام أوبريت. توقف من يحيط بي من رجالٍ عن الكلام وأصاخوا السمع فعزفت من أجلهم أنغام البلد، الرقصات وغافونات تعزف في منطقتي "رودون وكيمبر" والجيك[1] بأنغامٍ حادة. رافق عزفي بعض الصفير أو الضرب بالأرجل على الأرض وفق الإيقاع. لم أتخيل أبداً حين أعطاني الخوري كيلير دروساً بالموسيقا في هينيبو، أنني سأعزف في الحقول كعرسٍ ريفي.

لم يكن هناك مواعيدٌ لمنع التجول، فعمر أغلب الضباط مثل أعمارنا، لقد ولدوا مع الثورة، كانوا يجلسون معنا ويصغون للموسيقا

---

(1) - الجيك: رقصة إنكليزية.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

واضعين رؤوسهم على حقائبهم مستسلمين لأحلام اليقظة بالنور المرتجف الذي تنثره نيران التخييم.

نال التعب الطويل من الجميع لكن النوم يجافي الأحداق فاللهفة دفينةٌ كالحمى، ننتظر الكثير من المستقبل. ننتظر ساعة المعركة دون أن نعرف من سنقاتل. لعل زوابع الحر والبرق الذي تخللت الغيوم قد هذّبت مزاجنا.

بالكاد استحضر الآن تلك اللحظات الخوالي. ذروة ما مرّ معي طيلة حياتي، كل شعورٍ انتابني وكل فكرةٍ راودتني منذ طفولتي. الكتب التي قرأتها والحوارات التي خضتها مع معلمي مدرسة هينيبو والشجارات مع زملائي والصحف والإعلانات في الشوارع بالإضافة للشائعات في الميناء. كل ما جرى في فرنسا عندما كنت في الرابعة عشر، تلك الأحداث الخارقة التي قلبت باريس أثناء مراهقتي فملأتني بلهفةٍ متحمسة، ثورة الشعب وسقوط الباستيل والمطالبة بالدستور وإعلان حقوق الإنسان وإلغاء الامتيازات وهروب الملك السابق والمطالبة بإقامة جمهورية وتجنيد طلاب المدارس عام ١٧٩١ خلال خطاب توزيع الجوائز حين تلا المدير قائمة أسماء المتطوعين ليضيف بعد كل اسم عبارة "تطوع ليزود عن حمى الوطن" من أجل هذا، من أجل هذه العبارة والصمت الذي يصطحبها، قررت أنا وميرفان ولانسكر الانضمام ومن أجل الهتافات والتصفيق الذي يلتهب بعد كل اسم.

لأولئك الذين تجرؤوا على القول، مثل الراعي العام لهينيبو: "كيف ستعيشون دون ملك إنكم مجانين ومجرمين ستلفكم الفوضى".

أذكر نظرة الغضب في عيني لانسكر عندما أجاب بسخطٍ: "سكان بروتاني ثوار وهم ليسوا بحاجة لسيدٍ ولا لملك"! وعندما نعته المزارع بالملحد، صرخ بأعلى صوته ليسمعه كل من في ساحة الكنيسة: "إنه أنت أيها المواطن المزارع الملحد فنحن لا نعرف ملكاً سوى الله وحده!".

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لوَّح بقبعته ذات الشرائط كل من خرج لتوّه من القداس وسارعوا إلى طاولة التجنيد ليسجلوا أسماءهم.

باريس ١٠ آب:

الشوارع خاوية وهادئة. خيّم المتطوعون في "شامب دومارس" حيث نصبت الخيام ولكن هنا أيضاً كان الحر شديداً فآثرنا النوم في العراء، لا يمكنني نسيان يوم العاشر من آب اليوم الأكثر حراً بالسنة. عبر الملك والملكة السابقين باريس برفقة الحرس الثوري المدجج بالرماح القصيرة وسط جلبة الحشود. كنت في شارع ميسلي لألقي التحية على موظف البنك "موراند" صديق عائلة "سليمان" والذي وعدني بأن يجد لي عملاً في إحدى مكاتبه ما إن تضع الحرب أوزارها. لا أعرف إن كنت قد لمحت الموكب الكارثي الذي يقود الملك والملكة المخلوعين إلى سجن "تامبل".

يسود السلام في الشوارع والاستهتار أيضاً لعل الحرَّ الشديد هو السبب أو هو الهدوء الذي يسبق العاصفة عندما يهبُ الغضب الشعبي كالعنقاء من تحت الرماد بأي لحظة.

تتحدث مجموعاتٌ في الشوارع وبغضبٍ شديد عن الديكتاتور الطاغية الذي خان شعبه وكان على استعداد لتسليم بلده للعدو مقابل أن ينجو بحياته.

فجأة وأنا هنا في باريس بفيء الأشجار هرباً من قيظ الصيف "شامب دومارس" خلال هذا اليوم الطويل الذي أمضيناه بالطعام والشراب أدركت أن الحرب آتية لا محالة وبل وهي وشيكة الوقوع لا قرب الحدود البعيدة وإنما في الطريق إلى باريس. حربٌ مستعدة للوقوع فوق رؤوس كل الناس الذين لا يفكرون بها.

كان شعوراً مختلفاً تماماً عن الشعور الذي دبَّ فيَّ، يوم توجهت للتجنيد أو حينما سرت على طريق بروتاني العليا و"مين" عبر سهول أورليان. فالآن امتزجت اللهفة المحمومة بقلقٍ في مواجهة الخطر

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الوشيك. تأملت هؤلاء الرجال والنسوة، فرحين في ريعان الشباب، يتنزهون في الممرات. ما زال بعض المجندون أطفالٌ لا يفكرون سوى باللعب والغناء لا يتخيلون ما قد سيحدث. وزعنا لباساً موحداً وأسلحة. كانت الملابس كبيرة جداً على مقاس بعض المجندين والسيوف والرماح ثقيلة جداً.

نزع الكثير ممن ساروا حتى باريس نعولهم وحملوها بأيديهم بعد أن دميت أقدامهم وأولئك الذين أعطيناهم نعولاً من الجلد، قاموا بتعليقها حول رقابهم ومضوا حافيي الأقدام في دروب "شامب دومارس". لم يكن عدد القبعات كافياً، لذلك احتمى بعضهم بجلود الحيوانات من أوار الشمس والبعض الآخر عقدوا أوشحة حول رؤوسهم مثل القراصنة. تأملتهم جميعاً وأنا أفكر بالسخرية التي سيكيلنا بها من سبقنا حين سنروي لهم عن جيشنا: حافي الأقدام وفلاحين بقبقاب ورعاة مع عصيهم يولون أدبارهم كالأرانب مع أول طلقة نار.

يتوافد بعض الفضوليون إلى "شامب دومارس" ولابد أن من بينهم من يختفي خلف قناع المواطنة لكنه يراقبنا باستهزاء وهو يحصي فرص نجاتنا من الهلاك أمام النمساويين واستجدائنا لغفرانهم.

دعتني عائلة موران لتناول العشاء مساءً في منزلهم في شارع ميسلي. تركت الزي الموحد وسرت بين الحدائق حتى وصلت القصر. دُهشت عندما مررت أمام السجن الذي يضم الآن الملك والملكة المخلوعين، فالناس تمر غير آبهة بشيء والنساءُ يرتدين الشفَّ يتناولن البوظة وهن يتجاذبن أطراف الحديث وكأن شيئاً لم يكن. راودني إحساسٌ قويٌ بالسوء كما لو أنني الوحيد – على الأقل هنا – الذي يعرف الخطر المحدق بنا و مدركاً الموت الرابض حولنا.

صادفت لدى خروجي من منزل موران برفقة ميرفان شابتين بنظرةٍ واثقة إحداهن أصغر سناً من الأخرى والواقع أنهن جميلتي الوجه

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وظريفتي الشكل لولا تلك النظرات شديدة الوقاحة. أمسكت كلّ منهن بذراعنا وهن يدعوننا بعبارات واضحة لنرافقهما إلى غرفتهما في فندق في شارع ميسلي. قالت الشابة الأكبر سناً لميرفان: تبدو أيها المواطن متعباً وثائراً هلاّ أتيتما معنا لتنالا قسطاً من الراحة ونحتسي النبيذ معاً؟

بدا ميرفان مستعداً للرضوخ لهما لكنني عانيت لجرّه بعيداً وقد تناهت لمسامعي شتائمهما حتى آخر الشارع مما جرَّ علينا سخرية وضحكات المارّة. أسرد هذه الطرفة لأشير لما يسود باريس من حبور بعيداً جداً عن الحماس والوداع الممزق الذي يكابده المتطوعون عندما يفارقون عائلاتهم وقراهم.

أبحرت بأفكاري لأحطّ عند والدتي والغالية بولين الوحيدتين في طاحونة رونيلو يتأملن غياب الشمس في وادي "إلي". فكرت بماري آن وبصوتها الناعم حين نتجاذب أطراف الحديث عند عتبة المزرعة مع بدء الصيف كانت تخشى أن تظهر لي مشاعرها وكأنها تعرف بأنني سأغادر يوماً ما. تقول لي في كل مرة أذهب إلى "هينيبو": سأفكر بك كل يوم وسأصلي من أجلك وأدعو لله أن تعود سالماً.

أعترف الآن أنني فكرت ملياً بترك كل شيء خلف ظهري والعودة إلى منزلي في رونيلو عندما رأيت استهتار باريس مقابل الخطر المحدق بنا.

اكتنف تلك الليلة في شامب دومارس انطباعٌ غير معتاد. حيث غارت المدينة بأحضان الضباب مع هبوط الليل حوالي الساعة العاشرة، أشعل المتطوعون الجدد النار ورويداً رويداً أُضيئت مشاعلٌ من الراتنج فوق طاولات التسجيل. طيلة الليل والرجال يتوافدون لتسجيل أسمائهم. بين الفينة والأخرى نسمع، عن قريب أو بعيد صرخات وهتافات صادرة عن المتطوعين الجدد. إنه لمشهدٌ غريب أن نسمع صراخاً حماسياً ونرى خيالات تسير قرب النار في زوابع الدخان تغطي أهرامات الأسلحة كما لو أننا في ساحة الوغى.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لم يكن النعاس يداعب أحداقنا. تقاسمنا نيطلي خمر وموالح أحضرها ميرفان مع شبانٍ من "بروتان" أحدهما اسمه "أوديلون" من "فاويت" والثاني اسمه "سامسون" من "أرزانو". لم نتحدث بأمور هامة ربما لأننا نعلم أن أمر المسير نحو "شالون" سيصدر غداً مع بزوغ الفجر وأن رغم ما نتظاهر به فإن السوء يعتصرنا من الداخل، مزيجٌ من اللهفة والخوف يُصنع منه ما يدعى بالشجاعة. تحدث كلٌ منا عن قريته ومنزله وحلوته التي يعشق، كما تحدثنا عن الصيف ذي البساط الصغير حيث سيتم الحصاد دوننا. أنا من طاحونة رونيلو حيث تفوح رائحة القمح المطحون الطازج وضجيج الصخرة التي تدور مع الفجر. ميرفان من محل والده في لوريان ولانسكر من البواخر التي تنتظر لتمخر عباب البحر وتتحدى حصار الإنكليز حيث البضائع المعدَّة للتصدير: بهارٌ من ترنيكيبر وكالكوتا وقهوة موكا. أوديلون وسامسون وآخرون من "بروتاني" يدمجون كلماتهم مع اللغة الفرنسية وتحدثوا عن الأحداث الأخيرة والكهنة الثائرين الفارين، إلا أنهم توقفوا للتو عن الكلام رغم شرب الكحول فقد استحوذت الريبة عليهم، ثم تحدثوا عن قطّاع الطرق على طرقات برست الذين يحرقون أقدام ضحاياهم ليعترفوا أين أخفوا ثرواتهم. كانوا يضحكون. تأملت بانتباه أحدهم ويدعى "غيماركه" وهو فتى شديد السمرة حاجباه ثخينان كفجري، تساءلت في سري ألم يكن أحد أفراد عصابة السائقين في "مونوز" قبل أن يتطوع.

لم ننم جيداً تلك الليلة، انضمت إلينا قبل الفجر تقريباً مجموعةٌ من الشبان الذين تطوعوا وسجلوا أسماءهم في "بون نوف". عزفت الأبواق التنبيه الصباحي من بعيد، من أرصفة السن حتى الأيكة في أعالي الشانزيليزيه. بدأ مسيرنا عبر باريس ومازال النوم عالقٌ بأهدابنا، على طول تويلوري ثم أمام المعبد. تساءلت في سري ألا يصل صوت خطى جيش الجمهورية لأعماق سجن الملك المخلوع وهم في مسيرهم إلى حربٍ كان هو للأسف من أشعلها.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

٢٥ آب:

أصدر أمرٌ معاكس، فعاد الجيش إلى معسكراته في شامب دومارس. أصبح الحرُ خانقاً ويخطُ البرقُ السماءَ طيلة الليالي السابحة فوق باريس. تم تأجيل الذهاب بناءً على أمرٍ من الحزب الذي أصدر مرسوماً بالتجنيد الإجباري لكل المواطنين العازبين الذين تتراوح أعمارهم بين ١٨ و٢٥ عاماً. رافقت الفوضى مجيء المجندين فلم يكن هناك ما يكفي من خيام وأزياء موحدة. لم ينقص الطعام رغم ذلك حيث كنّا نتناول كل يوم ليبرة[1] من الخبز وجزءٌ من الشحم وقطعةٌ من الجبن الجاف بالإضافة لليتر من النبيذ سيء الطعم. وعند الساعة الحادية عشرة نحصل على حصة من حساء لا لحم فيه ولا دهن ويجدر بنا تناوله بأوانينا الخاصة فالجيش يفتقر للقصعات[2] والملاعق.

أغلب المجندين قد أتوا صفر اليدين ما عدا سكان بروتاني، تقاسمت أنا وميرفان أغراضنا طوعاً مع البقية. أصبح هناك الآن الكثير من فتيةٍ قادمين من القرى المجاورة لباريس من "لافيرتي" و"ميلي" و"نومور" والقلة من باريس الذين توجهوا بالمسير إلى الحدود حسبما قيل لنا. الضابط المسؤول عن كتيبتنا كان شاباً بالعشرين من العمر اسمه "سوزير" كان يعمل بنّاءً وهو من "تور".

٢٦ آب، مساءً:

أرجأ الرحيل لفجر اليوم التالي. ذهبتُ أنا وميرفان لحضور حفلة عند عائلة "غرافان" في حديقة لوغامبورج، لنخادع الملل الذي يرافق انتظارنا بل ودون شك لنصرع الخوف الذي يتملكنا.

فوجئت هنا أيضاً باستهتار الناس. أُقيمت الحانات في الممرات مقابل القصر القديم وزُينت أشجار البرتقال بأكاليل الزهور وFaroles. كان

---

(1) - ليبرة: ٥٠٠ غرام.

(2) - قَصَعات: جمع قَصعَة وهي وعاء خشبي يوضع فيه الأكل.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

هناك الكثير من النسوة بعضهن جميلات وشابات يرتدين كما لو أنهن في حفل وبعضهن يرقصن ويتحدثن تحت ظلال الأشجار، تبدو مهنتهن جليةً للعيان. عزفت فرقةٌ موسيقية ترتدي الزي الإيطالي رباعيات وأنغاماً فرحةً، رافقهم مغنٍ يصدح بأغانٍ لطيفة، سمعت أغنية "بايونت" ومطلعها كما أذكر: "وداعاً يا بابيت أنا جندي" لكنني لم أعد أذكر البقية.

وزِّع الطعام الوفير على الموائد المزهّرة، خفقت قلوبنا لتلك الروائح الشهية التي ترافق الأطباق اللذيذة فها قد مرّت أسابيع طويلة ما تناولنا فيها سوى الخبز مع الدهن وحساء الشوفان. يتراقص أمام أعيننا الجائعة الطيور والدجاج المسمَّن المشوي والقشدة والرز بالحليب بالإضافة للنبيذ رفيع المستوى وحسب الطلب. إلا أن التكلفة ٢٥ ليرة، مبلغٌ صعب المنال بالنسبة لنا.

تعرَّف أحد البرجوازيون علينا ونحن نرتدي قسماً من ملابس المتطوعين فدعانا إلى مائدته، ثم بعد أن امتلأت بطوننا بالمأكل والمشرب دعانا لتناول البوظة في جادة "مونتا بارناس" برفقة ابنته، شابةٌ سمراء جميلة، ترمق الصديق ميرفان بنظراتٍ ناعمة! مضت الأمسية بهذه الرفقة الممتعة.

يعمل الرجل البرجوازي كاتب عدل في شارع "ترافرزير"، وكان مقتنعاً بأن الحرب لن تحدث فالألمان لن يجرؤوا على تخطي "فيردان"، عانقنا كلينا ودعانا لزيارته لدى عودتنا من الحملة. أظن أن ميرفان لم يكن بحاجة لدعوة على ما يبدو! اسم الرجل البرجوازي "بيريول بونامي" والفتاة تدعى "أود".

يا لسخرية زمن الحرب الذي يثير لقاءات سعيدة لأولئك الذين يضعون أرواحهم على أكفهم.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

٢٨ و٢٩ آب:

ها نحن على درب أرغون بمسيرٍ إجباري لعشرة فراسخ. تم دمج سريتنا "الثانية من لوريان" مع سرايا أخرى من الشمال والجنوب الغربي.

حسب المبدأ فنحن تحت إمرة "كلَرمَن"[١] وطبعاً لن تتوصل أعيننا لرؤيته من حيث نحن، قال أحد رفاقنا أنه لمح الجنرال "هوشار Houchard"[٢] وهو رجلٌ ضخمٌ أشجٌ[٣] يتجول على صهوة الحصان على طول الطريق. كان بقيادتنا المارشال من مخيم "فوازان" والمقدم "داروتي" وكلاهما خارجين من الجيش الملكي وقد رفعت مقاماتهما في عام ٨٩.

على مقربةٍ منا الرقيب "سوزيه" الذي سلف الحديث عنه والعريف "لوكاه و هو نجار في الحالة المدنية انتخبهما كل رجال الجيش. هناك أيضاً قائدٌ هو جنديٌ قديم اسمه "سوليه"، يقوم بتدريب الرجال على استخدام بندقية الفتيلة وبارودة الحجارة ويعلمهم كيف يلقموها وينظفوها ويغيروا الصوان، الخ.

أنا وميرفان و"لانسكر" تدربنا سابقاً على هذه الحركات في لوريان لتدريب المتطوعين. ولكن بالنسبة للغالبية، فهم فلاحون شباب منهكي

---

(1) - فرانسوا كريستوف كلَرمَنْ: ولد في ٢٨ أيار ١٧٣٥ في ستراسبورغ وتوفي في الثالث عشر من أيلول عام ١٨٢٠ عن عمرٍ يناهز الخامسة والثمانين عاماً في باريس. لُقّبَ "بطل معركة فالمي". أعطي لقب فريق مع اندلاع الثورة الفرنسية في ٢٠ آذار ١٧٩٢، أرسل إلى الألزاس كقائد عام لجيش موسيل في آب ١٧٩٢. دبّر انضمامه للقائد دوميري قائد جيش الشمال، وكان أحد المنتصرين في معركة فالمي التي عرفت "قصف فالمي" في ٢٠ أيلول ١٨٩٢. اسمه مكتوب على قوس النصر.

(2) - جان نيكولا هوشار Houchard: جنرال في الثورة الفرنسية وجنرالاً في حرب الثورة الفرنسية ولد عام ١٧٣٩ وأعدم بالمقصلة في باريس عام ١٧٩٣.

(3) - أشج: من تبين شق جلد رأسه أو وجهه.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

القوى يجهلون تماماً استخدام السلاح يتقنون فقط استخدام المعزقة والمذراة، على كل حال، فلم يكن هناك ما يكفي من أسلحة للجميع. لذلك تم توزيع رماح قصيرة وسكاكين جزّ، وآخرون لم يكن بحوزتهم سوى عصيٍّ من الطريق.

وزعت سريتنا آلاف من بنادق الفتيل وبواريد ذات حراب. أولئك الذين لم يحصلوا على أسلحة، سيناورون بالعصي والهراوات ويمضون حافيي الأقدام. كم من السهل تخيل التقارير المرسلة لعدونا إذا ما وجدنا بيننا جواسيس نمساويين. حشدٌ من الحفاة والفلاحين بثياب رثة يتجهزون للمسير في مواجهة جيش الإمبراطور، إنها لفكرةٌ تثير الضحك! ولكن حقاً سدّ الحماس نقصان السلاح ولو سمع النمساويون والبيلاروسيون غناء الشبان وهتافاتهم لدبَّ الرعب في قلوبهم وخاصة بهذا العدد الهائل.

السادس من أيلول:

لم تتوقف الأمطار طيلة عبورنا لشالون أمس لكي نأخذ مواقعنا في المنازل التي استولى عليها مجلس الثورة. أقمت أنا وميرفان في الصالة المشتركة ضمن مزرعةٍ كبيرة حيث تمكنّا من نيلِ قسطٍ من الدفء تنثره نيران موقد ونتناول كفايتنا من الطعام. كل ما جرى معنا في باريس منذ ذهابنا قد سبقنا إلى هنا لا بل بشائعات مُغالى بها. تحدث البعض عن مؤامرة دبّرها الأرستقراطيين الذين كان عليهم تحرير السجناء عندما كان الجيش بعيداً. أشاع خبر مصرع الكهنة الغم والكرب بين جموع سريتنا بل وشقَّ الأمر على أولئك الفلاحين المتمسكين بديانة آبائهم. لعله أشعل فتيل تمرد. خشيت للحظة أن يباشر مسؤولو النظام بالاعتقالات فمن المؤكد أن الدم سيسيل حتى الركب وستهدد وحدة الجيش.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تقدم القادةُ ومساعدي الضباط الرجالَ وخاطبوهم بحماس. قال سوزيه: سيعاقب المذنبون بصرامة فالثورة لا تحمي القتلة بل تدافع عن الضحايا. إن الأمة تناديكم اليوم فأنتم متطوعون ولابد أن تبقوا كذلك.

تلا العريف بياناً باللغة "البروتون" فخمد سعير الغضب رويداً رويداً. ولكن في تلك الليلة، الليلة الأخيرة التي سنمضيها تحت سقفٍ يأوينا، بقي الكثير من الجنود خارجاً لا يأبهون لا بالمطر ولا بالبرد، تزمجر العاصفة بين الفينة والأخرى وكأن الآلام التي تسببت بها أحداث باريس ترفض الزوال.

تابعنا أنا وميرفان الحديث ونحن جالسون في قاعة المدفأة حيث تشتعل الجمرات. ميرفان ملحدٌ ماسوني لكنه يخشى الوقوع في الفوضى التي سيجرُّها مصرع الكهنة الثائرين. أما لانسكر فلم يكن مؤمناً تماماً بالمؤامرة التي دبرها السابقين، فبالنسبة له العدو متربصٌ بنا وهو أمامنا وإن جيش دوق برونزويك[1] مدعوماً بالمهاجرين سيتمكن إذا ما وصل إلى باريس من قلب مجلس النواب وإبطال الدستور وإغراق البلاد بظلام الماضي.

خلدنا للنوم بعد أن انتصف الليل بيد أننا ما استغرقنا بالنوم فلم تتوقف الحركة في الخارج، كما جافى النوم أحداق رفاقنا في قاعة المزرعة الكبرى تتناهى لمسامعنا أحياناً صيحاتٍ وعدو حصانٍ. أدركت الآن حقاً أن الإعداد للحرب جارٍ على قدمٍ وساق.

---

(1) - دوق برونزويك: شارل غويوم فيرديناند (٩ ت١/١٧٣٥ – ١٠ ت٢/١٨٠٦). جنرال وأمير ألماني، دوق برانسويك لونبورج وأمير لفانبوتيل من ١٧٨٠ حتى وفاته. خاض عدة حروب منها حرب السبعة أعوام وحرب الثورة حيث كان قائداً في حزب التحالف النمساوي والألماني لاجتياح فرنسا وسحق الثورة الفرنسية، خاض حرب فالمي التي انسحب فيها جيش التحالف.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

١٠ أيلول:

التحقنا بمعظم الجيش في "إيسليت" في وعورة وادي "لير" على تخم غابة كثيفة. تبثُ الرعب أكثر فأكثر وهي تنوء تحت الغيوم السوداء التي تلف الهضاب. تشكل لدينا انطباعٌ بأننا شارفنا على الحدود بعد المحطة التي توقفنا فيها في شالون وعبور سان – ميني هولد. لم أجد حرجاً بتصديق ميرفان عندما أخبرني بأن هنا الحدود التي كانت تفصل بين المملكة الفرنسية وبلد الجرمنين، فهذه الغابة الشعواء والجبال الوعرة تشكل حدوداً طبيعية. كان معبر "إيسلييت" هو المنفذ الوحيد. كنا نحن الحاجز، منع ضيق المكان أغلب الجيش من الإقامة. خيَّم حوالي ألفي رجل في أعماق الوادي منذ يومين ومن تبقى من الجيش حطوا الرحال في أعالي "سان ميني هولد". عُيّن "ميرفان" في خدمة الجرَّاح "أوبري"، لا حَق لي بأخذ مكاني معه في الخيمة الكبيرة التي كانت بمثابة مستشفى، لكنني فعلت.

الوضع الصحي لكتائبنا مثيرٌ للقلق. يعاني الكثيرون من الإسهال بسبب الماء الموحلة التي نشربها منذ وصولنا إلى أرغون والبعض الآخر يعاني من الروماتيزم والتهابات تنفسية حادة. تم إبعاد أولئك الذين تبدو حالاتهم مريبةً.

إننا نتضور جوعاً، ها قد مرّت عدة أيام وما تناولنا سوى خبزاً سيئاً لا بل عفناً بسبب الرطوبة. مضى وقتٌ طويل وما تذوقنا اللحم ولا احتسينا نقطة خمر. طرد الجيش الفلاحين من مزارعهم، توجسوا خوفاً مما هو أسوأ فلاذوا بالفرار إلى أهلهم في "إيزن" أو نحو "شالون". أرغم الجنود على النهب لسد الرمق، تم سلب المنازل المهجورة وإحضار كل ما يفيد الطحين والحبوب والدهون وحتى الأمتعة العتيقة والأغطية. اضطر الضباط على غضّ البصر. كره البعض هذه السرقة لكن الأغلبية وجدوا لها المبررات. سمعتُ بعض الرجال يقولون: "لو أنهم

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مواطنون بحق لما ولّوا الأدبار بل كانوا ليبدوا استعداداً على مشاركتنا ما بحوزتهم، فنحن من نزود عن الوطن" . لم تسعفني الكلمات رداً على ذلك.

عثر أحد رجال المستشفى وهو باريسي اسمه جيروم على قن دجاجٍ مهجورٍ خبأه الفلاحون خلف أغصان الشجر. لم يكن فيه أي دجاجةٍ إلا أننا وجدنا خمس وعشرين بيضة، قمنا بطهيها على الجمرات فكانت عشاءً لذيذاً.

علمنا اليوم بسقوط فيردان بأيدي البيلاروسيين. قيل أن "دوق برونزويك" وأركان حزبه يكابدون مرَّ الندم وأن كتائب "هيسي"[1] في مخيم محصَّن على بعد فرسخٍ من هنا في كليرمون. لم نهتم للمعركة الوشيكة هذا المساء حيث استولى على اهتمامنا العثور على مأوى ونيل قسطٍ من الدفء تنثره الزرجونة[2] و التهام الخمس والعشرين بيضة التي قمنا بشوائها على الجمر.

عزلنا البرد والمطر عن العالم من حولنا. منذ وقتٍ قريب، نمنا في العراء في "شامب دو مارس"، سرنا في باريس وسط حشدٍ منهمك، امتزج الحفل مع الحرب ليملأنا بالغبطة. أفكر بالطرقات التي تقودنا إلى "ميسلي" عبر "سان ميري" و"لابروتونوري" و"تاميل". أسفت أنني لم أتبع تلك الفتاتان مع مرفان وها أنذا أفكر بهن وعطرهن يداعب أنفي، مازلت أرى تلك النظرات الجريئة حين سحبننا إلى باب منزلهن، مازال بريق أسنانهن يلمع خلف ابتسامةٍ لا تنسى. أشعر أنني لم أقابل ما هو لطيف منذ سنوات، فليس أمامي سوى هذه الدروب التي سلختنا وحشرات المخيمات والخبز العفن زد عليه المطر البارد والغابة المعتمة التي تحاصرنا حيث يتربص بنا العدو كذئبٍ مفترس.

---

(1) - جيش هيسي: أحد الجيوش التي حاربت لويس الرابع عشر.

(2) - الزرجونة: أغصان الكرمة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أغمضت عيني لأطرد هذه الأفكار السيئة وبحثت في ذاكرتي عن وجه "ماري آن ناور" ونظراتها الصافية وابتسامتها اللطيفة التي تحملني إلى "بروتاني" بلدتي.

١٢ أيلول:

شاع خبرٌ أن العدو يحاول عبور "أرغون" من الشمال، بعد أن استقر على تخم الغابة في "مالانكور". قيل أن ملك بلاروسيا قد انضم مع الألمان القادمين من الشمال – الشرقي مع بلجيكا وهولندا. من أشاع هذه الأخبار تحدث عن جيش "كليرفاييت Clairfayt"[(١)] كما لو أنه قد رآه، آلاف الجنود المدججين ببندقية الفتيلة والبواريد ذات الحراب بطول ثلاثين بوصة كما أن هناك مدافع جديدة ودباباتٌ مليئة بالذخيرة والمؤونة. خيموا في "لاندرس" وهم على أهبة الاستعداد لعبور معبر "لير".

احتل معظم الجيش برفقة "دوموريه Dumouriez" مضيق "غراندبري". روى لنا أحدهم أنه سمعه يخاطب الكتيبة قائلاً: هنا "مضيق تيرموبيل" حيث سنقاوم حتى الموت.

يصعب تصديق هذا الخطاب البطولي لدى رؤية حالة جيشنا برجاله الشُعث[(٢)]، بللتهم الأمطار حتى العظام متدثرين بالأغطية بطونهم خاوية منذ أيامٍ والحمى تلهب أجسادهم، بالحقيقة لو نجح العدو بعبور معبر "غراندبري" فلن يمنعه شيء باقتحام باريس.

سرنا طيلة نهار أمس عبر الغابات يسوطنا برد الأمطار في وادي لير الضيق لنصل إلى "غراندبري" ونحن ننتظر في كل لحظة أن نقع في

(1) – فرانسوا سباستيان دوكروا دوكليرفايت: Fransois sébastian de croix de Clairfayet (١٧٣٣–١٧٩٨)، مستشار في النمسا، تميز في حرب السبع سنوات، أرغم عام ١٧٩٥ ثلاثة جيوش فرنسية على التقهقر وحرّر قلعة مانياس بعد محاصرتها حتى حصل على هدنة مع الجمهورية الفرنسية.

(2) – الشُعث: جمع أشعث أي اتسخ بدنه وشعره فتغير وتلبد.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

شرك كمين نصبه لنا الهوصار[1] أو أن تُحصد أرواحنا بطلقات بنادق الفتيلة. طوت الغيوم الثقيلة المنخفضة الضياء تحت جنحها فكانت السماء سوداء في وضح النهار و ابتلعت الغيوم قمم الهضاب.

بقي ميرفان في مخيم "إسليت". يجب نقل المستشفى إلى الخلف قليلاً على طريق شالون، وسيتم إرسال الجنود الذين غلبهم المرض بالعربات. لم يتخيل أحدٌ قط وجه الحرب هذا، أن تُجرح وتُقتل لا بالسلاح وإنما بالمرض والبرد والجوع والتعب.

وجدت أنا ولانسكر مأوىً لنا في الليل في تجويف صخرة على حدود "لير". فالخيام أصبحت بالية، قماشها مثقوب ونخرت الرطوبة أعمدتها. حاولنا إشعال النار رغم الأوامر بمنع ذلك، نريد أن نجفف ملابسنا لكن الخشب كان مبللاً تماماً يحترق دون أن يبعث الدفء بل ينشر دخاناً حامزاً.

رصدتُ كل حركة آتية من الغابة رغم التعب في سكون الليل. الفائدة الوحيدة في وضعنا هذا هو أن المعبر ضيقٌ جداً يلغي هجوم الجنود الخيالة. أصغيت لانهمار الأمطار يتساقط على الأرض، يقطعه بين الفينة والأخرى نوبات سعال الجنود. أظن أن كثيراً منهم أُصيب بالسل الرئوي، ليفاقم البرد والإرهاق من مرضهم، لاشك أن أولئك الرجال لن يروا مجدداً قراهم التي ولدوا فيها. سرقني النوم من هذه الأفكار الكئيبة فغفوت متكئاً على صخرة متدثراً برقعة خيمة لا فائدة منها تحيط بي زوابع الدخان التي تنتشلها الريح من الموقد.

من ١٨ حتى ١٩ أيلول:

تسارعت الأحداث بشكل يشقُ عليّ كتابتها الآن. أمس،مازلنا نشكل الحاجز في كراندبري وانضممنا لجيش "دوموريه"، بانتظار جيش

(1) - هوصار: جنديٌ من الخيالة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الشرق تحت إمرة الجنرال كليرمان ونحن نردد كلمة "دوموريه": أن مرتزقة ألمانيا والنمسا سيلقون "تيرموبيل"[1] هنا.

الآن وخلال أقل من نصف يوم من تراشقٍ بالرصاص مختصر وهجوم الهوصار من جيش "كليرفايت" تغلبوا على حاميتنا[2]. عوض أن يخدمنا ضيق المعبر حوّل الدفاع مستحيلاً. بلحظات، كسر الجنود البلاروسيين حاجزنا وتشتت الجيش الفرنسي في الغابة يلاحقهم الذعر فبالنسبة لهم هنا ستكون محرقتهم. كنت في الخلف عند مدخل المعبر، عندما حُمّل أوائل الجرحى على نقالات. أصيب غالبيتهم برصاصة اخترقت الصدر مباشرة، لقوا حتفهم فوراً أو يصارعون مع الموت. رأيتُ جروحاً مريعة بالسلاح الأبيض لأن الهوصار البلاروسيين فتحوا لهم معبراً عبر دروب "لير" بضربات من سيوفهم. لم يكن هناك سوى جرّاحَين، يكمن الإرباك أن كلٌ يفكر بإنقاذ نفسه أولاً، أظن أن الكثير من الجرحى سيتركون ليلفظوا أنفاسهم على ضفاف "لير"، أو ستلتهمهم تلك الليلة الوحوش الضارية، ربما لذلك قيل أن ذاك اليوم لم يسجل سوى قلةٌ من الضحايا. دخل الجيش البلاروسي عبر المضيق، تدفقوا طيلة اليوم عبر المضيق كنهرٍ في مصبه. أما نحن فاختبئنا في الغابة لم نتمكن من رؤية شيء لكننا سمعنا دحرجة الآلات وذواليب المدافع. وقعقعة الأسلحة وامتزج خرير الماء مع طقطقة الحديد ليعطي صوتاً مرعباً.

تملّكنا اليأس ذاك اليوم، فقد خسرنا كل شيء ولم يعد لدينا خيار آخر غير الموت تحت طلقات العدو أو حسب بيان دوق برونزويك: سنعود

---

(1) – معركة تيرموبيل ١١ آب ٤٨٠: جابه الجيش اليوناني (٧٠٠٠ محارب) الجيش الفارسي بقيادة Xerxès 1 (٥٠٠ ألف محارب و٥٠ ألف فارس) عند مدخل مضيق تيرموبيل. ولّى معظم الجيش اليوناني أدباره استسلاماً لكنهم انتصروا في النهاية بعددٍ قليلٍ من المحاربين.

(2) – الحامية: مجموعةٌ من الحراس لحراسة موقعٍ ما.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لنعلّق بأغصان الأشجار فلا يريد أي سجينٍ لديه. كان برفقتي حوالي خمسة وعشرين رجلاً أو بالأحرى خمسة وعشرين فتىً مذعورين ومشتتين، من بينهم فتى من "بروتاني" بقامةٍ ممشوقة وطبعٍ دمث وشعرٍ طويلٍ أشقر، يحمل اسماً مختاراً هو "سامسون".

هدأت من روعهم بكلامٍ مشجعٍ، تمكنت من إقناعهم بمحاولة الالتحاق بصفوف الجيش في الجنوب عوضاً عن الهرب. بعد مسيرٍ دام لأكثر من ساعة في الغابة، فوجئت بكل سرور أننا نسير فطرياً حسب خطة "دوموريه" الذي انسحب وجيشه على طول وادي "إيزن"، كهجومٍ معاكس نحو الجنوب. عَدل البلاروسيون عن اللحاق بنا بعد أن أعاقهم ضيق المعبر، والوحل الذي يفرشه. جهز جيش "دوموريه" المدافع على المنحدرات، على طول النهر. إنهم على أهبة الاستعداد مع أول إنذار لرمي كل من يحاول اللحاق بنا بالنيران، على هذا الأساس تمكنا من إنقاذ حياتنا بعد كارثة "غراندبري".

عُزِّز معسكرنا عند مدخل الغابة أعلى "سانت مينهولد" طيلة يوم ١٨. أطلَّ صباح ١٩ بعد ليلٍ طويلٍ جافى النوم فيه أحداقنا، مزَّقت الشمس فراش الغيوم فتلألأ الألمان كمشتلٍ من فولاذ على الجناح المقابل للوادي على الخاصرة الشرقية، خفق فؤادي واحترقت بالحمى. تقدمت مع بعض الرفاق ومنهم "سامسون" نحو الجرف الصخري المطلُّ على إيزن، عندها، لم يبدُ لنا ما هو أكثر دهشة وبنفس الوقت أكثر تهديداً ومليئاً بالعظمة من القدرة البشرية. خطَّت الغيوم المتدافعة بهبات الريح والتيارات المتضاربة في السماء سطوراً عن المعارك الوشيكة على الامتداد المعتم لغابة أراغون في الجوار وعلى رؤوس الهضاب والصخور المشرئبة بالضباب والمغطاة بالرجال المسلحين.

سدَّ الجيش البلاروسي والنمساوي الطريق إلى باريس باتجاه الغرب أمامنا، فهم يودون تدمير الجمهورية وإعادة الامتيازات للملك السابق

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وللديكتاتورية. لمحنا أفواج كليرمان قادمين من سيدان يتلسقون وادي "إيزن" وسيل "تورب". أخيراً رأينا في الجنوب جيش المتطوعين الهائل، أخذوا مواقعهم على نجد "دامبير" أعلى "سان – مينهولد" والذين ينتظرون لحظة السير نحو العدو.

تبعثرنا عند أوائل السهول المترامية حتى شالون، لمحنا عن بعد أعمدة الدخان تتعالى من القرى التي أضرم البلاروسيين فيها النار انتقاماً. علت خفقات فؤادي و أنا أرى كل ما يجري، أتصبب عرقاً رغم البرد الشديد لتبتل يداي وجبيني لأنني فهمت أن كل شيء سيؤول للنهاية هنا، على خشبة هذا المسرح المهيب والمتوحش. ستقرر شجاعتنا ومصادفات المعركة مصير بلدنا، كنا على المحك.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

شائعات الحرب

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

نثر اقترابُ الصيف شيئاً من الضيق. اجتاحت أوائل السنونو سماء المدينة فجأة مطلقة صرخاتها الثاقبة. احتمى جان بزجاج النافذة ليراقب تلك الطيور التي تطير على مستوى حبال القطار الكهربائي "الترامووي"، يشكُون نحو الأرض ثم يرتّدون شاقولياً إلى سطوح المنازل.

لم تكن أصوات هذه السنونوات فرحة، قال الناس أن صوتها حزين ليست كأمهاتها. كانت تصدر صفيراً مقلقاً مزعجاً، يغمره التهور والعنف ليطغى على السكون الخمول لبعد ظهر يوم الأحد، في سماءٍ بيضاء مترامية.

سيبلغ جان عامه السادس عشر في شهر آب. بدأ بقراءة الفلسفة اليونانية "بارمنيد" و"هرقل" و"أناكساغور" وأيضاً "سوفوكول" ثم "ريمبو". اطلّع على هذه المعلومات بكتاب قديم منزوع الغلاف اشتراه من "سوق الحرامية". كما أنه اطلع على المسرح الكامل لشكسبير في كتابٍ مجلدٍ بغلاف أحمر اللون، لم يتركه الإنكليزي إلا بعد موته. كُتب على صفحاته الأولى بيد طفلٍ فرحة من زمنٍ آخر:

. My motto: be true to myself. أكون صادقاً مع نفسي".

لاح الصيف بهذه الحلة الوحيدة والمقلقة بسمائه الرصاصية الضبابية. مرّ وقت طويل ولم يذهب جان لزيارة العمة كاترين. حدث شيءٌ ما لم يفهمه، شيءٌ ما مزقه بلطف دون أن يعيره انتباهاً، لطالما أحبها وهو لا ينفك يفكر بها، إلا أنه يرفض صعود الأدراج في لاكاتفيفا حيث صار صراخ طائر النغل يدخل الرعب في نفسه. ذكره صرير السنونوات الحاد ببيت الدرج الفارغ والدهان المقشور وتلك الصفيحة المعدنية اللامعة التي كُتب عليها "أدهيمر دو سومرفيل" والأذى الذي تخفيه.

كان كل شيء في المدرسة بطيئاً وثقيلاً هذه السنة كنكتة شائعة مكررةٍ جداً. يتصدر السيد" بلاسما" الصف و هو رجلٌ سمينٌ رماديٌ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

اللـون، لا يعبِّـر وجهـه عـن آلامـه وسـط الـصراخ والمـزاح، بـين البطاطـا المسلوقة التي يرميها الطلاب، الكريات من الـورق المعلوك التي يطلقوهـا بأنابيب أقلام الريشة في رائحة مقززة يصدرها البعض، كراتٍ عفنة وبلاستيك محروق في آخر قاعة الصف. كان "أموريتو" يغطي صدره العاري بقميصٍ فيبدو وشم النجمة الحمراء على نقرته الحليقة. أما مالاتيستا فيتصفح كتب راسين وشاتوبريان وستاندال بحثاً عن كلماتٍ بذيئة قد تثير الضحك، يضع سبابته على الصفحة وتنزلق نظراته الماكرة تحت الطاولات، لا يقارعه أحدٌ بتلك النظرات المستكينة المتموجة.

هناك أيضاً "أروزا" الذي لا مثيل له الخلّاق المتحذلق، إلا أنه فقد مسحة الملائكة التي علت وجهه بعد أن خُطَّ إطار فمه بذقنٍ تكاد تنبت. ومع ذلك ظلَّ النداء المفضل لاسمه كالماضي بتقليد صوت فتاة: آ... رووووزة! فتعلو وجنتيه الحمرة ويخفض بصره واضعاً يديه على أُذنيه مبتسماً وحاقداً.

يسعى جان لتربط ما بينهما أواصر صداقة ربما بدافع الفضول أو الشفقة أو بكل بساطة بلا مبالاة. مع بدء العام، رافقه في أوقات الاستراحة في الشارع، حتى آخر الطريق نحو المحطة حيث يقيم "أروزا" في مبنى قديم مترفٍ، له بوابةٌ بدفّاف[1] مثل الفنادق الفخمة في الزمان الغابر. يعيش مع جدته. قرأ جان اسمه مكتوباً على صفيحة معدنية "ليونورا أروزا". أدرك فجأة أن "أروزا" ليس لديه اسماً فقط اسم عائلةٍ غريبٍ والذي يثقل على كاهل شابٍ خجولٍ وهزيل.

خلق كل ذلك فراغاً كبيراً، وقعت العمة كاترين مريضة أصيبت بنوعٍ من الخدر في جعبة الغياب التي ابتلعت العام. نسي جان مخططات الآلة

---

(1) - دفّاف: رواق اسطواني صغير ذو أبواب زجاجية، على شكل دف، يقام عند مدخل البناء لمنع الهواء أو البرد.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

التي ستحل محل عينيها. فقد تلك المخططات أو بالأحرى رماها يوماً ما دون أن يعيرها انتباهاً مع قصائده وكل حشو الكلام المتراكم منذ طفولته. لم يعد يريد أن يُطلَّ بوجهه لئلا تقرأ السيدة العجوز ذلك بأناملها النحيلة التي تمدها كسلسلةٍ تربطها بالوجوه الأخرى في حياتها.

بالطبع لم يكن ذلك جيداً. سألته شارون: "ألن تذهب لرؤية عمتك؟"، إنها تتحدث عنك في كل مرة. عليك أن تحمل إليها بعضاً من الحساء وقطعة من الكيك. فهزَّ جان كتفيه، إنه لا يريد أن يفكر بالعمة كاترين كشخصٍ بحاجة للحساء أو الحلوى أو لتبادل الأحاديث.

لقد صمدت طيلة حياتها، هزمت الحداد والخراب والضرارة. إنه واثقٌ أنها ستتفهم فهي شخصٌ يعرف كيف يلعب هي الوحيدة التي تمكنت من اللعب مع الحياة لتفتح الورقة المناسبة بالوقت المناسب وترمي النرد بانتظار الرَّد.

مازال اسم "أورور" يلقي فيه الرعشة. كان يتسكع في الطرقات متذرعاً بمرافقة "أروزا" حتى يصل إلى السكة الحديدية ثم يتوقف في ظل الجسر المُدَّعم الكبير متظاهراً بالاهتمام بتلك "البسطات" الهزيلة المهددة بالفشل الذريع، فقد سنَّ مختار المدينة، وهو فارسٌ قديم يدعوه والده "فارس الصناعة"، قانوناً صارماً ضد الباعة المتجولين والغجر والبائعين المستعجلين والذين يراهم كالمتسكعين الشحاذين. لم يبقَ أسفل الجسر سوى الحطام.

تخيل جان أن يرى "أورور" مثل الماضي ترتدي زيها الأحمر الرماني، يشعُّ وجهها النوراني كالقمر بتلك العينين المائلتين المرسومتين كالجواهر. وشعرها اللامع المنسدل على كتفيها.

كم داعبه حلم أن يعلمها "كلام البشر" ويحررها من سيطرة عائلة "جاندر" ومن عبوديتها لهم. كم تمنى أن يقدم لها كل ما ينقصها لتكون

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كغيرها شابةً جميلةً وذكيةً، يقع الجميع بغرامها، سيشتري لها دفاتر كبيرة ذات مربعات لتدوّن على صفحاتها قصة حياتها، لتتمكن من البوح مما كان يختبئ خلف ذاك الباب ذي الصفيحة المعدنية اللامعة، وأن تتحدث عن حياتها الماضية في هانوي، عن ذاك المنزل الكبير الذي يغصُ بالخدم. إنها بالنسبة إليه "كأميرةٍ صامتة" تنتقم من كل الإهانات التي تعرضت لها حتى تفجر ما تسببت لها عائلةً من "جاندر" من خجل كغشاءٍ منتفخٍ جداً لتعود حرة وبريئة كأنها ولدت من جديد. حَلم أن يصطحبها إلى طرف العالم إلى ماليزيا، إلى إيبو أو إلى موريس في حديقة "إيبين". بقي شارد الذهن طويلاً تحت الجسر ثم ابتعد عن "لاكاتافيفا" دون أن يمر على العمة كاترين. لقد كان حلماً، مجرد حلمٍ يملأ جعبة اللامبالاة.

حلَّ الصيف فأترع المدينة بهذا القلق وتلك العزلة. كان يخرج مع الصباح الباكر ويزرع الطرقات بالخطى حتى هبوط الليل، جاب شوارع وأزقة بعيدة لم يكن يعرفها ولا يعرف حتى كيف وصل إليها.

ما سمع قط وما رأى أسماء هذه الشوارع: لاتور، لوكولي، لاساباتوري، شارع شور وشارع هنري – كريستين وشارع كوكو ناتو ثم شارع فون كودا ودرب لاكونك إلى جادة أربرسوتان وكوبا وكولومبو. إنه السير دون توقف ودون هدف ليس سوى ضربٌ من الحمى لا علاج له.

كلُ شيء ينضح بالغم البحر المسطح الرمادي والشوارع وأسماء حتى سعف النخل الغافية في أصيصها. فهم جان سر ضيقه عندما لاحظ أن الأرض ابتلعت الظلال. وثب بنعلي حذائه على الزفت اللزج كما لو أنه بساطٌ ثخينٌ. عادة ما يتراكم ظله عند قدميه خفيفاً غير محسوس، بحث عنه عبثاً اختفى كدخانٍ نفثه.

خوت الشوارع حول المحطةٍ وأغلقت نوافذ الأبنية والمنازل وأنزلت المحال أبوابها الحديدية كما لو أننا في حالة "احتجاج"، هناك فقط بضع

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

حانات معتمة ككهوف قديمة تحمل أسماء ضفاف البحر المضحكة، أسماء تلقي الرعشة في النفوس، تفوح منها رائحة البستيس(1) وتصدر أمواجاً من الجلبة من صندوق الجوك يرافقها صُراخٌ أجش. تلك الأسماء، تلك الأسماء خاصة، أسماء هزلية لحوحة كالعصفور كسير الجناح: لافوال، لوغاليون، أوغراندبان، ليسكال، لابارك آرو. تلك الأسماء التي نأمل ألا نراها من جديد. كم رغب جان أن يزور الأحياء الضائعة في إحدى تلك المدن التي لا نراها لمرتين مثل "أوديسا" على البحر الأسود وكرك في يوغسلافيا وشيشستر وتريست، أو بعيداً جداً في تلك المدينة حيث تتوقف الحياة، مدينة حيث الانتظار الأبدي والتغير مستحيلٌ تماماً، يلعب الهواء على الأرصفة المغبرة بشوارع عريضة خاوية يدوِّي فيها بين الفينة والأخرى ضجيج دراجة، مدينة تعود لآخر العمر، لآخر حقبة نافودكا، ايكاتيرينبورغ وبالما ودوماجورك.

يغفو البحر المتوسط في خلجانه الصغيرة البيضاء. بحرٌ هادئ لا تاريخ له، بحرٌ كثيفٌ وخطيرٌ، يَطفو الرجال على سطحه كالحطام على طول الشاطئ بين ركامٍ آخر. تتلألأ قطرات العرق وتفوح رائحتها. إنه أول صيف يبتعد فيه جان عن البحر ويتردد بالسباحة بين أمواجه. إنه يخشى رطوبته ولطافته، لا يرغب الاستسلام للندم على الذكريات. البحر هو بحيرة من القلق، امتدادٌ غير مفهوم ومستحيل بل عصيٌ على الإدراك. مع نهاية اليوم، اتجه جان إلى أرضٍ غامضة، على مقربة من الميناء، يتوسط حقلٌ من حواجز حجرية مزروعٌ بالزيتون منطقةً استولت عليها ورش البناء. إنها آخر مساحة شاغرة ما بين بنائين من الاسمنت قيد البناء ذات الشرفات المتشابهة.

الأرض الأخيرة التي تنتظر الدمار، نُزعت الأسلاك الشائكة المستخدمة كسياجٍ في بعض الأماكن لتسمح للمتنزهين باللجوء لفيء

---

(1) - البستيس: مشروب معطر بالأنيسون.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

شجر الزيتون،ليتبادلوا أطراف الحديث وليغفوا قليلاً. تضمُّ بظلها العشاق الذين يأموها مساءً وبعد الظهر، يلعب الأطفال بالكرات محتمين بأغصانها. إنه الصيف الأخير، جان يعرف ذلك دون أن يدرك السبب ربما تحدثت الصحف عن ذلك أو لعله التهديد الذي تلوّح به الرافعات والجرّافات في الجوار، يتربص شيءٌ من الخطر لا يمكن الإفلات منه.

إنه الصيف الأخير الذي يرى فيه البحر دون هدفٍ ودون مستقبل بالكاد يمتدُ ظلٌ خفيفٌ من الماضي كالدخان. يتلألأ البحرُ ما بين أوراق الزيتون. جفّت جراح نبَات الأغاف[1] القديمة تحت ألسنة الشمس، وضربات السكاكين التي حفر بها العشاق أسماءهم، تلك الأسماء التافهة والطريفة تكشف عن لحظاتٍ تتحدى الحياة، ليلي، بير، كرستين، أ. ج.

تنبعث رائحة التراب والعشبِ اليابس المصفر حيث النمل وأم أربع وأربعين والذباب المسطح، لتمتزج مع رائحة الإسمنت في ورش البناء المتوقفة تحت قيظ الصيف، ذلك التعرق الصعب السيء الذي يلمع على بشرة المدينة وعلى الحصى وعلى الهضاب المشوّشة على البحر وفي السماء. إنه الضيق الذي يستولي على الرحيل، مغادرة الطفولة واقتحام عالم البالغين، عالمٍ من الحروب.

كان جان مارو متيقظاً لكل تفصيلٍ ولكل لحظة، فهو ألم تصطك له كل أعصابه. لاذ إلى آخر تلك الأرض هناك في الأعلى في آخر مصطبة، بجانب حباك الورش. كان المكان قذراً ومهجوراً، يتردد إليه المتسكعون لقضاء حاجاتهم بين العلّيق، ولكنه من هنا يطلُ على كل شيء حتى رافعات الميناء والنفايات ذات الغبار والمنارات والدرب الأزرق الطويل الذي يقبّل الأفق، البحر..

---

(1) – نبات الأغاف: يعود إلى المكسيك وجنوب غرب أميركا. تتأقلم هذه النبتة مع الجفاف وحرارة الشمس، نبات مزهر يعيش لعشرات السنين.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أشار "سانتوس بالاس" لجان إلى حديقة الزيتون. المكان المفضل لمطالعة "فيرجيل" أو بارميندس وهيراقليطس. لم يكن سانتوس يكبره سوى بعامين لكنه يبدو أكبر بكثير، يتعذر اللحاق به في الشهور الأخيرة التي سبقت فحص البكالوريا، تكرر خروج جان مع "سانتوس بالاس". إنها المرة الثانية التي يتقدم فيها سانتوس لهذا الفحص أو بالأحرى الثالثة وهو يزدري هذا الفحص ويعتبر أن هذا التقليد الخاطئ باجتياز الفحص ليس سوى طريقة لفصل طبقة البروتارية اللامحددة عن الطبقة البرجوازية السائدة في المستقبل ثم يتبع الكلام بالقول: "أنا أريد أن أصبح فناناً ماذا سأصنع بشهادة البكالوريا؟".

سانتوس شابٌ وسيمٌ بيد أنه متشائمٌ تحوم في رأسه أفكار سوداء. يرسم في غرفته صوراً لنساء شاحبات بنظرات فارغة ولوحة لم تنته بعد على شكل جمجمة من الجهة الخلفية. استقل وهو بعمر العشرين فاستأجر استوديو في الطابق الأخير من مبنى في حضن التل مقابل البحر. عشيقته فتاة جميلة ببشرة ملوّنة وشعر قصير، عيناها فاتحتا اللون بنظرة فارغة، يتراوح عمرها بين السابعة عشر والثامنة عشر عاماً. بالنسبة لسانتوس هي النموذج الذي يرسمه.

في أحد الأيام، جعله سانتوس يرى صورتها عارية بعد أن رسمها على ورقة طويلة، ممددة على بساط، جسدها نحيلٌ شفاف بجوانب ناتئة ولنهديها بثورٌ بنفسجية اللون، يغطي العانة سوادٌ كثيفٌ لا حشمة فيه.

لاذ جان بالصمت وعيناه معلقتان بهذا المثلث العنيف، أعقب سانتوس بهيئة مستقلة مليئة بالكبرياء وعذاب الغيرة: "هل تعلم، لو أعجبتك يمكنني أن أدبر لك موعداً معها فهي تقوم بكل ما أطلب منها".

جان متأكدٌ مما سمع تماماً.

لم يكن يخلو سانتوس من الوقاحة والتحريض. ترافق عتمة وجهه الأندلسي المغربي عيناه الفاترتان بنيتا اللون تحدّها حواجب كثيفة متصلة فوق أنفه كأجنحة شحرور.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

دعا سانتوس جان لأكثر من مرة لمقابلته في منزل والدته التي تعيش وحدها في شقة كبيرة فخمة في إحدى الأحياء الراقية في المدينة. اسمها "ليا" وهي امرأةٌ جميلةٌ وأنيقةٌ عادةً ما ترتدي ثوباً طويلاً أبيض اللون، شرقي الطراز. هيئتها مسرحية بعض الشيء، لقد سمع سانتوس يقول مرة أنها كانت فيما مضى ممثلة في لبنان ومصر. يبدو جلياً أنها "مهاجرة". بتلك اللهجة المغناة والصوت الأجش الذي يذكّر بالروس أو البولونيين.

تربط سانتوس مع والدته علاقةٌ غريبة فتارةً يناديها باسمها وتارة يخاطبها بصيغة التفخيم. يتصرف جان بالمبلغ الذي يرسله والده كل ثلاثة أشهر منذ طلاقه. هجر والده العائلة بعد أن التقى بفتاة شابة واستقر معها في إسبانيا في "المنيكار" على "الكوستا بناناس" حيث يقوم بأعمال عقارية. يهيمن على حديثه عن والده حقد مكبوت وينعته "بالقذر والاستغلالي واللاشيء.. ".

لم يدعُ جان سانتوس لزيارته أبداً فهو غير فخور بالمكان الذي يعيش فيه، فما تخيل أبداً أن يعير صديقه أقل اهتمام لهذا المكان الضيق الصغير حيث يحلق فشل ومرض والده، وهذا متناقضٌ تماماً مع الحياة البرّاقة الدرامية التي تعيشها عائلة بالاس. الشيء الوحيد المميز في حياة جان هو مسقط رأسه إيبو في ماليزيا وجنسيته البريطانية. إلا أنه يتحفظ بالحديث عن موريس وعن كل ما أودعته العمة كاترين كسرٍ لديه. ومن جهة أخرى فإن سانتوس لا يطرح أسئلةً أبداً.

يتمكن جانٍ بكل بساطة أن يغير وجهته لدى عودتهما معاً من المدرسة بقول: "حسناً أنا سأتابع طريقي من هنا.. " ليقول سانتوس: "حسناً إلى اللقاء" ثم يتجه بطريق مستقيمٍ دون أن يستدير. ربما من باب الكتمان، لكن جان يدرك تماماً أنه لا يكنٌ لهذا الفتى المستقل والجذّاب سوى ذاك الاهتمام الذي نوليه لهاوٍ غر لا يخلو من الإزعاج، نشعر بالمتعة بانبهارنا به مع طيفٍ من الملل وقليلٍ من الازدراء. إنها المشاعر الأكثر اضطراباً التي عاشها جان في حياته.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كما أنه وفي بعض الأحيان، مدفوعاً برغبته بالانتقام تمر أيامٌ وأسابيع لا يخاطب فيها جان سانتوس، يتحاشاه بتغير الطريق. لم يكن الأمر صعباً، فسانتوس لا يغير طريقه أبداً لأن حياته مليئة لدرجة أنه لا يعير انتباهاً لمثل هذه الأمور، يتجه بطريقٍ مستقيمٍ دائماً. يكفي أن يغير جان وجهته شارعين ليصبح بعيداً عن أنظار سانتوس. إن سانتوس هو من لقّن جان الفلسفة ما قبل سقراط وهرقل وبارمينيدس[1]، حتى أنه أعاره نسخته من قصيدة بارميندس بترجمة بوفري مع غلافٍ مزركش مع إفريزٍ بني على خلفيةٍ بيضاء. كتابٌ مهترئ من كثرةٍ التقليب، ويحتوي أيضاً على النصٍ اليوناني. تلك الكلمات الغامضة كعبارات سحرٍ، حفظها جان عن ظهر قلب مساءً لترافقه طيلة اليوم كطريقٍ للتواصل مع سانتوس ومشاركته في غموضه وكآبته: "*ما نفكر فيه و ما من أجله وجد التفكير شيء واحد*". أو أيضاً عبارات معلقة باللانهاية تشبه تماماً العلامات التي تجلب القدر: "*القمر يضيء ليلاً بنورٍ يستمده من الخارج دائراً حول الأرض*".

كان يتلو مطلع القصيدة التي يرتجف لها قلبه، بدء الرحلة إلى المعرفة:

"*قادتني الأفراس التي تحملني بعيداً حيث هفا قلبي وأوقفتني الآلهة عند ذلك الطريق.*"

لم يتناقش جان أبداً مع سانتوس بمعنى شعر بارميندس، ففي الواقع إنها لا تدعو للحوار، فهي تتلألأ بقوة بالوضوح الذي نظمت به. فلتلك القصائد سماءٌ تحمل نوراً خاصاً. قال سانتوس أيضاً: "*و لما كانت جميع الأشياء تسمى النور و الليل و أطلقت الأسماء على كل صنف من الأشياء طبقاً لقوة كل منهما ففي كل شيء مقدار متساوٍ من النور و الليل.اللامرئي إذاً لكلٍ منهما نصيب*".

---

(1) - بارمينيدس Parménide: (٥١٥ – ٤٤٠ ق.م) ولد في مدينة إيليا اليونانية على الساحل الإيطالي وكان شاعراً وكاهناً للإله أبوللو. من المدرسة الإيلية.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

جاءوا إلى هنا إلى حديقة الزيتون في قيظ بدايات حزيران، قبل أيامٍ من امتحانات البكالوريا. في لمعان سطح البحر الشديد، هبت ريحٌ عاصفة لملمت من السماء أي أثرٍ للرطوبة، ينبثق البحر بين الفينة والأخرى ليعلو الحاجز عندما تحاول إحدى الموجات تسلُّق الكاسر. يستعيد جان هذا الانطباع كيومٍ أبدي. قال سانتوس: "الفلسفة لا أن تقول هذا أو ذاك وأن تبرهن بعض المفاهيم، فهذا يفعله كل الناس أنا وأنت والبقال هناك في الزاوية، وإنما الفلسفة هي التناغم في الزمن السماوي وفهم مسيرة الكواكب". قال هذه العبارة دون تبجح. لم يفهم جان أن لبارمينيدس حدس الثورة الكونية، كروية الأرض والقمر ككوكبٍ يدور حول الأرض يعكس في أطواره نور الشمس. لعل بارمينيدس قصد شيئاً آخر بجملته، فبالنسبة له ولسانتوس في فيء أشجار الزيتون، في أحضان هذه الحديقة المهددة حيث تبعثر أشعة الشمس زَبدها وتفوح رائحة التراب العطرة والنتنة بآن واحد فإن تلك الجملة تتحدث عن مشهدٍ هزلي للموت والجمال مشهد مأساوي ساخر، لابد أنها تتحدث عن لحظة حيث تدور رحى الحرب في الطرف الآخر للبحر، تلك اللحظة التي لن يكون لهم وجودٌ أبداً. ذكر سانتوس بيت الشعر كما لو أنه آخر كلماته: "*كل شيء واحد حيث أبداً لأني سوف أعود إلى المكان نفسه*".

وفعلاً كان ذاك اللقاء هو الأخير لهما. باءَ سانتوس بالاس بالفشل في الامتحانات بشكلٍ طبيعي، لعله حتى لم يتقدم أو لعله رسم على الورقة البيضاء في حين يسود على أوراق أخرى إعادة لدروس الفلسفة، ورقة زهرة الأغاف حُفر عليها الاسم السحري: أ. ن. ا. ك. س. ا. غ. و. ر. ا. س. ي. ر. ا.

تم إلغاء تأجيله ثم التحق مع نهاية أيلول بفوجِ مشاة نحو الجزائر، وما التقيا مجدداً.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

هيمن الغم في كل زوايا المدينة، ترشح الكآبة من قارعة الطريق الحامية ومن هياكل السيارات وحتى من تلك الواجهات الصفراء بمصراعيها المغلقين والأقبية بمنافذها المعتمة. يلوح الحزن خاصة من تلك السماء البيضاء التي لا لون لها تقريباً، من البحر ومن سعف النخل الجامدة في أصيصها. فكر جان مارو أن هذا يشبه العيش في صورة للحظة لمجرد لحظة، لا شيء خلفه ولا شيء أمامه. المدينة خاوية يجوبها الخوف، إنه يرافق المارة في الطريق ويتسابق مع السيارات.

اللحظة الوحيدة التي يفلت فيها من الخوف، مع الصباح الباكر حين يذهب للسباحة قبل أن يجتاح السياح الشواطئ، أو في وقت متأخر جداً حين يرخي الليل سدوله. ينثر الغسق أنوار المساء على وجه البحر ليغدو لطيفاً وكثيفاً، تلامسه طيور النورس نائحةً تختفي نحو الغرب باتجاه وَهد "جاس مدام" ليحطوا على جبال القذارة في انبعاث الميتان[1].

ينظف البحر كل شيء صباحاً ليغدو المنظر أكثر جمالاً. ينساب جان ببطء وشفاهه بمستوى الماء المعتم الذي يسيل على جانبيه كالنهر، يداعب كل خلية ببشرته ويروي شرايينه. يغطي السماء شحوبٌ متألق، فجأة تنبثق الشمس أعلى القمم وتنغرز أشعتها في أحداق جان لينبهر في أعماق تفكيره.

هكذا، لا شيء غير ذلك. خلفه، ترمي الأرض المغلقة البعيدة والغامضة بعض الصرخات والضوضاء وأصوات أبواق السيارات تمتزج مع صرير المكابح وطقطقة الناقلات الحديدية على السكة، لتزمجر الإطارات على الجسر الحديدي قرب "لاكاتافيفا".

فكّر بسرّه: "سأسافر، سأتابع سأسبح نحو الأفق، بعيداً جداً لأصل لنقطة اللاعودة". فكر بذلك للحظة، لا يريد الموت فقط الرحيل. لكن شيئاً ما منعه. تجمّدت الشمس وتيبّست في السماء ومن تحت جسده،

---

(1) - الميتان: غاز المناقع والمناجم.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أصبحت مياه البحر شديدة العمق والبرودة، مرعبةً جداً دون أمواج فقط تموّجات هائلة بطيئة تتدافع وتتدافع.

نظر إلى الخلف كما لو أنه ينحني فوق حفرةٍ تشدُّ وترخي بآنٍ واحدٍ، رأى جان الشاطئ كخطٍ أبيض وكذلك متوازيات الأبنية والشوارع وبريق الشمس على الزجاج. مازال الوقت متأخراً جداً للعودة. متأخراً، باكراً، ليس بعيداً كفاية، ليس تائهاً، يلزمه ساعةٌ من السباحة دون شك قبل أن تلامس قدماه الأرض. فجأة، عبرت تحت أنفه بخمولٍ سمكة " قيصانة البحر" غريبة الشكل ومنتفخة مستسلمة للتيار وهي تدور حول نفسها كزوبعةٍ غامضة. فسح الوقت أمامه المجال لرؤية عينيها الزرقاوين الواسعة وشق فمها كابتسامة وزعانفها المتباعدة مستسلمة لأمواج البحر تحملها خبط عشواء. قال في سرّه أنه لن ينسىَ أبداً بل ولعل هذا رسالةٌ من نوعٍ ما، جوابٌ على أسئلة "انكساغورس" و"هرقليطس" جملة، بيت شعر، قطعةٌ هاربةٌ من المجرة.

انكبَّ إذاً على السباحة ببطءٍ ولكن بثقة مطلقاً يديه أبعد ما يمكن، مباعداً ما بين أصابعه ليمسك الماء. يخفق فؤاده بهدوء بين ضلوعه وصلت قدماه لتطأ جزء من الشاطئ ثم تمدد قرب الطريق حيث يجلس السباحون والسباحات لدهن أطرافهم بلبِّ النارجيل[1]. انتظر أن يلتقط أنفاسه في حين تجف قطرات الماء على جلده. خلال برهة، لم تتجاوز الثانية، قال في سرّه: اليوم كان يوم موتي. إنه لأمرٌ ساخرٌ حقاً.

تتمدد الشابات بالبكيني من حوله على المناشف صفراء اللون، دفعت الأمواج جسده إلى الشاطئ وركض الأطفال من حوله يصرخون وقد أرعبهم وأثار حفيظتهم رؤية رجلٍ غارق. لقد كان يوماً عادياً.

---

(1) - لبُّ النارجيل: لبٌّ يعصر منه دهن النارجيل وهو من أشهر السمون النباتية.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أُسر جان بشعورٍ خيالي بعيدٍ عن الواقع وهو يدخل مبنى "لاكاتافيفا" ويرتقي الأدراج إلى باب منزل العمة كاترين. لم يعد شيءٌ كسابق عهده. ربما رحيل أورور هو السبب أو موت طائر النغر ولعل الآنسة بيكوت قد لاقت الموت أيضاً فالنافذة المطلّة على بيت الدرج مغلقة، يوحي زجاج النافذة الذي غاب بلونٍ رمادي خلف الغبار المتراكم بخلو المنزل من السكان.

غاب جان لأشهر فتغير وجه العالم هنا، تعرّضت "لاكاتافيفا" لأضرار لا ترمم، مثلاً حلَّ محل الزجاج الأخير المزركش بزهور الزنبق الحمراء عند باب الدخول ذي المنخل زجاجاً مخشناً مرعباً بلونٍ ضاربٍ للصفرة.

أصبحت صناديق الرسائل المتباينة والتي كان جان يحب أن يقرأ أسماء المقيمين المدونة عليها غير مناسبة بنظر عضو مجلس البلدية (لقد سمع جان بشكل غامض والده يتحدث عن هذه القصة) لذلك تم تعويضها بأثاثٍ ذي دروج من المعدن بني اللون على قواعد نحيلة مضحكة.

قرأ جان الأسماء المدونة على الدروج، فاكتشف أنها بأغلبيتها أسماء مقيمين جدد، كان هناك أسماء أجنبية مثل باراك وسزيتزينسكي وفيساس وأسماء عربية مثل جلول والسنوسي وأميش وأسماء أخرى بابتذال منقطع النظير: موتون، سوسيه، ساسيه، لوبون، لوكوك.

حتى الضجيج والروائح كانت مختلطة. في الماضي، كانت تفوح روائح القمامة المقلوبة والطبخ الدسم كثير البهار بالإضافة لرائحةٍ حامزة وملحّة تنبعث من السكان أنفسهم ممتزجة برائحة القطط وطائر النغر. أما الآن فتفوح رائحة النظافة الخاطئة مع مطهر البينول والمماسح الرطبة. ينظف عمال إحدى الشركات المبنى لمرتين في الأسبوع، يركنون شاحنتهم الصغيرة عند زاوية الطريق لينظفوا دفعةً واحدة خمسة أو ستة مداخل مباني بالسرعة والخشونة نفسها.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يقوم رجلٌ نحيلٌ بنظرات متباعدة وامرأةٌ بدينة تنتعل خفين بسكب الماء مع الصابون بدلاءٍ كبيرة في المجرى المخصص، وبواسطة ممسحة مطوية يحبسون الماء ليبللوا فرشاة الأرض التي ينظفون بها. صادفهما جان عدة مرات دون أن يتمكن من تحاشيهما، على ما يبدو لا يعملان وفق جدول مواعيد. تغيرت حتى الضوضاء في المبنى، لا يسود الصمت على العكس فمازال حجم الضجيج يعادل السابق. تذكر جان موت طائر النغر وصراخه الحاد الحزين الذي كان يهيمن بشكلٍ غريب ويطغي على كل شكلٍ من أشكال الحياة.

الآن، لم نعد نسمع صرخات الأطفال كما مضى ولا صوت الراديو والشجارات العابرة لأحد الأزواج في إحدى الشقق المفروشة، ولم تعد الضجة الصادرة عن أعمال المنزل مسموعة كزجاجات تقع على الأرض أو أواني تصطدم بحوض المطبخ المصنوع من الإينوكس[1]، يزمجر على حين غرة في نهاية النهار صوت المكنسة الكهربائية المصمّ للآذان.

كم يفتقد المكان لأورور شوميرفيل. ما الذي جرى يا ترى؟ تأمل جان عندما وصل إلى الطابق الصفيحة النحاسية التي تلمع في العتمة وتقفى أي أثرٍ للحياة في بيت الدرج، أي إشارة، أي ضجة.

تحدثت والدة جان عن فضيحة هزّت عائلة جاندر. تردد شابٌ على العائلة على أنه خطيب أورو، وبعد أن حصل على ما يريد، غادر تاركاً أورور بحالةٍ يرثى لها من اليأس لا بل كالمخدّرة تماماً. فاصطحبت إحدى المسعفات الاجتماعية أورور، في حين لم يعد أحد يقتفي أثراً لعائلة جاندر ربما غيروا المدينة، غادروا دون أن يخلفوا أي أثرٍ كالمسيئين.

الناجية الوحيدة هي العمة كاترين، في الطابق الأخير، أسفل النوافذ الزجاجية (حيث لم يتم تبديل الشباك المعدنية للنوافذ)، مازال الباب

---

(1) – الإينوكس: نوعٌ من الفولاذ غير قابل للصدأ.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

هو نفسه. إنه الطابق الوحيد الذي لم يتم طلاؤه لأن قاطنيه طاعنين بالسن ومفلسين كلياً، نسيهم عزرائيل ملك الموت تماماً.

في آخر الممر، يفتح الباب المجاور لمنزل العمة كاترين ليلوح الوجه النحيل لامرأة إيطالية طاعنة بالسن اسمها "إلدا" لا يعرف جان عنها شيئاً. أما في الطرف المقابل للممر فقد حل أستاذٌ متقاعد اسمه لورانز محل المراقب "كانديلا"، وهو أيضاً رجلٌ سكير، لا يخرج إلا تحت جنح الليل ليبتاع ليتراً من المشروب بالقرب من المحطة، ثملٌ لدرجة أن صادفه جان في إحدى المرات يقضي حاجة له على الأدراج.

مازالت العمة كاترين كملكة في قصرها نحيلة منتصبة القامة، مال عليها العمر فترنحت وضعفت قواها. فقدت إحدى يديها الحركة جرّاء حادثٍ في الطريق حيث طرحها سائقٌ أرعن أرضاً ثم فرّ هارباً. رفضت الذهاب للمستشفى خشيت أن يستغلوا الأمر ويحتجزوها في منزلٍ للعجزة. قال لها والد جان، ذات مرة حين كان بوسعه أن يرتقي أدراج الطوابق الستة: "يا خالة، ستكونين على ما يرام في منزل للعجزة حيث سيعتنون بك ويقدمون لك الطعام، لن يساورك الهم أبداً.. " قاطعت كلامه بنبرةٍ جافة: "ارمني من النافذة إذاً.. " فبالنسبة لها لم يكن هناك "منزل للعجزة" أو "سكنٌ لأرذل العمر" وإنما ملجأ. تحدث والد جان وقتها بقلقٍ وإعجابٍ، وهكذا بقيت العمة كاترين في "لاكاتافيفا" حتى بعد رحيل أورور دو سوميرفيل".

اقتربت نحو جان، كالماضي، يداها ممدودتان نحوه تمررهما ببطء على وجهه تحت أهدابه وتقول: كم أنت شاب! لم يكن يعرف أكانت هذه الجملة إطراءً أم شكوى. لا يبدو أنها تشفق على نفسها، فقد كانت قاسية مدججةً ضد نوائب الدهر. كانت تلك لحظة ضعفها الوحيدة، فيما عدا ذلك فهي لا تشتكي أبداً لا من وحدتها ولا من فقر حالها ولا حتى من الاعتلال الذي يشلُّ مفاصلها.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تحاول أن تتمسك بالعزة أمام جان بأن تبقى منتصبة القامة وتسير دون أن تتكأ ودون مساعدة. أخبر أحد الأطباء والد جان بعد أن أخذ صوراً شعاعية للخالة كاترين حين تعرضت للحادث: نظراً لحالة التكلس في منطقة الحوض والكتفين فإن كل خطوة تخطوها عمتك تتسبب لها بصراخ ألم، كصافرة إنذار.. " .

كانت العمة كاترين على علمٍ بالسبب الذي يدفع جان لزيارتها فهي الشاهد الأخير والذاكرة الباقية من روزيليس. لم يكن والد جان قد تجاوز بعد الثالثة من العمر حين تم ترحيلهم عام ١٩١٠، لذلك فهو لا يذكر شيئاً. أحاطته كاترين بعنايتها في روزهيل حتى غادر مع والديه إلى فرنسا بعد الحرب.

في الوقت الحاضر، لا أثر لروزيليس. بعد الرحيل، قطع "شومان" كل أشجار الأبنوس وكل الخشب الأسود وأشجار الأكاجو مقابل حفنةٍ من المال. تم إيقاف البناء وأتى الدمار على منزل روزيليس والتهمته الأيائل وخلّعته الأعاصير الحلزونية. اشترى متعهدُ بناءٍ صيني كل الأراضي المجاورة وقطع كل الأشجار ليبني منازلاً من الإسمنت حتى أنه حوَّل مياه جدول "أفوش" لتجف الأراضي ويحصل على بناءٍ أكثر. ثم شُقّت طرقاتٌ عريضة نحو "سان – جان" و"إيبن" لم يعد منزل روزيليس سوى تقاطع طرق.

عمَّ الحديث عن الاستقلالية وعن إقامة الصناعات في كورمانديل على غرار سينغابور وماليزيا. إنه الزمن الحديث، زمن اللامبالاة. لم يكن لكل ذلك أهمية تذكر، فبالنسبة لجان يمكن للزمن الماضي أن ينبعث كأطيافٍ شخصية، قالت العمة كاترين: "دارت العجلة ومن مات قد مات".

كأن هناك حلقةً مفقودة، شيئاً ما يعكر صفو ماضيه، لن يتمكن جان من الفهم دون روزيليس سيظل اسم عائلة "مارو" اسماً مبهماً.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كل ما قد فعلت كاترين ورأت ولمست بيديها، كل ما راودها من مشاعر كل ما أكلت وشربت، كل تلك الأحلام التي داعبتها ليلاً، إنه لا يبحث عن ذكريات ولا عن أفكار بل ما يرنو إليه هو تلك الأصوات والروائح والضجيج الآتي من المنزل الكبير في روزيليس. يصبو أن يستعيد ضحكات الأطفال وألعابهم، الحماقات التي يرتكبوها والعقوبات التي يتعرضون لها. تلك الأيام التي تمضي بالاستماع لإيقاع الأمطار على النوافذ تنهمر على طول الأعمدة وتملأ الدنّ المغطى بالنسيج ليبقى بعيداً عن البعوض. نقيق الضفادع الملحاح ليلاً وصرير البعوض الحاد في العتمة عندما يبعد الأطفال الأغطية ليتنفسوا بعد الاختناق تحت التول[1].

تجلس العمة كاترين على كرسيها ذي الذراعين بصورة كهنوتية مألوفة، حيث تتكأ بساعداها وكفيها على الخشب الغامق. إنها الوحيدة التي تجلس هكذا وحافظت على هذه الهيئة من عالمها الغائب.

تعطي ظهرها دائماً للنور لئلا تزعج جان ببؤبؤ عينيها الشاحب ولتصنع ظلاً لا وجه له. كان جان يدرك أنها تقصد ذلك فهو الوحيد الذي يفهم معنى هذه الطريقة، إنه يشعر بشيء من الحبور بفكرة أن رغم كل ما يفرقهما بينهما يجمعهما هذا الإخراج، دونه لن يجدا سبيلاً إلى الكلام فيتحول لقاءهما لاجتماعٍ عائلي سخيف مع قشور من الأصالة وثرثرة من الزمان الماضي.

كان يتأمل خيال كاترين وهو يجلس على طرف الأريكة كما كانت ترى في طفولتها خيال شارل وكما رأى هو نفسه خيال جده أول القادمين إلى وهد إيبين وباني منزل روزيليس. كان يرتجف فؤاده لفكرة أن يكون بداية أو نهاية لقصة ما. لم يتحدث عن ذلك لكائنٍ من كان. إنه أمر شديد التعقيد. رغم أنه يقول في نفسه أنه الأمر الأكثر بساطة؛ أن

---

(1) – التول: قماش رقيق شفاف منسوب إلى قرية تول في فرنسا.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يلامس الطرف الآخر للعالم وهو جالسٌ هنا في غرفة خانقة مليئة بالغبار، أعلى السكة الحديدية في خضم صخب الشارع آخر المساء، بل في إحدى الزوايا العادية في العالم الحاضر.

لم تعد تتحدث بالسهولة نفسها التي عرفها فيما مضى فقد أثقل العمر والوحدة لسانها. يفتح جان الحوار ويعود بذاكرته لما كانت تروي له في طفولته حين كانت تحضر له "الخبز الضائع" ربما لأنها تفتقر للمواد أو بسبب اعتلال مفاصلها. جان هومن حضر الشاي، سكب الماء في الغلاية الكهربائية التي حلت محل ذاك الشيء القديم المحدب الذي كانت تضعه على نار البوتان(1). ينقص كل شيء تقريباً في المطبخ، حل محل عُلب "غاربودر" التي تشتريها من المحل الصيني والتي تضيف به نكهة الفانيليا للشاي رزمةٌ صناعية من الشاي بظروفٍ صغيرة. مازالت العجوز "براون بيتي" هنا، لديها من الجرأة ما يكفي لمزج هذا المشروب المرعب بقليلٍ من الخشونة والشهوانية. على الأقل،يرغب جان أن يصدق أنها الباب الذي يفتح على الذكريات. "

-: "حدثيني عن ماتيلد، يا عمة، هل كانت أصغر منك سناً، فأنت كبرى الفتيات أليس كذلك؟".

يغيب صوت كاترين حين يذكر اسم اختها، ما انفكت تسميها "مود" الاسم الذي كانت تدلعها به قديماً.

-: "مود كانت هزيلة كلعبة من البورسلان، شعرها أشقر وعيناها زرقاوين. تلبسها والدتي بقليل من الشطط. لم تكن ترتدي فستاناً مثلي بل أزياء من المجلات التي أحضرتها والدتي من موريس في شبابها. تحيك لها ملابسها بآلة الخياطة القديمة ذات الدواسة، تخيط لها أجنحة ودانتيل وربطات، فبالنسبة لوالدتي مود هي اللعبة

(1) - البوتان: مركب غازي ملتهب يسيل في القوارير بعد أن يميع.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

التي لم تشترها قط. كانت الغيرة تتملكني فألُحق بها أذىً خفيفاً وأكلمها بقسوة وعندما تجهش بالبكاء ألاطفها وأقول لها بأنها حبيبتي. يذهب إخوتي الفتيان إلى المدرسة عدا جدك هيري في الذي تربطه علاقة خطبة مع جدتك سيسيل. أما سيمون وجيلدا فيستقلون القطار إلى المدرسة فهم طلابٌ في "مورلويس". كنت أعتني طيلة الأسبوع بمود حتى كنت بالنسبة لها معلمة المدرسة، تحفظ دروسها عن ظهر قلب "موت ذئب فيني La mort du loup de Vigny" أو "أوسيانو نوس Oceano Nox"، تقف أمامي في غرفتها وتكررها أمامي وأنا أجلس على الكرسي. لابد أن لي هيئةً مرعبة فقد كانت المسكينة ترتجف، خشية أن تخطئ فلا تتوصل لسرد دروسها بشكلٍ صحيح، تفقد الحيلة. كم أندم على تلك الأيام، كان عليَّ أن أكون أكثر لطفاً معها. كانت تجمعنا أيضاً أوقاتٌ لطيفةٌ تملأ ضحكاتنا المنزل. إنها كل حياتي".

يستعيد جان ألق الماضي بعذوبة طفولته عندما يسمع هذه الكلمات السحرية روزيليس وإيبين وكاسكاد وجدول أفوش، هذه الأسماء التي لا معنى لها والتي لا يشاركه بمتعتها شخصٌ آخر، ماذا يتخيل؟ كيف كان يرى هذه الأماكن التي لا وجود لها إلا في ذاكرة هذه السيدة العجوز الضريرة، بلدٌ مفقود، أرضٌ طُردت منها عائلة مارو إلى الأبد؟

طالما بحث عن هذا، بل من أجله أمَّ لاكاتافيفا وارتقى تلك السلالم رغم صفير طائر النغر الحاد الذي يخدش الروح، متخطياً كل الاشمئزاز الذي يحمله لهذا المكان اللعين حيث يلامس الألم.

أورور سجينةٌ في شقة عائلة جاندر والتي باعتها تلك الأم القاسية لمجهول ثم رُميث في أحد الملاجئ. ولورانز الذي يهذر ويرفس قوائم الحواجز. وهناك في الأعلى تحت السطح، سجينةٌ وحيدة، لا مال لديها، كاترين مارو آخر سليلةٍ من روزيليس.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يشدُ بيديه على تلك الأنامل العظمية الجافة التي لا حراك فيها كمسلوجٍ من خشب. تنفعل كثيراً، تخونها ذاكرتها كصدعٍ يبتلع كل شيء. تتمسك بيدي هذا الشاب وتشدُ عليهما لدرجة أن تؤلمه.

"إن ذلك ضاربٌ بالقدم، ماذا تريد أن أروي لك؟"

يكرر جان: أريد أن أعرف كل شيء. عن المنزل والغرف والأثاث. أريد أن أعرف عن فراشك حيث كنت ترقدين، غرفة الطعام، ألوان الجدران والنباتات النامية تحت العريشة. حدثيني عن اللوحات، لست أدري ماذا، عن الستائر.. "

ضحكت قليلاً "هنا هنا.. أنت تبالغ، لو كنت تعرف.. أولاً لم يكن هناك ستائر فوالدي كان يمقتها".

رغم كل ذلك فإن جان على يقين أنها مازالت تحيا هناك، وأن حياتها الأخرى لم تترك فيها أي أثر، كل ذاك الزمن الذي مضى في باريس أولاً مع ماتيلد ثم في كوخ لاكاتافيفا القذر، عشرين عاماً ربما لم تخلّف في نفسها أي انطباع وكأنها وطأت هذه الشقة أمس. تعلق عينيها فتلاقي تلك الحياة في روزيليس لا كذكرى تبقيها في صندوق، بل كمكانٍ حيٍ مستمرٍ يتغير مع الزمن ويهرم مع السنين.

"تقع غرفتنا في آخر المنزل، تطلُ على الجبل. عندما تمطر، يبدو الجبل على وشك السقوط علينا، كنا نظن، على ما أذكر، أننا نتمكن من ملامسته لو مددنا أيدينا. نستمتع برؤية تلك الأشجار، كل أشجار الغابة، أشجار الأبنوس التي زرعها جدي والعنب الأسود والأكاجو والأرز المر. كم كان رائعاً، تتراقص أعالي الأشجار بين يدي الريح فتغرّد الطيور التي تسكن دائماً الأغصان. نلتصق أنا ومود بالنافذة حين ينهمر المطر كالشلال قريباً جداً، فيغيب الجبل في الغيوم. نصغي لصوت القطرات على أوراق الشجر كحيوانٍ ضخمٍ يسوط الأوراق بذاك الانهمار المتقطع، نستمع لضجيج الشلال يزداد ويزداد حتى يلقي الرعب في نفوسنا

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وخاصة مود التي تخفي وجهها في ثنايا رقبتي، فأدندن لها حتى أهدّئ من روعها. لم يكن لأختي مود غرفتها الخاصة لذلك كانت غالباً ما تنام معي وفي بعض الأحيان في غرفة والدتي.

غرفة إخوتي الصبية في العُليَّة، عندما يعودون من المدرسة الداخلية خلال العطل المدرسة نسمع خطاهم في وقت متأخرٍ من الليل فيصرخ والدي ليطلب منهم أن يطفئوا المصابيح. كثيراً ما يتشاجر سيمون وهيريڤ لكن جدك هيريڤ كان الأقوى، أما جيلدا فهو ناعمٌ مثل الفتيات لم يرغب قط بالشجار إلا مرّةً واحدة لست أدري ماذا فعل له سيمون أظن أنه ألقى عليه اللوم ظلماً، فأدَّبَه جيلدا الذي كان لطيفاً، لا يشبه عائلة مارو، إنه ذو قامة طويلة وقوي البنية وعيناه جميلتان بنيتا اللون، يمضي وقته بالصلاة والتضرّع للرب وكأنه يعرف سلفاً أنه سيصبح قساً يوماً ما".

طالما انتقدت العمة كاترين عائلة مارو، فهي تجد أنهم ليسوا على ما يرام، كانوا كسالى وأفكارهم غير منظمة كما أنهم ليسوا أصحاب عزيمةٍ قوية، بيد أنها تحب والدة جان لأنها لم تسمه "وليم" مع أن والداها إنكليزيان. كانت تتحدث عنها باسمها الأول "شارون"، تقدر فيها ذاك الذوق للفن، تذكر أن والده التقى بها في إحدى الحفلات الموسيقية ثم قدمها إليها، قالت كاترين عن شارون والدته: "كانت شابة سمراء عيناها لوزيتان سوداوان، كالغجرية، لابد أنك تشبهها".

انتقلت بالحديث فوراً عن والدها ووالدتها، جان شارل وديزيريه وانكبّت تبحث عن صورهما في ألبوم صور زفافهما في روزيليس. تمرّر يدها على الصورة كما لو أنها تود قراءتها.

"لطالما حافظت والدتي على شعرها الجميل الكستنائي الفاتح بل وحافظت على لونه رغم السنين التي أهرمتها، تجدل كل يوم ضفائرها العريضة. كانت تعيش مع والدي في روزيليس مثل "روبينسون"، لا

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يرغبان برؤية أحد حتى أبناء عمومة والدي. ظلّ الحب يبسط جناحه على قلبيهما حتى النهاية. تشبه روزيليس قارباً يبحر بعيداً عن العالم، كأننا في عرض البحر مع كل تلك الأشجار والأنهار والجبال التي كانت جزرٌ تترامى عليها أمواجنا".

كاترين هي ذاكرة عائلة مارو، لن يوجد أحدٌ بعدها فوالد جان يرفض الحديث عن ذلك.. لقد محى كل شيء بعد التحاقه بالجيش البريطاني. وشم على ذراعيه رقم تسجيله ورسماً يمثل ثعباناً أو تنيناً، إنه الحيوان الذي التهم ماضيه. إنه يفضّل ماليزيا وغابات من أشجار المطاط وتلك الأيام التي تأمل فيها بحياة جديدة لزوجته وأبنائه، ثم حلَّت الثورة والحرب وتلك المرأة الشيوعية "لي مانج" التي رغب بفك أسرها، فكان عليه الرحيل وانتهى كل شيء.

راود جان شعور بالحمى تتملك جسده وبحالة حرجة. إنه يفكر بالزمن الذي يفرُ هارباً عندما امتنع عن المجيء إلى لاكاتافيفا حينها التهم التنين أشياء كثيرة. لم يعد هناك وجبة من "الخبز الضائع" ولا ذاك الوقت الطويل الذي تمضيه بتقليب ألبوم الصور مصغياً بإذن شاردة للقصص التي ترويها كاترين. لم يكن يدري حينها قيمة كل هذا والذي لن يعود أبداً".

"حدثيني يا عمة عن روزيليس".

ترددت قليلاً ثم تحدثت عن شيءٍ لم تذكره أبداً، عن القارب الذي أطلق عليه اسم "روزيليس" القلعيَّة[1] المغامرة التي أبحر على متنها أول فردٍ من عائلة مارو باتجاه "إيل دو فرانس" برفقة زوجته وابنته.

"روى لي جدي شارل نقلاً عن جده جان – أود: لاروزيليس قاربٌ صغيرٌ مزوّدٌ بالطعام. استمرت الرحلة على متنه قرابة أشهرٍ صادفنا فيها العواصف وهاجمنا القراصنة الإنكليز. كتب جان أود ذكرياته في

---

(1) - سفينة شراعية بصاريين متعددة القلوع المربعة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

دفترٍ خلال الثورة، كما كتب عن معركة فالمي[1] ثم رحلته هرباً من البؤس إلى موريس على متن القارب "لاروزيليس"، لذلك أطلق على المنزل حيث أقام في "إيبين" "روزيليس" اسم السفينة التي مخر على متنها عباب البحر.

وهمٌ على جنح نور بعد الظهيرة وسط ضجيج السيارات على الطريق السريع ودوي القطار بعيداً فوق الجسر، ظن جان أنه مخر البحر في حجرة السفينة على طول شواطئ إفريقيا باتجاه "إيل دو فرانس".

الذاكرة ليست أوهاماً بل هي جوهرٌ وترٌ طويلٌ يلتفّ حول الواقع وتعلّقه بصورٍ بعيدة تنبسط رعشاتها وتنقل تيارها إلى التشعبات العصبية للجسد. لم يعد صوت العمة كاترين جافاً وساخراً بصبغةٍ من المرارة. عندما يصغي إليها يدرك تغيرات صوت شارل مارو ثم يصغي لصوت جان أود ذاك الرجل الذي قاتل من أجل الثورة وتجرأ على السفر لطرف العالم ليبدأ حياةً جديدة مع المرأة التي أحب.

"روى لي جدي أنه كان على جان أود أن يبني حجرة في مؤخرة القارب، ففي ذاك الزمان، كما تعلم، كان يجب أن نتجهز جيداً قبل الرحيل، دفع لنجارٍ كي يبني الحجرة والأثاث والفراش وكذلك الخزائن. حتى أن جدي كان يذكر اسم النجار الذي عمل على متن روزيليس، لا يمحى اسمه من ذاكرتي "باستيان – غراد". صنع لهما فراشين من خشب البلوط فراش لجان أود وفراش لماري آن. تخيل أن هذين الفراشين كانا في منزل روزيليس عندما كنت صغيرة، في عُليّة المنزل

---

(1) – معركة فالمي: إحدى المعارك الحاسمة التي خاضتها قوات الثورة الفرنسية ضد البروسيين في ٢٠ أيلول ١٧٩٢ في منطقة مارن Marne شرقي باريس بإمرة ديموريه وكِلَرْمَن وقد أحرز الفرنسيون نصراً مؤزراً على البروسيين بقيادة دوق برونزويك قائد الجيوش المتحالفة. فكانت هذه المعركة نقطة التحول الحاسم في حروب الثورة بعد الهزيمة النكراء التي لحقت بها في معركتها مع النمساويين في بلجيكا.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ليستخدمه إخوتي الصبية بيد أن الفراشين كانا صغيرين وضيقين فرفض إخوتي النوم عليهما، لذلك كانا فراشاً لألعابي أنا وأختي مود. لم أعد أعرف ماذا حلّ بهما، أعتقد أنه تم بيعهما من أجل الخشب الجيد الذي صنعا منه، خشب البلوط البروتاني القاسي والمعتم جداً، ربما استخدما لترميم منزلٍ أو لصناعة رفوفٍ في أحد المطابخ، من يعرف...".

قال جان في سرّه: إن الذاكرة شيءٌ مرعبٌ تمتزج فيها المتعة مع الألم، جوهرٌ له كيانه الخاص تتقدم وتتراجع دون أن نتمكن من السيطرة عليها. تأمل خيال كاترين ووجهها حيث ضاعت عيناها في العتمة. خلف الأريكة، يداعب انعكاس ذهبي الجدار حيث تتخبط الشمس قبل أن تغيب خلف سطوح المنازل. مضى يومٌ آخر وآخر وكل لحظة تعبر تنتزع قطعة من الزمان الماضي في حياة كاترين، قطعة تضاهي أهميتها قطعة من لوحة من البازل.

ينال منها الإعياء، تأتي كل مساء السيدة روزيلا لتساعد العمة كاترين في حمامها ولباسها وتحضر لها الطعام وتجرّعها بضع قطرات من خلاصة الجنكة[1] ذات الفصين قيل أن هذه النبتة تقوّي روابط المادة الرمادية. كانت تلعق الدواء، هازئةً بالفكرة، يداعبها أمل أن تحافظ على ذاكرتها سليمة حتى النهاية من أجل جان ومن أجل أن تبقى على تواصل مع العالم الوحيد الذي يعيش في داخلها، عالم إيبين.

"هل حدثتك يوماً عن رحيلنا من روزيليس"؟ كررت على مسامعه هذه الحكاية لمئة مرة ولكنها تضيف في كل مرة شيئاً من الاختلاف كما لو أن العمة كاترين تضيف تفصيلاً منسياً، إحساساً جديداً أو طرفةً.

"كنّا في شهر كانون الأول عام ١٩١٠، كان الطقس حاراً وثقيلاً بشكلٍ مرهق، أذكر أن المسكين جيلدا أصيب بالاختناق طيلة الليل بسبب الربو،

(١) - جِنكَة: جنس شجر من الفصيلة الطقسوسية.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كانت نوباته تتفاقم منذ أن دخل عامه الرابع عشر حتى وصلنا للكارثة. كانت السماء شديدة السواد فوق إيبين، قيل إن الطقس ساهم بالمأساة. مضت أيام وأيام ونحن نقوم بترتيب كل شيء، ووضع الكتب في صناديق، كما نشرت والدتي الأغطية على الأثاث كما لو أننا ذاهبون في رحلة فقط، لم تكن تريد أن تصدّق أن كل شيء قد فضّ إلى النهاية وأننا مغادرون إلى الأبد وأننا لن نرى مرة أخرى كل ما سنتركه هنا. لقد كانت سعيدةً في هذا المنزل حيث ولد أبناؤها. لكل غرضٍ ولكل زاويةٍ ذكرى تربطها بلحظة سعادة أو بحادثٍ ما مثل إعصار ٩٢ حيث حطمت الريح النوافذ واجتاح الماء الغرفة مخلّفاً بقعةً على الأرضية الخشبية، كلما مرت أمامها تذكرت تلك الحادثة التي صدّعت أيضاً مرآة غرفة الضيوف ولم يتوفر لدينا المال لتبديلها، وكلما رأت صورتها مضاعفة اغرورقت عيناها بالدموع.. ما اصطحبنا معنا تلك المرآة إلى هنا، فالمنزل الذي نزلنا فيه كان صغيراً جداً بسقفٍ منخفض.

كم كان الأمر مريعاً! لكل واحدٍ منا ذكرياته والزاويةٍ التي يحب. العُليَّة مع كل ما تضم من أوراق قديمة وأثاث قديم وألعابنا في الطفولة ولعبة فاغرة الفم[1] التي صنعها جدي شارل من الورق المدعوك وكذلك تلك المصنوعة من القماش وصندوق الملابس الداخلية المليء بأزياء من الدانتيل كانت جدتي أرازاتو ترتديها بالإضافة لأغطية الرأس التي أحضرتها من بروتاني.

لعب هنا أجيالٌ متتالية من الأطفال، لتنطوي كل تلك الذكريات بخطأ ارتكبه العم "تادي" وكاتب العدل "شومان" الذين وضعا يدهما على كل شيء وباعا كل شيء... ".

---

(1) - فاغرة الفم: لعبة تمثل وجهاً فظاً فاغر الفم ليتلقى الكرات التي يقذفها اللاعب.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

توقفت عن الكلام لبرهةٍ وحلَّقت على جناح الحلم. يراوده انطباع أنها لم تعد تعرف إن كان هنا أم لا، فقد غرقت بعالمها الخاص في الطرف الآخر من البحر لا بل في الطرف الآخر من الزمن. ثم أعقبت بالحديث بصوتٍ أجشٍّ ومنخفضٍ وكأنه همس.

"كمْ كان وقع ذلك قاسياً على والدتي، تحرك والدي مع الصباح، يذهب إلى "ميناء لويس" ليلتقي بالقاضي علَّه يوقف أمر الطرد. في تلك الأثناء كنا نحن في الحديقة، وأمام المنزل العربة بانتظارنا والبغال التي تجرها تراوح ضجراً.

الطقس حارٌّ ومرهق وكأنها ستمطر. أرادت والدتي أخذ المِركع[1] كذكرى لتناول قربانها الأول وقد أحضرته إلى روزيليس يوم زفافها، لكن شومان رفض وقال بصوتٍ أخنٍ: "كلا، كلا، سيدتي، هذا مستحيل، لقد قرأت ما دوِّن في العقد، كلّ الأثاث، كل المتاع دون استثناء". لكن بالنسبة لنا نحن الأطفال لم يكن هذا ما يمزّق قلوبنا، وبشكل خاص أنا، ما كان يروعني وما ذرفت عليه الدموع مدراراً هو حديقة إيبين بكل تلك الأشجار والصفاف وجدول أفوش حيث كنت أستحم، كل ذلك كان جزءاً لا يتجزأ منَّا، إنه إيهابنا والدماء التي تسري في عروقنا. نفتقد للزوايا التي كنا نختبئ فيها ووادي نهر كاسكاد أي "الشلالات" هناك حيث كنت أتنزه مع صديقتي الهندية "سومابرابا" إلى المعبد السري الذي قدمته لي يوماً ما وقالت إنه أول معبد هندي في موريس.

كم كان ذلك هائلاً مترامي الأطراف، لم يكن لنا بل كان عالماً ولكن كنت أعلم عندما غادرت روزيليس أن كل شيء أفضى للنهاية ولن أراها مجدداً، ذرفت وذرفت دموعاً كالأنهار، ذرفت كل دموع جسدي.

---

(1) – مِركع: كرسي خفيض ذو مسند للذراعين يستعمل للصلاة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يوم ٢٠ أيلول ١٧٨٢

بدأ كل شيء مع فجر اليوم التالي. مازالت هممنا فاترة من عتمة الليل وشدّة البرد. انهمر المطر الناعم طيلة الليل. علقنا قماش الخيم بأغصان أشجار الصنوبر وحاولنا أن نصنع من أوراقه الإبرية الرطبة فُرشاً نتوسدها. توقفت الريح لكن قطرات المطر رشحت من قماش الخيمة وتساقطت القطرات الباردة علينا بضجيج صاخبٍ منتظم سرقني من النوم ثم عدت من جديد لأغطّ بالنوم.

كم أحببت هذا الصوت المطمئن المرافق للأمطار والذي كنت أستمع إليه يهطل على سقف طاحونة رونيلو، حملتني أحلامي في تلك الليلة إلى أختي بولين وحلوتي ماري أن. حلمت أنني أخبر والدتي بأنني تطوّعت من أجل حماية الثورة، فقالت لي: "حسناً ولكن لا تنسى دين أجدادك". استيقظت فجأة وفهمت ماذا كانت تقصد وأنا قابعٌ هنا في هذه الغابة التي تتراقص بإيقاع المطر المنهمر على الخيمة. كانت تقول لي أن هناك بلدٌ آخر في أحضان الأمة وأن عليّ أن أحوي وطني بين ضلوعي ولا أتنكر له أبداً. لم أفكّر بذلك أبداً. منذ أن غادرت رونيلو عبرت فرنسا وسرت على طرقاتها المغبرة الغافية بين الحقول. اقتربت في باريس من الحشود وخبرت تحضيرات الحرب، ثم هربت من "غراندبري" والرجال الذين تمت تصفيتهم في مجرى النهر، وركضنا خبط عشواءٍ في الغابة، والجرف الصخري حيث رأيت أسلحة العدو تبرق في اليوم التالي. ما فكّرت ولو للحظة بمسقط رأسي وما فكّرت أبداً بـ"رونيلو" حيث ترعرعت وحيث تركت أحباء لي، أمي وأختي وماري أن. طرقت كل تلك الذكريات أحلامي تلك الليلة قبل أن يبدأ الحراك.

لملم الفجر الوشاحات الرمادية المبعثرة لتلوح هضبة "لالون" أي "القمر" متوعدةً كخليجٍ بارز. بدأ فوراً القصف المدفعي.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تمركزت سريتي تحت إمرة سوزيه والقائد دوكسنيل على الجزء المرتفع من النجد باتجاه الغرب أمام الرأس الأكثر علواً من هلال هضبة "لالُون". تنطلق طلقات المدفعية من جنوب الهضاب واقتربت أكثر فأكثر حتى باتت تشبه هدير الرعد، تزمجر ملقيةً بصداها في الوديان. خطط نور البرق السماء التي مازالت متشحة بالسواد من جهة الغرب.

حدث أمرٌ ما رأيناه ولا سمعنا به أبداً، تهتز الأرض تحت أقدامنا وترتعب الخيول من زمجرة المدافع. غطى سربٌ من غربان الزرع السماء يحلقون هرباً على غير هدى. أما نحن فبقينا جامدين دون حراك تحت الأمطار كما لو أننا نمثل مشهداً مسرحياً.

على يسارنا، على الطرف الآخر للنجد مقابل هضبة "لالون"، تردُ المدافع الفرنسية بدورها. تمكنَّا رغم الضوضاء من تمييز عوائها القصير الذي يشير لمدفع من عيار ٢٠٠. هدير المدافع البلاروسية مختلف فصوته كاد يبعث الخلق والموتى، وتمزق مدافع عيار ٧٠ الطويلة طبلة الأذن كصرخة حيوانٍ متوحشٍ.

باشر جنودنا بهبوط منحدر "أوف" لمنع حشود الألمان من الانقضاض. كان لهدير المدافع الذي ما توقف عميق الأثر في نفسي، يمكنني القول أن الحمد لله كل ذلك قد مضى، لم يكن ذاك الصوت مألوفاً بالنسبة لكثيرين وأنا منهم وما تخيلنا قوة ونوع السحر الذي سيمارسه هذا الصوت على مشاعرنا التي امتزج فيها الخوف والغضب والثمالة. عيل صبر الجميع راغبين بالمسارعة إلى عمق الوادي ليتخلصوا من هذا الصوت فيخزيهم إعصار النار والبارود الذي يلتهم هضاب "لالُون" ونجد "دامبيير".

حوالي الساعة العاشرة، لا شيء يوحي بالتوقيت، تلقينا أمراً بالهجوم فركضت سرايانا نحو عمق الوادي الواحدة تلو الأخرى والحراب بالمقدمة. انطلقت سريتي بعد اثنتين، أذكر أنني ركضت على الأرض

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

المبلّلة ما بين الأشجار التي تسوط أغصانها وحراجها وجهي وأنا أجهل وجهتي. تعالت صرخاتٌ من أعماق الوادي، سعت سريةٌ من الهوصار لاختراق صفوفنا ليستولوا على النجد حيث نُصبت المدافع. سمعت صوت القائد روكسينيل وهو يصرخ بالأمر الوحيد الذي يعرفه باللغة البروتون: Torpen! Warraok! أي هشموا رؤوسهم! إلى الأمام!

يلقي ذاك الصوت ذو النبرة المتوحشة الرعشة في النفوس، صوتُ هدير المدافع فوق رؤوسنا كالعاصفة والأمطار المنهمرة دون انقطاع ممتزجة بعتمة تلك الغابة الموحشة. تراءى لي أنني سمعت اسم سامسون الذي ذكره أهالي بروتاني فيما مضى في معاركهم، لكن ربما كان ذلك نداء المواطنين من أجل الأمة!

كنا في مجرى نهر "أوف" حيث يزيد سيلٌ بسيط على الحجارة السوداء اللون والرمال الصدئة، تحلّق فوق رؤوسنا القنابل بغنائها الغريب، ذاك الدوي الثقيل الذي لا يشبه شيئاً في العالم، يتخلله في بعض الأحيان صفير الجماعات الحاد أو طلقات بنادق الفتيلة. سرنا لوقتٍ طويلٍ في مجرى النهر نتحسس الكمائن من حولنا ونترقب مباغتة الهوصار على صهوة الخيل مشهرين سيوفهم. عبرنا خلف صفوف العدو دون أن ندري، أسفل ذاك الشاطئ حيث يسعى البلاروسيون عبثاً ليجدوا موطئ قدم.

بلحظة توقف صديقي سامسون عن المسير وقبل أن أرى أي شيء سمعت فرقعة بندقية سقط بعدها سامسون فجأة وكأن ساقاه قد قُطعتا.

على الطرف الآخر من السيل رأيتُ شاباً يقف على صخرةٍ منبسطة، يرتدي بزةً حمراءِ اللون، يحدجني بنظراته دون حتى أن يلقمَ سلاحه. فرفعت سلاحي على كتفي وأطلقت النار، ربما أصبته بحوضه فقد انثنى على نفسه لكن رأسه بقي شامخاً يحدجني بنظراته المتوعدة، دون

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أن أفكر ركضت نحوه وغرزت الحربة في رقبته، في حلقه حتى تدفق دمه القاني ولطخ زبد "أوف" فتوفي من فوره. كانت المرة الأولى بحياتي التي أقتل فيها رجلاً. توقعت أننا عرضة لخطرٍ يحدق بنا من بعيد وبين لحظةٍ وأخرى سينقض علينا جنود العدو.

كابد سامسون كثيراً جرّاء الكسر الذي أصاب ساقه وسط الفخذ بيد أنه لم يشتك. أسند ذراعه حول رقبتي وسحبته إلى سافلة النهر بحثاً عن سريتنا، مضى وقتٌ طويل ونحن نسير دون أن نلتقي بأحد، يصمُّ آذاننا القصف المدفعي، عبرنا الغابة التي قطعناها ركضاً أثناء الهجوم أما الآن فبالكاد نخطو دبيباً بين العُلّيق. فقد سامسون الوعي لدى وصولنا إلى النجد، خلّف دمه بركة على الطين.

لم يهدأ القصف المدفعي، رغم ذلك، بل يتبادل من طرف النهر للطرف الآخر دون هوادة. تتساقط القنابل على التراب المبلل وترتد كالكرات. هناك العديد من الضحايا والجرحى في صفوفنا، حملهم الممرضون إلى الخلف. تبعت حمالة المرضى التي نقلت سامسون، لمحت ميرفان الذي لم أكن قد رأيته منذ بدء المعركة. أُصيب ميرفان في مضيق "غراندبري" برشقة رصاصٍ حصدت ذراعه الأيمن وتم تضميده على عجلٍ، لم يعد باستطاعته مساندة الجراح فسألني أن أحلّ محله الأمر الذي لم يكن بوسعي رفضه. وهكذا أصبحت معاون الجرّاح "فيسكي" أو بالأحرى لابد أن أقول أنني مساعد الجزّار، يقوم بعمله على قطع أيادي وأرجل من يُوضع أمامه. حُمل إليه سامسون على طاولة فقيّدته بسيْرٍ من الجلد كحيوانٍ سيتم تقصيبه، سيرٌ حول كلّ طرفٍ من أطرافه وآخر حول رقبته، بالكاد استعاد المريض وعيه وعندما أدرك ما سيحلّ به، شحب لونه وكرر لمرتين أو ثلاث يا يسوع، Vari وباللغة البروتونية Prezet truez ho pezet truez! أي رحماك يا رب! رحماك! ثم لم يعد ينبس ببنت شفة إلى أن بدأ الجرّاح بنشر عظم الفخذ، أطلق صرخة مصمّةً وغاب عن الوعي.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

هشمت الرصاصة عظم فخذه لعدة قطع والكلم كان شديد العمق. كنت واثقاً من شفائه لو أنه بين يدي طبيب أفضلٍ وبظروفٍ أخرى.

تصبب الجرَّاح عرقاً رغم البرد القارس وهو يتم مهمته الكارثية، ما توصل لإيقاف دفق الدم الذي يسيل متموجاً من الشرايين. طلب مني أن أشدَّ المرقأة[1] وأسدَّ الكلم المفتوح بقطعٍ من القماش مشبعةً سلفاً بالدم. لم تكن الأربطة والشاش كافيةً، تحت ناظري، فرغ دم سامسون حتى لفظ أنفاسه الأخيرة على الطاولة خلال لحظات.

نهضت أنا وفيسكي ملطخين بالدم تماماً وجاء بعد برهة جنديان بثياب رثة حملا جثمان سامسون ليرموه في القبر الجماعي عند طرف الغابة، دون أن نتفوه بكلمة واحدة.

مضى اليوم وهم يحملون إلينا الجرحى، أولئك الذين تُضمد جراحهم يغادرون من فورهم أما البعض الآخرون فيتركون لأيدي الموت إما لخطورة وضعهم أو لأنهم فقدوا كميات كبيرة من الدم. غطى القصف المدفعي الذي لم يهدأ للحظة على أصواتنا فكنا نضطر للصراخ حتى نسمع بعضنا البعض لذلك لم نتبادل أطراف الحديث. سقطت القذائف لعدة مراتٍ قرب المستشفى فأودت بحياة عدة خيول. في منتصف الظهيرة، شيع أن ابن ملك بلاروسيا قد لاقى مصرعه في ساحة الوغى وتقهقرت الجموع البربرية. توقف القصف المدفعي، لم نجرؤ على الحراك أو الكلام فقد أصابنا هذا الصمت بالصمم، صمتٌ قاتلٌ لا يهزّه سوى أنين الجرحى المتصاعد من بين أشجار الغابة. غرباً، تسدل السماء السوداء ستائر من المطر تغطي التلال. نال الإعياء مني فاتكأت على دعامة الخيمة، يداي وملابسي ملطخةٌ بدماء الجرحى، عاجزٌ عن النطق بكلمةٍ واحدة.

---

(1) – مرقأة: ملقط لضغط الشرايين ووقف النزف الدموي.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

دوت ضجة حوالي الساعة الثانية من بعد الظهر. التحق جنود كيليرمان بمخيمنا عند نجد فالمي، بالحقيقة، تفاقم صخب صرخات انتصار الفرنسيين معلنةً نهاية الحرب. كان جليّاً للعيان سعي ملك بلاروسيا انتقاماً لموت الدوق إذ أرسل المشاة للهجوم على مخيمنا ليتخلص منه. بالوقت نفسه، عاد القصف المدفعي ولكن أكثر كثافة ودويٍ متواصلٌ يحيط بنا من كل اتجاه دفعةً واحدة. تتساقط القذائف والقنابل هذه المرة فوق رؤوسنا على بعد عدة خطى من الخيمة حيث يجري فيسكي العمليات الجراحية وليس ببعيد عن مأوى الجرحى. تلقت سرايانا أوامر بالاتجاه للدفاع عن المخيم فسارعت للانضمام إليها مع أن بندقيتي لم تعد تعمل بعد أن فقدت الصاعق، إلا أنني اعتمدت على الحربة التي ما استخدمتها إلا لمرة واحدة.

ما إن وصلنا لأعلى القوس المنيفٍ على وادي "أوف" و"تورب" حتى كشف لنا النور المترنح جماعة الجنود الألمان الذين يتسلقون المنحدر، تحت القنابل والقذائف فأمطرهم الفرنسيون بوابلٍ من طلقات بنادق الفتيل التي حصدت الجنود والفرسان بأعداد هائلة وبآنٍ واحد كما لو أنهم يحصدون حقل أعشاب بالمشذب. عَلِمتُ لاحقاً أنّ هذه المعركة أسفرت عن ثمانمئة قتيلٍ وعدد هائلٍ من الجرحى، يمكنني القول من هنا حيث أنا، جاثياً في الوحل أتأمل المُنحدر المزروع بالجثامين، أخذتني الشفقة لا نشوة الانتصار مع أن العدالة و الحق بصفنا وتساءلت في سري إلى متى سيجر زهو الأمراء الإجرامي الشبابَ إلى حتفهم.

خيّم زمنٌ من الحيرة لا بل من الذعر بعد انفجار مستودعٍ من البارود في مخيمنا جرّاء قنبلة مشتعلة أو ربما أفلت فتيلٌ من ملقم المدفعية بتهورٍ. ظنَّ كلُ من كان شمال النجد أننا خسرنا كلَّ شيء فتفرقوا شتاتاً في الغابة يعتريهم الاضطراب، ولكن نحن في خضم العراك، كنا نعلم أن الجيش البروسي هُزم أثناء محاولته الهجوم عبر المنحدر الوعر وأما الفلول فقد ولّوا نزولاً نحو هضاب "لالون".

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لم يهدأ القصف المدفعي، تزلزل الأرض تحت أقدامنا، تشاركت حالياً مدافع كلّيرمن المستندة على الطاحونة مع مدافع ميراندا و مدافع ديموريبه[1] ليتراصوا صفاً واحداً ضد الجيش الألماني فيشكلوا معاً سوراً من نار. لم نعد نؤتِ بأي حركة، لم يحصد هذا اليوم سوى قلةٍ من الضحايا من الجانب الفرنسي.

تنحى الجرحى جانباً بعد انسحابنا من "لير". هنا نحن في مأمنٍ خلف البروزات الأرضية كما يمكننا رؤية كل شيء. يدق صرير القذائف من حولنا نواقيس الخطر. ما تناولت لقمةً واحدة وما شربت سوى بضع قطراتٍ من المطر تجمعت على نسيج الخيمة، وكذلك كل أصحابي، أخشى أننا أصبنا بحمى جديدة فنحن لا نشعر لا بالجوع ولا العطش.

هدأ القصف المدفعي رويداً رويداً مع حلول المساء حين اجتاحت العتمة أعماق الوديان وأثقلت الغيوم كاهل الغابة، لم يهدأ هكذا ضربةً واحدة بل كعاصفة ولَّت لتخمد خلف الجبال. أُقسم أن الصوت الصاخب أصمَّ آذاننا وبقي رنين الأجراس يدوي فيها كالصمت الذي يتبع المصلصلة[2].

بسط الليل عتمته بهدوء، توقف الفرنسيون بانتظارٍ قلق في كل مكان في الجوار على النجد وحول الطاحونة، إلى أعالي مرتفعات دامبيير حتى جبل إيفون وصولاً لضفاف أوف، لا أحد يصدق أن كل شيء انتهى، كنّا على أهبة الاستعداد متيقظين نعتقد أن الحشود البربرية ستنقض علينا متواريةً بجنح الليل. هيمن الصمت على رؤوسنا أكثر من صخب المدافع. أثقل هذا الصمت المتوعد الذي رافقه هبوط الليل. ثم من بعيد، لاحت

---

(1) - شارل فرانسوا ديموريبه: أحد جنرالات الثورة الفرنسية، تقاسم النصر في معركة فالمي مع كليرمن، ولد عام ١٧٣٩ وتوفي ١٨٢٣ .

(2) - المصلصلة: مجموعة أجراس متناغمة الدقات.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الأضواء التي أشعلها الألمان في مخيماتهم وكأن الضباب الذي ينبثق من عمق الوديان أبعدهم عنّا . في بعض الأحيان تكسر صرخاتٌ ذاك الصمت، ليست صرخاتٌ بل عويلٌ يشبه عويل حيوانات لا بشر. أخبرنا أحد جنودنا الذي يتحدث الألمانية بأن أعداءنا يكيلوننا بالشتائم وينعتوننا "بالجبناء والأنذال" بأصوات حانقة تلعن خسارة المعركة، فصدرت من المخيم الفرنسي صرخاتٍ ملؤها النقمة والحقد رداً عليهم: عبيد! جبناء! والبعض صرخ بشتائم أكثر بذاءة. شهدت العتمة على كل هذا وكذلك وميض النيران التي لونت ثقوباً حمراء في كبد الليل. تناهى لمسامعنا صدفة رشقاتٌ من بنادق الفتيل لم نعرف مصدرها . مازالت حمى هذا اليوم وسط هدير المدافع تستحوذ علينا، لاحظت وأنا أشرب من الكوز[1] أن يدي ترتجفان. استحضر صوت سامسون وهو يحتضر أمامي على طاولة الجرّاح.

نال الإعياء منّا ولكن جافى النوم أحداقنا هذه الليلة أيضاً، بالكاد يمكننا التفوّه بكلمة.. أذكر أنني نهضتُ وخطوت بضع خطى لكن دفعتني الرياح والأمطار إلى الخيمة، جثوت قرب النار التي تنفث دخاناً حرّيفاً[2]، لم يكن الجنود من حولي ينتمون لكتيبتي فوجوههم سمراء مِثل سكان الجنوب ويتحدثون بلغةٍ لا أفهمها . يرتدي بعضهم جلد خراف كالرعيان. يلقي وميض الشعلة بريقاً في أحداقهم، قدّم إليَّ أحدهم التبغ لكنني رفضت أما الآخر فمدَّ إليَّ قِربةً من النبيذ الحامض الذي حرق حلقي ونثر الدفء في جسدي.

لا نعلم ماذا يحمل لنا الغد، جمعتنا الصدفة في هذه الخيمة قرب هذا الجرف الصخري والعدو متربصٌ بنا ولكن يبدو لي بأي شكلٍ من الأشكال بأنني ما شهدتُ حماساً يضاهي هذا الحماس، إنها نشوة هذه

(1) - الكوز: إناءٌ بعروة يشرب به الماء.

(2) - حريف: حِدةٌ في الطعم تحرق اللسان.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الأيام وهذه الليالي التي تعجُ بالمغامرة وسط الغابة بين كرٍ وفرٍّ، في خضمّ الهدير المصمّ للمدافع ورائحة البارود وطنين القذائف كالنحل بل ومجاورة الدم والموت.. كان الكل هنا مثلي أبناء قرويين وفلاحين ورعيان وعمال، قادمين من كل أنحاء فرنسا الأكثر بعداً عن باريس. تحولنا لرجالٍ آخرين بعدة أيامٍ لا بعدةِ ساعاتٍ أمضيناها على هذه الحدود.

يوم ٢١:

عاد القصف المدفعي مع الصباح، بشدة الأمس. شكلت مدافع العدو قوس دائرة على هضبة "لالُون" قابلتها مدافعنا. ضمَّ كلٌ من ديمورييه ودوميراندا[1] وثوفنيوت[2] وكلّرمَن جيوشهم، كنا حوالي مئة ألف رجلٍ منتشرين على النجد مقابل الطاحونة على تخم الغابة. كنت أنا وميرفان ولانسكر تابعين لكتيبة "دوكسينيل" على الجانب الجنوبي المنيف على وادي "نوف"، على أهبة الاستعداد لأمر إشهار الحراب لكن الأمر لم يصدر. بعد محاولة اقتحام خجولةٍ قام بها العدو على المنحدر مقابل الطاحونة وقابلها كليرمان برشقات من بنادق الفتيل ملحقاً أضراراً جسيمة بين صفوف العدو. ثم مساءً صمتت المدافع كما لو أنه إيعازٌ. لأول مرة منذ بدء المعارك، بدا الطقسُ صحواً والسماء صافية تُنير رؤوس الأشجار. الصمت هو الدليل الوحيد على معركةٍ دارت رحاها على هذه الأرض فما من ضجيج ولا حتى تغريدة طير، فقط في بعض الأحيان صرخةُ إنسان وصهيل خيل ونداءٌ ما.

---

(1) – فرانسوا دوميراندا: ولد ٢ آذار ١٧٥٠ في كراكاس في إمبراطورية إسبانية، توفي ١٤ تموز ١٨٤٦ كادبيكس مملكة اسبانيا. نقش اسمه على قوس النصر في العمود الرابع. رئيس فنزويلا ٢٥ نيسان ١٨١٢ حتى ٢٦ حزيران ١٨١٢. خاض حرب الاستقلال في الولايات المتحدة /حروب الثورة العربية/ حرب استقلال فنزويلا / حرب استقلال أميركا الجنوبية.

(2) – بيير ثوفنيوت: ولد في ٩ آذار عام ١٧٥٧ وتوفي ٢١ تموز ١٨١٧. نقش اسمه على قوس النصر عمود رقم ٣٠. أحد القادة المنتصرين في معركة فالمي.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

فهمنا في هذا الصمت أن الألمان قد انسحبوا، ببطء، انحسروا كالماء وتراجعوا عن مواقعهم التي ربضوا فيها منذ أيامٍ. حاذوا مجرى الأنهار هبوطاً "لاتورب" و"ليزين" واتجهوا نحو مضيق "غراندبري"، أغلقوا الباب الذي فتحوه عنوةً بداية الحرب.

منعتنا ذيول الضباب الممتدة في أعماق الوديان من رؤيتهم، كانوا مثل دمٍ ينزف مفارقاً الجسد أو بالأحرى كحمى تنقشع بعد اختلاجات المرض تاركة الجسد سقيماً، خائر القوى.

لم يطلق أحدٌ من صفوف الفرنسيين صرخة انتصار، ولكن حين أدركنا أن جماعات العدو قد غادرت وأنها لن تعود أبداً، تسلل النوم لأحداقنا. افترشت الأرض حيث كنت جالساً إلى جانب أصدقائي، وضعت رأسي على حقيبتي وهَرَّمت[1] البندقية، بالكاد قاومت النعاس ثم غطت بنومٍ عميق حتى حلَّ الليل.

---

(1) - هرَّم البندقية: وضعها بشكل هرم.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تتسكع الحرب، إنها هنا وفي كل مكان بالجوار مختبئةً تتربص كالذئاب. يساور جان ضيقٌ غامض يلقي بضبابٍ كثيف يلغي وجود كل ما حوله لتقفز في وجهه الشياطين والتهديدات.

قبل الصيف، مع إطلالة شهر نيسان، شهدت هذه المدينة شيئاً مختلفاً. كان مفاجئاً وعنيفاً. واجه السكان الحقيقة مع بزوغ فجر أحد الأيام. رسى قاربان في الميناء جنباً إلى جنب فلم يكن هناك مكانٌ يتسع لهما على الرصيف حيث رست ثلاثة بواخرٍ صَدِئة مع مداخن عالية قديمة تدل أنها تعمل بالبخار.

قرأ جان على كوثل سفينةٍ راسية على الرصيف عند سكة الحديد المتجهة إلى قبرص: الريان – كيري. لماذا حفظ هذا الاسم؟ قال في سرّه إنه اسمٌ مميزٌ، اسمٌ على قدرٍ كبيرٍ من الأهمية. إنه اسم باقٍ اسم سيحمل معنىً يوماً ما ولكن يصعب أن يحزر كائن من كان ما قد يكون هذا المعنى. الريان – كيري. اسم شخصٍ، اسمٌ له تاريخ دون شك وله مصير. اسمٌ آتٍ من آخر العالم من أفريقيا من أوسياني. اسم يدعك تتساءل، تقول تقريباً: من يكون؟ أو من هو؟

الشمس ساطعة والهواء باردٌ والغيوم تمزق كبدة السماء التي تلقي في نفس جان الضيق والألم، في جوٍ من التوتر والعنف خيَّم ذاك اليوم. انتظرت مجموعات من نسوةٍ ورجال هناك على الرصيف الشاطئي إلا أن المحطة البحرية كانت تضيق على مهمة الاستقبال. أبى اللاجئون دخول قاعات الانتظار التي جهّزت بأسرّة المخيم والأغطية، أما جنود السوقة[1] العسكرية فتولّوا مهمة توزيع المساعدات بعرياتهم وكذلك الطعام والقهوة والزيت.

نصب أغلب الواصلين خيمهم آخر الميناء قرب المشارب. رأى جان الأطفال وهم يقضون وقتاً ممتعاً في أحواض السباحة، يرتدون سراويل

---

(1) – السوقة: مجموع الفتيان المدعوين في يوم واحد لخدمة العلم.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

قصيرة أما من هم أصغر سناً فيتخبطون في البرك عراة. تعجُ الأجواء بالضحكات والصرخات، تنادي الأمهات أبنائهن بأسماء طريفة إسبانية وكاتالانية[1]. أعدت بضع نسوة موقداً على صفائح معدنية على عجلٍ ليقمن بشواء الشحم واللحم المحمَّر وأشياء أخرى لم يتعرف جان عليها، تنبعث منها روائح حامزة وشهية بآنٍ واحد. رائحةٌ حميمية بحرارة إنسانية لا تشبه في شيء تلك الروائح الدسمة التي تفوح من المطبخ ذي النار الهادئة في المبنى حيث يسكن جان. يفوح عبق الحرية والمغامرة مع الرياح التي تهبُ على الرصيف الشاطئي متناقضة مع هذه المدينة البرجوازية التي تكره الأجانب.

يذهب جان إلى مخيم اللاجئين كل يوم عندما يخرج من المدرسة ظهراً عوضاً من الذهاب لتناول طعام الغداء مع والديه. يعجُ الرصيف الشاطئي بحركةٍ غير عادية. يلوذ بعض الصبية إلى حزم البضائع المغلفة بالفلين الراسية على الرصيف وآخرون يستخدمون الفتحة الجانبية الطويلة ذات الدواليب كأرجوحة يتحدثون بأصوات حادة ونبرة غنائية كما لو أنهم يتكلمون لغة أخرى. تعرَّف جان في أحد الملاجئ على مقربةٍ من الدرج على عائلة بايز، تعرَّف على اسم العائلة بحديثه مع شاب يطلق دخانه في وجه الشمس جالساً على أحد حزم البضائع الفلينية. شابٌ ذو وجه غامق البشرة وحواجب عريضة تعلو نظراته العدوانية وأنفه الدقيق المعقوف. حدثه عن الحرب في وهران التي كانت سخيفةً ومرعبةً بآنٍ واحد. كل يوم انتقاماً لمن قتل، يتم إرسال بعثاتٌ تأديبية ضد الحارات العربية وترمي دبابات الجيش القذائف في الشوارع. بقي جان جالساً على كرة الفلين بجواره يصغي إليه ولا يطرح أي سؤال، شاركه بتدخين سيجارةٍ أميركية. لم يكن الصبي من عائلة "بايز"، اسمه "فريدي مونتانا"، سافر معهم بعد وفاة والديه متجهاً إلى الشمال

---

(1) - كاتالان: لغة جنوب فرنسا تعود تسميتها الى منطقة كاتالون في اسبانيا.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ليلتحق بعمه وعمته في كامبراي. تدثرت على مقربةٍ منا السيدة بايز الضخمة بغطاءٍ من الخيش وحضرت الطعام على موقدٍ من الجمر فاصولياء وبطاطا في قدرٍ معدنية. جلس الرجال على الأرض ينفخون الدخان دون أن يتفوهوا بكلمة، أرهق وجوههم التعب وتلطخت بالذقون الطليقة وشعَّت من أعينهم حمم القلق.

تتراقص بأنغام موسيقية مشوشة، فتاةٌ صغيرةٌ نحيلةٌ تزين خصلات شعرها بالكثير من الملاقط بنية اللون كالغجرية وترتدي ثوباً وردي اللون وبنطالاً بالأسفل منه، تراقصت أمام الخيمة وهي تكرر اللازمة بصوتٍ كالبطة: "الجزائر ستبقى.. دائماً فرنسية.. دائماً فرنسية.. ".

ترغب بأن يضحك لها من يكبرها سناً ويلتفتوا إليها، ثم تابعت الرقص. علّق فريد وهو يهزُ بكتفيه: "كل الناس هنا مجانين"، استفزته تلك الفتاة كثيراً فرماها بالحجارة إلا أنها تابعت تطايرها بفستانها الوردي وبنطالها بهيئةٍ فرحة لعلها أُحبطت بعض الشيء.

تكررت زيارة جان بشكلٍ يومي، لا شيء يتغير، اللاجئون دائماً في نفس المكان وفريد فونتانا ينفخ الدخان تحت الشمس وتلك الفتاة الصغيرة تتابع رقص الفالس الممل. يصغي جان للفتى وهو يتحدث عن هناك، عن الاعتداءات والرجال ذوي الأقنعة السوداء الذين يطرقون الأبواب كالموت. المصفحات التي تعسُ ليلاً والضجيج المستمر المرافق لحركاتها، والأساريع على الزفت المعدني(1) المثقب.

تفوح تلك الرائحة البشرية دائماً فوق الميناء التي تسبب الإقياء وبالوقت نفسه هي ضرورية، إنها رائحةٌ قويةٌ وحقيقية، لا علاقة لها بباقي المدينة ولا مع الشيخوخة الآفلة لـ"لاكاتافيفا".

---

(1) - زفت معدني: زفت يستعمل لمنع الحشرات من أن ترتقي سروع الكرم.

(٢)- الأساريع: جمع كلمة يسروع.

Twitter: @ketab_n

www.kutub-pdf.net

هنا في هذا الميناء حيث تمتزج نفحاتُ الدخان مع رائحة القطران والبترول الذي يملأ موقد الجمر لتذري الغبار اللاذع في الأحداق، راود جان انطباعٌ بأن العالم يتقدم كغيومٍ تتدافع بين يدي ريحٍ عاصفة، يشعر بقفزات فجائية لتاريخٍ عُجن فيه.

عاد جان كالمعتاد في صباحٍ ما بعد عدة أسابيع ليكتشف أن اللاجئين قد غادروا. تنزلق الأوراق والصخب في الفناء الفارغ بشكلٍ غريب، خلفت مواقد الجمر التي اتقدت يوماً بقعاً سوداء على الأرض، يطفو الحطام في المشارب أما قلوب ثمرة التفاح فمترامية يمنة وشمالاً بعد أن التهمها الأطفال، حذاءٌ منسيٌ على حجرٍ منقور حول فوهة البئر. سار جان للحظة، بحث عن عيونٍ تلاقيه حيث كان يجلس مع فريد ويدخنان طيلة تلك الأيام الماضية. أخلوا المكان من كل شيء حتى طرود الفلين، لم يجد أثراً واحداً حتى عَقب السجائر.

يمر جان كل يوم في أحد الشوارع المؤدية إلى المدرسة بارتفاع حانةٍ مريبةٍ تدعى "لافوال أي الشراع" ويعبر أمام مبنى لا ملاط[1] له شارد الذهن، حاني الظهر ويدس يديه في جيبه. قرر مع مطلَع العام الدراسي الجديد أنه لم يعد مضطراً لحمل حقيبةٍ من أجل دروس الفلسفة و الأدب فاكتفى بكرّاسٍ وقلم ريشة يدسه في جيب سترته.

بالحقيقة، كان بوسعه أن يمر بشارعٍ آخر أو يمر بالشارع المقابل ليتحاشى المرور أمام "لافوال" المبنى ذي الصيت السيء، وهو قبو ضاربٌ للسواد، يضيء في أعماقه مصباحٌ أخضر اللون وتصدر عنه موسيقا جاز تصمُ الآذان. يؤم الكثير من البحارة الأميركيين المكان، يجلسون عند المدخل يكتنفهم الغموض واللامبالاة بل والضياع.. أحياناً يجتمع رجالٌ من المافيا بزيٍ أسودٍ كامل.

---

(1) - مِلاط: الطين يطلى به الجدار.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تروي والدة جان على سبيل الثرثرة قصة عن "لافوال" بأنهم أطلقوا رصاصاً طائشاً أصاب رجلاً على الرصيف في وضح النهار. هزء جان حين سمع ذلك،إلا أنه حين يمر أمام مدخل الحانة، يلامس فراغ القاعة الأسود وجنتيه يراوده إحساس بأن أحداً ما ينظر إليه بل يرمقه بنظراتٍ غريبةٍ، لذلك لم يعر قط انتباهاً للمبنى منزوع الملاط الذي يعلو البار.

صباح يوم سبت، عندما كان يذهب إلى الميناء ليلتقي بفريد فونتانا، تناهى لمسامعه صوتاً ساخراً وواضحاً ينادي اسمه من المبنى لاشك من الطابق الثاني حيث لم تكن النوافذ مغلقة تماماً: "هي! مارو!".

توقف جان يبحث عن حركةٍ ما، عن إيماءة ما في المبنى تسمح له بتحديد مصدر النداء. كل ما تمكن من التقاطه هو ضحكةٌ أو بالأحرى قهقهة تتردد خلف مصراعي نافذة الطابق الثاني. فكر للحظة بأطفالٍ يلعبون لكن الصوت كان أنثوياً، تملّكه بشكل مفاجئ شعورٌ غريب كما لو أنه اكتشف بأنه ليس خفياً و أن هناك أحدٌ. فتاة دون شك، فتاةٌ لمحته وتبعته إلى منزله لتقرأ اسمه على أحد صناديق البريد.

بوابة المبنى مجاورة لمدخل الحانة، صبي القهوة منشغلٌ الآن بنتف حواجبه أمام المرآة، توقف للحظة عن هذه العملية وحدجه بنظرةٍ هامدةٍ لمح فيها جان بريق سخرية.

بيت الدرج في هذا المبنى قديمٌ جداً لا بل قذر. في الواقع لا يظن جان أنه رأى في حياته منزلاً محزناً إلى هذا الحد، إردواز[1] الأدراج بالٍ وملطخ بالبقع، ألواحٌ من طلاء الجدران منزوعة لتكشف عن المادة الضاربة للون الوردي من الجص المطلي قديماً.

---

(1) - الإردواز: حجر صلصالي ذو لون داكن يضرب للزرقة أو للخضرة يستعمل في سقوف المنازل ويتخذ منه ألواح كتابة كما تصنع منه أنابيب الماء.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تمتزج روائح القمامة المقلوبة مع فوحان مشرب الأنيسون الذي يُقدم للزبائن في الحانة إلى جانب الطبخ الصيني البارد. كُتبت باليد على صناديق البريد أسماءٌ لصقت على قطعٍ من الكرتون، قرأ جان تلك الأسماء لانتيري، لأمي، لانفرانشي، بيدول، ايسكوفيه.. لمن يعود الصوت الذي ناداه يا ترى؟ لن تجيبه بشيء اللصاقات على صناديق البريد. ارتقى جان الأدراج نافذ الصبر بل حانقاً، درجتين درجتين حتى توقف عند الطابق الثاني. يضمُ كل طابق ثلاثة أبواب لها نفس هيئة المبنى، أبواب صغيرة مائلة مطلية بلونٍ أخضرٍ شنيع مليء بالخدوش، هناك علامات أسفل كل باب كأنها ركلاتُ أقدامٍ. توقف جان أمام كل باب يصيخ السمع، حاول التقاط ضحكةٍ أو صوتٍ، لكن يبدو أن الشقق شاغرةٌ بمثل هذه الساعة. لم يكن هناك سوى صوت الراديو من أعلى المبنى يبثُ أنغام أوبرا إيطالية ونباحٌ مسعور لكلبٍ في الطابق الأول حادٌ كأجراس تقرع.

نزل جان بعد لحظة مستسلماً وهو يقول بأعلى صوته: "مجرد صبية!". حدج صبي القهوة بنظرةٍ عدوانية أثناء خروجه إلى الشارع فاضطر الصبي ليشيح بناظريه. سمح هذا الانتصار المتواضع لجان بمتابعة طريقه.

بدأ جان منذ فترةٍ من الزمن يتبع أشخاص مجهولين في الشارع صدفةً. لعبةً غريبة تعلو لها خفقات الفؤاد، لعبةٌ خطيرةٌ لا نفع لها. لم يتحدث لأحد عنها فلأصدقائه مشاغل أخرى كملاحقة الفتيات، وارتياد المقاهي، والذهاب إلى الشاطئ أو المكتبات، كان جان يتبع أشخاص عن بعد عدة أمتار دون أن يلفت الأنظار إليه، كان يتجول معهم في المدينة، يستقل الحافلة وينزل الأنفاق ويدخل إلى المحال التجارية الكبرى.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يصادف في بعض الأحيان أصدقاءه بعد مسير يدوم لساعات، و يشرع بالأحاديث السياسية، إنه نشاط متعارف، كان "دروست" بطلاً مغامراً، لا توحي هيئته بشيء فهو قصير القامة ونحيل، شعره قصير ولكن لعينيه نظرةٌ حازمة، لعله مفرطٌ بجديته حدَّ الملل. إنه ابن دركي. في بعض الأمسيات، عوضاً عن الذهاب إلى الصف، ينضم لمواعيد غريبة في الضواحي باتجاه المطار حيث يسكن العمال المهاجرون مدينة الصّفائح، ليواكب مواضيع متعلقة بجبهة التحرير الوطنية في الجزائر. كلُ من في المدرسة يعرف هذا.

في الخُدرة المزعجة لنهاية الدورة الثانوية في المرحلة الثانية للبكالوريا التي تحثُ الخطى لتضع المسائل الفلسفية الكبرى موضع جدل، مواضيع حول الحب والحرية ومعاني الشرف عند مونتيسكو والطبيعة عند هوينر، بدت مهام الطالب "دروست" السرية ذات جانب رمزي.

نقاشاتٌ لا نهاية لها في مقهى الفنانين: "رغم كل شيء فهو دنيء، إنه يساعد العرب ضد بلدهم الأم!" أوه "هل تدري أنه يجازف بحياته؟ إنني معجبٌ بما يفعل وبشكلٍ خاص مع والده الدركي، لم يكن يعرف جان ماذا عليه أن يفكر، إن الأمر سيان بالنسبة إليه. يتحرق شوقاً لتفضي الدروس لنهايتها ليختار ضحيته القادمة. لم تكن ضحيته محض صدفة صرفة، إنه يتعرف عليها، هناك ما يميز خيالها ووجهها ونظراتها، شيءٌ ما يلهم الرسَّام، تواضعٌ جليٌ للعيان واعتدالٌ بل لا مبالاة يشوبها خصال تكبّرٍ. يهيمن الابتذال في زمن الحرب هذا تماشياً مع العنف السائد في الشوارع المرافق لتلك الأخبار القادمة من ماليزيا والتي يصغي إليها والده بالراديو الإنكليزي كل مساء عن المعارك التي تدور رحاها في الغابة ضد الإرهابيين، جيوب المقاومة الأخيرة في الغابة، يتماشى هذا

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مــع نــشرات أخبــار الحــرب في الجزائــر، الاشــتباكات في وهــران والهيلكوبترات التي تعسُ الحدود الكهربائية والضحايا في كل يوم. غادر سانتوس بالاس تاركاً خلفه فراغاً في الشوارع وفي الصف وعلى الشاطئ وما عاد لديه أخبارٌ عنه. جان أوديل التي صادفها جان لعدة مرات في الجادة قرب المحطة، تلك الفتاة الشاحبة التائهة كالشبح. أبحر الناس الذين قدموا إلى الميناء على متن بواخر مع الأحصنة المقتادة للمذابح، أناسٌ تائهون في الطرقات حول الميناء، حقائبهم بأيديهم ويبحثون عن شقةٍ مفروشة أو غرفة في الفندق. الأحداث المحلية في السينما وأعداد المجلة الأسبوعية " البلد" التي تتناقلها أيادي الطلاب في المدرسة ليلقوا نظرة على صورها الخلاعية، أجساد العرب المتفحمة على المشبك الكهربائي عند الحدود قرب اللافتة التي كُتب عليها:

لا تسرع أخي السائق

في العجلة خطورة الهبوط على الحاجز الكهربائي!

٥٠٠٠ فولت. خطر الموت!

الطالب كيرنس الذي قابله جان يوماً قرب المدرسة قادماً من الجزائر لإمضاء عدة أسابيع مَرضية. لونت الشمس وجهه الممتلئ بلون الآجر المهشَّم، قضى أياماً خارجاً يعسُ في الهضاب الحجرية حتى أصبحت يداه ثخينتان كيدي رجلٍ ورقبته كرقبة الثور، لأنه أجهز على رجالٍ، تقول الخالة اليونور. التي لابد أنها تعرف ما يتعلق بالأمر: تصبح الرقبة عريضة عندما نرمي عنا رداء العذرية.

يتزايد العنف كل يوم وكل صباح، كغيمةٍ تكبر وتتضخم، ليضيف سواداً ولوناً رمادياً وذرات كهربائية ترافق صراخاً مصمّاً وهديرٌ أو بالأحرى نقصانٌ بالضجيج، شيءٌ ما يضغط على الحلق ويشدُ الصدغين.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لابد أن دروس الفلسفة التي يعطيها السيد باتورون لها علاقة فهي تملأ قاعة الصف البائسة بحبكات قاسية وطويلة تشبه دوي صراخ ثاقب.

قال مغروراً بكلامه وهو يشدُ على أحرف كلمة "العدم" ليتابع "العدم، اللا أنا، اللا وجود، هل تفهمون معاني هذه الكلمات". "دروست" غائبٌ ومصممٌ على الغياب فهو ينزلق بعيداً جداً عن إمبراطورية الكلمات عن هذه الكوميديا عن المأساة والأقوال والتلفيق. يرى جان في دروست مغامراً يعرف طريقه، يخطو الآن نحو خيمة الغابة مثل مالرو الذي يقطع رؤوس أنغوكور المبتسمة مقابل حقيقة المال الحازمة التي يشتري بها الكحول والسلطة والنساء. "العدم، الـ.. ع.. دم، هل فكرتم".

تملكت جان هبةٌ من الغضب فوقف في آخر الصف مستفيقاً من غفوة تهدهد له وقال بلهجة رنانة غريبة، لقد كان سانتوس من يتحدث بداخله بصوت بارميندس إيلية من أعالي الهضاب الصخرية المحترقة حيث جازف بالمسير في مكانٍ ما في "وارسونيس" في ضباب شهر أيلول:

"...Pan pléon estin omou phaeos kaï nuktos aphantou"

"*كل شيء مليء بالنور وبالليل الحالك بآن واحد*..."

بقي الطلاب جامدين للحظة لا يعرفون هل يسجلون ملاحظة على دفاترهم أم ينفجرون ضحكاً. ماذا فعل باتورون ليتخلص من الورطة؟ أشهدَ الصف على قوله: "وأخيراً هاكم من يتمكن من التقدم لمسابقة الدخول إلى "نورمال"(١). إلا أنها كانت كلمات، مجرد كلمات، لا واقع لها ولا ألم، لا تمت بصلة للمنحدر المزروع بالحصى ولا للشبَاك الكهربائية حيث تنتزع إغاثات الإنقاذ كل يوم أجساد الناس والعصافير المتفحمة.

أعطى مدرس اللغة الفرنسية للطلاب عملاً يقومون به مع مطلع العام الدراسيَ هو تنفيذ ما أسماه "دفتر البلوَرة" أسوة بالاستعارة

(1) – نورمال: مدرسة نورمال للدراسات العليا في باريس ENS.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الشهيرة ما بين منجم الملح والعراجين المتبلورة في كتاب "ثروة الحب لستاندال"[١].

عمل أغلب الطلاب بهذه القصة وبحثوا عن "بلوَرَتهم" في الكتب التي يحبون وبشكل عام للإسراع بالعمل لجأوا إلى الصفحات الوردية في معجم اللاروس حيث يعثرون على أقوال تتعلق بكل لحظة في الحياة.

دوّن جان على دفترٍ أسود اللون، أخبار الحرب الدائرة في الجزائر. لم يعرف لماذا ولا بماذا سيعود نفعاً. لقد كان صحيفة، مرآةً قاسية ومكسورة بل وثاقبة لذاك الموت المهدد خلف كل شيء والذي يحيط بسانتوس ويتوعد لكل فتى حتى يصل الحصن الرمادي للمدرسة.

يراود جان إحساسٌ أحياناً أنه لا يرى العالم إلا عبر هذه المرآة، تتحرر مثلثاتٌ متساوية الأضلاع من هذا الانعكاس المجزّأ وتتقارب عند نقطة الاصطدام.. كانت الأفكار بل الأفكار المعاصرة تحل محل الفن والحكمة والاستبطان[٢].

٤ كانون الثاني:

لقي سبعة وعشرون ثائراً مصرعهم في الشمال الغربي من تيبسا محاولين اختراق الحاجز الكهربائي.

محاولة اغتيال أحمد غودجا في مرسيليا.

العثور على جثمان طاهر مجدود شابٌ بعمر ٣٤ عاماً في المزابل العامة في نوجان – سور – مارن.

مقتل جامع أموال جبهة التحرير الوطنية وقد عثر معه على مبلغ ٥٠٠٠٠٠ فرنك في أنتيب على شارع غراس.

---

(1) – ثروة الحب ١٨٢٢ : البلوره وهي من أهم نظريات ستاندال (١٧٨٣ – ١٨٤٢) في الحب وتقوم على عملية إعادة صياغة الواقع بدءاً من رغبات المحب. قال ستاندال: أنا أكتب كمن يسحب ورقة يانصيب وأتمنى أن يقرأني جيل ١٩٣٥.

(2) – الاستبطان: عملية تشاهد بها الذات ما يجري في الذهن من شعوريات لوصفها لا لتأويلها.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

١١ كانون الثاني:

جرح مظلي بيد اثنين من إفريقيا – الشمالي في تولون.

١٤ كانون الثاني:

خطف خمسة عسكريين فرنسيين في ساقية سيدي يوسف عند الحدود التونسية.

مصرع ٨٨ ثائراً في القوى الوطنية (القبيلة الكبرى).

إعدام اثنين من شمال إفريقيا رمياً بالرصاص في سانت اتيين.

١٦ كانون الثاني:

تنص المادة ٢٧٣ من قانون العقوبات وبقلم بورجيه مونوري وروبير لاكوست:

"يتم اقتياد القادمين من شمال إفريقيا مباشرة إلى الجزائر إذا كانوا عاطلين عن العمل أو لا موارد لهم".

– توقيف جامعي أموال تابعين لجبهة التحرير الوطنية في كان: جلالي يحيى وبوراس ماران.

الأحد ١٩ كانون الثاني:

كمين شنيع وقع غرب الجزائر: أوقع بالفوج ٦٣ يوم الخميس المنصرم الساعة ١٢:٣٠ في منحدرات "وارسوني" في الضباب. ارتدت مجموعة من الثوار الزي الموحد للجيش الفرنسي، اقتربوا من الفوج وهم يقولون: "لا تطلقوا النار! إننا منكم" فلقي جراء ذلك ٢٨ جندياً فرنسياً مصرعهم غدراً.

اليوم ٢١:

اعتداء في سيدي بن عباس، كمينٌ قرب بن ساف أودى بحياة ثلاثة وجرح ١٨ آخرين.

اعتداء على جبهة التحرير الوطني في نزلٍ في مصنعٍ على طريق عام غرنوبل أودى بحياة واحدٍ على الأقل.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

اليوم ٢٥: لقي ٦٥ ثائراً مصرعهم في القبيلة الكبرى.

اليوم ٢٨: لقي ٣٧ ثائراً مصرعهم في تيرسين وبون (أنابا).

اليوم ٣١: مصرع ١٤٠ ثائراً في غيوكا في معركة مجابهة جسدٍ لجسد أو بالسلاح الأبيض.

٥ شباط: اعتداء في قسطنطين أسفر عن ٤١ جريحاً.

١١ شباط: مصرع ١١٠ ثائر في غولما في (عين بينا) على يد جنود الفوج ١٥١.

١٢ شباط: مصرع المئات من الثوار في ساقية في تونس وقد وارت الحكومة المحلية جثثهم لتخفي على الفرنسيين دخولهم الأراضي التونسية.

١٤ شباط: كمينٌ أودى بحياة ١٥ جندياً من السوقة العسكرية قرب أومال.

١٥ شباط: مقتل ١٦٩ ثائراً في دوفيفيه وبيرواغيا.

١٨ شباط: مقتل ١٠٤٠ ثائراً في غضون الأسبوع المنصرم.

٢١ شباط: مصرع ٥٠ ثائراً على يد الفدائي الكوري.

مشروع لمنطقة حظر ما بين بون وغولما، دوفيفيه وكليرفوسين إلى تيبسة غرباً وجوروسوت غرباً.

٢ آذار: تجنيد عساكر جدد، مدة الخدمة ٢٤ شهراً.

١٩ آذار: مصرع ١٢٠ ثائراً في تابلات.

كل تلك الأيام كانت أياماً عادية، يؤم خلالها الفتية والفتيات المقاهي والشواطئ والسينما حيث تم عرض عدة أفلام: الملكة مافيريك لبربارا ستانويك، وباري سوليفان. "العبد الحر" لكلارك غابل وإيفون دو كارلو، "إنسان الوديان الضائعة" لآلان لاد. "كبرياء وعشق" لفرانك سيناترا وسوفي لورين. "الليالي البيضاء" لماريا شيل ومارسيلو ماسترورياني وجان ماري، "ليالي كابيريا" لفرانسوا بيريه وغيوليتا ماسينا.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

في غضون ذلك، انفجر لغم في القطار بين الجزائر العاصمة و وهران، تحطم طائرة "ميك تود" على جبل ويلز في المكسيك الجديدة، توصل السيد جون كوكروفت إلى الانصهار الذري مما يسمح بتحرير الطاقة نيوحرارية.

بدأ جان بكتابة هذه الصحيفة على صفحات الدفتر الأسود العام الفائت. تتالت التواريخ مكتوبةً بحبرٍ مختلف فتارة بقلمٍ ذي خرطوش أخضر "بيرو" وتارة قلم "بيك" يمكن استبداله لكن حبره ينشُ وأحياناً ببوزة قلم رصاص كان الخط تارةً رفيعاً مرتجفاً بعض الشيء و تارةً ثخيناً سميكاً مشاكساً. أصبحت الصفحات مهترئةً وقذرة كما لو أن الدفتر سقط في خرج سانتوس أو تحت رذاذ الوتشريس[1].

إنه دفتر "بللور" غريبٌ، قال جان أنه لن يقدمه للسيد لاموس مع أنه رجلٌ لطيف.

٢٤ آذار: مصرع ١٣٥ ثائراً على يد صيادين من الألب والقناصة السينغاليين في القوى الوطنية.

٢٦ آذار: ذبح ٢٥ مسلم في مرفأ غيدون على يد إرهابيين.

٢ نيسان: مقتل ٨٠٦ ثائراً في القسطنطينية خلال هذا الأسبوع.

٣ نيسان: مقتل ٢٥ ثائراً قرب صيدا.

٥ نيسان: مقتل ٢٥ فرنسياً في جبل إدريس غرب ممر "أوليفيه أي زيتون".

يطلُ البحر من الشرفة الأخيرة في حديقة أوليفيه حيث التقى جان بسانتوس للمرة الأخيرة مع نهاية الصيف. لم يعد جان يحمل كتاب بارمينيدس إيليه. أدرك جان بشكلٍ من الأشكال أنها مرحلة وانقضت.

---

(١) - الوتشريس: تعني "أعلى" باللغة الأمازيغية وهي سلسلة جبال شمال غرب الجزائر تبلغ ذروتها في سيدي عمار ١٩٨٥م.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بقيت تلك الحديقة رغم كل شيء الزوايا الوحيدة التي أفلتت كلياًّ من العنف محتمية بتلك الرائحة الحادة للتراب وبحفيف أوراق الزيتون بين يدي هبات الرياح، أمام البحر أزرق اللون حيث تنزلق الأشرعة البيضاء المثلثية كلوحةٍ حجرية سرمدية. يستولي على الدفتر الأسود أو الدفتر الزجاج ويتصفحه بسرعة كما لو أنها جملٌ من حكمٍ عالمية أو أدعية أو أبيات شعر غزلية. كان يرغب أن يتذكرها، أن يجد لها معنى.

يلوح وجه سانتوس من بين هذه الجمل:

مقتل ٥٩٠ ثائراً في أولد نايل[1].

عثر جان صدفةً على كتابٍ في مكتبة والده، كتابٌ يتحدث عن الجزائر إبان الاستعمار. هناك صورة لمجموعة من الفتيات يرتدين القفطان[2] الثقيلة والمزركشة وتزين هاماتهن التيجان. وتقول الأسطورة: "تبيع الفتيات سحرهن للمسافرين لدفع مهر زواجهن في أولدنابل".

كم هذا غريب، هؤلاء الفتيات بوجوهٍ مطليةٍ يصعب فهمها وللأسطورة تلك الجملة السخيفة بل المخلّة بالحياء. عثر جان باليوم نفسه، ما بين كتب والده، على صورةٍ هلامية لشابةٍ جالسة على كرسي من الروتانج ورأسها إلى الخلف بوضع تحدٍ ولكن في نظراتها ما يوحي باللطافة والشفقة. لم يكن جان بحاجة لسؤال والده ليعرف أن هذه صورة "لي مانج"، الفتاة الإرهابية الصينية التي حكمت عليها المحكمة في سينغابور بالإعدام. إنه الجزء الغامض من حياة رايموند مارو. لماذا ساعد "لي مانج" حتى أُدين وعزل من وظيفته في "إيبو" مما تسبب بخسارته لكل مشاريعه؟ لماذا يتذكر جان ذلك؟ الآن وبعد كل هذه السنون فوجه "لي مانج" الغامض مسؤول عما آل الوضع إليه؟ ربما يرى

---

(1) - أولد نايل: هم أكبر قبيلة في الجزائر تنحدر من أصول عربية.

(2) - القفطان: لباس تقليدي مغربي أصله أندلسي يعتبر أهم مكونات اللباس المغربي إلى جانب الجلابية التقليدية.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

جان من هنا والده بعينين مختلفتين، ليس الجندي القاسي الصامت الذي يلقي الرعب في قلبه فحسب بل رجلاً كسائر الرجال أعياه المرض وبقي معزولاً هزمته الظروف. الرجل الذي قامر بكل شيء على كل شيء وخسر كل شيء في ماليزيا التي طردته من أحلامه كما حدث في الزمن الغابر مع جان شارل الذي طُرد من روزيليس.

عند سافلة المنحدر، تمرّغ عاشقان على العشب لتحمل إليه النسمات مقتطفاتٍ من أحاديثهما وضحكاتهما وصوت قبلاتهما الندي. تلمع هياكل السيارات التي تعبر الشارع على مقربةٍ من هنا. يرشح الضيق المتكرر لصخب المدينة المصمّ والسماء والبحر شديدي الزرقة. لعل البحر المتوسط هو سبب هذا الدم الذي يسيل كل يوم.

٧ نيسان:

مهاجمة ثوار لموكبٍ عسكري على بعد ٣٣ كم من صيدا، مقتل جنديين من السوقة العسكرية.

مصرع ٢٦ جندياً من السوقة العسكرية في اشتباك في سيدي ميسريش.

إعدام في وهران: تم تنفيذ حكم الإعدام بثلاثة متمردين.

تنفيذ حكم الإعدام بمتمردٍ في القسطنطينية.

٢٣ أيار:

مقتل ٧٠ ثائراً في أفلو، خمسة عشر في تابلات.

مقتل ٢٥ جندياً من السوقة في وهران.

٢٦ أيار:

مقتل ٥٠ ثائراً في جبل شيف.

إعدام متمردين في وهران.

١ حزيران:

مجزرة في صيدا: مقتل ٣٥ عاملاً جزائرياً على يد جبهة التحرير الوطنية.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

٢ حزيران:

مقتل ١٤٠ ثائراً في القسطنطينية.

٤ حزيران:

سقوط ٣ قذائف على الجزائر العاصمة قرب البريد وعند مفرق أغا مما أسفر عن ستة قتلى وأكثر من ١٠٠ جريح.

٥ حزيران:

شهد مثلث ياكورين – أزازكا – للقوى الوطنية مقتل أكثر من ١٠٠ متمرد.

جرح خمسة عشر جندياً فرنسياً.

وفي السينما يتم عرض: "لعبةٌ من لحمٍ ودم" بيبي دول Baby Doll لإيليا كازان وكارل مالان وكارول باكر.

٢٥ حزيران:

مقتل أربعة وعشرين جندياً من السوقة العسكرية في كمين نصب لهم في أوتايا شمال بيسكرا.

تنزه جان في هذه المدينة وكأنها سهلٌ مجهول، رأسه مثقلٌ بالضجيج وأذناه مرهقة من ثقل الهواء. عاد الصيف من جديد حاملاً ذلك التهديد الذي يحوم وينبع ويهبُ من نوافذ المباني بل ويتهافت من سعف النخيل المسالمة.

اقتربت مسابقة دخول مدرسة الطب بيد أنه لم يفعل شيئاً فهو عاجزٌ عن تخيل المستقبل. قال له والده ساخراً ومهدداً: "ستصبح فاكهةً جافةً". أما والدته فلم تكن تقل شيئاً ولكنه يرى أن الأمور ليست على ما يرام ثم إن هناك السؤال الاقتصادي، على جان أن يجيب على السؤال المزعج والمعتاد على سبيل المثال: "عليك أن تقول لي كم يجب عليَّ أن أدفع لك بالمجمل". بالوقت نفسه فهو يكنُ لوالديه حباً جماً وخاصة لهذا الرجل الذي عاش حياةً نشيطة وقام بمشاريع عدة وهو الآن على كرسي متحرك، ولتلك المرأة التي تخلت عن كل ما أحبت الموسيقا

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

والأعياد والحفلات الموسيقية لتتبع زوجها إلى ماليزيا ثم لتحيا بعيداً عنه جرّاء الحرب. شعر بمجدهما الآفل وشبابهما الراحل وكل ما داعب أحلامهما وكل ما أرادا ثم تفتت رويداً رويداً حتى وجدا نفسيهما في شرك هذه المدينة اللامبالية.

جرى حوار مع فينشر في مقهى "ميدي" أي "منتصف الظهيرة"، فينشر هو ممثل الشباب الشيوعي في الجامعة: "لا تريد ان تنضم إلينا. تود البقاء على هامش الحياة، إنك وبشكل خاص لا تريد الانضمام أبداً لأي حزب، لأن في داخلك نتاج حقيقي للبرجوازية الصغيرة، أتعرف بالنسبة لي هذا أسوأ من رؤوس الأموال لأنك تنتمي لطبقة المستفيدين المعتوهين".

يحق له الكلام هكذا فهو ابن صاحبة أكبر صيدلية في مركز المدينة ولكن ماذا ينفع الكلام؟ يوماً ما و بلحظة ضعف روى له عن أصوله و عن موريس وعن منزل إيبين، فابتسم فينشر ابتسامةً مليئة بالازدراء وقال: "ماضيك العبودي هذا لا يعنيني، أقول لك وكذلك جزر موريس لا تهمني. ما يهمني هو ما يجري هنا".

يدير مقهى "ميدي" رجلٌ ضخمٌ بدائي ذو بشرة مليئة بالأوبئة، عيناه كزهرتين في وجهه، عمره خمسة وثلاثون عاماً، وهو يلاطف طلاب الثانوية والابتدائية واضعاً نصب عينيه هدفٌ واحد وهو اصطحاب فتاةٍ ثملة من وقت لآخر إلى فراشه، فتاة بائسة إلى حد ما. اسمه ماكس لكنه يعرف تحت لقب "لابيوفر" أي "الأخطبوط"، كان وبلا منازع أحد محاور البنية الفارغة التي يشوبها الرعب والتي حلّت محلّ هذه المدينة.

علم جان باعتقال بيير دروست هنا في مقهى ميدي حيث تم اعتقاله أثناء خروجه من الثانوية (تم تسجيله بين الطلاب الذين يتحضرون للمدرسة العسكرية ما بين الثانوية و الدراسات العليا ....) تبعته الشرطة حتى وصل إلى حانة في المدينة القديمة حيث حمل حقيبة مليئة بالأضابير يقول البعض خمسمئةٍ ألف إضبارة ويؤكد آخرون أنها أكثر من مليون. كما تم القبض على عميلين تابعين لجبهة التحرير الوطنية

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

متخفيين كعاملين، اقتيد دروست إلى السجن ثم تم ترحيله إلى ثكنة "تولون Toulon" ليخضع للتحقيق.

كان في المقهى فتاةٌ تعرفه بشكل جيد، اسمها آني عيناها ساحرتان زرقاوان، إنها فتاةٌ شجاعة لكنها متباكية، انهارت على كتف جان. يجلس أمامه شابٌ ساخرٌ بشكلٍ غريب اسمه "موندولوني"، ضحك مستهزئاً: "يا له من أحمق لقد بددٍ حياته هباءً"، فاستشاط جان غضباً وقال: "بالعكس تماماً، نحن من نهدر حياتنا هباءً هو على الأقل فعل ما كان يجب أن يفعل، إنه موجود".

رمقه الجميع على الطاولة في حزب المقهى كما لو أنه لفظ كلاماً مثيراً. لكن الإثارة خمدت للتو. إنها كلمات مجرد كلمات. ليسوا سوى تلاميذ، طلاب أي لنقل شباناً في مقتبل العمر. لم يكن أحدٌ يتحدث عن سانتوس ولا عن كيرنس ولا عما يجري معهما هناك.

أُشير في الربيع خلال شهر نيسان إلى اختراق الحاجز الكهربائي في منطقة بجبال شرق أوحدا وتسلل الخارجون عن القانون إلى الأراضي المغربية، أصدر قائد الفوج وهو رجلٌ مهذار كما يقال، يدعى بول ماتيس أوامراً بمطاردة المتمردين والقبض عليهم مهما كلف.

إنه كمين فالرجال ذوي الثياب الرثة وعددهم بالعشرات، قاموا بتقطّيع الحبال بملاقط ألمانية ثم تفرّقوا ولم يجد الجنود الفرنسيون أمام أعينهم سوى منحدراً كثير الحصى وجافاً كجزء من القمر هبط لأعماق الوادي الضبابي حيث يلمع اللون الرمادي الأخضر للزيتون وتشعُ حقول الفلاحين بلونٍ بنيٍ صدئ. تقدّم الجنود وفي مقدمتهم القناصة بتشكيل مفتوح لمشط الأراضي، فهي أراضٍ خطيرة مليئة بالمكائد والوديان وعلى بعدٍ قليل جدرانٌ من الحجارة الجافة.

حوالي الساعة الواحدة بعد الظهر، فرقعت طلقاتٌ ناريةٌ بخشونة بعد أن هبطوا المنحدر لحوالي أكثر من نصف ساعة ودوّى صداها في الوادي لتصيب أسراباً من الحمام تحلّق فوق القرى البربرية. اكتشف قائد الفوج

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الكمين للتو وحاول النداء بأمر التراجع لكن الرجال كانوا قد تبعثروا على المنحدر وما فهم الكمين سوى من كانوا على مقربةٍ فصعدوا المنحدر مجدداً نحو الحاجز الكهربائي قرب السماء الضبابية المعتمة من هذه المسافة، يبدو الحاجز أكثر شؤماً كظل سورٍ تعلَّقت عليه أوراقٌ وخِرقٌ ملابس وعصافير صعقتها الكهرباء. تفرقع بالأسفل الانفجارات مثل مفرقعات العيد، ترافقها طقطقة الرشاشات السوفييتية.

أعطى القائد ماتيس عدة أوامر وهو وسط المنحدر ثم كان عليه أن ينحني هو الآخر لئلا تحصده طلقات الرشاشات. اجتمع الفوج في قمة الجبل لكن للأسف ينقص عدة رجال، كان عليهم انتظار العون. وافاهم المدد حوالي الساعة الرابعة بعد الظهر مجموعةٌ من المتثاقلين تعباً وفوجٌ من القناصة السينغاليين. خيَّم الصمت مجدداً على ربوع الجبل.

يتصاعد الدخان من سطوح منازل القرى ليعانق الضباب في أعماق الوادي الذي عساه كان الوادي الأجمل على الإطلاق والأكثر سلاماً في العالم. حملوا جثمان سانتوس وقد نُشرت رقبته برصاص من الرشاشات، ثم وضعوه في البراد ريثما يحضروا الاتصال الهاتفي مع فرنسا لإخبار العائلة.

سُلِّم الجثمان لمحنط الموتى ليضعه في نعشٍ داكن ثم رُحِّل بالطائرة إلى مرسيليا. جاء والداه بالدور، فهما منفصلان، ليتعرفا على جثمان ابنهما ثم حملوه إلى مدينة أخرى إلى سانت سير أو إلى لافاندو حيث لوالده حصةٌ في المدفن. هذا كل شيء. انتهى كل شيء كما لو أنه لم يكن موجوداً أصلاً.

التقى جان بالفتاة التي كان سانتوس يضاجعها وكانت نموذجاً لرسوماته جان أوديل. من أعلى الجدار الساند، ألقت نظرة على الشاطئ حيث اعتاد سانتوس الذهاب على مقربةٍ من حديقة الزيتون. كان يقول إنه يحب البقاء جالساً تحت أشعة الشمس متكئاً على الجدار والعرق يتصبب من جسده.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يا للعبثية، كدور في الشعوذة كان هنا والآن لم يعد هنا ولن يعود البتة. عينا جان أوديل حمراوان وكأنها محلّقة، يبدو أنها ثملة. تعلقت بجان لأنه كان على معرفةٍ جيدة بسانتوس. ذات مرة، نقلت له عن لسان سانتوس هذه الكلمات الغامضة التي تتضمن مديحاً له: "إنه لا يعرف من هو لكنه سيجد ما يبحث عنه". كما لو أنها كلمات شيخٍ روحي يجلس على أدراج معبدٍ. فقال جان في سرِّه هذا الجانب الذي يتعلق ببارمينيدس.

التقى جان بجان أوديل لمرتين أو ثلاث مرات، وذهبا معاً إلى السينما. وفي الطريق لمنزل أهلها قبّلها لا بل سمحت له بمداعبة نهديها الصغيرين جداً وناصعي البياض حيث رفعت سترتها حتى الرقبة في بيت الدرج في المبنى، كانت تبدو غائبة عن كل ما حولها.

قالت له في إحدى المرات: أتدري عندما غادر سانتوس نال مني الاكتئاب فارتكبت حماقةً، لقد ضاجعت رجلاً". فسألها: "من يكون"؟ أجابت: "ذهبت إلى باريس وضاجعت صاحب حانة "ميتش" هل تعرفه ربما كان اسمه ديدي فريت دور". شقت وجهها ابتسامة صغيرة كما لو أنها حقاً محطَّمة! كما قالت بنفس الهيئة الغائبة: "أتدري إنني أنتظر طفلاً، في المرة الأخيرة التي كنت فيها مع سانتوس حين أُذن له بالمغادرة في شهر آذار، لم نعر ذلك انتباهاً، لست أدري لماذا؟ لقد كنت ثملة وهو أيضاً وهاأنذا. كتبت ذلك إلى سانتوس فقال لي: لا مشكلة سنعقد قراننا لدى عودتي لكن الموت سبقني إليه".

لم يلتقِ جان بجان أوديل لفترةٍ من الزمن لا لأنها روت له كل شيء بل لما جرّه كل ذلك من فراغٍ يعصف بأفكاره.

تغلي شوارع المدينة بنيران الصيف فكان السير فيها كعبور منطقة يسكنها الأشباح. يرى جان آثار سانتوس في كل مكان بقعاً فارغة ومقعرات كتلك التي يخلفها جسده.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

قصد جان مع نهاية أيار مبنى "باهلسن" لمرتين أو ثلاث ليزور غرفة سانتوس المبنية على الهضبة، استقل المصعد حتى الطابق السادس. مازال باب المنزل كما هو مع نفس الطلاء الشنيع الضارب للبني وآثار ركلات الأقدام التي كان يوجهها سانتوس ليفتح مزلاج الباب بالقوة. اختفى اسم "بالاس" عن زر الجرس وكذلك عن كوة صندوق البريد الخاص به في بهو المدخل. وسط الطابق هناك شيء يشبه الملحق بفتحة سماوية يمكن للساكنين تجفيف ملابسهم فيها، لم يكن سانتوس يعلق فيها سوى المناشف والمايو الخاص بجان أوديل وأحياناً رداء السباحة الخاص بها أيضاً.

أدرك جان من جهة أخرى أن أصول جان أوديل تعود من هناك من جزر المجتمع[1] من تاهيتي أو موريا. لابد أن سانتوس قد حدثه عن ذلك لكنه لم يعره انتباهاً كافياً. رأى عندما فتح باب الملحق منشفةً و رداء سباحة منسيين هنا، يحلقان في الهواء مبعثرين لطخهما التلوث بطبقة رمادية، إنها آخر ذكرى من الصيف المنصرم. تأمل جان عبر الحواجز الإسمنتية للمنور المشهد الغارق في الضباب والهضاب المُنقطة بمعاقل الجند و قُن الدجاج الكبيرة قرب الأبنية المطلّة على الشاطئ والمرج الشائك من سعف النخيل القديم.

يعود جان بذاكرته وهو في غرفة سانتوس حيث رسم آثار أقدامه على السقف. كان سانتوس يشبه الآسيويين ببشرته الملساء الكامدة التي لا يكسوها الشعر. كما أنه طويل القامة رياضيٍّ سليط اللسان، تحيط بشفتيه غضونٌ صغيرة مثل "غاري كوبر Gary Cooper"[2] كما أن رفاقه في الصف يلقبونه "كوبوي Cow. Boy"، تخيله جان أمام هذا المشهد عائداً من السباحة مساءً وقطرات العرق كالندى على جبينه بعد أن

---

(1) - جزر المجتمع: هي مجموعة من الجزر الواقعة جنوب المحيط الهادئ فهي من الناحية السياسية جزء من بولينيزيا الفرنسية.

(2) - غاري كوبر: ممثل أميركي، اشتهر بأفلام "الكوبوي" ١٩٠١ – ١٩٦١.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

جفت قطرات ماء البحر على حاجبيه. خلافاً لبقية الفتية في المدرسة الثانوية فهو لم يكن يتحدث أبداً عن ممارسة الحب مع الفتيات ولم يكن يلفظ كلمات نابية بهذا الخصوص، حتى أنه لم يكن يقول "ضاجعت فتاة"، إلا أنه كان عاطفياً بطريقته وعندما يكلم الفتيات كنّ يحتفين بعينيه السوداوين الجميلتين مثل "الآشوريين" كان يتحدث إليهن مقترباً قليلاً إلى أذنهن وكأنه يهمس فيها بسر.

لم تكن جان أوديل فتاة جميلة، في أحد الأيام سأله سانتوس: "ما رأيك بها؟".

فكر جان لبرهة وأجابه: "إنها لطيفة". مما أضفى الحبور على سانتوس ليكرر "حقاً، إنك مصيب، إنها فتاةٌ لطيفةٌ جداً". والآن جرَّ عليها الفراغ الذي تركه والطفل الذي تحمله الضياع فها هي تتسكع في الشوارع ثملة مدخنةً وكأنها غائبة عما حولها مما يملأ عينيك بالدموع.

عندما وطأ جان مدخل الشقة أعلى حانة "لافوال" أي "حانة الشراع" استغرب كم هي بالية وقذرة لا بل درناء تفوح منها رائحة باردة ممتزجة بدخان السجائر ليضيف موقد الحانة روائح المطبخ التي يعجُ بها بيت الدرج.

طاهي حانة "لافوال" من الهند الصينية يدعى "ناغويان ذو" يحضّر أطباقاً مشوية مع نكهة الثوم والفليفلة، لا يفلت أحدٌ من سكان المبنى من هذه الرائحة. منذ أن وطأ جان هذا المكان، مارست عليه هذه الرائحة قوةً مثيرة، فما إن يضع قدمه على الأدراج إلى أن يطرق باب منزل ريتا حتى يتدفق الدم إلى أعضائه ويعاني جسده من اللهفة الحارقة.

تتشارك ريتا السكن مع فتاة أخرى اسمها ميلاني، لم يلتقِ جان بها إلاّ لمرة أو مرتين وكانت هي الأخرى تعمل في المستشفى في الخدمة النهارية.

تعود ريتا من عملها في الساعة الخامسة صباحاً فتنهار على الأريكة ولا تستيقظ حتى منتصف الظهيرة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تحترق الشباك بأشعة الشمس بعد الظهر فتلقي بخطوط صفراء على الأرضية. يسود الهدوء متحدياً الصخب المألوف للسيارات المارَّة في الشارع والحافلات التي تقف على مقربة من الحانة، يلوّح الهواء المضغوط عندما تفتح الأبواب حاملاً معه تلك الصرخة الحادة التي ترافق إفلات السائق للمكابح قبل الانطلاق.

أصوات مألوفة تُهدهد لريتا حتى تغفو. يأتي جان بعد الظهر فيمارسان الحب على الأريكة وأحياناً على الأرض مباشرة على البلاط القرميدي الرطب، ثم يغطان بالنوم متعانقين وقد نثر العرق على جسديهما نداه الرطب في حبورٍ خاطفٍ يرافقه صخب السيارات المارَّة في الشارع بين الفينة والأخرى أصوات الناس خارجين من الحانة وصرخات الأطفال أثناء عودتهم من المدرسة في الساعة الخامسة بعد الظهر.

تستيقظ ريتا أولاً، يقضُ الجوع جسدها وكذلك الظمأ فتسكب الماء ليغلي لتحضر الشاي وأطباقاً جاهزة من لحم الجانبون[1] والسلطة. لم تكن ريتا لتبقى عارية حتى مع ارتفاع حرارة الصيف، تؤثر ارتداء قميصاً من النايلون الأزرق تزينه عقدٌ عند الحمالات. تتجلى بجسدٍ قوي وأرجلٍ بارزة العضلات تغطيه بشرةٌ ناصعة البياض تتناقض مع سواد شعرها وسواد الزغب الذي يكسو العانة.

عندما مارسا الحب في المرة الأولى، كانت متشجنة ومتوترة، ألصقت ذراعيها على طول جسدها وألصقت فخذيها، فقال لها جان بلطفٍ: "أتدري، لا مشكلة إن كنت لا ترغبين، لا قيمة للأمر". ظن أنها فتاة سهلةُ المنال أو إحدى المومسات لأنها نادت اسمه في أحد الأيام حين كان يتسكع أسفل المبنى. قال لها حينها: "مع ذلك، يا للوقاحة! كيف ناديتني هكذا! كيف عرفتي اسمي؟" مع أن ريتا فتاةٌ خجولة. تضع يدها على فمها حين تضحك لتخفي أسنانها الكبيرة الغير متساوية، لكن جان كان مسحوراً بابتسامتها. يعلو شفتيها زغبٌ غامق اللون تخفيه بماء الأوكسجين.

---

(1) - الجانبون: فخذ الخنزير أو كتفه مملحة ومدخنة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أجابته: "لم تكن هذه فكرتي، بل فكرة ميلاني. كانت تعلم أنني أميل لك فشدتني لأتبعك في الشارع حتى منزلك ثم دَخَلت خلفك لتقرأ اسمك على باب الطابق، لم تكن واثقة حيث قرأت اسماً آخر على الباب المقابل دوكروس أو دوكري لم أعد أذكر".

الآن ولّى الوقت الميت، كان جان يرتقي السلالم بقلبٍ خافقٍ ورغباتٍ متأججة، لقد تعرّف على كل جزء متعلق في ظل بيت الدرج وبات يكتشف بلمحة عين أي تفصيل وأي علامة على الدرجات. بل أي خدشٍ على الجدار والنقوش وبقع العفونة: يطرق الباب بلطف، ريتا تنتظره بقميصها الداخلي الأزرق ثم للتو وقبل أن يتسع لها الوقت لإغلاق الباب يُغرق أنفه في سهوب عنقها مستمتعاً بعبق بشرتها وشعرها الحريري يهفهف على وجهه.

لم تقل شيئاً بل لم تكن تنتظر منه أن يتفوه بكلمة، تجمعهما فقط تأوهات المتعة الشبقة، ضحكةٌ وهي أيضاً كانت تضحك حين يدغدغها بيديه اللتين اندستا تحت قميصها ليرسم شكل جسدها، غافيتان عند رئتيها لتتابعان المداعبة حتى ترسمان القوس أعلى الورك.. فتقول له: "يداك شديدتا البرودة"، نعم هذا صحيح يداه دائماً باردتان لا بل ثلجيتان وناشفتان رغم حرّ الصيف ونيران الرغبة.

يبقى جان جامداً لا يؤتي بأي حركة بعد أن يمارسا الحب، يضع يداه خلف رأسه، يدخن في بعض الأحيان فتتبادل معه بضع نفخات. يصغي لدقات فؤاده التي تعود رويداً رويداً لهدوئها و كأنّ شيئاً لم يكن.

يراقب عبر الشبك، ثلوم الشمس المائلة نحو اليسار والتي يبتلعهم المساء الواحد تلو الآخر. ذهبت ريتا لتستحم وأعادت قميصها الأزرق ثم اندست ملتصقة بجان، أغمضت عينيها وقالت بهمسٍ: "آم، جيد ... ".

أعيا صمت جان صبرها، فقرصته وحاولت أن تنظر بعينيه زاحفةً على بطنه وتشده بفخذيها وقالت: "أنعيد الكرّة"!، لكن جان كان يفكر

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بشيء آخر وكأن الأريكة مركبٌ يتقاذفه الموج وضجيج السيارات خرير النهر. كان يفكر بسانتوس وبجان أوديل التي تهيم على وجهها في الشوارع بنظراتها البيضاء مثل كاترين.

"بم تفكر؟ هل سئمت وأنت برفقتي؟"

أجاب جان دون أن يعي ما يقول: "لا ينتابني السأم مع أحدٍ أبداً".

فدفعته ريتا: "كم أنت شرير!"

فتأملها بهيئةٍ متفاجئة: "لماذا؟"

- خمِّن!

بقي مسمَّراً قليلاً برغبة منه لا كسلاً فلم يرغب بالتحرك من فوره.

أما ريتا فأبدت استياءها وشاحت بناظريها نحو مسند الأريكة، تأمَّل ظهرها العريض والخط الغامق الذي ينطلق من أسفل رقبتها حتى فتحة قميصها. ثم نهض وارتدى بسرعة ملابسه التي كانت ساخنة وجافة وكأنها في الفرن.

"ستغادر للتو؟ ألن تبقى قليلاً بعد؟" لم يجب. لقد غادر بعقله أولاً. نثر الليل بعضاً من ظلمته في الخارج وأُنيرت لافتات المحلات، ليدوي صرير قاتلة الحشرات التي تصطاد أوائل البعوض في الشارع.

"حسناً هيا اهرب، بما أنك على عجلة من أمرك!" حان الآن دور ريتا لتتمدد على الأريكة وتشعل لنفسها سيجارة، كانت تدخن بعصبية.

بدا جسدها ناصع البياض يشفُّ تحت قميصها الأزرق وانساب شعرها الأسود كوسادة على ذراع الأريكة. قال جان في سرِّه: كم تشبه "موديل" لرسام. !.

غيَّب الظلام عينيها فما رأى سوى أرنبة أنفها وفمها المتقدم قليلاً. تردد قبل أن يسألها: "هل ترغبين أن أحضر لك ما تتناولين؟"، كان يتضور جوعاً. فرمقته ريتا بنظرة وكأنه يتفوه بكلامٍ مبهم وقالت:

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

"لست جائعة، تؤلمني معدتي". ثم نفخت سحابة دخان وسألت: "متى أراك؟ غداً؟" – ربما. فتظاهرت أنها تلقي بسيجارتها على رأسه وأعقبت: "أنا أيضاً لا أدري هل سأكون في المنزل غداً". ما إن وضع يده على قبضة الباب حتى صرخت: "هيا، أسرع، اذهب، ميلاني على وشك الوصول!".

صادف جان ميلاني في إحدى المرات التي تأخر فيها على السلالم. إنها فتاةٌ قصيرة القامة وجافة ذات نظرة قاتمة. تحدثت إليه دون تحفظ: "هل يمكنني أن أسألك ماذا تنوي أن تفعل؟" وبما أن جان لم يفهم قصدها، تابعت: "ماذا، ألا ترى؟ ألم تلاحظ أنك عكرت صفوها ما إن غادرت حتى انتحبت وامتنعت عن الطعام ودخلت بدوامةٍ من الاكتئاب، إذاً أنا أطرح عليك السؤال التالي: ماذا تنوي أن تفعل". تراجع بضع درجات وهو يغمغم، أفلتت مؤقتة الإنارة[1] فاستدارت ميلاني لتدير النور مجدداً فاستغل جان الفرصة وولّى أدباره فصرخت ميلاني أو بالأحرى احتدّ صوتها كرهاً ودوّى حتى وصل آخر السلالم: ستتركها بسلام أليس كذلك؟ أتسمع، دعها ترتاح!".

في الخارج، توسع الناس الخطى للعودة إلى منازلهم هرباً من ضوضاء السيارات. أضرم الطاهي "تفويان دو" النار في فرنه وبدأت رائحة السوشان تلاحق جان مثل صراخ ميلاني الحاد وجو الشقة الخانق. يخفق فؤاده وراوده شعورٌ أنه يحوم في دوامةٍ من العنف، لقد وقع في شركه، لا بل ساهم هو بهذا العنف. عندما أدرك الآن ما جرى أُصيب بالغثيان.

---

(1) – مؤقتة الإنارة: جهاز كهربائي يؤمن التماس لعدة دقائق وبخاصة في درج المباني.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ما إن وطأ جان شقة العمة كاترين حتى راوده شعورٌ بأنها تتحرى عن أمرٍ ما معتمدة بكل بساطة على نفاذ بصيرتها، ذاك الحدس المميز لدى الأكفّاء. انتابه ضيقٌ شديد كما لو أنه يحمل بين ضلوعه عنف العالم بأسره، لتفوح رائحة المني ممتزج بالعرق لعل كاترين قد أدركت ذلك. مررت يديها الجافتين على وجه جان، رسمت حواجبه وخط أنفه وشفتيه ثم عادت إلى جبينه، ضمت صدغيه بيديها وغطّ أبهاميها على قوسي حاجبيه. هذه هي طريقتها بإلقاء التحية وبالمصافحة وتبادل القبل، لم تكن معتادة على تبادل القبل، بل إنها تكره ذلك كما تقول.

ربما هذا ما جعل جان يحب التردد إلى منزل العمة كاترين. لقد عثر على طريق كاتافيفا كطريق الخلاص بعد أشهرٍ من الغياب تتقاذفه خلالها أمواج الحياة بين امتحاناتٍ وتهديدات الخدمة العسكرية ووفاة سانتوس. كانت العمة كاترين صلة الرحم الوحيدة التي يرغب جان بوصلها. ها قد مرّت سنون على آخر زيارة له للعم فانيا والخالة "اليونور جوسينيل" فهو يفتقر معهما لهذه المسافة، لهذه الأناقة البائسة.

لم تكن كاترين تتفوه بكلمة ترحاب واحدة، فبعد أن تمرر يديها على وجهه، تستدير وتسير ببطء نحو الغرفة الكبيرة بخطواتٍ متزعزعةٍ ومترنحةٍ لامرأة طاعنة بالسن تحرص أن تبقى منتصبة القامة، ثم تجلس دون تردد على الأريكة معطية ظهرها للنافذة.

كل شيء ينزلق للخراب، ويعلم جان حق المعرفة أنه لن يتمكن أن يتمسك بأي شيء كان. لم تعد تفوح رائحة القرفة ولا الخبز الضائع ولا حتى الشاي بالفانيليا من شقة العمة كاترين، إنها مشبعةٌ الآن برائحة الشيخوخة حيث تمتزج العفونة مع البول، ربما هذا ما يدفع كاترين لقبول فوحان الروائح التي يحملها جان معه من الخارج، تستنشقها كاللحظات الأخيرة للعالم الحقيقي، كآخر روائحٍ في الحياة. تلتزم الصمت للحظة تطول جالسة منتصبة الظهر مقابل جان حسبها ما

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

حمل إليها، ثم تعود تسلسل حكايتها بصوتها الخافت المخنوق الرتيب وكأنها تتحدث إلى نفسها:

"ما تخيلت أبداً الظروف التي أودت بي إلى هذا الكوخ القذر. أظن أن حريٌ بالموت لو وافاني هناك في روزيليس مثل كل أولئك الذين عاشوا قبلنا. لقد رويت لك ما جرى آنذاك وعن ذاك اليوم الجلل عام ١٩١٠. لم أعد أذكر. أظن أن الخرف قد أصابني".

لم يؤتِ جان بأي حركة، بقي جالساً على حافة الأريكة وكله آذانٌ صاغية. إنه يعرف هذه الغرفة أكثر من غرفته الخاصة، يعرف الرسوم الهندسية التي تغطي السجادة والطبعات الممحية عن ورق الجدران والطلاء المقشور عن السقف وكذلك ذاك الأثاث الذي غشّاه الماضي ببصمات بخارية.

لن ينسى تلك الحوادث المرعبة الفظة أحياناً التي تلقيها الحياة كذكرى أورور دو سوميرفيل التي كانت تمد يد العون للعمة كاترين وتصطحبها نحو السلالم وهو يتأمل خيالهما يبتعد رويداً رويداً. الأكثر رعباً لا بل الأكثر قبحاً هي دلالات الحاضر، هذه الأدوية المبعثرة على الطاولة والكرسي المثقوب المصنوع من المولسكين[1] البني وتلك المنشفة الاسفنجية الضاربة للون الوردي التي نسيتها الوصيفة على مقعد الكرسي.

"اروِ لي عمتي، قصّي عليّ كل ما جرى ذاك اليوم".

بالكاد لفظ هذه الجملة حتى ولجت كاترين دفعة واحدة عالمها. يبدو ذلك جلياً، كيف يمكننا القول؟ تغيرٌ في النور. مازلنا هنا في آخر طابق من المبنى وبنفس الوقت نحن هناك في حديقة إيبين المتراميـة وسط النباتات، في تلك الممرات المزدانة بأوكالبتوس[2] على تخم سعف النخيل.

---

(1) - المولسكين: قماش قطني متين يزدان أحد وجهيه بزغب مخملي قصير.

(2) - أوكالبتوس: جنس شجر للأحراج والتزيين يزرع في المناطق الحارة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

"يصعب عليك أن تصدق، كم تبدو الأشياء ممتعة بعد الريح والمطر. كل شيء يلمع حتى أننا نخال أن كل ورقة شجر قد طُليت من جديد. يعود إخوتي الصبية من المدرسة الداخلية يوم السبت ثم نذهب جميعاً للسباحة في "جدول أفوش". نأم أعالي الجدول حيث الماء عذبٌ رقراق أما قرب الطريق، فتجتمع النسوة لغسل الثياب وتُقتاد البغال لنهل الماء.

نهيم بعيداً في الوهدان إلى تخم الغابة، نداعب الجنة بأيدينا. هناك في مضاءة أو بالأحرى في السيرك المحاط بسورٍ من الأشجار ذات العنب الأسود وأشجار الأبنوس بجذوعٍ منتصبةٍ وعاليةٍ تتدلى من أغصانها عارشات تلامس الأرض وأشجار بجذورها الضاربة في الصخور، كنّا نعتقدُ أنها ثعابينٌ جامدةٌ لا تتحرك. هنا تتجمع مياه النهر مشكلةً حوض ماءٍ ضاربٍ بالعمق يطغى على الحجارة السوداء الكبيرة المصقولة بشكلٍ جيد، يا للمتعة التي تسري في جسدك حين تمسك تلك المياه بين يديك!

ماءٌ رقراقٌ عذبٌ نرشف منه. رطباً بارداً ليخمد سعير الحر الذي شعرنا به في مسيرنا من سافلة الوهد عبر العليق ثم نسكبه على رؤوسنا، نبلِّل ملابسنا حتى نشعر أننا اغتسلنا وتجددنا، كأننا نُعمَّد من جديد.

يخلع الصبية ملابسهم ويلقون بأنفسهم عراةً تماماً في الحوض أما أنا وماتيلد فنخلع الفستان ونبقي على السروال، ونسبح في المياه الباردة. لا يراودنا الحياء أبداً فنحن بعيدون عن كل شيء، لا عينَ تكشفُ أسرارنا".

كانت تحلم منتصبة الهامة، تتماهى ملامحها في انعكاس النور لتلقي بنظرتها التائهة إلى أعماقها. لا ينسى جان الواقع والصخب والعنف الذي يجوب الشوارع إلا مع العمة كاترين التي علمته كيف يلتفت لأعماقه ليرى جدول أفوش يسري في دمه ليسقي أشجار الأبنوس.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

"نمضي طيلة اليوم على ضفاف النهر غير آبهين بشيء، ينضم إلينا أطفالٌ من المساكن البدائية من "إيبين وموكا ومينيسي"، ونبدأ باللعب ألعاب مختلفة "مطاردة، تخبئة" ننزلق من أعالي الصخور، تتعالى صرخات وضحكات الجميع. يا للغرابة! إنني أسمع أصواتهم، إنهم ينادونني بعد كل هذا الوقت، تصرخ حناجرهم باسمي: "كاتي! كاتي!"، مازلت أذكر أسماءهم، لم تتمكن كل هذه السنون التي خلت من محيهم: "كريمي! دوني! بونوا! سيتا! بوبا! دافالا!".

أذكر تماماً في آخر سنة أمضيناها،أن هناك فتاة لابد أننا من نفس جيل تسعة عشر عاماً أو ثمانية عشر عاماً. عندما كنت أذهب إلى الجدول، كانت تتنحى جانباً، لم تكن تسبح أمامنا. كانت ابنة أحد مزارعي مينيسي، ترافق والدها أحياناً لبيع الخضراوات عندنا أو عند مفرق إيبين. كان اسمها جميلاً "سومابرابا"، أخبرتني إحدى النساء اللواتي يتحدثن اللغة الهندية في منزلنا أن معنى اسمها هو "تضيء كالبدر"، حقاً كانت تضيء جمالاً وبالوقت ذاته خجولةً كالبدر حقاً، دائماً تتنحى جانباً تجلس على صخرةٍ في عالية الجدول وتراقب الأطفال وهم يلعبون بالماء. عندما تجاذبنا أطراف الحديث لأول مرةٍ كانت ترتدي ساري[1] أخضر اللون بلون أوراق الشجر، يتوسط شعرها شديد السواد ثلمٌ وسط الجبهة، وجهها بيضويٌ تعلو عيناها أقواسُ حواجب رائعة وأهدابها سميكة، أتدري؟ ما رأيت قط أجمل منها وأكثر ما كنت أحب فيها تعابيرها في أحداقها نظرةٌ عميقةٌ ناعمةٌ كالمخمل وتبدو محافظةً ورزينة... أه! لِمَ أروي لك كل هذا؟ لابد أنك سئمت أحاديثي، فأنت ترغب أن تعرف لماذا خسرنا كل شيء ولماذا وجب علينا الرحيل وترك كل شيء خلف ظهرنا ...".

---

(1) - ساري: ثوبٌ ترتديه الهنديات.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لكن جان كان يعتقد أن لكل شيء قيمة، كل لحظة في روزيليس لها معنى. كل وجهٍ وكل اسمٍ يكشف عن أحد جوانب السر الخفي.

"كنا نذهب إلى "روزهيل" بالعربة القديمة التي يقودها غوبال لنشتري بعض المؤونة من الباعة الصينيين أو بعض الخيطان وأعواد الثقاب وفيما تبقى من المال، تصوّر ببضعة سنتيمات من الروبية[1] كنا نشتري سكاكراً وقطعاً من الحلوى. لن تعرف الأثر الذي تخلفّه زيارتنا للمدينة، يرتدي إخوتي الصبية مجرد سراويل مُرقّعة. أما أنا ومود فنرتدي فساتيناً مغبرّة دون قبعات، لم تكن لي حلَّةُ الإنكليز مثل أختي مود، فشعري طويل شديد السواد. ينتظر غوبال أمام المتجر وغليونه في فمه في حين يصعد أطفالٌ آخرون إلى العربة مثل "دافال" ابن نجار إيبين، كان من جيلي وأظن أنه كان واقعاً بغرام أختي مود لكنه يخشى أن يكتشف أحدٌ الأمر. أما عائلة "دبون"، فكانوا يكيلوننا سخرية وتهكماً لأننا نصل إلى المدينة بهذه العربة القديمة وكان الجميع يعلمون بالإفلاس الذي حلّ بوالدي بعد خسارة ورشة النَشر وصناعة الخشب الأسود وخشب الأبنوس وكل المال الذي يدين به لأصحاب البنوك. لم يعد يرغب بمقابلة أحد، لا بل آثر أن يحيا كالبرّي فتحولنا بدورنا لبرّيين مثله. كان يحدثنا أحياناً عن فرنسا وكان يقول إننا سنذهب للعيش فيها عندما نكبر، وكان يقول عن موريس: "بلد صغير وأناس صغار.. " ولكن نحن لم نكن نرغب بالرحيل، كانت روزيليس بين يدينا مع الجدول والشلالات والغابة التي تلامس أطراف العالم، لم أكن أعرف ماذا سنجد في فرنسا".

يمضي النهار رويداً رويداً مع حديث كاترين الهادئ ملقياً الظل في أنحاء الغرفة الكبيرة. بعد لحظات ستأتي السيدة التي يدفع لها والد

---

(1) - الروبية: وحدة النقد في الهند وباكستان وسيلان.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

جان لتعتني بعمته. تدخل المفتاح في القفل وتدخل على حين غرّة دون أن تطرق الباب ليرنّ صوتها في المنزل كالعادة: "مساء الخير. إذاً لدينا زيارة اليوم!".

تتوقف كاترين عن الكلام متوترةً، كم كانت تكره هذه الدخيلة.

في أحد الأيام، أخذت السيدة روزيلا جان جانباً في مدخل الطابق وقالت دون أن تخفض صوتها حتى: "أتعلم، لست أدري كم من الوقت يمكنني أن أستمر على هذا المنوال". كان لأنفاسها روائح البصل واللحم والنبيذ، رائحة حياةٍ، كل ما عاشته العمة كاترين التي لم تكن نباتية لكنها ومنذ وقتٍ طويلٍ لم تتناول سوى قصعة من الرز الأبيض الذي تطهوه السيدة روزيلا مجرداً من النكهة، بالإضافة لبضع خضارٍ مسلوقة والعدس وأوراق اللفت أو الأفوكادو. وتشتكي رغم هذا بأنها صريحة لا يمكنها كتمان ما يراودها من أحاسيس.

أمسكت السيدة روزيلا بذراعه وكأنها أدركت أنه يؤثر الهرب على الاستماع إلى ما في جعبتها: "مع احترامي لك سيد مارو لكن عمتك فقدت عقلها لم تعد تسيطر على نفسها، حتى إنها تتغوط دون أن تشعر بملابسها، فيتوجب علي حمل الشراشف إلى المغسل. أصبحت كالطفل فلم تعد مريحة البتة، إنها لا تسمح لي بغسلها بل توجه لي لطمات وأنت تعلم أنها مازالت بقوتها حقاً امتلأت ذراعي بالكدمات وماذا بوسعي أن أفعل أنا؟ لابد أن تتحدث مع والديك بالأمر فليجدوا حلاً، لن يقبلوها قريباً في مأوى عجزة".

كره جان أن طريقة كلامها وكأن العمة كاترين قد فارقت الحياة. امتنع عن المجيء لفترة من الزمن لئلا يلتقي بالسيدة روزيلا ثم قرر أن يبقى هناك حتى عند قدوم السيدة الوصيفة وليواجه فظاظتها.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

"اروِ لي يا عمة عن "رجال الغابة" أما زلت تذكرين؟"

تقهقه كاترين قليلاً بضحكةٍ متعة، ذكر جان هذه القصة ليسمع هذه الضحكة.

-:"رجال الغابة، قلت لك إنهم نحن، مارو روزيليس، لست أدري من أطلق علينا هذا اللقب لكننا تبنيناه لا بل لابد أن أقول أنه كان مصدراً للمتعة بالنسبة لنا. توجد خلف منزلنا غابةٌ زرعها جدنا بأشجار العنب الأسود وأشجار الأبنوس، ربما هذا هو السبب، لم يرغب أن يعيش من زراعة قصب السكر حيث كان يجد أنها زراعةٌ لعينة تجر العبودية جرّاء ما تعرّض له الفلاحون فيما مضى.

نتسلق الوهد خلف منزلنا ونحاذي نهر "كاسكاد" حتى نصل إلى ما سميناه "آخر العالم" أسفل وهد "ريدوي". كان موحشاً يغصُ بالأشجار والنباتات، بين هذه الجنبات يقبع عالمنا الذي نعرف كل زواياه ودروبه وحتى الحصى المتناثرة فيه.

تصطحبنا أيام العطلة وكذلك أيام الآحاد إلى المغامرة برفقة إخوتنا الصبية وأبناء الجوار، نبتعد أكثر فأكثر لنعود بأيدٍ وأرجلٍ دامية بالشوك تغطي أجسادنا مزق الملابس، بأقدام حافيةٍ مبللة بمياه السيول. ولدى عودتنا كان هناك دائماً أناسٌ في الحديقة أو عند مدخل روزيليس ليقولوا: "تفضلوا! هاكم رجال الغابة!".

حتى في المدرسة عُرفت عائلة مارو بهذا الاسم، وكان الطلاب على سبيل الاستهزاء ينادوا إخوتي به فيتشاجر سيمون معهم ويتدخل جيلدا للدفاع عنه، حُرموا في أحد الأيام من طعام الغداء، ما إن عادوا إلى روزيليس يوم السبت كالمعتاد حتى اجهزوا على كل الطعام المتوفر، كانوا قد فقدوا منِ وزنهم وغطتهم الجراح كالقطط البرية".

يبقى ذهن كاترين معلّقاً هناك، جسدها منتصباً ورأسها منحني جانباً كما لو أنها ترى شيئاً ما هناك في العالم الآخر حيث الحياة أكثر

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بهجة وتدفقات أقوى، امتلأ قلب جان بالغم لأنه كان يعلم أنه لن يمتّ بصلة أبداً لتلك الحياة مهما فعل، سيبقى خارج إطارها، لن يكون أبداً أحد "رجال الغابة".

نهض وسار على رؤوس أقدامه حتى وصل إلى الباب، وضع يده على مقبض الباب، انتظر لثوانٍ عدة علّها تناديه ليلج من جديد إلى حكايتها. حلّ الليل واقترب موعد مجيء السيدة روزيلا لتقدم العناية الليلية لكاترين التي كانت ترفض رفضاً قاطعاً أن يرى جان مثل هذه الأمور.

إنه اتفاقٌ جرى بينهما، أن يغادر دون أن يصدر ضجيجاً بهدوء كعصفورٍ هارب: "لا تحية ولا وداع" فهي كلماتٌ لا تعني شيئاً، هذا أسلوبنا هناك في روزيليس. لم نلقِ البتة التحية ولا الوداع وهكذا، حين كان الصبية يعودون بعد أيامٍ وأيامٍ من الغياب، كما لو أنهم ما فارقونا أبداً، هل تفهم؟".

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

صيف ١٧٩٤

أسير برفقة رجالي في سهلٍ ملتهبٍ وفارغ وكئيب. أعود بذاكرتي إلى رونيلو، ها قد مرَّت حوالي سنتان على يوم مغادرتي بيد أني أشعر أنها عشر سنوات ربما.

كانت الخضرة تطغى على كل شيء لتنثر الانتعاش والمتعة، تغرّد طيور القبرة في الحقول. أتنزه في الدرب بمحاذاة "لإيلي" حتى أصل منزل "ناور" حيث تنتظرني ماري آن. يرسم الدرب تعرّجات النهر الكسولة مخترقاً الأعشاب الطويلة. يا لتلك الأمسيات! يزعق طائر القيقب من أعماق الغابة وتتوارى الحقول خلف ستارةٍ من الغبار المذهب. لكن الحرب غيّرت وجه كل شيء. غادر الرجال ولم يعودوا كما كانوا لدى رجوعهم، لم يتعرف أولئك العائدون على شيء، إنهم غرباء.

أنا أيضاً لم أعد كسابق عهدي، تسكنُ في قلبي الغصة. التهمت النيران كل الحقول المحاذية للدروب من جهة "أرزامو" و"فاويت" وعلى طول "سكورف" وصولاً إلى جبال "نوار" أي "الجبال السوداء" مروراً بغابة "كينيكان"، كل تلك الأماكن مهجورة خاوية على عروشها.

تم اختياري رقيباً للسرية الثالثة من الكتيبة رقم اثنان في لوريان لأحل محل ميرفان الذي غادر إلى باريس. تقوم مهمتها على إمداد الجيش الثوري بالمؤونة.

قطعت الثورة المسلحة في "لابروتاني" طريق إمداد الحبوب، فلم يعد هناك قمحٌ ولا شوفان. لم يكن يصلنا سوى القمح الذي ترسله حكومة الولايات المتحدة في أميركا رغم أنف الإنكليز لدعم الثورة، على متن بوارج حربية تحطُ في شواطئ "بروتاني" لكسر الحصار. لكنه قمحٌ من نوعٍ رديء وقد أفسدته الرحلة الطويلة. اختمر جزء كبير من الحمولة في

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

قعر السفينة فاضطررنا لرميها في عرض البحر، حتى أن الأحصنة والخنازير رفضت تناولها.

يستشيط الشعب غضباً لرؤية مشهد أكياس القمح التي ترمى دون جدوى. يلقي مثيرو الفتن اللوم على الثورة وتزمجر حركة التمرد. خوت القرى على عروشها أو تكاد، تم حصد الحقول ثم إضرام النيران فيها، عثرنا على بقايا سنابلٍ محترقة على ناصية الدروب لنفهم أننا لن نعثر على ما يسد الرمق. تقسم الرجال بين موجاتِ غضب وهبّات إحباط، لكن الأوامر كانت واضحة: العثور على القمح مهما كلف.

سرت بقيادة كتيبتي، كنت الأكبر سناً وعمري لم يتجاوز العشرين عاماً. اذ تتراوح أعمار المتطوعين ما بين السابعة عشر عاماً والثمانية عشر ولم يعهدوا الحرب، حتى أن الزيّ الموحد فضفاضٌ على أجسادهم. ظلَّ الغالبية منتعلين في حين مضى آخرون حفاة الأقدام.

يولي كل الناس في القرى التي نطأها أدبارهم أو يوصدون أبوابهم، فقد كنا نشبه رهطاً من الذئاب الجائعة أكثر مما نشبه فوجاً من جنود الجمهورية. لاقانا وجهاء القرى ودلّوا على الحقول المسكونة والتي شهدت حصاد الموسم. تقدمنا بمحاذاة سكورف باتجاه "كيفان" ثم جسر سكورف. تكرر المشهد الذي رأيته فيما مضى في دروب باريس، الآن في أغلب القرى في "مورديل وكرافيل وحوري"، يتضور الأطفال جوعاً بثيابهم الرثة لم يكونوا يفرّون هاربين لدى رؤيتنا بل يقبلون إلينا يستجدون كسرة خبز أو القليل من الجبن أو فُتاتٌ منسي في خُروجنا. مازلت أذكر صبياً صغيراً وأخته بعمر التسع سنوات، يكسو جسديهما أكياس مثقوبة وقد اسودً وجهيهما قذارةً بشعرٍ أشعث، يركضان أمامنا باسطي كفيهما دون أن يتفوها بكلمة. كان علينا طردهما برميهم بالحجارة لكن المشهد كان مروّعاً.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كم شقّ علينا في خضم هذه الظروف تنفيذ المهمة التي ألقتها الهيئة الأمنية على كاهلنا بإحضار لحمٍ ودواجن وقنطارٍ من القمح وكذلك بعض النبيذ لأولئك الوطنيين.

قادتنا الدروب في أحد الأيام لمزرعة أشار إليها من زودونا بالمعلومات على تخم "بلافيت" حيث عثرنا على حقلِ قمح حُصد قريباً تشهد عليه السنابل المترامية على ناصية الدرب. قمنا بمحاصرة الهدف، أخرجنا المزارع غير آبهين باستجداء عائلته، رجلٌ يناهز عمره الخمسين عاماً، ترتعد فرائصه ذعراً. لم يكن يتحدث سوى اللغة "البروتون" في حين كان كل من برفقتي يتحدثون "الغالوا"، فتوجب عليَّ أن أطرح أنا عليه الأسئلة. يجيب الرجل بعد كل سؤال أطرحه عليه عن مكان القمح قائلاً: يا يسوع المسيح، ناموس كيت "nameus ket" وهو يهزُ برأسه، في هذه الأثناء عثر اثنان من الجنود وهما يسيران مستودع الحصيد بالحراب على أكياس القمح مخبأةً تحت القش، فعزما على شنقه دون رأفة معلقاً بدعامة مستدوع الحصيد ثم حرق المزرعة ليكون عبرةً للغير، فلا يجرؤ أحد في مقاطعتنا على اقتراف هذه الرذيلة.

مارست السلطة التي تفرضها رتبتي والنفوذ الذي فرضته الحملات العسكرية التي قمت بها وتمكنت من منع هذه الواقعة.

توجهت إلى الجنود أخاطبهم برباطة جأشٍ:

"أيها المواطنون المتطوعون، إنكم على وشك التصرف كمن نحارب وكنتم قاب قوسين من اقتراف جريمة؟ إن كان هذا الرجل يستحق العقاب فليكن بحضور قاضي باسم الجمهورية، كل ما عدا ذلك سيقع تحت طائلة المسؤولية بمخالفة القوانين".

عدل الرجال الذين لفوا حبل المشنقة حول عنق المزارع عن رأيهم، اتفقوا بعد أن حلّوا وثاقه أن أصطحبه إلى أقرب مدينة أي "هينيبون" لأضع هذا المزارع بين يدي عدالة الهيئة الأمنية التي ستقتصُ منه.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

عثروا على طنبر فتمكنت من اصطحاب الرجل بعيداً عن المجموعة ليستجمع قواه ويلقي عن كاهله الذعر، ثم قلت له باللغة "البروتون" إنني سأتكلم لصالحه لدى قاضي الهيئة. فشكرني كأنني المخلّص، وكان الأمر مصدر شفقة وسخط أن أرى هذا الرجل الذي يناهز عمره عمر والدي والذي ما اقترف في حياته إثماً سوى أن كدح مع بزوغ الشمس إلى مغيبها كل يوم ليكسب بالكاد قوت يومه وقوت عائلته والذي كاد يشنق على مرأى زوجته وأطفاله الذين يجهلون تكاليف الحياة.

وصلت مساء إلى هينيبون وطلبت أن يستقبلني القاضي برفقة الأسير، وعرضت أمامه ما جرى. ختمت كلماتي بالعبارات التالية: أيها المواطن القاضي إن كان عليك إنزال عقوبة الإعدام بهذا المزارع لأنه خبأ عدة أكياس من القمح لتبقى عائلته على قيد الحياة فلابد إذاً من إعدام كل سكان بروتاني فما عرفت أحداً منهم لم يفعل الأمر عينه. خاطرتُ بأن يشي بي كمتمردٍ عدوٍ للجمهورية، بيد أن القاضي كان رجلاً شريفاً فضلاً عن كونه صديقاً للخوري جاندرون، معلم البلاغة قديماً في مدرسة هذه المدينة.

نهض وصافحني قائلاً: "أنت على صواب أيها المواطن الرقيب. سأصدر أمراً بالإفراج عنه للحال وليعد لأحضان عائلته وليرعاها وإنها لمهمةٌ كبرى في هذه الأيام العصيبة التي تمر بها البلاد".

شكرته بامتنان وما إن حلَّ الدرك وثاق المزارع حتىَ أقبل علي وقبلني باسم المسيح وعاد يحثُّ الخطى على الدرب نحو مزرعته.

قسَّمت القمح الذي عثر عليه الرجال لحصتين، حصةٌ للجيش وحصةٌ أعدتها لهذا الرجل الذي غمرته الفرحة، هذه الأكياس العدة هي مؤونة الشتاء، سيطهون بها العصيدة والطُّلميَّة[1]، فهؤلاء الناس المساكين لا يعرفون حتى طعم الخبز.

---

(1) - الطلمية: حلوى مسطحة الشكل من الدقيق والزبدة والبيض.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

رويت هذه الحكاية الطريفة لا من باب الخيلاء وإنما بدى لي أن هذه الحادثة ستحدد مجرى حياتي القادمة وتقودني لأطلب من قيادة موربيهان إذناً قطعياً وأتخلى عن المهنة العسكرية.

أتساءل في سري أحياناً ماذا كان سيجري لو تابعت بالخدمة ففي أيام الثورة كانت الترقيات بالجيش سريعة من ملازم لرائد حتى تصبح لواء، لقد حدث ذلك. ولكن كم حصدت أرواحاً كأولئك الذين عرفتهم وبقوا في "هوانا ميت" و"جيماب" و"هوندسكوت" بالإضافة لخمسين ألف رجل تحت لواء "هوشارد"، دون أن يدخل بالحسبان أولئك الذين لقوا حتفهم على جسور الإنكليز العائمة، وكل من عاد بأطراف مبتورة والبؤس ينخر ماضيه، لكن في ذاك الزمن الغابر، لم يكن يساورني الشك بأنني جررت ذيول الهزيمة بما فيه الكفاية، حسبي ما رأيت من سرقة ونهب واغتصاب.

غادرت كتيبتي وتركت فوجي و ذهبت سيراً على الأقدام عبر الحقول لأصل إلى نهر "إلي" حيث تنتظرني والدتي وأختي وعزيزتي ماري آن. مازلت بذات الخفة التي غادرت فيها منذ عامين مضت، ليس بحوزتي سوى حقيبتي مع كسرة خبز وجبنة، حاملاً نايي المستعرض[1] الفضي وكتاب القواعد مع عبارات "مارك أورليل"، أي لم يكن بحوزتي فلساً يزيد عن يوم تطوعي. يكاد قلبي يمزق ضلوعي خفقاناً حين حاذيت نهر "إلي"، لقد نسيت أن نهري لطيفٌ وحلوٌ إلى هذا الحد، يتعرج بهدوء ما بين مروج الأعشاب والهضاب. يتصاعد الدخان من المزارع ونباح الكلاب يُسمع بوضوح. تخيلت للحظة أنني قد أكون من أولئك الذين نهبوا منزل عائلتي والذين سبروا أكوام القش بضربات من حرابهم للعثور على القمح أو من الآخرين الذين أخذوا النساء عنوة فلا ظهير لهن، كم شعرت بهول مهنة السلاح. لم أفهم كيف تمكنت من الغياب طيلة تلك الفترة عن كل من يعزون على قلبي. تخيلت أيضاً المشهد الذي جرى في "هينيبون" والمعاملة السيئة في "لابروتاني".

---

(1) - ناي مستعرض: يسمى كذلك لإمساكه بالعرض عند الشفتين.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ألم تكن اللغة "البروتان" ممنوعة حسب ما نصت عليه الاتفاقية مع الخوري "غريغوار"؟ ألم يتم الاستخفاف بهيبوليت كورولز وجوزيف دولافيل عندما تجرأا أن يطلبا علناً ترجمة مراسيم المجلس العسكري إلى اللغة "البروتان"؟ يبدو لي أن لا أمل لي أرجوه من "الثورة".

حاذيت النهر صعوداً وأنا أفكر على هذا المنوال حتى هبط المساء. مازالت تفصلني عدة فراسخ عن رونيلو. توقفت لأستمتع بالغسق الذي بعثر لونه في الأرجاء وداعبت الناي مصدراً أنغام الجيك مثل تلك الأنغام التي عزفتها لمجموعة المتطوعين أثناء المسير إلى الحدود. وددت طيشاً مني أن يحلق نغم الناي إلى رونيلو ويقول: جان أود الصبي الطيب قد عاد!

كم هذا مضحك!

لجأتُ لإحدى الزوايا على ضفاف النهر، على تخم غابة بلوط صغيرة لأمضي ليلتي الأخيرة كمحارب. كان الجو لطيفاً وينثر القمر لونه الضارب للصفرة على القرية وتحلّق الخفافيش على مستوى المياه. كم كان ذلك خيالياً! تناولت آخر كسرة خبزٍ بالشحم حملتها من حصتي من الحرب ثم دخنت غليوني بمتعة للمرة الأولى منذ سنواتٍ خلت، أتلذذ بسعادة الحرية.

أمامي آلاف المشاريع. سأتوجه إلى باريس وسأتقدم لأصحاب المصارف في شارع ميسلي لدى موران. أو سأمخر عباب البحر لأصل آخر العالم إلى الهند أو إلى أميركا. أهم ما سأفعل هو عقد قراني على "ماري آن" وسنقطن منزلاً مزهراً في "بور لاليبرتي أي ميناء الحرية". استسلمت لأحلام اليقظة هذه في ليلة عذبة يهدهد فيها خفقان أجنحة الخفافيش وخرير النهر الهادئ.

عقدت قراني على "ماري آن ناور"، أنا "جان أود مارو" في الخريف في العاشر من فانديمير[1] من السنة الخامسة في بلدية "بوردولا ليبرتي".

---

(1) – فانديمير: الشهر الأول من الروزنامة الجمهورية من ٢٢ أيلول حتى ٢١ تشرين أول.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

رغبت ماري آن أن يكون قراناً مسيحياً، عدنا إلى رونيلو من أجل الإجراء الثاني، كانت عائلتي وعائلة زوجتي بانتظارنا من أجل مراسم الزفاف. لقد دونت كل التفاصيل في دفتر لئلا أهمل أي تفصيل من هذا اليوم ذي الأهمية الكبرى.

ارتدت كلٌ من والدتي وأختي زياً رسمياً، فستاناً أسوداً وقبعةً كبيرة ذات شرائط شديدة التصنع، أضفت عليهما جبة الوقار، أما أنا، فارتديت سترة والدي سوداء اللون وربطت حزامه العريض الموشّى ولكنني أبقيت على سروال وسترة الزي الموحد للحرس الوطني، نزولاً عند رغبة عائلتي وحللت شعري لينساب طويلاً على كتفي حسب طريقة "بروتاني". ثم ذهبت إلى الزفاف لأحضر خطيبتي.

انهمكت النسوة منذ الصباح في المزرعة لطهي الكريب، سيجتمع الناس جميعاً هنا مع حلول المساء، النساء معاً والرجال على حدا، ليتجاذبوا أطراف الحديث وشرب خمر التفاح. أعلم في سري أن سلوكي الثوري يبثُ الاضطراب في نفوس الغالبية، أصحاب الدين بشكل خاص. بيد أنهم أُناسٌ بسطاء يجابهون البؤس بوجوه بشوشة، آثرنا النوم في الخارج، تدثرنا ليلةً قمراء مرصعة بالنجوم. في الصباح الباكر، حضرت النسوة النار وحلبن الأبقار وماري آن ذهبت برفقتهن. عند الساعة التاسعة، ارتدت زي الحفل.

لاحت أخيراً في القاعة الكبرى المشتركة، تزينت بأحلى حلَّة، قبعةٌ عريضة من الدانتيل تتراخى شرائطها من كل الجوانب على وجهها وزينت صُدًارها من القماش الأسود بعقد المرجان الذي أهديته لها في الخطبة.

أخيراً عند انتصاف الظهيرة، توافد الدقاقون وتبختر الموكب مختالاً في الطريق عبر جنيبات الخليج ذات الزهر البنفسجي إلى مستودع الحصيد، حيث جُهزت الموائد والكراسي تحت خيام كبيرة نُصبت بصواري وأشرعة باخرة. النساء من جهة والرجال من الجهة المقابلة، فوجئت لرؤية كل هذه القبعات البيضاء والمزارعين متصلبين تحت القبعات الواسعة السوداء بقمصانٍ بيضاء ذات ياقاتٍ واسعة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

زُينت الموائد بطاقات من زهر الوزّال ومُدت الولائم الفاخرة بالنسبة لتلك الحقبة من الزمن، أطباقٌ من ضلوع العجل المملح وسجق من منطقة "فير" وشحم وخبز أبيض بالإضافة لخمر التفاح والشوشان[١]. اصطحب كل مدعو ملعقته. قدمت لي ماري آن بهذه المناسبة هدية الزواج ملعقةً من خشب البُقس[٢] وصندوق من خشب البلوط حفرت عليه أسماءنا. ردد الخوري مرتدياً زياً مدنياً الصلوات باللغة اللاتينية والعبارات الشعائرية بالبروتانية، ها قد تم عقد قراني على ماري آن.

ما منع انهمار المطر حتى حوالي الرابعة عصراً العازفين من عزف أنغامٍ مرحة أحياناً وحزينةٍ في أحيان أخرى، كما هو معتاد في حفلات الزفاف.

بدأ الجميع بعد برهةٍ بالرقص صفين، صفاً للفرسان وصفاً للسيدات مقابل بعضهم البعض لرقصة فيسيل والغافونة. شربت حتى الثمالة لكن لم أثمل بخمرة التفاح بل بزوبعة الحفل ممتزجة بروائح الطعام وشذى زهور الوزّال[٣]، مبعثرة أنغاماً عذبة تراقص ألوان الملابس الزاهية. تأملت ماري آن تتمايل راقصة أمام عيني بوجهها الجميل الضارب للحمرة وتلك الخصلات الشقراء التي أفلتت من قبعتها. لن أنسى ما حييت ابتسامتها وبريق أسنانها، كم ارتجف خافقي لفكرة أنها زوجتي طيلة الحياة وأننا سنبقى معاً إلى الأبد.

عندما تحملني ذاكرتي إلى ذلك اليوم الخريفي في رونيلو، يراودني شعورٌ بأنه أعلن البداية. حقيقية وجودي على الأرض، وكأن كل ما كابدت خلال الحرب على الحدود والحملات في بلجيكا فقد أهميته وما أجدى نفعاً إلاّ بأن هيأني للزواج مع ماري آن، أي ليحولني لرجلٍ جديد، للرجل الأكثر سعادة بين الرجال.

---

(1) – الشوشان: اسم نبيذ العسل باللغة المحكية في منطقة برمتاني.

(2) – البقس: جنبات تستخدم لتحديد تخوم الحدائق.

(3) – الوزّال: جنبةٌ صفراء الزهرة من فصيلة القرنيات.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

قابلني ميرفان بالسخرية بقوله: كيف لك وأنت مستقلٌ جداً أن تقبل أن تكون رجلاً لامرأةٍ واحدة؟ حينها أجبته: اسمعني، تلخصت في تلك المرأة كل النساء.

كان يهزأ ويقول: مازلت صغيراً جداً بالسن ولم تعرفهن جيداً بعد.

لأجيب: لا حاجة لي بمعرفتهن حق المعرفة.

أقدم ميرفان على خطبة أليس ابنة صاحب المصرف موراند، منذ ثلاث سنوات خلت، جامعاً أموراً عدة. بنفس الوقت، تجمعه علاقة بعشيقين إحداهن متزوجة قبلاً وتتوارى بهوية بائعة خردة في شارع تامبل "شارع المعبد"، كما تطرق للحديث عن الشابات اللواتي تحدثنا إلينا في شارع ميسلي حين عبرنا باريس بقصد أن يسخر مني أنني فوّت الفرصة التي عُرضت علي. لن يفهم يوماً أن حسبي رؤية ماري آن حين ينثر الصباح عذوبته على وجهها فتستيقظ بشعرٍ أشعث هاربٍ من الأقراط الذهبية لأشعر بمتعة الأمان والثقة، شعورٌ لا يضاهيه شعورٌ آخر، كل شيء برفقتها بسيطٌ وسهل. كما أنها تتقن القراءة والكتابة (تتمتع بصوتٍ شجي كنت أطلب منها أن تقرأ لي حتى الحوارات السياسية الأكثر غموضاً). كانت تبدي آراءً سديدة حول كل المواضيع رغم أنها ما قرأت قط لكتَّاب وتجهل الفلسفة تماماً. سألتها: كيف عرفت هذا ماري آن؟ برطمت ساخرة بابتسامةٍ خفيفة – ألم أكن محققة؟

- بلى، ماري آن، أنت محققة؟ ولكن عليّ أن أعرف؟

أضافت: إن كنت على صواب هذا يعني أن كائناً من كان يمكنه قول ذلك.

حقاً، إن رأيها هو عين الصواب ولكن الكثيرون لا يصغون خشية التهكم أو من باب الكسل أو سوء التفكير.

تآكلت فرحتنا بالقلق مع فجر اليوم التالي، فالمهر الذي قدمته عائلة تاور لم يكن قيماً، ومبلغ ستمئة وثمانين فرنك التي قدمها لي عرّابي

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

العم إيتين سوليان عندما أتممت ثمانية عشر عاماً، على شكل حوالات والتي تضاءلت قيمتها الشرائية بسبب هبوط قيمة العملة الورقية لم يتبقَ منها سوى مئتي وعشر فرنك مع نهاية ٩٣، وبالكاد بقي ستين فرنك في شهر مرعوي[١] من العام التالي.

أقمنا إذاً في المنزل الصغير في شارع "فولفي" في لوريان على مقربة من الميناء. دام حصار الإنكليز حتى افتقدنا كل شيء، اللحم والسمك حتى البيض بات باهظ الثمن. لو لم تكن الخالة روزيلين تحمل لنا الخضار كل أسبوع والجبن والحليب لقضينا أيامنا في تناول الخبز السيء مبللاً بماءٍ دسم، شحب لون ماري آن، للأسف!

كان شتاء عام ٩٤ قارساً ورياحه تقطع كنصل السيف والثلج غافٍ على مشارف المدينة، حتى البوارج الأميركية لم تعد تحمل الحبوب خوفاً من الإنكليز. للحصول على خبزٍ رمادي تفوح منه العفونة، كانت ماري آن تنهض في الثانية صباحاً لتنتظر دورها في الطابور أمام المخبز. الأسوأ، أن غالبية النساء يبعن الخبز بعد ذلك بضعف ما اشترينه لمن لا يستطيع شراءه من المخبز.

عجّت مدينة لوريان والضواحي المجاورة بالمتسولين، تكوّم الأطفال والشيوخ بثياب رثّة مهترئة في الدهاليز واقتحموا ساحات المنازل. أغلقت حكومة المديرين[٢] الكنائس ومنعت دق الأجراس وطوحت كثيراً من الصلبان القديمة في مفارق الطرقات. قيل أن قلعة مدينة "بوردو ليبرتي" تحولت لسجنٍ يضم الكهنة المتمردين وكل أولئك الذين سيتم إقصاءهم إلى المستعمرات.

---

(1) - مرعوي: صفة للشهر التاسع من الروزنامة الجمهورية من ٢٠ أيار إلى ١٨ حزيران.

(2) - حكومة المديرين ١٧٩٥ – ١٧٩٩ باول بارا.

٢٥ ت١/١٧٩٥ استلم خمسة مديرين الحكومة التنفيذية، وهو شكل الحكومة المطبقة خلال الجمهورية الأولى.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

قيل أيضاً أن هوش[1] قد اعتقل المتمردين من منطقة "فاندي" في هذا الحصن حيث لاقوا مصرعهم برداً وجوعاً، ليتشرد من بعدهم أبناءهم ونساءهم في المدينة يتسولون ويستجدون كسرة خبز مُرتلين الصلوات والأدعية.

الثورة التي جاءت لتحرر شعوب الأرض قاطبة هاهي الآن تستبسل لتقيد هذه الحرية، رافضة حق أن يمارس كل فرد قناعاته وعاداته. أنا نفسي لم أكن ورعاً طيلة حياتي وخاصة بعد أن كشفت جرائم رجال الدين تحت إمرة الملوك المخلوعين وذوي الامتيازات ومع ذلك لم أتوصل لقبول الحزن والخزي الذين يعتريان والدتي وأختي بولين أو حتى ماري آن اللواتي لم يعدن يجرأن العبور أمام كنيسة خشية أن يتم توقيفهن بيد فاسقٍ يدعي حُب الوطن. حتى اللغة "البروتون" باتت متهمة بنظر اليعقوبيين[2] أعلن النائب "باريز" أمام مجلس النواب حين قدم جوابه على طلب سكان بروتاني بأن الفيدرالية والخرافات تتكلم اللغة "البروتان".

صدر في ٣٠ فاندمير من عام II المادة رقم ٧ من القانون والتي تنصُ على أن التعليم في كل أنحاء الجمهورية فقط باللغة الفرنسية.

رغبت للحظة باصطحاب ماري آن إلى العاصمة حيث، كما كنت أظن، ستكون الحياة أفضل حالاً وقد أتمكن من الحصول على عمل في مؤسسة تجارية، إلا أنني عدلت رأيي بعد أن وافاني ميرفان بالأخبار، فهو نفسه يفكر أن يحزم أمتعته عائداً إلى "بروتاني". فالناس في باريس، كما أخبرني في رسالته، يموتون جوعاً وبرداً مع انعدام خشب التدفئة مما اضطر الناس لإحراق الأثاث، أضاف في رسالته، على الأقل في "بروتاني" يمكننا تأمين الحاجيات الأساسية، إحراق الخشب الميت في الموقد وتناول الخضار من المزرعة كما بوسعنا اصطياد طرائدٍ من الغابة ولو خرقنا مواعيد الصيد.

(1) - لويس لازار هوش: ١٧٦٨ - ١٧٩٧، جنرال في الثورة الفرنسية.

(2) - يعقوبي: عضو في ناد جمهوري في أيام الثورة الفرنسية، ينادي بالديمقراطية ويعقد جلساته في دير الرهبان اليعقوبيين.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

اتخـذتُ أنـا ومـاري آن قـراراً بـاللجوء إلى طاحونـة "رونيلـو" وبهـذا أمضينا بقية هذا الشتاء بـآلامٍ ضئيلة، بيد أن الحـزن طغـى علـى أنحـاء البلاد ونعيق أسراب الغربان يجتاح القرى، وتناثرت في كل الأماكن بقايا حيواناتٍ نافقة. لتضفي السماء الرمادية والأشجار العارية مشهد أسـى على الخراب. شعرت أنني أبعد ما يمكن عن نغمات الحفل التي رافقت زفافنا، عندما كان الطعام وخمـر التفاح غزيـراً وأمضينا الليل نـرقص على ضفاف "إلي".

تنتظر ماري آن مولودنا الأول واستمرت بالعمل في الإسطبل للعناية بأبقار مزرعة ناور. تغادر المنزل صباحاً في الساعة الرابعة ولا تعود قبل حلول المساء.

شقق الماء البارد والعمل المضني يديها الجميلتين، استمرت بـرفض مساعدتي لها رغم كل شيء متذرعة بقول: "إنـك لم تخلق لمثل هـذه الأعمال، عليك أن تعمل في مصرف أو كتاجر لا صبيٌ في مزرعة".

والحقيقة هي أن عائلة ناور لم تقبلني فأنا يتيم الأب، لا مال لدي، فلم تطرح فكرة أن يكون لي حصةٌ من أراضيهم. قسّى الشتاء القارس قلوبهم وكشف عن وجه المزارعين الفظين الشحيحين. علاوةً على ماضيٍّ كثائرٍ وأفكاري التي أجاهر بها عن الجمهورية والدولة العلمانية.

كانت ماري آن تعلم أنني لم أكن ممن اضطهدوا الكهنة لكن والديها وكثيرٌ من المنطقة يرون أنني خائنٌ ومرتد. وهكذا تكونت لدي فكرة المغادرة، الرحيل مع ماري آن لعالمٍ آخر حيث يكون كل شيء جديداً، حيث يمكنني العمل، حيث أكون حراً بعيداً عن عقوبة محدثي النعمة السياسيين ومحبي الوطن المزيفين.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تاريخ رحلتي من لوريان إلى
ايل دو فرانس على متن زورق روزيليس
الانطلاق في الأول من جرمينال العام السادس
الوصول ٢٠ ترروميدور

غادرنا "لابروتاني" في الأول من جرمينال[1] من العام السادس، عازمين ألا نطأها مجدداً، غادرنا على متن زورق مغامر "لاروزيليس" نحو "إيل دو فرانس" عندما أفكر بالأحداث التي توالت تلك السنة، أقدر كم كان الأمر صعباً، امتحاناً قاسياً لي ولماري آن ولحظة مفجعة لوالدتي وأختي اللاتي أيقنَّ أنهن لن يريننا مجدداً، فقدننا للأبد.

ولدت جان أوجيني مع أوائل الصيف مع بداية ترروميدور[2]، فكانت الفرحة الوحيدة التي اخترقت هذه الحقبة من الحرمان والتردد. قاسينا الكثير من الصعاب ونقصٍ حادٍ بالمال بيد أنه بات لا يطاق بالنسبة لي أن أعيش على حساب والدتي وأن تعمل ماري آن كخادمةٍ عند عائلتها.

ما إن تسرحت من الخدمة حتى قدمت طلب جواز سفر لي ولعائلتي بهدف الرحيل لأحضان الغربة. وقع اختياري على "إيل دو فرانس" على سبيل الصدفة إلى حدٍ ما، فالبوارج نحو مستعمرات "الأنتيل" و"أميركا" قد أتمت مهمتها ولم يبقَ متسعٌ لمسافرين آخرين. الرحلة الأخيرة منذ زمن طويلٍ على متن "روزيليس" قلعية مصنوعةٌ من ثلاثمئة برميل في لوريان مخصصة لشحن البضائع إلى المحيط الهندي. الرحلة مكلفة وتستمر عدة أشهر والطريق محفوف بالمخاطر تحت رقابة الإنكليز

.

(1) - جرمينال: الشهر السابع في عهد الثورة الفرنسية.

(2) - ترروميدور: الشهر الحادي عشر من السنة الجمهورية الفرنسية.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الذين مازالت الحرب تدور بيننا. كما أن عليّ بناء مقطورةٍ على حسابي لنأوي إليها خلال الرحلة لذلك تعاقدت مع نجارٍ في الميناء. لم تعد بقية الأموال التي قدمها لي عرّابي تساوي شيئاً، كان عليّ أن ألجأ لتدبيرٍ يائس من أجل الرحيل، سألت والدتي أن تقدم لي سلفاً حصتي من الميراث، ولأن لا مال بحوزتها، عرضت المنزل الكائن في شارع فولفي في لوريان للبيع فهو الملك الوحيد الذي بوسعها التخلي عنه. ساعدتني أختي بولين التي أطلعتها على مشروعي بإقناع والدتي. وهكذا تنازلت عن أي حقٍ لي بالميراث في طاحونة "رونيلو" والأراضي، أي أنني تخليت عن أي أملٍ لي بالعودة إلى "بروتاني"، فما أن يباع المنزل حتى أفقد وسيلة كسب قوت عائلتي. رفضت من جانبها عائلة "ناور" التي أبدت لي العداء الكلي أن تقدم لابنتها حصتها من الميراث، قدموا لي نصف المبلغ المتفق عليه في عقد الزواج وبالليرات الذهبية حقاً ولكن اللعنة عليهم.

انضم حادث عارضٌ آخر لقافلة دوافعي للهجرة إلى الأبد، في آخر صيفٍ بروتاني أمضيه. تقدمت للحصول على جواز سفري من الهيئة الأمنيةِ في لوريان حيث التقيت بأحد الضباط واسمه رينالدي من مرسيليا، يدعي الوسامة ببشرته الجعدة ويرتدي بكلفةٍ باهظة. في اللحظة التي كنت أوقع فيها السجل، وبخني بطريقةٍ مهينةٍ للغاية: أيها المواطن، ألست من أولئك المخلوعين الذين خانوا قضيتنا والذين هربوا بذهب الفرنسيين؟ إن كنت تريد أن أوقع لك "اللامانع" عليك بحلقة شعرك!

يقصد بقوله ذيل شعري الذي يُفلت من قبعتي ويتطاير على ياقتي. سرت الشائعات أن اليعقوبيين سنوا على المواطن الصالح الشعر القصير مما دفع العديد من سكان بروتاني للتضحية بضفائرهم نزولاً عند رغبة أولئك المتشددين.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أجل، كان بوسعي أن أهزَّ بكتفي وأغادر، إلا أن الغضب تملكني وخرجت عن طوري. تراجعت ثلاث خطىً إلى الخلف في قاعة جمعية المديرين ثم استليت حسامي الذي ما فارقني منذ أيام الحرب وصرخت: "أيها المواطن، من يرغب بلمس شعري عليه أن يبارزني أولاً".

من حسن الطالع، لم يكن هناك درك يحرس القاعة، وإلا لتم اعتقالي لتفوهي بتهديدٍ كهذا. شحب لون الضابط وتقهقر خلف مكتبه. أخذت ورقتي بعد أن أمهر التوقيع وأدرت وجهي مغادراً.

لابد أن خدمتي في فالمي وهوانمنين قد شفعت لي لأنني لم أعد أسمع من يتكلم عن المواطن رينالدي، ولكن حين رويت لماري آن ما جرى، دبَّ الرعب في قلبها، وكالت باللوم عليَّ لتصرفي الخاطئ، لابد أن هذا البائس سينتقم وسيودي بي إلى حبل المشنقة. أدركت حينها أنه بات من المستحيل العيش في بلدٍ يعدُّ فيها إطلاق الشعر الطويل تيمناً بالأجداد جريمة تودي للسجن أو حتى للموت.

بعد شهر، أصبحت المقطورة جاهزة وبات بوسعنا الهجرة على متن "روزيليس". غادرت برفقة زوجتي وابنتي في يومٍ باردٍ وماطرٍ. يقتصر متاعي على صندوق الزفاف يحتوي بعد السندات والثبوتيات بالإضافة لأكياس الطحين والجلبان[1] التي سيعتمد عليها طعامنا خلال هذه الرحلة الطويلة، كما حملنا في عدة صناديق خشبية مربوطة في المقطورة برميلاً من الغوان الحار وبرميلاً من النبيذ الأحمر وبعض الأواني بالإضافة لبعض الكتب وخيطان ونسيجاً خام وصوفي فهي أشياء نادرة في آخر العالم.

انضم إلينا الصديق ميرفان بعد بضعة أيام، توصلت إلى إقناعه بالرحيل بعد أن تزعزع وضعه في باريس جرّاء مغامراته النسائية. عليه

---

(1) - الجُلّبان: بقل زراعي حولي تطبخ قرونه وبزوره.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أن يخلد للنوم في طرف السفينة الأمامي مع بقية البحارة لأنه لم يتمكن من شراء حجرة، كما قال هو: سأغادر حين يتوجب علي التجديف كالمحكومين بالأشغال الشاقة.

وسط بحرٍ عالِ الموج وريح صرصر غربية، أبحرنا في الأول من جيرمينال على متن "روزيليس"، لاحت أشرعتها البيضاء على الصاريين ومخرت العباب متجاوزة رأس "غافر" والمعبر الجنوبي نحو البحر العالي. ماري آن بجانبي على جسد السفينة، تضم إلى صدرها ابنتنا جان مدثرةً بغطاءٍ صغير، تعلقت أبصارنا بالشاطئ الذي يبتعد وأجراس الكنيسة التي تدق قبل أن يبتلعها الضباب. حملتُ رنين هذه الأجراس كآخر ذكرى لي من أرض أجدادي التي ترعرعت فيها والتي سأهجرها إلى الأبد. حتى لو توصلت بشكلٍ من الأشكال لإخفاء تخوفي من هذه الرحلة التي بدأناها ونجهل إن كنا سنصل إلى الطرف الآخر، فإن الغصة تنهش قلبي برؤية دموع ماري آن تنهمر على وجنتيها وأنا أقف عاجزاً عن مواساتها بأي كلام.

أخيراً، بسط الليل جنحه على روزيليس التي مخرت عباب المحيط لتتلاطمها الأمواج وتعصف بها الرياح.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

من ٢٠ حتى ٣٠ شهر فانتوز[1] من العام السادس:

أمضينا ٢١ يوماً بالانتظار في مرسى ميناء "بوردو لا ليبرتي" نتيجة إصلاحات ثم تمت الإشارة عن أسطولٍ إنكليزي في المنطقة البحرية في "لابيل إيسل".

المنفعة الوحيدة التي جنيناها من هذا الانتظار هو الاعتياد على الحياة على متن السفينة والتعرّف إلى طاقمها. فوجئ الكابتن "براشي" أننا نقدم على السفر برفقة طفلٍ رضيعٍ، إلا أن ماري آن اعتبرت أن المشكلة لتكون أخطر لو أن الطفلة لم تكن بعمر الرضاعة الطبيعية.

الأول من جيرمينال:

رفعنا المرساة في الساعة السابعة صباحاً وأبحرنا بالشِراع الأعلى مستغلين الجزر للإقلاع. الطقس رديء جداً والبحر هائج.

عبرنا حوالي الساعة الثامنة "لاغافر" برفقة سفينة القرصنة "لاكوفيانس أي الثقة" التي لها الوجهة نفسها.

تركنا الربان حوالي الساعة العاشرة بعد أن سلمنا للجزر. اتجهنا نحو غرب – جنوب – غرب ثم في الساعة الحادية عشر اتجهنا نحو برج "بيل إيسل" نحو شرق – جنوب – شرق على بعد سبعة فراسخ.

بين الساعة الحادية عشر ومنتصف الظهيرة قمنا بفرسخين ٢/٣ نحو غرب جنوب – غرب مما أعطانا كنقطة انطلاق ٥٢° ١٥° خط عرض و٦° ٣٧° خط الطول.

٢٩ جيرمينال:

هبط الضباب وفقدنا أثر سفينة "لاكوفيانس"، كنا على ٤٤° ٢٦° خط عرض ٨° ١٢° غرباً.

---

(1) – فانتوز: الشهر السادس من الروزنامة الجمهورية يوافق ١٩ شباط حتى ١٩ آذار.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

٣٠ جيرمينال:

رأينا حوالي الساعة السابعة صباحاً سفينتين من متن السفينة خط عرض ٤٤° ٣٣° و٨° ٢٧° .

الأول من فلوريال[1]:

الساعة الثالثة بعد الظهر، لمحنا باخرتين تبحران إلى جانب بعضهما البعض، رأيناهما من متن السفينة ٤٤° ٥٣° خط عرض ٩° ١٨° .

الثاني من فلوريال:

الساعة السابعة والنصف مساءً، رأينا باخرة بخط عرض ٤٤° ٢٩° و١٠° – ٩° ١/٣.

الثالث:

الساعة الثامنة صباحاً، لمحنا زورقاً ما إن تهيئنا للمعركة حتى هرب بخط عرض ٤٤°–١٦° و١٢° ١٧° .

الرابع:

السابعة صباحاً، باخرة على خط عرض ٤٤°–٢٨° و١٢°–٥٩° .

الخامس:

الساعة الخامسة صباحاً، باخرة على خط عرض ٤٣° ٥٧° و١٦°– ٥٨° .

السادس:

حوالي الساعة الثانية صباحاً، علمنا بباخرة تشقّ طريقها حوالي الساعة الرابعة والنصف كنا على مرمى ثلاث حرّاقات[2] ورغم جهودنا الكثيفة فقد كانت مع حوالي الساعة الخامسة على بعد نصف فرسخ منا، مما أرغمنا على إنزال أحواض الماء التي كانت تعلو الجسر. حوالي

(1) – فلوريال: الشهر الثامن من الروزنامة الجمهورية من ٢٠ نيسان حتى ٢٠ أيار.

(2) – الحرّاقة: ضربٌ من السفن فيها مرامي نيران يُرمى بها العدو من البحر.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الساعة عندما رأينا أنهم سيلحقون بنا ألقينا في الماء ٤ مدافع حديدية و٦ من الخشب مع مساندها وأشياء أخرى، بيد أننا لم نتقدم سوى قليلاً رغم هذه الاحتياطات.

حوالي الساعة الثامنة و٤/٣ رمتنا إحدى الحرّاقات، قمنا بتحريك جديد لكنه لم يجدِ نفعاً. كنا في متناول المدافع الأكثر قرباً منا فأطلقت قذائف باتجاهنا سقط بعضها خلفنا. أخيراً عندما أوصدت الأبواب بوجهنا استسلمنا؛ يا للهناء! إنها حرّاقات فرنسية "لافرانشيز" و"لاكونكورد" و"لاميدي" خارجة من روشيفور في الخامس عشر من جيرمينال[1] بقيادة الربان "لاندولف". فتبعناها على خط طول وعرض ٤١° ٣٩° و٤٢° ١٩°.

السابع:

الساعة السابعة والنصف صباحاً، برفقة الحرّاقات، طاردنا سفينةً حسب الاستطلاعات الإنكليزية، خطفتها الحرّاقات المذكورة الذين قدموا لنا برميلي ماء ومدفعين استولوا عليهما على الأبعاد ٤٠° ٤° و٢١° –٥٨°.

الثامن من فلوريال:

حصلنا في منتصف الظهيرة على طعامٍ جديد وماء لتعويض ما تم رميها خلال المطاردة. ٣٨° ٥٢° و٢٤° ٢°.

العاشر من فلوريال:

حوالي الساعة السابعة صباحاً، استأذنا من مجموعة السفن الحربية الفرنسية عند مرأى من "كارسير" إحدى جزر "آسور".

حملت هذه الحرّاقات على متنها ١٢٠٠ رجلٍ من الجيش، و الكثير من البحارة. عجباً! – ٣٨° –٣٣° و٢٧° ٢٥°.

---

(1) – جيرمينال: الشهر السابع في عهد الثورة الفرنسية من ٢٢ آذار حتى ١٩ نيسان.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الخامس عشر:

في الساعة السابعة مساءً قفزت ثلاث سمكات طائرة إلى متن السفينة وإحداهن لطمتني بعنفٍ.

على ٢٧° ١١° و٣٠°-٩°.

السابع عشر:

حوالي الساعة السادسة صباحاً، لمحنا صيّادة[1] تجري بريحٍ يمينية، طاردناها على الفور. حوالي الساعة الحادية عشرة صباحاً، وصلنا إليها وأطلقنا نحوها ضربة مدفع، جارانا ربّان الصيّادة ثم أنزل قارب الإنقاذ واتجه نحو سفينتنا ثم صعد على المتن لنعرف أنه أميركي خرج من "كادليكسي" ليحمل إلى شارلستيان ٣٥ راكب، ستة منهم "رهبان كبوشين"، أراد الكابتن أن يسلمنا دفة القيادة ثم ابتعدنا على مسافة ٢١°-٤١° و٣٠°-٢٣°.

السادس والعشرون:

حوالي الساعة العاشرة صباحاً، البحر هادئ، كشف لنا انقشاع الغيوم عن قافلة تبعد عنا فرسخين بالاتجاه الشمالي – الغربي، للفور غيرنا اتجاه السفينة بتجديفٍ قاسي بستة مجاذيف لنهرب من حرّاقة وقلعية يطاردانا.

فقدنا أثرهما بالنظر في منتصف الظهيرة جرّاء ريح عاصفة مباغتة وعندما عاد الطقس اللطيف رغم الأمطار التي اصطحبته، التقينا بهما مجدداً يطاردانا. الساعة الثانية بعد الظهر، علمنا أن الرياح لم تجرِ كما يشتهون وأننا سنواجه ريحاً عاصفة على حين غرة بالاتجاه الشمالي – الغربي. فجهزنا الأشرعة لاستقبالها ومازلنا نمضي بدقة. الساعة الثالثة والنصف انجلى الجو بعد خمس ساعات من العمل الشاق والعام تحت ألسنة الحرارة والأمطار الغزيرة. سحبنا أخيراً المجاذيف

(1) – صيّادة: سفينة سريعة بصاريين وأشرعة مربعة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بعد أن رأينا الحرّاقة تتركنا متجهة إلى قافلتها فاقدة الأمل باللحاق بنا جرّاء حركاتنا المتغيرة.

أحصينا ٢٣ شراعاً: لقد كانت قافلة انكليزية تخرج من الهند باتجاه بورتسموث.

٥° – ٤٨′ و ٢٤° – ٢١′

السابع والعشرون:

الساعة السادسة والنصف مساء، علمنا بوجود حراقة على بعد ٥ فراسخ فأقلعنا بسرعة حتى نتحاشاها.

٥° – ٢٧′ و٢٥° – ٤′

الأول من مرعوي[1]:

الساعة السابعة صباحاً، رأينا سفينة بثلاث صواري تمور مثلنا على سطح البحر لكننا فقدناها إثر ريحٍ عاتية هبت فجأة.

٤° – ٢٠′ خط عرض و٢٢° – ١٢′ خط طول.

الثالث من مرعوي:

رأينا مجموعة من الأسماك البونيت[2] والمرجان[3]، فتناولنا بعضاً منها.

٤° – ٣٨′ و ١٨°–٤٦′.

الرابع من مرعوي:

الساعة السادسة صباحاً، رأينا شراعاً يلوح بالأفق، استدار المركب باللحظة عينها. الساعة الثامنة، رأينا بناءً من ثلاث صواري تجري بريحٍ معاكسة، لم نقم بأي تحريك للهرب فقد كانت قريبة جداً وقادمة باتجاهنا تحاشياً للشبهات. فقدنا أثرهم في الساعة الحادية عشر.

٤°–٢٢′ و١٧°–١٨′.

---

(1) – مرعوي: صفة الشهر التاسع من الروزنامة الجمهورية من ٢٠ أيار إلى ١٨ حزيران.

(2) – البونيت: سمك التون الذي يعيش في المتوسط وهو من رتبة شائكات الزعانف.

(3) – المرجان: نوع سمك من فصيلة الأسبوريات.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- الخامس من مرعوي:

الساعة الخامسة والنصف، لاح شراعٌ في الأفق يطاردنا ولكن مع منتصف الظهيرة ابتعدنا ٣/٢ فرسخ ومع الساعة الخامسة مساءً فقدنا أثره.

٣° - ٧' و١٤° - ٥٠'

- من السابع حتى الثامن من مرعوي:

عبرنا خط الاستواء هذه الليلة. حسب العادات تتم عمادة من يمرون لأول مرة. استقبلت صغيرتنا جان أوجينيه عمادتها دون شكوى. قام الحفل ولكن قاطعه حدثٌ، سقط نصف برميل تمت تعبئته بمياه العمادة من أعلى المصطحبة بين الجموع لأن حبله قد قُطِعٍ، لا شك أنه لو سقط على أحدنا لسحقه.

٥° - ٥° خط عرض و ١٦° - ٣٠° خط طول.

- الثامن عشر من مرعوي:

البحر هائجٌ، أفلتت صغيرتنا جان من موتٍ محتوم. لسوء الحظ، انزلقت ماري آن على الجسر وأفلتت ابنتنا من بين يديها من إحدى كوات السفينة لولا وجود ميرفان بالقرب منا لما تمكن الإمساك بها بملابسها.

١٦° - ١٧' خط عرض و١٧° - ٣٠' خط طول.

السادس والعشرون من مرعوي:

لمحنا عند رأس الشبكة طيراً أكبر أربع مرات من ديك رومي، سعة جناحه حوالي ثمانية إلى ١٥ قدم فأمسكنا به بالصنارة، يشبه ريشه إلى حدٍ كبير ريش البجع.

٢٩° - ٤٢'، ١٩° - ٥٢' خط طول

- من السادس والعشرين من مرعوي إلى السابع عشر من شهر الحصاد:

لا جديد، تابعنا إبحارنا بريحٍ متقلبة قليلاً وأحياناً بطقسٍ هادئ.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- **الثامن عشر من شهر الحصاد:**

الساعة السادسة صباحاً، علمنا برأس الرجاء الصالح،حيث ميزنا المائدة العريضة بأبعاد ١٢ فرسخ حسب المسح الآتي:

٣٤° - ١٣' خط عرض و١٦° - ٥' خط طول

- **اليوم العشرون من شهر الحصاد:**[1]

رأينا باخرة في الساعة الثانية بعد الظهر، فأنزلنا كافة الأشرعة الممكنة للهرب منها.

٣٥° - ٢٦' و١٥° - ٥٣'

من ٢٢ حتى ٢٣ من شهر الحصاد - ١٠ تموز:

هبت بعد الظهر ريحٌ رطبة شمالية - غربية، والبحر هائج. طُويت قُدة الشراع من الأعلى. الساعة الحادية عشر، شُدَّ أعلى الشراع وأصبح البحر هائجاً بشكل مرعب، هربت السفينة بأشرعة الميزان[2] والشراع الأعلى مطوي القُدَّة. أبحرت السفينة الساعة ١٠ و١١ حتى ١٢.

ريحٌ عاتية وتيارات هوائية قوية وعاصفةٌ هوجاء والرعد يدوّي من كل حدبٍ وصوب، تلقينا ضربات بحرية عديدة. لاذت المسكينة ماري آن إلى الحجرة سقيمةً مذعورة وقرأنا بكتاب الصلوات.

تلقينا اللطمة البحرية الأقوى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل وقد غمرتنا كلياًّ. لم تؤت قيادة السفينة بحركة لدقيقة تقريباً.

خلنا أننا قد تُهنا لا محالة، غاصت مقدمة السفينة أكثر فأكثر لكن خفتها أعادت شجاعتنا في ذاك الوقت، غمرت مياه البحر الحجرات وحملت الكثير من أغراضنا عن جسر السفينة كما خطفت آخر خنزيرٍ صغير كان بحوزتنا والذي أسفنا عليه كثيراً لعدة أيام. كذلك، أغرقت المياه دجاجنا، لكننا صنعنا منها لحماً مقلياً في اليوم التالي.

---

(1) - شهر الحصاد: هو الشهر العاشر من روزنامة الثورة الفرنسية من ٢٠حزيران حتى ٢٠ تموز.

(2) - الميزان: مقدمة السفينة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

هبَّت هذه اللطمة البحرية المرعبة من عرض رصيف "إيغوي" من بين جبال الألب بخط عرض ٣٦°-١٩′ وطول ٢١°-٤١′.

من ٢٣ إلى ٢٤ من شهر الحصاد:

الرياح كثيرة الرطوبة نتسلق مع الزمن والبحر هائج ليس بيدنا حيلة. هبَّت رياحٌ شمالية مع منتصف الليل، أرغمتنا على الإقلاع لتكون الريح من جانب والبحر من الجانب الآخر.

٣٦° - ٣′ و٢٤° - ١٤′

من ٢٤ حتى ٢٥ من شهر الحصاد:

الرياح متقلبة، عواصف هوجاء تلقي بالسواد، والبحر هائج ليس باليد حيلة، الساعة الواحدة، رغبنا بالإبحار قدماً من أجل الهرب، فانتُشل زاوي السفينة[1]، توقفنا مجدداً منشغلين ببسط زاوي آخر: تلقينا الساعة الثالثة لطمة بحرية من مؤخرة السفينة. لم يعد المركب يتماسك أمام هذا البحر شديد الهيجان. الساعة الثالثة ١/٤، تغيرت الريح ومخرنا العباب بشراع الميزان ومازالت هبّات الرياح تتلاطمنا.

٣٥° - ٤٧′ و٢٦° - ٤٧′

من ٢٥ حتى ٢٦:

الرياح متقلّبة، الطقس رديء، عواصف بهبوبٍ لطيفٍ، ضباب، بحر هائج.

٣٥° - ٥٩′ و٢٩° - ١٣′

٢٧:

لمحنا في منتصف الليل شراعاً يلوح في الأفق تحت ضياء القمر الساعة الثانية بعد منتصف الليل فقدنا أثره الذي كان بمثابة بوصلةٍ.

٣٤° - ٣٣′ و٣٠° - ٢٥′

---

(1) - الزاوي: شراع مثلث الزوايا في مقدمة السفينة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

.٢٨

الرياح هادئة تقريباً. ضباب. بحرٌ هائج عالِ الموج والطقس عاصف.

من ٢٩ حتى ٨ تيرميدور:[١]

الطقس عاصف، هبوب ريحٍ متكرر والبحر هائجٌ جداً.

التاسع من تيرميدور:

البحر لطيف لم نعد نرى لا شبكة ولا طير.

٢٩° - ٣١' و٥٤° - ٤'

من العاشر حتى الخامس عشر.

الطقس لطيف، البحر هادئ، نسماتٌ عليلة

٢١°-٥٥° و٥٨°-١٤°

السادس عشر من تيرميدور من السنة السادسة أي ٣ آب ١٧٩٨

علمنا بوصولنا إلى "إيسل دوفرانس" لكن حلول الليل أبقانا بمنأى عنها.

(1) - تيرميدور: الشهر الحادي عشر من الروزنامة الفرنسية في عهد الثورة ٢٠ حزيران إلى ١٩ آب.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ينتشر العنف في كل مكان تحت أنظار جان. إنه توافق الحر والشمس التي تذيب الاسفلت وتجفف نبتة إبرة الراعي في أصيصها، بالإضافة للملل والوحدة وتلك الحرب التي تقضم الحدود.

جرت الامتحانات بانضباطٍ تام، حصل جان على نتائج رديئة في العلوم والرياضيات واللغة الفرنسية، بالكاد دفعت علامات الفلسفة واللغة الإنكليزية المعدل العام فوق خط النجاح. تسربلت المدينة بموجةٍ من الغموض. لعله التوافق ما بين نيتشه وما قبل سقراط. إنه التيه الذي يعتري "انكساغورس"[1] إمبيدوكليس[2] وبارمينيدس، وكأن للكلمات معانٍ أخرى غير الذي تعنيه. ماذا تعني كلمة "شمس" عند "هيرقليطس"[3]؟ وكلمة "نهر"؟

ماذا تعني عبارتي "إنه" و"ليس"؟ هل لهذا علاقة مع وميض النور على واقية الريح في السيارات وانعكاسات نهايات الزجاج الموشى في الشرفات المستقيمة للأبنية ذات الطوابق الاثني عشر، هل لهذه الكلمات وهذه العبارات وهذا الفتات معنىً أمام الخط الكهربائي الذي يفصل شمال افريقيا عن بلدٍ يدعى الجزائر وآخر يدعى المغرب؟ هل تعبِّر هذه الأفكار المندثرة عندما يلقى الرجال حتفهم كل يوم على تلك الأرض الجافة في الطرف الآخر لهذا البحر؟

---

(1) - انكساغورس Anaxagore: (٥٠٠ – ٤٢٨ ق.م) هو أول من قال بأزلية المادة وسرمديتها وأنها لا تفنى وفكرة وجود العقل الأكبر الذي يسيّر ويحرّك الأمور الدنيوية. من المدرسة الذرية.

(2) - أمبيدوكليس ٤٣٠ – ٤٥٥ ق.م. أصله من مدينة أكراجاس أحد المستوطنات الإغريقية في صقلية، كان فيلسوفاً وشاعراً ورجل سياسة.

(3) - هيروقليطس (٥٣٥ – ٤٧٥ ق.م) الفيلسوف الإغريقي، كان يعيش في آسيا الصغرى (تركيا حالياً) في مدينة إفسوس. قام بتعليم نفسه بنفسه، تعتبر فلسفته كئيبة ومتشائمة. من المدرسة الطبيعية.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لم يكن جان راغباً بدخول منزله الرمادي الخانق حيث يغفو والده على أريكته بعد أن أثقله "الفينيرغان"[1] ووالدته التي تخفي كآبتها بين صفحات كتاب تستعيره من المكتبة العامة في محطة القطار "ولادة جالنا". "العنكبوت" و"المناخ"، ثم المذياع الذي يبثُ بقرقرةٍ مزعجة مراحل الحرب مع الخارجين عن القانون في الجزائر والقصف الأميركي في فيتنام، بالإضافة لتلك المروحة التي تهتز فوق الصوان مصدرةً ضجيجاً كطائرة وسط الجدران، تعطي شعوراً بأنها تلتصق ببعضها البعض في خُدرة الركود، يتضافر كل ذلك ليتراءى هولاً في أنظار جان.

هام جان على وجهه دون توقف، يقصد إحدى جهات المدينة ثم يقصد الجهة الأخرى، حملته الدروب التائهة إلى الأحياء الأكثر بعداً حيث تنتصب أكوام المنازل على ساحاتٍ من الاسمنت، حيث ينتشر صوت الراديو بمكبرات الصوت. توقف للحظة في الحدائق، تأمل ينبوع الماء ينهل منه الحمام، والأطفال الذين يتشاجرون في حوض الرمل.

يذهب كل مساء إلى حديقة "أوليفيه" كما لو أنها ميدانه القديم. كان عليه تجاوز فتحة في الجدار المنهار والعبور حيث تم قصّ حاجز الأسلاك الشائكة. حلّ الخراب بالحواجز الحجرية وانهار التراب الأحمر ما بين جذور أشجار الزيتون. يعجز الجميع عن الولوج لداخل تلك الأراضي فالشوك العلّيق اجتاح الأرجاء.

يرتاد الأطفال للعب الكرة قرب الجدار عند سافلة تلك الأراضي التي مازالت مأهولةً بالعشاق القادمين من الشاطئ ومازالت تلك الرائحة تفوح، تلك الرائحة التي يعرفها جان حق المعرفة ولا يمكنه تحديد مشاعره نحوها هل يحبها أم تثير اشمئزازه، رائحةٌ مألوفة ومهيّجة، رائحة عرقٍ مختلط برائحة المطبخ وفراش النهر المقوّض.

(١) - فينيرغان: مضاد حساسية.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يقوم جان بموازنة هذا اليوم. حمل دفتره الأسود الشهير ودوّن بعضاً من "البللورة" من أجل المدرس "لاموس" رغم ما ينتابه من شعور بأن الأمور الأساسية أفلتت منه.

٢٨ أيار:

مجزرة ميلوزا، تعدم الجبهة الوطنية للتحرير مدنيين وسط الشارع.

٣ حزيران:

انفجارات في مصابيح الجزائر العاصمة.

٩ حزيران:

محاولة اغتيال في كازينو الكورنيش في الجزائر العاصمة.

٢٦ آب:

هجوم جنود على قَصَبة[1] ومقتل قادة الشبكات مراد ورامل.

١٨٠٠٠٠٠ لغم ضد الأشخاص زُرعت على طول الحاجز الكهربائي في الحدود بين تونس والمغرب دوّن أبيات الشعر التي أحب للذكرى، شعراً لهرقليطس وانكساغورس وبارمينيدس ايلي، إنها الكلمات الوحيدة التي تتردد مع أنغامٍ سرمدية.

هيرقليطس:

"القوس تسمى الحياة

لكن فعلها الموت"

ما يوجد فينا واحدٌ

حياةٌ وموت

يقظة ونوم

صغر وكبر

فالأولى تتحول وتصبح الأخيرة والأخيرة تصبح الأولى".

---

(1) - قصبة: قلعة يقيم فيها أمير أو زعيم وهي أصلاً في العربية بمعنى وسط المدينة أو القرية.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

انكساغورس:

تخضع كل الأشياء ذات الأرواح لسلطان العقل الأكبر سواء كانت كبيرةً أو صغيرةً.

إنه العقل الأكبر الذي يمارس سلطانه على الثورة الكونية بما يبثه فيها من اهتزازات.

ديموقريطس[1]:

" يغسل الحب الملامة عن المحبين"

انكساغورس:

"هناك تمرينان للموت

الزمن الذي سبق الولادة

و زمن النوم. "

بارمينيدس:

فلتنظر دائماً لأشعة الشمس......

يا للروعة! لدى جان انطباعٌ بأن هذه الكلمات محفورةٌ في كل خليةٍ من خلاياه، مكتوبة على أوراق نبات المَقِر[2] وجذوع أشجار الزيتون، مخربشةً بغصنٍ صغير على التراب الجاف، ممتزجةً بالأسماء اللامعة في المدينة والأحرف المنقوشة على صفائح مزاريب الماء والأرقام المدونة على صفائح السيارات المعدنية.

وصل "هيرفي كيرنيس" إلى الحديقة حوالي الساعة السابعة مساءً، لم يكن جان يعرفه حق المعرفة، يذكر أنه رآه فيما مضى عالقاً بين براثن أولادٍ فاسدين يكيلون له العذاب في ساحة المدرسة. إنه شابٌ طويل القامة قوي البنية وناعمٌ جداً، يعجز عن الدفاع عن نفسه. قدّم

---

(1) - ديموقريطس: ولد في اليونان سنة ٤٧٠ – ٣٦١ ق.م. تتلمذ على يد لوقينوس، عاصر سقراط، هو من الفلاسفة الطبيعيين، يقترن اسمه بالمذهب الذري.

(2) - المَقِر: جنس نباتات من الفصيلة الزنبقية.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

البكالوريا للمرة الثانية وسئم من الحرب بعد أن تطوع قبل يتم تجنيده. اسمه لفت أنظار جان إليه سأله: هل أنت من بروتاني؟

– نعم وأنت؟

– أنا من بعيد.

– آه، حسناً.

لم يحاول كيرنيس أن يعرف أكثر.

سيأتي الآن ليزوِّد جان بأخبارٍ عن الحرب. كان يتحدث ببطء وهو يبحث عن الكلمات. يصغي إليه جان بسبب سانتوس، لم يكن كيرنيس يخترع أبداً إنه يقول ما رأى وما عرف، يتحدث بلهجة غنائية كما لو أنه يلفظ رقية. يجلس على الأرض بجانب جان. يبدأ بالكلام وهو يهزُّ صدره العريض، إنه في إذنٍ لمدة ثلاثة أسابيع جرّاء التهاب كبدٍ أصابه، يرغب ألا يعود البتة إلى هناك، إنه يرغب لو يرسلوه إلى ميناءٍ على البحر في بريست أولوريان، لعله يكتفي لو أرسلوه إلى تولون.

"أتعلم ماذا يفعلون هناك، كل يوم؟ أقول لك ما يفعلون هناك في البلد؟

كل يوم يمر الخارجون عن القانون، يقطعون الحبال وأحياناً يرسلون كلاباً لكشف الألغام المزروعة. لديهم حيلهم الخاصة لقطع الشريان. يعبرون ليلاً فتلمح وميضاً في الجبل ثم يشير مؤشر المقاومة لوجود قطعٍ ما. تقفز في سيارة الجيب Jeep مع الآخرين، تنقضُّ بالأضواء المشتعلة التي تحمل وعندما تصل، لا تجد أحداً. إنهم يحفرون جحوراً كالأرانب، لا بل دهاليزاً تحت الأرض في كل مكان. وعندما تنزل إلى الضفة، تصبح في المغرب وترى أنوار واجدا، ولكنك لن تجد أحداً أبداً، لا أحد أبداً.

حسناً يا عزيزي هذا أقسى ما في الأمر، لا يوجد أحدٌ أبداً، لا أحد أبداً."

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تعلقت ناظري كيرنيس على عاشقين يتبادلا القبل بين أحضان الحاجز الحجري ثم جال بعينيه بعيداً لتحط على تلك السيارات الساخنة على طول المتنزه، بشرته وردية اللون رغم معاناته من التهاب الكبد، ربما بسبب العُد[1] الذي ينقط وجهه الذي يضجُّ شباباً أو بالأحرى وجهه الطفولي. بدا وجه جان كوجه عجوز وكأن هو من خاض حرباً وجابه مناضلي جيش التحرير الوطني واقتادهم إلى الاستجواب في عين سيفرا، روى هيريفي كيرنيس أنه أوثق معاصم السجناء بحبلٍ حديدي وإنه يحمل في حقيبته الحبل الطويل المخصص لهذا الغرض والذي يدعونه "الرسن".

"أترى سيارة الرينو هناك؟ يمكنني أن أفاجئها بالهواء دون أن أواجه مشكلة بالبازوكة[2]" صوتُ كيرنيس أجشٌ ومخنوقٌ بعض الشيء. لا يستطيع جان منع نفسه عن استحضار صورة كيرنيس واقفاً وسط باحة المدرسة، يجهش بالبكاء لأن الأطفال هاجموه كرهط من الكلاب البرية تمزق جاموساً، منطوياً على نفسه وهو يرفع ساعديه ليتحاشى الضربات وصدره العريض يرتجف بشهقات الدموع.

سأله كيرنيس: هل حدثتك عن الألزاسي؟

أشعل جان سيجارة ثم عدل عن الفكرة ومدّ علبة السجائر قائلاً: "هل تدخن الآن؟" فأجاب بعباراته الصبيانية كما لو أنك أمسكت به متلبساً،

"أتعلم هناك في البلد لا نفعل شيئاً أبداً خلال دورنا بالمراقبة؟.

- كيف تمضون أيامكم؟

- لا شيء، ندير راديو تانجر ونصغي للموسيقا الأميركية لموسيقا جاز جميلة.. من جهة أخرى، تجد نفسك وحيداً أمام العدادات وقواطع

---

(1) - العُد: حب الشباب.

(2) - بازوكة: سلاح تطلق منه الصواريخ على الدبابات ونحوها.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الدارات وتسمع طيلة الوقت ذبذبة المولدات التي تعطي تياراً باستطاعة ٥٠٠٠ فولت. هل أدركت، أنا الذي طالما كنت عدماً في الفيزياء صرت الآن أعرف كل شيء عن الكهرباء، بل يمكنني أن أعطيك دروساً بهذا الخصوص؟.

بدأا يدخنان دون أن يتحدثا، تمدد جان ورأسه متكئ على جذر شجرة زيتون عريض، بقي كيرنيس يحدق إلى الأمام بانتباه غريب وثنية بجانب ثغره وكأنه يحسب فرص تحطيم الرافعات على الطرف الآخر من الميناء بطلقات البازوكة.

بعد برهة، أكمل قصته: "صاحبي اسمه هنري، هنري كرانز من بلد اسمه "شيلتيغام" على مقربة من ستراسبورغ، يبدو أن هناك مصانع للبيرة، هل تود أن أروي لك كيف عرفت ذلك؟" انتظر جان التتمة، "في البدء، كنا معاً في المهجع نفسه في إيفرو في سرية المشاة التاسعة. لفت انتباهي لأنه يتنحى جانباً وحيداً في إحدى الزوايا، ويسخر الآخرون منه بسبب لهجته، يقولون له: "أنت ألماني، يا هذا؟" فيستشيط غضباً ويقول: "كلا ألزاسي ولست ألماني". بلهجة غريبة مما يزيد ضحكاتهم.

اجتمعنا في سيتيف في فوج المشاة رقم ٤٣. طُلب منا الحصاد، هو ابن فلاح فعلمني كيف نستخدم الحصّادة. ثم لاحظت أنه لا يستقبل بريداً أبداً. أما نحن الباقون فنستقبل كل يومٍ تقريباً رسائلاً وطروداً من عائلاتنا أما هو فلا شيء أبداً. طرحت عليه السؤال: "كيف هذا، أليس لديك شخصٌ تكتب إليه؟"

لم يرغب أن يخبرني لكنني لاحقاً فهمت أنه لا يتقن القراءة ولا الكتابة. إنه أمرٌ لا يصدّق، شابٌ مثله لم يُرسل أبداً إلى المدرسة، كان يشعر بالخزي ويخشى أن يعرف الباقون بالأمر، فقلت له:

"أصغِ إليّ، لا سوء بالأمر، أنت تعرف أشياء لا يعرفها أحد إذاً لو شئت لكتبت الرسائل عوضاً عنك".

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

إنها قصةٌ سخيفة ولكن بالنسبة لجان فهي بأهمية حكايا التي تسرد أمجاد الحرب.

هناك أمرٌ آخر، يعرف كيرنيس ماذا يريد جان أن يسمع، كان يقترب من تلك الأمور هامساً لأنه يشعر تجاهها بالخزي، لقد كان سراً يثقل كاهله، قرر أخيراً في حديقة أوليفيه أن يبوح به.

"ذات يوم لحقنا بالخارجين عن القانون في إيدوف، لقد كانوا يتوزعون في كل الأرجاء، في القرى في الجبل، لم نكن واثقين من شيء، كان هناك قطيع من الماعز يرعاه غلام، يبدو أنه كان أحد عيونهم حيث صفَّر بطريقةٍ غريبة ما إن اقترب الرتل، هكذا: فوي – فويب!" وضع كيرنيس إصبعه في فمه وأطلق صفرةً قوية جداً لدرجة أن انتفض العشّاق وتوقف الأطفال عن لعب الكرة في أسفل الحاجز الحجري. ثم تابع: "حُددت قرية الخارجين عن القانون وأشير إليها عبر المذياع. ألقت طائرات "رافال" صفائح خاصة فوق القرية وبقينا هناك بالانتظار دون أن يغمض لنا جفن، ما إن عبرت الطائرات حتى خرجنا من خيمنا لنجد الأنوار تشعُ من الجبل والقرية تلتهمها النيران. إن لم تكن قد رأيت يصعب عليك تخيّل النور الذي سطع وقتئذ، عندما انفجرت تلك الصفائح فوق القرية لم تصدر ضجيجاً وانفجاراً فقط نفحةٌ ساخنة ونورٌ ساطعٌ أبيض اللون".

تعالت خفقات فؤاد جان وهو يسأل:

– وهل كانت القرية مأهولة بالسكان؟

– "حسب المبدأ، لم يكن هناك سوى الخارجين عن القانون، ولكن ذات مرة في "إيدوف" أيضاً مع فرقة دوكورنو، مظليين، دخلنا قرية "الخارجين عن القانون" صباح اليوم التالي، مازلت أحتفظ بذكرى ذاك اليوم حيث دخلنا مكاناً رائعاً من حقول القمح الناضج وشجر الزيتون، لحق الخراب بكل القرية جرّاء تلك الصفائح الخاصة ولم تخلّف وراءها

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

سوى بقعة سوداء كبيرة ومع ذلك دخلنا القرية حيث فاحت تلك الرائحة، رائحة اللحم المحترق، رائحة عفونة، كم كان شنيعاً! راودتني رغبةٌ بالإقياء لدى استنشاق رائحة اللحم المشوي جداً. لدى عبورنا أمام بقايا كوخٍ التهمته النيران كلياً، رأيت ثلاثة أشياء على الأرض، أتعلم، كان بوسعي القول أكياس سوداء، كيسٌ كبير وبجانبه كيسين صغيرين بسوادٍ حالك كالفحم، قال أحدنا إنه رجلٌ مع ولدين لكن غالباً أنها أمٌ مع أطفالها الصغار، لست أدري، عبرت بسرعة وسددت أنفي وبعد قليل أصابني الإقياء".

أغمض النهار عينيه باسطاً السلام المطلق في ربوع حديقة "أوليفيه"، ليضاهي بالقوة والسرمدية كلمات هيرقليطس وانكساغورس وينثر شيئاً من الغموض ملاصقاً للسكون كشعر بارمينيدس إيلي.

لاذا الآن بالصمت، لم تسعف جان الكلمات وكيرنيس مازال غارقاً في حلمه لا شيء ينتشله منه، لن يقبل شيئاً على الإطلاق. لكلٍ منا حقيقةٌ يرتكز عليها، عليه أن يعرف أن لا أحد قادر على الإصغاء لما يريد جان أن يقول، أن جمال هذه الحديقة والموت الذي شاهده كيرنيس هما وجهان لواقعٍ واحدٍ. ضفتي بلدٍ واحد. لو كان سانتوس هنا لفهم قصده.

ذات يوم، حسبما يذكر، قصد الغرفة حيث يسكن سانتوس، جلس وبدأ يتصفح دفتر رسم، قال حينها سانتوس: "أنت، لن تجد نفسك إلا بشيء واحد هو الفلسفة". ثم أضاف: "ربما حتى في علم اللاهوت". لم يدرك جان تماماً ماذا يقصد بل ظن للحظة أن سانتوس يتنبأ له حسب الفلك والأبراج إذ اكتشف في مكتبته منذ برهة "بحث ميلانوس حول منازل السماء"، فأجاب جان بجملة متداولة على سبيل: "لأنك تؤمن بذلك؟" بيد أن سانتوس شُغل بأمرٍ آخر، أجرى اتصالاً هاتفياً مع جان أوديل ربما، لقد كان هذا قبل وقتٍ قصير من التحاقه بالجيش. وهاهو

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الآن، فجأة بين أحداث قصة مرعبةٍ للحم المشوي يستحضر ذاك الحوار وهو في أحضان حديقة أوليفيه.

تابع كيرنيس دون ضحك أو دون أن يرسم ابتسامة على وجهه، بقيت عيناه مسمّرتان بخيالٍ الرافعات في المرفأ: "قلت لك أنهم اختارونا لأعمالٍ استخباراتية، أنا وهنري كرانز، قيل لنا أن لابد أن يبدو الشرّ على وجوهنا، لذلك وقع اختيارهم عليّ لأنني قوي البنية وعلى هنري كرانز لأن عيناه شاحبتان بحدقةٍ مسمّرة يظن الآخرون أنه ضريرٌ فيتوجسون منه خيفةً".

"اصطحبنا أحد ثوار افريقيا الشمالية جانباً، أوثقت يداه خلف ظهره بسلسلة حديدية وقد أمسك كرانز بالزمام، بأيدينا رشاشاتنا بجاهزيتها في حال تمت مهاجمتنا. دفع كرانز "أحد أفراد الخارجين عن القانون" بفوهة البندقية وهو يقول بلهجته الألزاسية: "هيا، تقدم.."، يتعثر الرجل بالحجارة في مسيره بعينين معصوبتين، يجر قدماه المثقلتين منحنياً إلى الأمام، يخشى أن يقع كما أنهم قلبوا جيب سرواله، اذكر جيداً أنه كان طويل القامة بطولي على ما أظن، شعره قصير يشبه أحد ممثلي السينما "تاب هونتر" هل تعرفه إنه شابٌ يمثل في أفلام "الكوبوي Cow boys" ومن جهة أخرى فإن الجبل عند الحدود التونسية من جانب ساقية سيدي يوسف يشبه المناظر في الويسترن[1]، فبدا لي وكأننا نقوم بتمثيل فلمٍ لكن الفرق أن الأسير ترتعد فرائصه خوفاً فهو واثقٌ أننا سنقوم بتصفيته وأننا نصطحبه معصوب العينين لنقتاده لمكان مجهول.

أنا، كنت أظن أنهم يودون التحقيق معه فحسب ليعترف أين يخبئون الأسلحة ومخطط الثوار بالهجوم، إلا أنهم أحكموا وثاقه على وتدٍ وتركوه دون أن يوجهوا له كلمةً واحدة ودون أن يقدموا إليه ما يأكل أو ما

(١) - الويسترن: فيلم نشأ أولاً في أميركا يروي مغامرات رعاة البقر.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يشرب. اكتسبت ملامحه حرارة الشمس مع حلول المساء وشفتيه تقطر دماً. ثم أنا، لم أعر انتباهاً كافياً ولكن ذاك المساء انتشر الضجيج في أنحاء المخيم. طُلب إليّ أن أحرس الأسير، فلذت بفيء شجرةٍ وحيدة في الجوار، شجرةً صغيرة كثيرة الشوك. أذكر أن قدماي تورمتا من شدة الحر فخلعت حذائي وغفوت قليلاً بفيء الشجرة، ألقي نظرةً بين الفينة والأخرى على الأسير المربوط إلى الوتد. انحنى على نفسه كما لو أنه نائم ثم أدركت أنه فقد الوعي تحت سياط الحر. ما إن اقتربت منه حتى استعاد وعيه مترنحاً يشدُ وثاقه وهو يتأوّه والسلسلة الحديدية المشدودة قد أدمت معصميه ليكسوهما الدم الضارب للسواد حتى يداه أصبحت سوداء من سيل الدماء. يا له من أذى!

اقتربت دون أن أصدر ضجيجاً إذ كنت حافي القدمين، ما إن لمح الأسير أنني هنا حتى بدأ يرتجف، كان يحاول قول شيء ما، انحنيت نحوه قليلاً، فهمت ماذا كان يقول لكن شفتاه الجافتين كلياً منعتاه من الكلام بوضوح، لقد كان بعيداً جداً، أتدري، يكرر بالعربية "ماء.. ماء"، لم يتمكن من استحضار كلمة ماء بالفرنسية. يا للغرابة! صوته كصوت طفلٍ، أقسم لك، لقد لفظ تلك الكلمات بصوت طفل، ما استطعت تركه على هذا الحال فأخذت مطرة الماء وسكبت المياه في فمه بيد أنه عجز عن شربه فسال وانسكب على ذقنه وقميصه، نجح رغم ذلك بشرب القليل مما أضفى عليه تحسناً طفيفاً ولكنه لم يعد يشبه "تاب هونتر"، لا بل تقلَّص حجمه، بدا أقصر وأخف وزناً، يومٌ واحدٌ تحت ألسنة الشمس غيرته تماماً.

آه! حقاً! لقد أخبرتك أن هناك ضجيجاً انتشر في المخيم، إنه أمر بعدم الإبقاء على الأسرى وأنه سيتم إعدام الرهائن الفرنسية في "وهران"، ثم أنه تم العثور على عدد لا بأس به من مكامن أسلحة، على كل حال، سيتم تصفيتهم ببنادق تشيكية تصوّب إلى حناجرهم. جاء

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أحد رجال السرية قبل المساء وقال بصوتٍ مرتفع: "سنتخلص منه، ابن العاهرة"، لابد أن الأسير قد سمع ما قال لذلك ارتعدت فرائصه حين اقتربت منه لأقدم له الماء. جلست بجواره ودخنت سيجارة، حتى خطر لي أن أقدم له سيجارة ولكن قلت في سري أن هذا لن يجدي نفعاً وقد يعتقد أنني سأجهز عليه فوراً بعد ذلك.

مع حلول الليل، جاءت مجموعة، لا أدري من أي سرية، لقد كانوا من المغاوير برفقتهم هنري كرانز، حلوا زمام الأسير بيد أنهم لم يحلوا وثاق معصميه. لم يلق إليَّ بنظره كان يحمل بندقيته الرشاش ورأيت أحد المغاوير يخرج مسدسه من الغمد ثم اصطحبوا الأسير الذي كان يتعثر بخطاه فمازال معصوب العينين وخَدِر الركبتين. لاحظت أن سرواله رطباً لابد أنه بال على ثيابه، أما أنا فبقيت واقفاً قرب الشجرة وما خطر لي أن أنتعل حذاءي. نزلوا الوادي بين العليق، كان الليل قد بسط عتمته، حدث كل شيء بسرعة، سمعت رشقة بندقية رشاش ثم للفور طلقة مسدس، طلقة واحدة دوّت بم! وانتهى الأمر!

في اليوم التالي سمعت التقرير: في العاشر من نيسان الساعة السادسة مساء، مقتل أحد الخارجين عن القانون حين حاول الهرب قرب طروادة".

روى كيرنس كل ذلك دون أن يؤتي بأي حركة، فترت مقلتاه قليلاً، وبلحظة ترنح إلى الأمام والخلف ربما كالأسير قبل النزول نحو الضفة. روى كل ذلك دون تبجحٍ ولا أسف، روى ما حدث فقط. لم يؤتِ جان بتعليقٍ فقط بعد لحظات قال:

- هل تذكر شارون؟

- الشاب طويل القامة نحيلها بشعرٍ قصيرٍ مستقبح؟

- نعم، لقد رسب في فحص البكالوريا، قال إنه سيغادر إلى السويد مثل أموريتو".

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

غرق كيرنيس بالتفكير.

"كلا لا أذكر أنه قال ذلك، إذاً؟

- لقد أطلق طلقة بندقية على رجله ليتم إعفاءه من الخدمة الإلزامية.

سخر كيرنيس بازدراء: "الغبي، لن يجدي ذلك نفعاً، سينقل لشهرين إلى المستشفى ثم يتم إرساله "للتصويب الفاشل"؟

دخنا سجائرهما بهدوء، تغرد الشحارير بين أغصان شجر الزيتون الغافي بأحضان الليل، صوتٌ وديعٌ ومثيرٌ للقلق بآن واحد.

مازال جان يذكر الصبية الذين كانوا يضايقون كيرنيس في المدرسة، يسعى جاهداً ليتخيله هناك في ذاك البلد الوعر يحفه العنف والموت من كل جانب، وهو واقفٌ حافي القدمين على الحصى وذراعاه متأرجحتان في حين يسحب المغاوير الأسير لأعماق الوادي حيث سيلقى مصرعه.

قال: " لو أُجِّل تجنيدي لما أطلقت النار على قدمي، بل لغادرت إلى السويد أو المكسيك أو أي مكانٍ آخر".

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ساد المدينة عنفٌ استثنائي حقاً في تلك الحقبة من الزمن، المكان الهانئ الوحيد هو حديقة أوليفيه، وتلك الأشجار الضاربة جذورها بالقدم لحوالي خمسمئة عام وبساط الأوراق الغضة والحبوب التي ترصع التراب، كبشرةٍ عجوز ذات رائحة. يلوذ جان بفيء الأشجار عند الجدار الحجري. تنحني الأبنية البيضاء على المساحة الشاغرة في هذه المدينة موحية بالألم والفخامة بآن واحد. أخبره أحدٌ ما أو قرأ ذلك في الصحيفة، المهم يلوح هذا الإعلان على ناصية الطريق، ليلقي أحد المصابيح نوراً عليه في المساء:

في هذا المكان الوحيد

كتيسماني

٥٠ شقة رفيعة المستوى

تنفيذ DO MO العقاري

كان عبثياً تقريباً غير واقعي، كان بعيداً كقائمة نتائج البكالوريا، أو مسابقة قبول كلية الطب حيث يغيب بالتأكيد اسم جان.

عمّت العبثية في كل مكان. قال والد جان: "عليك أن تلتحق بأقصى سرعة بالكلية أي كلية لتحصل على تأجيل الخدمة".

تعتري بصمة قلق نبرة صوته ورجاءٌ لم يعتد جان أن يلمسه في هذا الرجل الذي قلّما يعبّر عما يجول في داخله. لقد دبَّ الذعر في قلب هذا المحارب القديم. منذ عودته القسرية إلى فرنسا، منذ هجر ماليزيا وما انفك الارتعاش رفيقاً لجسده البالي. يصيخ السمع للأخبار التي يبثها المذياع الإنكليزي بازدراءٍ صامت.

كل لحظة يمضيها جانٍ في الحديقة المغلقة تمدّه بالقوة، كل عشبة، كل غصن وكل بقايا الطين حتى بزار الزيتون الجافة كأوساخ الجرذان لتغمرها جميعها حلقات الشمس الهاربة من بين الأوراق. قال انكساغورس:

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يرافق الألم كل إحساس.

لم تكن الأرض ثابتة، إنه الدوار! قرقر وانكمش وطقطق، بقي جان ممدداً على الأرض وراحة كفيه مبسوطة ليشعر بكل مرورٍ وكل اهتزاز. تأمل السماء الصافية من بين أغصان الزيتون وهي تشكل دوائر متحدة المركز حول الشمس.

إمبيدوكلس:

- يتعادل سفايروس مع نفسه بكل جزء مع اللامحدود

ليبقى دائرياً فرحاً و ثابتاً.

وأيضاً:

- تدور بكرةٍ كتيمة حول السماء الشاسعة.

إنها من الكلمات الطاعنة بالقدم. لا بل الأقدم في العالم.

شعر جان أن هذه العبارات تضيء من بعيد وهو ثابت على الجدار الحجري، العبارات الأكثر حصافة مما كُتب في التاريخ:

- الأرض تزيد من حجمها و الأثير يزيد الأثير.

تحمل الريح هبات من شذى البحر لتنثره عطراً في الأجواء:

- البحر تعرُق الأرض.

فنعود لبارميندس الأيلية حيث يقول:

- ما يلفظ به ويفكر به يجب أن يكون موجوداً

لأنه من الممكن أن يكون الوجود وجوداً

ومن المستحيل أن يوجد اللاوجود.

فجأة أصبح كل شيء واضحاً كعين الشمس بل بات حرقاً لاذعاً كذاك الحرق الذي يخلفه بصيص السجائر على راحة الكف ليوقظ فكرة الموت، ماذا كان أولئك الذين كانوا على قيد الحياة، أولئك الذين طواهم النسيان.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بالحقيقة، إنه دوار، تحلّقُ بك هذه الكلمات، هذه الآلام، تلك الرغبات المفتوحة على فضاءٍ مجهول إلى مكانٍ آخر إلى زمنٍ آخر. إنه يجاور الرقاد.

روى سانتوس لجان قبل أن تبتلعه الحرب، أنه كان يتردد إلى هذه الحديقة مع جان أوديل. في إحدى الليالي مع أواخر الصيف غطتهما سماءٌ مخملية داكنة الزرقة ونثر القمر ببطء ضياءه في الفضاء الذي يغمرهما. شعرت جان أوديل بالبرد، غمرها سانتوس بأحضانه وضاجعها الغرام تدثرهما هذه الشجرة، يتوسدان الأرض الرطبة الموشاة بالبذار والأوراق. إن شذى حبهما يعبق بالمكان وجان سيتنشق تلك الرائحة القوية المُثملة، أريجٌ شهوانيٌ بريٌ يلغي كل الظلم والخوف من الموت.

لم يكن جان ليطلب من ريتا المجيء إلى هنا مقابل أي شيء في العالم. فهنا مكانٌ يهرب من الواقع. إنه مكانٌ للذكريات، ليحلّق على جنح أحلام اليقظة ويهدهد له النعاس ثم يعود للمغامرة بين تلك الشوارع التي تضجُ بالعنف.

إنه الرابع عشر من تموز، أثقل الحر الريح التي يحلّق جان على جنحها. استحم بين الصخور العالية، سبح لوقتٍ طويل والماء يغمر وجهه يلتفت بين الفينة والأخرى ليلتقط أنفاسه. البحرُ أزرقٌ لبني والأمواج تتسابق بعناء، تعتري صفحة الماء ارتعاشاتٌ كبشرةِ عجوز. تشقُ عرض البحر قوارب آلية تسحب خلفها المتزلجات "بالمايو". كل ذلك كان له غرابة واضحة وكأن أحداً ما شغَلها دون خطة مسبقة ثم رحل. تمخرُ الزوارق عباب البحر في اتجاهٍ وعكسه. وعلى الضفة يقرقر الشاطئ.

وصل جان شقة ريتا وجسده نديٌ بمياه البحر، كانت ريتا بانتظاره متمددةً على سريرها في نورٍ خافت. كان الحب بطيئاً ولطيفاً، لعقت ريتا بطنه وقالت: "طعمك مالحٌ". كان الطقس حاراً جداً، يقتحم صخب

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

السيارات المنزل عبر النافذة المفتوحة، إنه يفتقد رائحة السوشان، إنه اليوم الأول الذي لا تلاقيه تلك الرائحة الشهية لأن حانة لافوال مغلقة.

غطا بنومٍ عميق. حلّق جان بأفكاره إلى العمة كاترين التي لابد أنها تتأمل قدومه في أعالي "لاكاتافيفا"، جالسةً منتصبة القامة على أريكتها وظهرها نحو النور. إنه يوم عطلة السيدة روزيلا، ستحمل والدة جان لا محالة جفنةً من الحساء إلى الخالة العجوز. تبتعد روزيليس يوماً بعد يوم.

يهمل جان الذهاب إلى لاكاتافيفا كسلاً أو يأساً أو ببساطة يمنعه النسيان. عندها ينحرف منزل إيبين والحديقة عن مجراهما أكثر فأكثر ويتلاشيان في الضباب ليفضلان انتصار هذه المدينة العنيفة بسياراتها ومشاتها وصخبها وهمساتها.

اصطحب جان مساء ريتا إلى الشاطئ لمشاهدة الألعاب النارية. كان هناك حشودٌ من الناس. عندما عبرا الحديقة، صادفا مجموعة من الشبان السكارى. شدت ريتا نفسها إلى جان زاعمة الخوف. كان الجو شعبياً، عزفت أوركسترا أنغاماً متقطعة، بنغم كمانين كهربائيين وطبلٍ ثم توقف النغم من منتصفه.

أُطلق الرنين بصخبٍ شديد، ما عدنا نسمع سوى صفيراً وخواراً. ارتمت ريتا بأحضان جان وكأنها ترغب بالرقص، شعر بجسدها الندي بالعرق ورائحة شعرها ورائحة إبطيها الواخزة اللاذعة، فكان الأمر مقرفاً وشهوانياً بآن واحد، وكأنهما وقعا معاً في مستنقعٍ موحلٍ.

تمزق كبد السماء السوداء بوميض صواريخ، واختنقت الانفجارات في أحضان الغيوم، مما نثر رائحة بارود المدافع.

تجمع بعض الشبان في الممر عند مدخل الحديقة. شبانٌ في مقتبل العمر، يبدو أنهم ثملوا بشرب النبيذ، كانوا عنيفين. عندما مرت ريتا

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وضع أحدهم يده على مؤخرتها، أرغمه جان على الابتعاد بكلماتٍ لاذعة، فقال أحدهم: "ولم توبخنا"؟ دفعه جان وقال: "وأنت لماذا تتحرش برفيقتي؟" حدجه بنظرةٍ ساخطة وتظاهر بأن سينقضُ عليه لكن أصحابه أمسكوا بذراعيه. كان جان ثملاً أيضاً ولكنه ثملٌ من الحرارة والصخب والجموع المزدحمة، ثملٌ بهذا الكره الذي يزهر في كل مكان والذي يلمع على وجه ريتا متضافراً مع عنصريتها الواضحة. كانت تقول دائماً: "قذر!" حين كانت تتحدث ذات مرة عن ميلاني التي هاجمها في إحدى الأمسيات شبانٌ أجانب، لدى عودتها من المستشفى "إنهم كالحيوانات!".

واجه جان المجموعة للحظة، كان الشاب طويل القامة بالأحرى شابٌ وسيم وتقاسيم وجهه منحوتةٌ كتمثالٍ قديمٍ. دفع جان بلكمة على صدره. حاول أصحابه تهدئته: "دعه وشأنه، هيا، فلنذهب". فصرخ بوجه جان: "لا يوجه أحدٌ لي الكلام، اتسمع".

عانى جان بالتقاط أنفاسه فقد قطعت تلك اللكمة صوته. في النهاية، تدافعت الجموع ومضت المجموعة بحال سبيلها. اتجه جان وريتا إلى الشاطئ في حين أضاءت آخر صواريخ الغابة البحر بدويٍ تأخر قليلاً بسبب بطء الصوت: فلان! با! با! فلان!

لم يبرحا الشاطئ. غادرت غالبية العائلات وبقي الشبان يدخنون. لاح وميض بعض النيران حيث انبثق نغم غيتار لعلهم غجر. يبعثر البحر نسماتٌ باردة، على جسد ريتا الممددة على الحصيات الملساء. بشفاهها الجافة وقد تشققت بعض الشيء وكانت بشرة وجهها قاسية.

ارتعد جان لفكرة أن هذا الشاب الذي أضمر له البغض ليس سوى الرجل الطويل الأسمر مغلول اليدين خلف ظهره بسلسلة حديدية، يرتدي بنطالاً مقلوب الجيوب والذي اقتاده صديق كيرنيس ممسكاً بالزمام نحو أعماق الوادي لتتم تصفيته.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تمدد جان ملتصقاً بريتا، إنه بحاجة لحرارة جسدها وملامسة نهديها وشعرها وكأنه على حافة جرفٍ صخري مرتفع يعلو الفراغ، مع كتلة المدينة في الخلف وهالة المصابيح التي أُنيرت مجدداً. تلتهم العتمة الحالكة وجه البحر فلا قمر يبعثرها ولا نجوم تهددها. إنهم على ضفاف المجهول دون مستقبل ولا ماضي.

يترامى العشاق على الشاطئ، يلوذون بالجدار الداعم ليمارسوا الحب دون أن يخلعوا ملابسهم، تتضافر أصوات أجسادهم على الحصيات الملساء مع خرير الأمواج المتراكضة. فكّر جان بسانتوس، إنه غير واثق من أن يكون لكل ذلك معنى.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

المرفأ الشمالي – الغربي ١٧٩٨

أبحث اليوم في جعبتي عن ذكرى تلك اللحظة التي اكتشفنا فيها أنا وماري آن الأرض التي قصدناها للمرة الأولى، بعد مضي تسعة وتسعون يوماً، تلوّح لي الآن سلسلة جبال "إيسل دوفرانس" التي رأيناها من جسر سفينة "روزيليس" غافية بنور الغروب. لم يكن ليؤثر فينا أي منظرٍ آخر على ما أظن هناك، وراء الأفق البعيد تشرئب الجبال خفيفةً متماهيةً مع السحب تطفو على سطح البحر كمشهدٍ خيالي.

اتكأنا على حافة السفينة وراقبنا كلٌ حسب دوره الجبال بالمنظار في حين تتهادى الباخرة في مسارها تدفعها أمواجٌ متقطعة. رأينا دون كللٍ قمم الجبال البارزة، تلك الرؤوس التي أصبح اسمها مألوفاً لنا جبل "سيغناو" ورَعن[1] "لاريفيرنوار" أي "النهر الأسود" و هناك حيث ينبثق البحر صخرة "مورن". أخبرنا الريان براشي بهذه الأسماء، كما أعلمنا بأسماء الأشخاص الذين سيكونون بانتظارنا.

نثرت الشمس الغافية نورها الخفيف على تلك القمم الشامخة حيث بحثنا عن دلائل لما ستكون عليه حياتنا القادمة على هذه الأرض الجديدة التي يحملنا شوقٌ عارمٌ إليها.

بدا الليل دون نهاية، لملمت العاصفة نفسها ليحل السكون باسطاً الهدوء في الأرجاء. يموج البحر بسلام والطقس حار، أمضينا ليلتنا متكئين على حجر البضائع لنفس ضفاف الجزيرة. أضاء النور الشاطئ حيث أشار الريان "براشي" المرفأ "الشمالي – الغربي". جافى النوم أحداق صغيرتنا جان، كانت تتخبط في مهدها وما إن حملناها حتى نفخت صدرها ورفعت رأسها وكأنها ترغب أن ترى. دندنت لها ماري آن هدهدةً باللغة البرْوتانية".

(١) – رَعن: قمة الجبل.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تحملها في حضنها بين الفينة والأخرى لترضع الحليب بنهمٍ شديد.

قلت لزوجتي أن هذه الليلة ليلة جان، فقد أمضت وقتها أو معظمه في عباب البحر لا على اليابسة، إننا نشهد الآن مخاضاً لحياة جديدة. جافى النوم أحداق الجميع من حولنا. انضم ميرفان للطاقم على الجسر يستغلون وقت الانتظار بتدخين السجائر وتجاذب أطراف الحديث، لعب بعضهم بالنرد بأنوار خافتة يرسلها مصباحٌ صغيرٌ. ضجَّ المكان بصخب الأصوات والضحكات وعبقت الأجواء برائحة القهوة، كان الريان هو الوحيد الذي انكفأ في حجرته، لم يطاوعه قلبه أن يطرد البحارة إلى مهاجعهم. قبلت الشمس مقلتينا ونحن مازلنا واقفين على جسد السفينة التي انحرفت خلال الليل عن مسارها وما كنا إلا على بعد ربع فرسخ من الجزيرة مقابل الميناء. تكدست الغيوم خلال الليل مخفيةً قمم الجبال. نثر النور على جبل "مورن" فلاحت الغابات الكثيفة التي تكتسح منحدرات الجبال تتوسطها منازلٌ من الكلس الأبيض.

اقترب حوالي الساعة التاسعة زورق ذو مجاذيف على متنه ضابط الصحة، اصطحب الريان، بعد إجراء إلى اليابسة من أجل البيانات، بعد التفتيش. انتظر ميرفان والبحارة الذين ينهون هنا عملهم عند مقدمة السفينة مع أمتعتهم، عاد الكابتن مع منتصف الظهيرة مع عدة صلاحيات للتنفيذ. صعد المرشد البحري إلى متن السفينة وبدأت حركة الاقتراب لكنها كانت صعبة بسبب ريحٍ تهبُ من الجنوب الشرقي فترغمهم على الإبحار إلى النقطة الأكثر قرباً. شرح له الريان أن الرسو كان أكثر يسراً لولا تلك الرياح الدائمة في هذه المناطق البحرية. إن السفينة تواجه الآن خطر عدم قدرتها على مغادرة هذا المرفأ مرة أخرى.

راقبنا قيادة السفينة وهي تغادر اللُّجة مقتربةً من الكواسر. إنها أول يابسة نراها منذ غادرنا لوريان منذ ثلاثة أشهر خلت مررنا خلالها

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

برأس "غافر". بدت هذه الأرض بعيوننا ونحن القادمون من منطقة يقبع بها الشتاء وتغرقها الأمطار كسرابٍ يسبح في نورٍ دافئ يلمع على الشاطئ وتحضنه مياهٌ رقراقة. لم نتوقف من الإشارة إلى نقاطٍ على الشاطئ والاستغراب كالأطفال: "انظر هناك! انظر!" أُنهكت جان بليلٍ طويل لا غفوة فيه فغطّت بنومٍ عميق، يدثرها وشاح والدتها ولم ترَ هذا الوصول الذي لا ينسى إلى الجزيرة التي ستصبح موطنها الجديد.

وطأت أقدامنا اليابسة أخيراً حوالي الساعة الثانية لنضع نقطة النهاية لرحلةٍ طويلة أعيتنا حتى خلنا لمرات عدة أننا سنلاقي هلاكنا. ما إن وصلنا إلى الرصيف الشاطئي حتى علمنا أن سفينة القرصنة "لاكوفيانس" التي غادرت معنا بنفس الوقت وكذلك مركبٌ تجاري يدعى "أوسترويكا"، قد حطا الرحال منذ قرابة أسبوع قبلنا دون أن تواجههما أية صعوبة، و ما اعترضت إبحارهما أية عاصفة. بالمقابل، باخرة "لاراديوز" التي كان يتوجب عليَّ أنا وماري آن الإبحار على متنها لو لم تكن مليئة بالركاب، وكانت أيضاً قد غادرت لوريان بنفس الوقت، لم تصل أبداً ربما تم الاستيلاء عليها أو ابتلعتها العاصفة.

كان لقاؤنا الأول مع إيسل دوفرانس مختلفاً عن آمالنا. وصفها لنا طيلة رحلتنا، البحارة الذين رسوا فيها مسبقاً بأنها أرض الملذات حيث الطبيعة سخيةٌ بكل أنواع الفاكهة والسكان سيلاقوننا بكل ترحاب ومودة.

كان وصولنا مختلفاً تماماً عما قيل لنا. حقاً، سلبت فخامة المكان لبّنا ما إن عبرت "لاروزيليس" الممر ودخلت الميناء الشمالي الغربي وفُتنّا بالجبال غريبة الشكل المطلّة على الخليج كعمالقة بتيجانٍ من الغيوم. بيد أن الترحاب ما كان حميماً. ما إن رسونا ودونما اعتبارٍ لمشقة الرحلة لأمٍ شابة تحمل بين ذراعيها طفل، كان علينا الخضوع لتحقيق، حيث

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مثلنا أمام ضابطٍ بالجمارك مدعوماً بالشرطة السوداء التي تفتش أغراضنا وأمتعتنا. جرى التحقيق في وضح النهار تحت أشعة الشمس ولساعة من الوقت تقريباً، ثم كان عليّ حالاً أن أسدد حقوق البضائع التي أحملها في بضعة صناديق: نسيج، خيطان من القطن والصوف، برميلان من نبيذ "لوار" اللذان خصصتهما لاستهلاكنا لا للبيع. كانت الرسوم باهظة الثمن وتستحوذ على حفنة المال التي وفرتها من أجل إقامتنا في الجزيرة. وعندما تذمرت قابلني الضابط "سوفيغ" بفظاظة وكلامٍ لاذع حيث قال إنني سيء الخلق حتى أتذمر بهذا الشكل وعلي أن أرى ميزة استقبالي أنا وعائلتي في ربوع هذه الجزيرة. كان الضابط رجلاً نحيلاً ببشرة مصفرة يشبه اللامتسرولين[1] الذين تشاحنت مع أحدهم منذ عهدٍ قريب في لوريان، حتى أنني تخيلت أن المواطن "رينالدي" قد أعلم الجمارك بقدومي فتهيأت لحركةٍ مزاجية ولحسن الحظ، ماري آن، زوجتي الفطينة منعتني ونبهتني أنه لا يمكن أن أدخل بنزاع لدى وصولي بعد رحلةٍ طويلة كهذه.

أمضينا بقية النهار في مكتب الجمارك بانتظار مأوى لنا، فما من فندقٍ في هذه المدينة ولا يمكننا أن نستسلم للمغامرة، لم يكن بيدنا فعل شيء، دفعنا اليأس بأن صممنا الذهاب مع الصديق ميرفان للإيجار بالغرفة الوحيدة المفروشة في الميناء عند السيدة "بيرود" في شارع "سواسون" قرب "البازار"، عندما ابتسم الحظ لنا بلقاء أحد أصدقاء الريان براشي، المواطن دوبوا، رسام وأستاذ الرسم في الكلية المركزية والذي قدّم لنا سكناً في منزله في شارع موكا. وافقنا بفرحٍ عارم، ففكرة مشاركة السكن مع بحارةٍ وطُهاة "روزيليس" بعد هذه الرحلة الشاقة قد دبّت الرعب في قلوبنا. ولكن يا إلهي كم بدت مدينة "ميناء الشمالي الغربي" قذرةً وتعيث فيها الفوضى!

---

(1) - اللامتسرول: هو لقب الثوار الفرنسيين عام ١٧٩٣.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تعثرت عربتنا طيلة الدرب بالطرقات الوعرة وسط برك من الطين والقذارات. عبرنا أمام منازلٍ مصنوعةٍ من الخشب لا أبواب لها، بل من أردأ ألواح الخشب ومغطاة بقشٍ سيء. يعج المكان بالحيوانات الشاردة. يحتل الصرف الصحي وسط الشارع بمياه سوداء راكدة تنبعث منها روائح نتنة.

تتسارع على الأرصفة ذات الحجارة المائلة جموعٌ صاخبة مختلطة من ذوي البشرة البيضاء بقاماتهم المشوقة ينزلون من عرباتهم ذات الخيول و العبيد بثيابٍ رثة، وأطفالٍ عراة يقفون على الجدران ونساءٍ عجائز يترنحن بثقل أمتعتهن. تأملت ماري آن كل هذا بوجوم ولم نجرؤ أن نتبادل كلمة واحدة. هل هذه هي الجزيرة التي تباهوا بسحرها في لوريان حيث كان علينا أن نحظى بإقامةٍ جديدة ملقين وراء ظهورنا المحن التي قاسيناها في بروتاني مسقط رأسنا الذي أثقل كاهلنا؟ جهدت لأبدي وجهاً بشوشاً في مواجهة هذا الانطباع السيء ولكن يمكن أن أقسم أنني لو كنت وحيداً وحراً في حياتي لسعيت من فوري للإبحار على متن أول سفينة متجهة إلى فرنسا أو الهند أو البرازيل.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كيف مضت السنة الأولى لإقامتنا في "إيسل دوفرانس" بكل أحداثها ومستجداتها وقلقها المتشح بالآمال، كل ما ساورني أنا وماري آن، هذا ما أرغب بقوله الآن.

كل شيء جديدٌ ومدهش، لدرجة أن راودنا شعور بأننا في عالمٍ آخر. سلمنا المواطن "دوبوا" أستاذ الرسم في المدرسة المركزية في الميناء نصف منزله مقابل أجر ٥٠ ليرة في السنة. المنزل شاسعٌ ولم يكن مشيّدٌ من الخشب كباقي المنازل في هذه الجزيرة وإنما بناءٌ بسقف من الآجر، لم يكن فخماً لكنه لطيف. يحاذي شارع موكا، حيث نقيم، جدولاً نحيلاً ينبع من "جبل بوس"، لابد أن الماء عذبة عند منبعها لكنها بعد أن تعبر المدينة حاملة كل أنواع القذارة تفوح منها رائحةٌ مقززة، إلا أن هذه المياه أهدتنا حديقة رائعة للنزهات.

لم يكن السيد "دوبوا" متزوجاً وما كان يشغل سوى غرفة واحدة من الجناح الأيسر للمبنى. يضم الجناح اليميني الذي استأجرناه غرفتين وغرفة للغسيل والغرف المشتركة حيث يعيش الخدم. تفتح نوافذ الغرف و أبوابها وغرفة الطعام على الحديقة. لا شبه أبداً بين هذه الحديقة وحدائق بروتاني القاسية حيث لا يُزرع سوى الملفوف والخضار. هنا جوقةٌ من النباتات والعرائش من كل الأنواع التي لم تراها أعيننا طيلة حياتنا، حيث الأوراق العريضة كالأشرعة وسعف النخيل وفاكهةٌ ثقيلة بقوامٍ كريمي وأُخرى تشبه الخوخ أو الإجاص وتلك التي تتدلى من الأشجار بسنف سوداء. تشغل الأشجار ذات الجذوع السوداء وأشجار الأبنوس العملاقة أعماق الحديقة.

قبل بزوغ الفجر تبدع جوقةٌ غريدة تبعثر ألوانها في أرجاء الحديقة مع كل صباح لتمتزج زقزقة أبو الحن وطيورٍ تشبه ببغاوات إفريقيا بأنغامٍ تصدح بها طيور الترغلة وردية اللون وشحارير الهند. تُطرب مسامع ماري آن بهذه الألحان العذبة ولم تكن على استعدادٍ لطرد هذه

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الجوقة مهما كان المقابل بل إنها اعتنت بها واضعةً قصعات صغيرة مليئة بالحبوب. نمضي أمسياتنا في هذه الحديقة التي تتلألأ بعد قبلات المطر الناعمة، نحرق البخور عند أقدامنا لطرد حشرات البعوض عن مهد ابنتنا.

أمضت ابنتنا جان سنتها الأولى في غمرة هذه الأجواء الخلابة تحت رعاية حاضنة ذات بشرةٍ سوداء اسمها "شابا". ما إن وصلنا الجزيرة حتى خصصوا لنا رُقيَّن، رفضتُ الأمر بازدراء في البدء فهو يتنافى مع مبادئي بيد أن زوجتي أقنعتني بشراءهما بعد أن لفتت ناظري أن بوسعنا اعتاقهما ما قمت به على الفور. كان للمواطن دوبوا رقين الأولى غسَّالة إفريقية وطاهٍ اسمه موتو وكان فاسقاً مراءٍ وقد حمل لنا الضغينة منذ أن أعتقنا الرق.

اشترينا بمال المَهر متجراً في شارع "رومبار" أي "شارع السور" على مقربة من المركز، عرضت للبيع بالمفرق نبيذ اللوار وزيت وصابون وأيضاً خيطان ونسيج وكل السلع الغذائية المستوردة إلى هذه المستعمرة. احتل هذا المتجر مكاناً مهماً، لم يكن سوى غرفة مظلمة ببوابةٍ خشبية عريضة لكن جدرانه البازلتية جعلته عرضة للعواصف واللصوص التي تكثر هنا. يؤمن لي كل رسو جديد قادمٍ من فرنسا مضاعفة رأس المال الذي أعمل به، وبما أنني بارع في الحساب فقد جنيت مكاسباً تضمن لي قوت يومي. وظفتُ الرُقين الذين اعتقتهما براتب خمس ليرات بالشهر كحرّاس للمتجر. حياتنا متواضعة بالمقارنة مع باقي المستوطنين، إلا أني كنت أشكر السماء كل لحظة أن ماري آن لم تكن مضطرةً للعمل كما في مزرعة "ناور" في "رونيلو". الظل الوحيد الذي يعكر صفو سعادتنا هو تفكيرنا بمن نحب، بالنسبة لي والدتي وأختي بشكل خاص، والذين تفصل بيننا مسافاتٌ شاسعة ويكابدون شقاء وذعر السياسة التي تطحن بلادنا، في الطرف الآخر للعالم.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

اكتشفنا موطننا الجديد رويداً رويداً ولم يكن شاسعاً لكنه يبدو مترامي الأطراف بسبب تنوعه وحداثته. بعد فترة وجيزة من وصولي التقيت بشابٍ أصبح صديقاً لي فيما بعد، اسمه لويس نيكولا بيللوتيير من أصلٍ فرنسي من لوريان، هاجر إلى هنا مع والديه منذ زمنٍ بعيد، منذ نعومة أظافره. ربط بيني وبين هذا الشاب تناغمٌ سريع، واحتلت هذه الصداقة مكانةً عزيزةً في حياتي، وخاصةً أنني بدأت أبتعد عن ميرفان شيئاً فشيئاً، فلم يكن سلوكه ينال إعجابي هنا أيضاً. ترك نفسه منذ وصوله لميوله الطبيعية بالفجور، بل وأكثر من ذلك، غيَّر من أفكاره الثورية ليتزوج قضية مالكي الأراضي وهم هنا الأرستقراطيون الجدد، ليكون له في كل مناسبة موطأ قدم ولا يعير اهتماماً لمستقبله العملي.

لم أكن أسمح لنفسي بسلوكٍ كهذا، رغم ما أكابده من تمزقٍ جرّاء انفصالي عن مسقط رأسي وعن والدتي وأختي ولكن لم يكن مطروحاً بالنسبة إليّ العودة إلى بلدٍ طردنا منه البؤس والعقاب السياسي. في أحد الأيام، أبدت ماري آن حزنها وشوقها لما باعدتنا عنه المسافات فقلت: لسنا هنا لنمضي وقتاً، إنها الآن أرضنا حيث سنوارى الثرى.

الهيئة الأمنية العامة ومجلس المستعمرة هما مقران لاتخاذ القرارات المتعلقة بالمستعمرة، يحضرها المهاجرون القدامى ومنهم من وُلد هنا أصلاً. غالبيتهم من مالكي المزارع داخل الجزيرة في "باي" و"كريف كور" و"بوباسان" يزرعون القمح والفاكهة وكذلك قصب السكر من أجل إنتاج الرُوم[1]. أسماءهم بعيدةٌ عن أسماء الناس ملوني البشرة "غيران" و"سوليي" و"ديشيزو" و"كوراسان" و"ديكومب" و"فلوريو" و"لوكليرك" وأيضاً "لوغوبو" و"غالديمار" و"جورنيل" و"كوتوريه" و"بودرفيل" و"لوبورن". الضابط "سوفيغ" الذي أساء استقبالنا عضوٌ في هذا

---

(1) - الرُوم: شرابٌ شديد الإسكار يستخرج من تخمير عصارة قصب السكر وتقطيرها.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

التجمع. فليبقني الله في منأى عن مثل هذه الهيئات! لم أهرب من جو وشاية اللامتسرولين لأرمي نفسي بالسأم ذاته في آخر العالم!

بعد فترة من إقامتنا في "إيسل دوفرانس"، أدهشني أن المجتمع المزدهر للمستعمرين لا يعير انتباهاً للمحرومين. تحدثت إلى السيد دوبوا، اقترحت له مشروع مدرسة للناس ملوني البشرة فوعدني أن يضع المشروع بين يدي الهيئة عما قريب. عارض البعض هذه الفكرة واعتبروها خطيرة على المستعمرة، فلو منحنا المعتوقين نفس حقوق الفرنسيين – حسب قولهم – فلن يتوانى أولئك عن شق عصا الطاعة وسيبدون في وجه ذوي البشرة البيضاء استبدادية لا رحمة فيها مثل ما حدث في "سان – دومينغ". نُقل إليَّ هذا الحديث فخشيت ألا ترى المدرسة النور أبداً.

تأثرت ماري آن منذ وطئنا المكان بظروف الحياة البائسة التي يعيشها غالبية الناس ذوي البشرة الملونة، ليس فقط الرّق بل حتى الأحرار والمعتوقين فهم يتلقون من ذوي البشرة البيضاء كل احتقارٍ وسوء معاملة، يُرمون في السجن لأقل ترهةٍ أو يتم سوطهم على مرأى الجميع أو توضع الأغلال في أعناقهم فيما يسمونه "المشانق". لا حق لهم بالاقتراب من حارات ذوي البشرة البيضاء وينفون إلى المناطق النتنة في المرفأ قرب مستنقعات كامب يولوف أو إلى مصب النهر الشمالي الغربي حيث يُوحل البحر.

ينفطر قلب ماري آن بالمشاهد التي ترى فيها الأطفال. كنت أصطحبها بالسيارة كل يوم أحد بعد القدّاس إلى ساقية "كريول" لتوزع الخبز. لقد كانت تقوم بهذا بشكلٍ طبيعي دون تبجح.

تعدُّ الخبز بنفسها بمساعدة الطاهي "كابور" ثم ترسله إلى فرن "كادان". ما إن نصل إلى حي كريول حتى يتدافع حشد الأطفال من حولها باسطي الأيادي لتضع فيها خبزاً مع عبارة لطيفة وابتسامة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

غالباً ما تجد ماري آن بين هذا الحشد طفلاً مسكيناً صغيراً جداً أو ضعيفاً، يبقى في المؤخرة فتقدم له الخبز هي بنفسها. أعلم أن برجوازي المستعمرة ونساءها يقابلون توزيع الخبز هذا بابتسامة عندما يمرون بجانبنا كل يوم أحد، ولكن لا يهم! هكذا تمارس ماري آن تناول القربان المقدس، رأيت في هؤلاء الأطفال الجياع بالثياب الرثة قرب جدول "كريول" أولئك الأطفال الذين رأيتهم فيما مضى في الدروب المؤدية إلى الحرب، عندما قطعنا ضيع "لابروتاني".

لم يكن الناس هنا أو غالبيتهم يعيرون انتباهاً لمصير البؤساء فلا أحد منهم ينشغل بعتق الرق رغم القرار الصادر في شهر المطر[1] من العام الثاني بل على العكس تماماً طردوا مراسلين الاتفاقية بعيداً والذين جاءوا يعلنوا إبطال الرق. يراني البعض مجنوناً إذ أعتقت الرق أو واهمٌ خطير.

أولئك الذين يرفضون إعطاء حقوق الإنسان لأولئك الرِّق يستفيدون منهم بغسل ملابسهم وتحضير وجباتهم والاعتناء بأطفالهم من نفس الرِّق الذي يزدرونه أشد ازدراء. كيف ينتظرون خدمة شريفةً لا عيب فيها من رجالٍ ونساءٍ محرومي الحرية ولا يعاملونهم إلا بالضرب والشتائم؟

هذه هي المفارقة في هذه الجزيرة التي أنعمت عليها الطبيعة بكل أنواع الفاكهة لكن البشر جشعون وظالمون ولا يفكرون إلا بمصالحهم وسعادتهم.

كم استغرب القادمون الجدد أننا الوحيدون الذين لاحظنا الفرق بين الفرنسيين في فرنسا ومواطنيهم في الجزر الاستوائية. هنا لا ترى الأعياد والحفلات والولائم التي لا يَدعي محدثو النعمة إليها إلا من

(1) - شهر المطر: هو الشهر الخامس من الروزنامة الفرنسية عصر الثورة ٢٠ أو ٢١ ك٢ حتى ١٨ أو ١٩ شباط.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يقبلونه بينهم. تتنافس النسوة لدى خروجهن من الكنيسة بملابسهن البذخة، فساتين من الحرير والأورغندي يعتمرن قبعاتٍ ويتزين بحليٍ من الذهب والفضة ويحيط بهن كل مظاهر العصر المجيد وكأنهن كن ماركيزات أو كونتيسات، لابد من رؤيتهن كيف يتنزهن على طول شارع "شوسي" إلى حديقة "كومباني" يحتمين من أشعة الشمس بمظلاتٍ تحملها الزنجيات بزي موحد. كم تبدو هذه الحفلة التنكرية هزلية، حين تعرف أسمائهن: جوبين وبيبين ولاهوت ولاتور وفوكيرو وشوفال ومابيل وبيلان وغيران وكاسيت وروكس وسولينه وبوبلان، لقد نسين أن آباءهن قدموا إلى هنا كمتطوعين في الجيش كمزارعين وصانعي براميل وطهاة وخبازين، وأن بقية عائلاتهن الذين لم يبرحوا البلاد يصارعون كل لحظة ليجدون الخبز وخشب التدفئة وقطعةٍ من الصوف. لكن هذا هو العقوق بعينه أو لعله النسيان ليس إلا، في ربوع هذه الجزيرة بخيراتها الوفيرة في آخر الكون، لا يفكر هؤلاء الناس سوى أن يتسلوا وينغمسوا بالملذات دون أن يلتفتوا للحظة بأولئك البائسين الذين يعيشون بجوارهم.

تجولت برفقة لويس بيللوتيي في أرجاء المرفأ الشمالي – الغربي بحثاً عن مناظر طبيعية جديدة، إنها حقاً طبيعةٌ ساميةٌ لم يبالغ "بيرناردان دو سان بير"[1] بوصفها. عندما نرتقي الضفة نحو الداخل، نلج غابةً كثيفةً بجوهرٍ نادرٍ مثل خشب صمغ البطم والخشب الأسود والأبنوس، نتقدم في إحدى الشعاب حيث يتدفق النهر بين العرائش والأزهار متعددة الألوان. هذه الطبيعة الخلابة ليست مأهولة بحيوانات مؤذية ولا ثعابين ولا ضواري من أي نوع. لا خطر إلا من مجموعات الرق الفارين.. الذين يشغلون الجبال، لكننا حملنا بنادقاً ولم نبتعد عن

(١) - بيرناردان دوسان بير: كاتب فرنسي نشر عام ١٧٧٣ رسائل عن "إيل دو فرانس" فظهرت موهبته الرائعة بالوصف.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الدرب. باقي الطرقات بحالٍ سيئة، المنفذ الوحيد من ميناء "فراتيرنيتي أي الأخوة" إلى الجنوب هو البحر.

استعدت مع لويس بيللوتي متعة المسير والمغامرة التي حُرمت منها منذ الحرب ضد البروس. نُخيم على طول السواقي حيث نقوم بشواء صيدنا وغالباً ما يكون طير العرار أو حمام نطاردها عند ناصية الدرب، تنشر الشمس أشعتها الحارقة مع منتصف النهار فنرمي أنفسنا بهناءٍ في مياه الجداول.

كنا تحت تصرف الحكومة لخدمة حرس لعدة أيام في آخر كل شهر، كما تم تكليفنا بالحفاظ على مدافع الهاون والبطاريات وصولاً لنهر "نوار أي الأسود". يدفعنا حس المغامرة ومتعة هذه الأيام التي نمضيها في الغابة على صهوة الخيل.

تحت إمرتنا كتيبةٌ من الجيش الأسود وعلينا مراقبة قيادته.. هذا ما أتاح تقدير منفعة الحرية الممنوحة للناس ذوي البشرة الملونة فهذا الجيش مؤلفٌ من المعتوقين المجندين لصالح الجمهورية، يبدون ولاءً منقطع النظير حيث يؤدي هؤلاء الرجال مهمة الدفاع عن المستعمرة دون أن يبدوا استياءً حتى في الأعمال الأكثر قسوة. كما أوكلت إليهم مهمة مطاردة وتدمير "الرق الفارين" الذين يضعون كل الجزيرة في مرمى الخطر جرّاء أعمال قطع الطرقات. وهكذا فكان بين يدي الحرس الأسود برهاناً يتناقض مع أولئك الذين يرفضون إعتاق الرق تحت ذريعة أنهم قد يتسببون بثورةٍ عارمة بين السكان ذوي البشرة الملونة. ولكن في كل مرة أودّ فيها التحدث لأعضاء المجلس بالأمر، يدحضون فكرة الإعتاق باشمئزاز، حتى أنهم لوحوا لي بمصير "باكو" و"بورنيل" الذين أرسلتهما حكومة المديرين فطردوا إلى فرنسا على متن سفينة "موينو" بتشجيع وتصفيق الجميع. طلبت مني ماري آن أن أتوخى الحذر خشية انتقام الأعداء ومن بينهم المواطن "سوفيغ" المشؤوم.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ترعرع "لويس بيللوتيه" في ربوع هذه الجزيرة فسوّى الزمن اعتقاداته بالمساواة وتحلّى بأفكارٍ معتدلة. إنه شابٌ ومزاجه يافع، خليّ البال. أتاحت له ثروته الخاصة تعلم الموسيقا والشعر. عادة ما يتردد إلينا في صالون السيد دوبوا فنعزف الموسيقا معاً، أنا أعزف على الناي وهو على البيانو الصغير ويغني ألحاناً معاصرةً بصوتٍ مضبوط. ننعم بجوٍ خيالي بغمرة الأنوار الخافتة تشعُ من حديقتنا وسط الزهور، ماري آن بجواري تنتظر مولودنا الثاني، وجان ابنتي تثغثغ وتلعب. لوحةٌ مثاليةٌ ما كان جان جاك ليستهين بها.

حقاً، إنها بوادر لحظاتِ سلامٍ وحبورٍ نعمنا بها مذ وطئنا هذه الجزيرة. لم تُنسنا هذه اللحظات أحبائنا الذين فارقناهم في "رونيلو"، يبدو أن سقوط "روبسبير"(١) ووصول حكومة المديرين قد حسنت الوضع السياسي. للأسف أخبار والدتي لا تنذر بالخير فحسب رسائل أختي بولين، والتي مضى عليها ستة أشهر سلفاً، فإن المطر والبرد في بروتاني خلفا أثراً سيئاً على صحة والدتي. فأرسلت لهما طرداً من الصوف فهذه المادة متوفرة في المناطق الاستوائية أكثر من فرنسا، وطلبت من أمي وأختي ارتداء سترة صوفية على أجسادهما مباشرة لتفادي الالتهابات. أما ماري آن فكان يحزنها غياب أخبار عائلة ناور وخاصة أختها التي طالما قدمت لها يد العون. ها قد مر عامٌ على حياتنا في موطننا الجديد وما أدركنا حتى الآن كم كان هذا الفراق قطعيّاً مع ماضينا. أحياناً أذهب برفقة ماري آن في الصباح الباكر، نعبر بوابة

---

(١) – ماكسيليان روبسبير: سفاح الثورة الفرنسية، محامي فرنسي وزعيم سياسي من أكبر الشخصيات المؤثرة وزعيم من زعماء الثورة الفرنسية، زعيم حزب اليعقوبيين الثوري المتطرّف وهو الذي بدأ حكم الإرهاب، تحول من بطل شعبي إلى أحد أكبر السفاحين في التاريخ، قتل ستة آلاف شخص خلال ستة أسابيع ثم تم إعدامه بنفس الطريقة ٢٧ تموز ١٧٩٤. قال للويس السادس عشر: "الناس في الخارج تموت جوعاً وأنت تأكل ما يكفي ١٠٠ شخص"، كما قال: "يجب أن يموت لويس لأن الأمة يجب أن تحيا".

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الأسوار في "كودان" لنبعثر أنظارنا على وجه البحر ونراقب أشرعة السفن قاصدةً المرفأ. نتأمل خط الأفق والبحر ذي الزرقة اللامعة والغيوم تتراكض في أحضان سماءٍ زرقاء. لم نكن بحاجةٍ للكلام لنعرف أننا نحمل نفس الشعور، وأنا أرى عيني ماري آن تغرورق بالدموع فهذا هو درب "لاروزيليس" الذي اصطحبنا إلى هنا في نهاية رحلتنا. لا يصلنا بوطننا في الطرف الآخر للأفق سوى الرسائل، بيد أننا نعرف حق المعرفة أننا لن نعود بالدرب المعاكس بل ويستحيل علينا أن نحلم حتى بأن تحمل إلينا إحدى السفن أحبائنا الذين فارقناهم على تلك الأرض.

خليج تاماران هو المكان الأجمل على الإطلاق، أرسلنا أنا وميرفان للحراسة هنا. وددت أن أصفه في إحدى الرسائل إلى أختي بولين إلا أن الكلمات خانتني وما عثرت على جملةٍ تصفه. أتخيل القوس المكتمل للخليج الذي يرتفع شمالاً مع جبل "رومبار" وجنوباً مع برج "تاماران" الصغير وشاطئ الرمل الأصفر مترامي الأطراف وتلك الغابة التي تلامس البحر تاركة حيزاً لمصب نهرٍ رقراق. الحُصون والاكتشافات في الجنوب عند نهر "نوار". بنينا كوخاً صغيراً بأغصان وأوراق شجر ليكون بمثابة سكنٍ لنا في تاماران عند مصب النهر في مكان يطلق عليه اسم "أوبوي أي مجرى مياه" بسبب نبعٍ ينبجس غير بعيدٍ من هنا. هذه هي منطقتنا لحماية الشاطئ من التهديد الإنكليزي. كنا على بعد سبعة فراسخ تقريباً من الميناء الشمالي – الغربي، عبرنا طريقاً وعراً بين بيادر القمح وحقول القصب. لدى اجتيازك جبل "رومبار أي السور" يصبح التراب مخضباً ومجدباً، يكاد يتعذر عبور الدرب الذي يخترق الصحراء وسط الصبار والعليق، لولا الأماكن حيث التهمت النيران كل شيء. في كل مرة نصطحب معنا في هذه الرحلة كتيبة تضم زُهاء عشرة جنود ذوي بشرة سوداء

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مدججين بالبنادق لأن "الرق الهاربين المارون"[1] غالباً ما يهاجمون المسافرين جنوب الجزيرة. "المارون" هم رقٌ هاربون من المزارع حيث أسيئت معاملتهم، والبعض منهم حسبما يقال يعودون للرق الهاربين من "هولندا" والذين طالما ألفوا الجبال قرب "مورن"، بناءً على هذا فهم السكان الأقدم في هذه الجزيرة وأكثر من نُزع منهم الإرث وتحولوا لمتوحشين جرّاء العقاب الذي أنزله بهم من يطاردوهم دون هوادة.

يوجد في تاماران قرية يقطنها الأحرار والعديد منهم خُلاسي[2]. إنهم الناس الأكثر كرماً وشرفاً في العالم. يرعون الماشية في مزارعهم ويزرعون حقولاً صغيرة من الخضار على طول النهر. أكواخهم متواضعة لكنها نظيفة، شيّد بعضهم أكواخاً من الحجر الأسود بنوافذ عالية تحيط بها الحدائق مزركشةً بأنواعٍ من أشجار الفاكهة وأجماتٍ من الزهور. إحدى العائلات المرموقة في المنطقة هي عائلة "توماس دي باسان" و هو أسود مولَّد أبيض[3] أنشأ ورشة بحرية يصنع بنفسه زوارق خفيفة من جذوع الأشجار، تشبه إلى حدٍ ما مراكب "لاليتا" الشراعية التي يستخدمها الصيادون الحوثيون. يقومون بصناعتها بمهارةٍ شديدة في البحيرات المرجانية ثم ينطلقون للمغامرة خلال المد بعد أن يشدوا الشراع المائل المعلّق بالصاري الذي لا عارضة له. كثيراً ما قمت أنا وبيللوتي بالرحلة على متن هذه الزوارق حتى المرفأ، ويصطحب الحرس ذوي البشرة السوداء خيولنا دون أن يمتطوها فالقانون يمنعهم تحت عقوبة السجن.

---

(1) - المارون تعني بالفرنسية اللون الكستنائي وأطلق هذا اللقب على الرق الهاربين الذين قاموا بأعمال قطع طرقات ولصوصية.

(2) - ولدٌ خلاسي: ولد من أبوين أبيض وأسود.

(3) - مولّد أبيض: أبيض ولد في المستعمرات الأوروبية القديمة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يعيش المواطن "دي باسان" وهو أرملٌ في منزله مع ابنتيه شابتين جميلتين جداً. الأصغر سناً، يتراوح عمرها بين ١٦ وسبعة عشر عاماً وتدعى "لور" إنها حتماً أكثر النساء جمالاً ممن رأيتهن في " ايل دو فرانس". طويلة القامة هيفاء، مما يعطيها سناً أكبر من سنها إلا بتعابير وجهها المرسومة ببراءةً والمتألقة سذاجة. عندما نتناول طعام العشاء عند "توماس دي باسان"، هي من تحضُر المائدة، ترتدي زياً بسيطاً ذي ذوقٍ رقيق، فستانٌ حسب موضة الخلاسيين أي فستانٌ من المَدْراس[1] الناعم الملوَّن تغطي شعرها بشالٍ عريض أحمر اللون. تمشي حافية القدمين حسب عادة الخلاسيين، من الممتع رؤيتها تتزلج على الأرض بخفةٍ وكأنها ترقص. يصدح المرح على أنغام الموسيقا في أرجاء منزل دي باسان. يجتمع قارعي الطبول حول النار في بعض الأمسيات على الشاطئ ويغنون بلغتهم المحلية العذبة المؤثرة. يتحدث بيللوتيه هذه اللغة ويفهمها جيداً فقد ترعرع في ربوع هذه الجزيرة، وكثيراً ما ردد معهم لازمات الأغاني. لمحت أنه متأثرٌ بسحر ابنة مضيفنا فملامح وجهه تتغير كلما ظهرت الجميلة لور. وهي أيضاً تنظر إليه بينما تقدم لنا ما نشرب بمزيجٍ من الجرأة والتواضع الذين تملكانهما ثم تركض لتتوارى في المطبخ حيث يتناهى لمسامعنا صوت ضحكاتها كالطفلة مع أختها والخدم.

كل ذلك كان فاتناً بل سرمدياً. رويت لماري آن عن عذوبة وجمال خليج تاماران، فقالت لي وقد جحظت عيناها استغراباً: "خذني إلى هناك مع جان، لدي رغبة عارمة بالتعرّف على المكان". ترددت لوقت طويل لخطورة وضعها، ثم قررت في أحد الأيام مع نهاية شهر شباط بعد أن ولّت العواصف، أن أجهز عربةً مغطاة وأصطحب ماري آن وابنتنا

---

(1) – المدْراس: نسيج خفيف من الحرير والقطن.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

جان مع الخادمة السوداء إلى خليج تاماران وانضممنا إلى بيللوتي الذي سبقنا إلى هناك.

وصلنا مع هبوط الليل. لم أكن قد التقيت بلويس بيللوتي منذ شهرين تقريباً فقد شغل المتجر كل وقتي. فوجئت بالتحولات الطارئة. ألقى هواء البحر حلته السمراء على وجهه ومتَّن الصيد على متن القوارب جسده. إنه يرتدي حسب طريقتهم، سروالاً وقميصاً مكفوف الأكمام، حافي القدمين، أشعث يعتمر قبعة من قش جنبة تدعى هنا "فاكا" ليحتمي من ألسنة الشمس ولكن أكثر ما فاجأني هو سلوكه، بدا لي أنه وسَّع لنفسه مكاناً في أحضان عائلة دي باسان فاستقبلنا وكأنه في منزله.

لا تثير طبيعة مشاعره للجميلة لور الجدل، جلسنا مساءً تحت العريشة وقدمت لنا الشابة الحساء وكلما اقتربت من بيللوتيه تبادلا نظرات عشقٍ طويلة وأطلقا تنهيدات مؤلمة. لاحقاً كالمعتاد جلس الموسيقيون على الشاطئ وعزفوا ألحاناً على طبولهم والمندولينة[1] وتمايلت لور راقصة أمامنا ممسكة بأطراف ثوبها برشاقة ولم يتردد بيللوتي بمراقصتها. كم كان ذلك فاتناً ومترعاً ببراءة الصبا بيد أنني لم أستطع منع نفسي من توجس الخيفة إذ كنت أعلم القسوة التي تحكم فيها الهيئة الأمنية على أولئك الذين يعاشرون نساءً ذوات بشرةٍ ملونة.

أمضينا عدة أيام ممتعة في خليج تاماران في الكوخ الذي نزلنا فيه كمسكنٍ لنا. لامست ابنتي جان البحر لأول مرة في حياتها على هذا الشاطئ حيث تتراكض أمواج المحيط لتتلاشى بهدوء. مشهدٌ لن أنساه ما حييت ابنتي جان عارية يداعبها زمن البراءة المطلق تركض في البحر لترتمي في مياه النهر الرقراق تحت قبة من الأشجار العالية، سبحت أنا

(1) - المندولية: آلة موسيقية وترية.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ولويس بيللوتي في النهر أيضاً ثم انضمت إلينا لور دون أن تخلع ملابسها، أما ماري آن فبقيت على الشاطئ تتأملنا فحملُها يمنعها من الانضمام إلينا.

أضرمنا النار مساءً على الشاطئ وتناولنا بشهيةٍ الصيد الذي حمله توماس دي باسان وقطفنا الفاكهة الطازجة من بستانه.

رافق الألحان العذبة صوت لور وهي تنشدُ برقة أغانٍ رومنسية باللغة المحلية انضم إلينا لويس دون أن نشعر، استسلمنا لأنامل هذا السحر، أذكر أنني فكرت أو ربما قلت، لقد لمسنا الجنة بأيدينا فلا يمكن لهذه السعادة أن تتحقق إلا بما يضفيه سحر البحر والسماء والطبيعة دون الحاجة أبداً للثورة.

دقت ساعة الرحيل والعودة إلى "بور دو نور أويست أي الميناء الشمالي الغربي"، حضر الحارس الأسود مع السيارة لاصطحابنا بيد أن لويس بيللوتي رفض الذهاب. قال لي: "اذهب فحياتك هناك مع زوجتك وابنتك. أما أنا فحياتي من الآن فصاعداً ستكون هنا. سأخبر والدي بالأمر فقد عزمت الزواج من لور دو باسان".

حاولت ثنيه عما هو مقدم عليه، شرحت له أن لا موارد له للعيش وهو يجازف بحياة بائسة. فضحك ضحكةً تثبت إلى أي حد سلبه هذا الجنون لبّه، وقال لي: "على العكس تماماً يا عزيزي جان. إن موارد العيش هنا في هذه الربوع، انظر من حولك وتأمل الغنى الذي أنعم به".

عانقت حركاته الخليج حيث تتلألأ شمس الصباح بنفس الوقت مع البحر ذي الزرقة الداكنة حيث تتهادى قوارب الصيادين ومنزل توماس دي باسان على ناصية النهر محاطاً ببستانه وأزهاره.

ليثبت لي إصراره نادى لور التي كانت تعمل في المنزل، فقدمت حافية القدمين ترتدي فستاناً بسيطاً أبيض اللون وتعتمر قبعة من القش، ولعمري أنها بزيها هذا كانت تفوق جمالاً تلك النساء المرموقات اللواتي

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يرتدين أجمل حللهن ليتنزهن على طول شارع "لاشوسي". استحضرت صورة ماري آن قبل زواجنا خارجةً من المزرعة وشعرها أشعث بزيّها الفلاحي البسيط، دحضت هذه الذكرى كل رفضي. شددت على يديه ثم استأذنا بالانصراف منه و من عائلة "باسان"، تبادلت ماري آن معهم القبل ووعدتهم أن تعودهم بزيارة ما إن يتسنى لها. بالحقيقة كانت هذه آخر مرة تلتقي فيها بلويس بيللوتي والجميلة لور دو باسان. لم نلتقِ مجدداً في رحاب خليج تاماران.

أبحر لويس بللوتي على متن حرّاقة الدولة "برول غول أي سفينة الغليون – القصير" بإمرة الربان فريلود في الثامن عشر من شهر نيفوز[1] من السنة التاسعة، تحت درجة حرارة مرتفعة جداً. صوّت المجلس الاستعماري لنفيه بسبب سوء تصرفه وأبطلوا زواجه من لور دو باسان بعد شهرين ولم يلق أي نداء صدىً في آذانهم.

ذهبت بنفسي لزيارة المواطن "باربي" و"مابي" فحسبما قيل لي هما الذين تشبثا برأيهما خلال تصويت المجلس. ما إن عرفوا هدف زيارتي حتى أبدوا بروداً في وجهي، قال لي "باربي": ماذا تريد؟ لقد قمنا بتنبيه هذا الشاب بل عائلته كلها أنذرته إلا أنه تشبث برأيه.

حاولت أن أبرهن عن شبابه وصدق حبه للشابة الخلاسية: "أهكذا يحاكم الحب في بلد بول وفيرجيني؟" فابتسم الرجل وبدا ممتعضاً وقال: "أيها المواطن مارو، أنت تعلم أن الحياة ليست برواية وفي الواقع هذا جلُّ ما يسعني قوله".

عندما أدرك لويس بيللوتي أن الآمال بالرحمة قد تبددت، رضخ للنفي. جاء قبل عدة أيام من الرحيل على متن "برول – غول" إلى متجري ليودّعني، فوجئت لرؤيته بمعنويات جيدة. حدثني عن إقامته في

---

(1) – نيفوز: الشهر الرابع من الروزنامة في عهد الثورة من ٢١ ك١ حتى ٢١ ك٢.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

فرنسا بجوار إحدى خالاته التي تعيش في "روان". ينوي فتح تجارة يبيع فيها منتجات هذه الجزيرة: الشاي والقرنفل وقهوة موكا[1] والزنجبيل والتي تكلف ثمناً باهظاً هناك. سألني: "هل تقبل أن تكون مورّداً لي مع أنني منفيّ؟" فعانقته وأكدت له على صداقتنا.

ظل سؤالٌ يؤرقني، لم أستطع تركه يغادر دون أن يجيبني فسألت: "وماذا عن لور دي باسان؟" دُهشت لملامح الرضى التي رُسمت على وجهه وهو في هذا الوضع وقال: "أنت تعلم أن لور زوجتي. لقد عقد قراننا أمام الكثير من الشهود حسب قوانين الجمهورية. عندما سأصبح في فرنسا سأشهر هذا القران حتى ولو اضطررت للترافع أمام حكومة المديرين. ستتمكن عندئذٍ لور من العيش معي في فرنسا في موطننا الحقيقي، بما أن حكومة هذه الجزيرة حرمتنا هذا الحق".

قال ذلك بثقةٍ لا بل باحتداد، قرأت في أحداقه إصراره على التمسك بهذا الزواج. كيف لي أن ألومه؟ وأنا من جابهت كثيراً اللامساواة؟ سمعت بالمقابل شائعة في الجزيرة أن الحكومة الجديدة في فرنسا لم تحذُ حذو الثورة، وهي تنوي أن تنال رضا المستعمرين وإعادة تجارة الرق الكريهة. إذا حدث هذا، فما مصير لويس بيللوتي ولور؟ هذا القلق الذي رافقني وأنا أودعه وأعانقه للمرة الأخيرة.

لم أرَ لور مجدداً، أعتقد أنها في منزل والدها في خليج تاماران، بأمل أن تلحق ببيللوتي. صباح الرحيل، ذهبت وحدي إلى الرصيف الشاطئي لرؤية "برول غول" وهي تغادر، وهي سفينة جميلة ذات ثلاثة صواري مربعة باثنين وعشرين مدفعاً، بغرض السرعة، تم بناؤها بهيكلٍ ذي خطوط سوداء وبيضاء. عندما رأيتها تغادر المضيق وتطلق أشرعتها للأفق بالطريق الطويل الذي ستمخره حتى برست وككل مرة أرى فيها

---

(1) - موكا: قهوة يمنية، اسمها مأخوذ من مدينة مخا.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

باخرة ينغرز سكينٌ في قلبي وأنا أفكر بأمي وعزيزتي بولين هناك في آخر الدرب.

في ذات الوقت في شهر نيفوز من العام التاسع، أعلن المجلس الاستعماري موقفه لصالح المدرسة التي وضعتها بين أيديهم لتعليم أبناء المواطنين ذوي البشرة السوداء. أخبرني السيد دوبوا، المالك، بحماسٍ شديد: "لقد شقت فكرتك أخيراً طريقها" ثم تلا على مسامعي قرار المجلس وسأدون هنا المواد الأساسية:

المادة ١:- ستقام في مدينة "بور دو نور – أوست" مدرسةٌ خاصة لتعليم أبناء ذوي البشرة السوداء. ستخضع هذه المدرسة لمراقبة لجنة التعليم التابعة للجمهورية.

المادة ٣:- سيتم تعيين ثلاثة مدرسين في هذه المدرسة وسيكلف أحدهم بالمراقبة. تقوم اللجنة الوسيطة بتعيين هؤلاء المدرسين.

المادة ٤:- يقوم التعليم على دروسٍ بالقراءة والكتابة وعلم النحو وعلم الحساب والرسم وعلم الهندسة التطبيقية.

المادة ٥:- سيمنح المدرس المكلف بالمراقبة ٤٠ قرشاً خلال شهر و٣٠ قرشاً لكلٍ من المُدرسين الآخرين. أما أجرة المدرسة فيقوم مجلس المدينة العام بدفعها من عائداته من الضرائب والرسوم.

المادة ٦:- يدفع كل طالب يتم قبوله في المدرسة المذكورة مبلغاً وقدره ٢ قرشان فعلياً ويتم إعلام مجلس المدينة العام.

المادة ٧:- لكل مجلس قرية الحق باستقبال طالب واحد بالمجان.

المادة ٨:- الشرط للقبول المجاني أن يمنح مجلس البلدية الطالب وثيقةً تثبت أنه ابن شرعي لزواجٍ شرعي وينحدر من عائلة فقيرة... الخ.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أصغت ماري آن لقراءة القرار وصفقت بيديها وحملنا الحماس جميعاً. اقترحت للتو نفسي مدرساً للقراءة والكتابة والمواطن دوبوا قال أنه من جانبه مستعدٌ لإعطاء دروس بالرسم والهندسة.

داعبنا في الأسابيع التي تلت أمل تنفيذ هذا القرار، وأسفت أنني لم أتمكن من مشاركة هذه اللحظات مع صديقي بيللوتي. قلت لماري آن: "لو أنه هنا لعرف أن المساواة لم تعد مجرد وهم وأنه ربما تمكن الحصول من المجلس على اعتراف بزواجه من لور.

تهيأ لي أن صديقي قد يعود قريباً، راقبت وصول البريد كل أسبوعين من بريست وروان. كما دونت قائمةً بالبضائع التي سأرسلها له وتحققتُ من قطاف الزنجبيل في الحقول الكبرى في وادي "كريف – كور".

مع نهاية شهر مرعوي، وصلنا الخبر المشؤوم. غرقت سفينة "برول غول" عند شاطئ "لابروتاني" قبل الوصول إلى برست ولم ينجُ من المئة وستة رجال على متنها سوى ثلاثة وثمانين رجل. لاقى لويس بيللوتي مصرعه في البحر مع لور دي باسان التي اصطحبها معه على متن القارب خفيةً.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يتراءى أمامي صخب العاصفة وتلاطم الأمواج الهائجة في سان. إنها نهاية هذه الرحلة الطويلة التي أودت بسفينة "برول غول" إلى رأس "لابروتاني". غداً سيرسو في برست، كل الناس على متن السفينة سعداء رغم البحر الهائج والريح التي تعوي بهبات قوية. أمضوا ليلتهم الأخيرة على جسر السفينة يتأملون خط الشاطئ يلوح من بعيد. يشقُ الصحو كبدة السماء في عرض "لابيل إيسل" فلاحت الشطآن البيضاء على ضفاف موستيدلان.

أبحرت السفينة على مقربةٍ من جزر "جلينان" حتى تناهى لمسامعهم صوت تكسر الأمواج على الرصيف الصخري، لويس بيللوتي على جسر السفينة أيضاً يحضن لور، تتراقص أحداقهما على خط اليابسة هناك في الأفق. ارتدت فستانها الأبيض الجميل من أجل الرسو وتحاشت البرد الذي تنثره الرياح بوشاحها الصوفي الكبير.

تعلَّم الجميع الحب خلال أشهر الإبحار هذه. فهي مرحةٌ ولطيفةٌ دائماً، أصبح كلٌ من "بيير" قائد الطاقم ومعاونه "مونو" أصدقائها. كابد الكابتن فريلود في مقاومة فتنتها، وعندما اكتشف في عرض ضفاف افريقيا أن هذا الخادم الشاب الذي يرافق بيللوتي ليس سوى زوجته، استشاط غضباً في البدء: عليَّ أن أضع الأغلال بأيديكم عند خزان الماء لأنكما قمتما بخداعي ولكنني سمعت عن قصة زواجكما وكيف تم نفيكما من المستعمرة. أنا كسائر أفراد الطاقم كنت أوليكما تعاطفي التام. ثم أضاف: لأسباب تتعلق بالحشمة سأطلب من زوجتك نزع قناعها الرجولي.

حتى أنه خصص لها حجرة في مؤخرة السفينة على مقربةٍ من الشقق يجاور حجرة الجراح جاكوب. دعاهما الكابتن عدة مرات إلى مائدته ليطرب مسامعه بقصتهما. عرفت لور كيف تعود بالنفع على أفراد طاقم السفينة، فتحضر قطعاً من الحلوى من لب جوز الهند

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وتوزعه عليهم مما عاد عليها بشعبية. أصبحت هذه الشابة الخلاسية بوجهها البشوش كالجنية الطيبة بالنسبة لهؤلاء الرجال الفطين بغالبيتهم فهم لم يتلقوا تربية جيدة واعتادوا الضرب والحياة القاسية. لابد أنها شاركت بحفل عبور خط الاستواء والذي شهدته لأول مرة في حياتها، وغنت برفقة لويس أغانيها العذبة ليعزف أحد البحارة على المندولينة. لم يشهد عبوراً لهواً وتسلية مثل هذا العبور. والآن بينما تقترب السفينة من نهاية الرحلة، يحزن الجميع لرحيل لور ودي بيللوني ويحسدون السعادة التي تغمرهما.

هكذا تخيلت اللحظات الأخيرة لهذه الرحلة حين شارفت السفينة على الوصول لرأس "بروتاني"، تحول الطقس الرديء لعواصف بعد عبور منطقة "سانت – كونيولي" البحرية، اكفهرت السماء وغار الشاطئ تحت انهمار الأمطار. لاذ لويس ولور إلى حجرتهما، هبت الرياح الغربية وأعاقت تقدم "برول غول"، تتحطم الأمواج على صدر السفينة. أنزل الربان فريلود كل الأشرعة ولم يبقِ سوى الزاوي وشراع صاري مؤخرة السفينة. لكن الريح العنيفة مزقت هذه الأشرعة. ابتلعت عتمة الليل كل شيء فجأة وقبل الساعة الخامسة وكأن أحداً ما قد أطفأ الشمس، عوت الريح من كل فتحات السفينة وزمجر البحر كحيوانٍ ضارٍ. أتخيل لور تلوذ لحضن لويس على فراشهما وهما يسمعان تكسر الموج على جسر السفينة. هبط الليل، ليل ذعر وهول. يأنُ هيكل السفينة تحت لطمات الموج وتصرخ الريح في أعالي أعمدة الصواري. أصبحت "برول غول" كالدمية بين ألسنة الموج ممزقة الأشرعة تغمرها مياه البحر من كل الكوات، تعانق العاشقان واشتبكت أنفاسهما ومنعهما الذعر من الصلاة أو الكلام.

ساور الجميع الشك بالوصول سالمين بعد برهةٍ من منتصف الليل، تتلاطم برول – غول بهبات الريح وانحرفت عن مسارها لتلامس

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الرصيف الصخري شرق جزيرة سان قرب كالاورو. في هذا المكان، البحر قليل العمق إلا أن الماء يتدفق على الرصيف الصخري كفيضان نهري. قرر الربان فريلود إرسال زورقي نجاة في أمل البحث عن مساعدة على الجزيرة. ذهب يدق على باب الحجرة ليقنع لور بالصعود على متن إحدى زوارق الإنقاذ: إذا أردت البقاء على قيد الحياة، لابد أن تغادري فالغرق يحدق بالزورق بين لحظة وأخرى. بيد أن لور رفضت واندست في حضن زوجها وقالت: "إما أن نحيا معاً أو نهلك معاً".

حمل الزورقان واحد وثلاثين بحاراً بالإضافة للجراح جاكوب والربان "لوبو". بقي الربان فريلود على متن السفينة مصدراً الأوامر بتركها ليدي الريح رغم خطورة الاصطدام برصيف آخر، كما تحطمت السفينة بعنف الأمواج التي تلطمها. غاب الزورقان في جنح الليل، لا يلوح نور الفانوس المعلق على الصاري حتى خُيل لهم أن البحر طواهما في جوفه.

مالت سفينة "برول غول" نحو مرساتها على طول الرصيف الصخري. لمح صيادو الجزيرة خيالها مع بزوغ الفجر معلقاً على الصخور الشاطئية، غامر بعض الرجال يتحدون الأمواج والريح نحو الرأس علّهم يقدمون يد العون. ترنّح الواحد والثلاثون رجلاً من الطاقم إلى "غيوفور" حتى وصلوا الشاطئ الرملي حيث قام السكان باستقبالهم. بقي الربان "لومينو" على الشاطئ رغم البرد والإعياء ليراقب الحطام.

تحتضر السفينة، تتكسر صواريها، تلقي بها كل موجة على الصخور مصدرةً ضجيجاً مشؤوماً. فجأة لطمتها موجةٌ تفوق بقوتها كل سابقاتها ليدوّي ضجيجٌ مرعب في الأرجاء تناهى لمسامع سكان الجزيرة رغم جلجلة العاصفة. ظنّ البعض أنهم سمعوا صرخات ذعر أولئك الذين يقارعون الموت عندما انقلبت السفينة والتهمها البحر.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

انحسر الموج، لم يبقَ شيء على الحيد البحري سوى حطامٌ مشوّه يشبه جذور شجرة مقلوبة. عمّ سكونٌ يتحدّاه موج البحر بين يدي الريح، لا يفكر أحدٌ على الشاطئ بالابتعاد، يبعثرون أحداقهم فوق عرض البحر حيث غاب أي أثر للحياة.

أُلقيت على شاطئ "نومور" وعلى الشواطئ الرملية المجاورة فيما تلا من أيام بعضُ جثث من المئة والثمانية والستين غريق ثم دفنوا في مكانهم تحت الحصيات البحرية بعد أن طمروا بالكلس الحي بحضور مختار الجزيرة جان فرانسوا تيمور والخوري "لوش"، ولكن لم يتم العثور أبداً على جثث لويس ولور ولا حتى الربان فريلود. حتى بعد زمنٍ طويل وبعد كل عاصفة، يلفظ البحر بقايا من "برول – غول"، قطعاً من الصاري ومساند المدفعية. يُهيأ لنا حين تهب العاصفة من الغرب على الحيد البحري[1] أننا نسمع أنين العاشقين المنفيين الذي ابتلعته ألسنة البحر.

---

(1) – حَيد بحري: سلسلة صخور قرب سطح الماء.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

آخر العالم

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

"هل أخبرتك أنني تعلمت التحدث مع النباتات؟"، لقد كانت العمة كاترين بعيدة عن كل ما يجري. تستشيط غضباً لدى سماعها الأخبار بالمذياع: "حروبٌ وحروبٌ كم شهدتُ حروباً. سرقت حرب ١٩١٤ أخي وخطفت حرب ١٩٤٠ أختي التي لاقت مصرعها لفقدان الطعام في باريس".

كانت تؤمن بحق الشعوب بحكم نفسها بنفسها وتكره الإمبريالية الإنكليزية والاستعمار الفرنسي.

أزهقها حر الصيف لكن ذهنها يتقد أكثر فأكثر. قالت أنها خلقت لاحتمال هذا الصيف. يتصبب العرق على جبينها بين خصلات شعرها الرمادية. تحرك الهواء بطرف كرتونة، ترتدي دائماً فستاناً رمادياً كالأخت في الكنيسة، وتنتعل ذات الخف المصنوع من الجلد.

"اروِ لي يا عمة، كيف تعلمت لغة النباتات؟".

صححت كاترين جلستها على الأريكة وكفي يديها مبسوطتين على المسندين وصدرها منحنٍ إلى الأمام: "إن سومابرابا هي من علمتني. سبق وتحدثت لك عنها أليس كذلك؟ سومابرابا، كانت صديقتي من نفس جيلي، كان عمرها حوالي سبعة عشر أو ثمانية عشر عاماً حين التقيتها، إلا أنها سبقتني بالصبا، هي جدية دائماً ووقورة. تمت خطبتها لشابٍ هو ابن صديق والدها، قدم من الهند من أجل الزواج الذي لا تعرف متى سيتم في العام القادم ربما، على الشاب أولاً أن يكسب المال اللازم وهو يعمل في متجرٍ في ميناء "لويس"، يأتي لرؤيتها كل يوم أحد، أما باقي أيام الأسبوع فتقضيها برفقتي".

كم من الممتع الإصغاء لهذه القصة هنا في شقة "لاكاتافيفا" في أعلى المبنى وكأننا خارج الزمن. يطرق صخبُ السيارات النوافذ ليقتحم ضجيج شارع رين – جان الذي يغصُ دائماً قرب جسر السكة الحديدية. إنها حقيقةٌ أخرى بالنسبة لجان فقط ليس بوسع أحدٍ غيره أن يسمعها.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تابعت العمة كاترين: "انتظرتني أول مرةٍ تحدثنا فيها في آخر الحديقة حيث يبدأ الدرب نحو الضفاف لحضن الغابة، جاء والدها إلى هنا من أجل خشب أشجار العنب الأسود فلديه ورشة مفروشات في "روزهيل". تنزهنا يومها في الغابة، ثم صارت تتردد كل يوم تقريباً، في تلك الفترة لم تكن تعمل شيئاً، تحضر فقط لزفافها وكانت سيدة وقتها. لم تكن تتحدث باللغة المحلية، بل تتحدث الفرنسية بشكلٍ جيد فوالدتها ولدت في "بونديشيري" وذهبت إلى المدرسة هناك عند الأخت في الكنيسة وعلمت بدورها الفرنسية لابنتها. لم تكن سومابرابا تعرف باللغة المحلية سوى الشتائم والكلمات النابية، عندما تستشيط غضباً تبدأ بإطلاق الأقسام والشتائم، مما يضحكها جداً. كنت أذهب برفقتها إلى الغابة، أما مود فتبقى في المنزل يملأ الخوف قلبها، لا تجرؤ أن ترافقنا. اصطحبتني سومابرابا لرؤية آخر العالم. كنا نبقى في البدء حول روزيليس نتنزه في الحديقة ورويداً رويداً صرنا نبتعد أكثر فأكثر حتى نزلنا باتجاه النهر، إنها فتاة ماهرة، ترفع ثوبها وتعقده ثم تضع نعليها تحت إحدى الحجارة وتقفز حافية القدمين من صخرة لأخرى، كان الطقس لطيفاً مع نهاية الشتاء في شهري أيلول وتشرين الأول، السماء زرقاء صافية. سبحنا في مياه النهر العذبة وتأملنا ندف الغيوم تتمايل بين يدي الريح. تبحث سومابرابا عن النباتات وتروي حكايات وتعطي لكل زهرة اسماً، تفتح كأس زهرة السحلبية وتمرر طرف اصبعها على المدقة للعق الرحيق. قالت: "انظري هذه الزهرة هناك إنها "أورفاسي" كذب "بوروفاس" عليها وتاهت في الغابة، إنها وحيدةٌ تنتظر عودته.

تحدثت أيضاً عن عفاريت الغابة، وعن الراقصات اللاتي يدعين "ديفاداسي"(1). هناك مئةٌ وأخت في الغابة قد نلمحهن في بعض الأحيان يتمايلن في مضاءةٍ أو على ضفاف الأنهار ونبقى نحن لمراقبتهن.

---

(1) – ديفاداسي: راقصة المعبد في الحضارة الهندية القديمة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كما حاذينا جدول أفوش إلى منبعه تحت الصخور السوداء الكبيرة. سكونٌ لا يساوره أدنى ضجيج إنساني ليس سوى تغريد العصافير وحفيف الأشجار. سردت سومابرابا حينها حكايةً طويلة عن "داماليانتي" و"ملك نال" وعرفتني بمكانٍ على ضفة النهر، ثلاثة صخور على شكل كهف في داخله أوانٍ من الطين الأحمر وأطراف خشبٍ معطرٍ، قالت إنه منزل أرانياني سيدة الغابة. هي من تمتلك الغابة وكل الأشجار حتى أشجار الأبنوس وخشب روزيليس الأسود، كل شيء يعود لها. لها العصافير والحيوانات المتوحشة، أذكر أن الرعشة سرت في جسدي حين اقتربت من معبد "أرانياني" تخيلت أنها هنا وتراقبنا من بين أوراق الشجر، تقصُ سومابرابا على مسامعي في كل مرة جزءاً من قصتها وأترقب مجيئها بفارغ الصبر برفقة والدها من أجل قضية المفروشات المصنوعة من خشب الأبنوس. كان هناك أيضاً فرنسيٌّ اسمه "موباس"، كان يرغب بإنشاء مصنع في "إيبين"، أعتقد أنه كان يرغب الزواج بي بيد أنني لم أكن أثق به وخاصة أني كنت أعرف بصداقته مع اللص الطماع "شومان". كنت أنتظر سومابرابا، يراودني شعور بأن كل شيء سيتغير على يديها وأننا سنجد حلاً لكل المشاكل التي تعترضنا مثل حكاية الملك نالا وداماليانتي.

روت لي سومابرابا كيف لعب نالا بالنرد وفقد كل شيء مملكته وجيشه وقصره وحتى ملابسه، فلاذ إلى الغابة مع "داماليانتي" ليستر عريه، قصَّ نصف ثوب زوجته بينما كانت نائمة وهرب ليتوارى مع خزيه. "اللحظة التي كنت أفضلها في الحكاية هي عندما استيقظت المسكينة داماليانتي وأدركت أن زوجها هجرها نصف عارية في الغابة. تاهت بين الحيوانات المتوحشة، لم يكن لديها ما تتناوله سوى الأعشاب وجذور النباتات. رأف لحالها الذئاب والنمور، حتى أنها قالت للنمر: "أيها السيد، أنت سيد الغابة وتعرف أني داماليانتي زوجة الملك نالا، أنا

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وحيدة ونحيلة، لا حول لي ولا قوة، ها أنا أبحث عن زوجي. هلاّ مددت لي يد العون، يا ملك الحيوانات! هل رأيت زوجي الملك نالا؟ إذا لم يكن بوسعك مد العون لي يا سيد الغابة فالتهمني إذاً فهكذا ستنسيني ما ألمّ بي من مصاب!".

تغير صوت كاترين، أصبح واضحاً فيه نبرةٌ غنائية مثل صوت سومابرابا. سرت في جسد جان رعشةٌ وكأن روح الغابة والسيدة أرانانياني هنا في هذه الشقة يتسرب إليها حفيف النباتات وعبقها. يتوق جان مثل كاترين في الزمن الغابر هناك في الغابة لمعرفة بقية القصة، إنه يسمع صوت سومابرابا وهي تنشد: "أرانياني، أرانياني، اساوايا بريفا نشيازي"!

لكن نبرة صوتها تغيرت، شيءٌ ما تحطم داخلها: "أترى، ظننت أن هذا سيدوم إلى أبد الآبدين، نستمع في شبابنا إلى قصصٍ بعيدة عن المألوف فنظن أن ليس لها نهاية، لأن كل ذلك كان مجرد قصةٍ لا أكثر، أما بالنسبة لي ولسومابرابا لقد أصبح أكثر أهمية من الواقع نفسه. لم تعد تفكر بزواجها وأنا لم أعد أفكر بكل ما يحدق بي من تهديدات ولا بالديون التي لم يتمكن والدي من سدادها ولا بتهديد صاحب المصرف شومان ولا حتى بالوعود المخادعة لموباس. كنت شابةً في مقتبل العمر وأعرف أننا ألقينا أنفسنا بورطة والخطر محدقٌ بنا كما يقول والدي. عندها شعرت أن حكايا دامايانتي الهائمة في الغابة بثوبها الممزق هي إلى حدٍ ما حكايتي، تخيلت أنني أتقفى أثر زوجي وسط المخاطر المحدقة بي. روت لي سومابرابا كيف رأت "دامايانتي" من بعيد في أعالي إحدى الهضاب جيشاً، فهرعت إلى الجنود بمزق ثوبها ووجهها الملطخ بالطين وشعرها الأشعث، اعتبرها الجنود ساحرةً فصرخت بوجههم قائلة: "أنتم تعلمون أنني لست بعفريت بل أنا من الأحياء الأموات، أنا زوجة ملك لا أرغب إلا بشيء واحد وهو العثور على زوجي". كم أرغب أن تروي

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

سومابرابا هذه الحكايا مرة بعد أخرى، وحتى حين عثرت دامايانتي على نالا أخيراً، كنت حزينة لأن القصة شارفت على الانتهاء فقلت لسومابرابا حينها: "ليس بعد، ليس بهذه السرعة، اروِ لي المزيد حين كانت وحيدة في الغابة تتحدث إلى النباتات والحيوانات المتوحشة!"

- ألم تريها مجدداً فيما بعد؟"

يبدو أن العمة كاترين لم تسمع السؤال. "يا للغرابة، لم يستمر ذلك سوى بضعة أشهر لم تدم حولاً كاملاً حين كان عمري ثمانية عشر عاماً بينما كان ينهار كل شيء من حولي.

شبّ إخوتي الصبية وما عادوا يترددون إلى النهر للسباحة، تزوج "هيري" ورزق بطفلٍ هو والدك كان عمره وقتئذٍ عامين فقط. وقعت مود بين يدي المرض، كانت تسعل طيلة الوقت، يصارع والدي مع البنك فهو على علمٍ أننا نكاد نخسر كل شيء، يرى بأم عينيه ما سيلمُ بنا وهو عاجزٌ أن يؤتي بأي حركة. فرَّ موباس في أحد الأيام مع كل المال الذي عهده إياه والدي، حسب زعمه قد ذهب إلى جنوب إفريقيا ليشتري مواداً لورشة المفروشات وتلبيسها بيد أنه ما عاد أبداً. يبدو أنه استقر في مدغشقر ليوقع بضحايا آخرين. بعدها، عُقد قران سومابرابا وأنا عرفت أن كل شيء أفضى للنهاية وأننا سنغادر روزيليس. التقينا قبل حفل الزفاف، كانت متزينةً تماماً يتوسط شعرها ثلمٌ أحمر اللون وهناك علامةٌ على جبينها، تعانقنا والدموع تنهمر من مقلتينا فنحن نعرف أنه لقاؤنا الأخير، إنها النهاية. لم أطأ بعد ذلك آخر العالم ولا معبد أراناني سيدة الغابة. انتقلنا إلى روزهيل ثم أبحرنا بدورنا فرنسا. لم أنسَ قط سومابرابا ومازلت أحلم أن ألتقي بها يوماً ما، وظلت تلك الشابة الجميلة كالقمر ووجهها متناسق الملامح بتلك العينين الواسعتين الغامقتين وصوتها الذي يروي لي أنا فقط بعذوبة حكاية نالا ودامانايتي".

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يطول لظى الصيف كيومٍ لا نهاية له. لم يعد جان إلى منزله، أخبر والديه أنه يسكن مع أصدقاء له لكن في الحقيقة كان يبقى في الخارج وينام حتى بزوغ الفجر على الشاطئ متكئاً على الصخور أو في الحدائق العامة قرب المحطة. في بعض الأحيان حين تذهب ميلاني لمنزل عشيقها، يبقى جان في الشقة التي تعلو حانة "لافوال"، تجده ريتا عندما تعود من عملها في المستشفى. يمارسان الحب ويغطان بنومٍ عميق حتى منتصف النهار على الفُرش الممدودة على الأرض. لم يكن الأمر مريحاً، بل خانقاً، يقتحم ضجيج الشارع الشقة ودائماً ما يرى صراصيراً أو فئراناً حوله.

ما يحب فعله جان هو الاستسلام لأحضان البحر في الصباح حوالي الساعة الثامنة، حيث الشاطئ فارغ، كأنه ضفة نهرٍ كبير، ماءٌ باردٌ عذبٌ مؤكسد تغلف جسدك وتضمه بشدة. يسبح جان تحت الماء حتى تضيع أنفاسه هارباً لعرض البحر ثم يترك نفسه لتتقاذفه الأمواج كسمكة "قيصانة البدر".

تهدأ السباحة من روعه بعد أن حفرت الشمس بئراً أصفر اللون في السماء الضبابية، تلوح القمامة السوداء على طول الشاطئ كالحراس. هنا تعرّف جان بـ"أموريتو" للمرة الأولى، والده مزارعٌ داخل البلاد كرّس كل ادخاره لتعليم ابنه فلم يقبل رسوبه في الامتحانات مما دفعه ليطلق عليه بالغدّارة[1] بعد أن لقّمها بملحٍ صخري، ففرّ أموريتو هارباً بأقصى سرعة لدرجة أن أفلت حذاءه من قدميه، هام على وجهه حافي القدمين حتى وصل الشاطئ حيث قدّم له جان نعليه. لم يطرح فكرة العودة إلى الجزائر: "سأكتب لك عندما أصبح في السويد". هذه آخر الكلمات التي قالها له أموريتو. حُكم غيابياً بسبب فراره من الجيش. عرف جان

(1) – الغدّارة: آلة لإطلاق القذائف بين المسدس والبندقية.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لاحقاً أنه تزوج هناك في ستوكهولم. لقد هرب. كم لج داعبت جان فكرة أن فاراً ينتعل حذاءه.

يمحي البحر كل شيء حتى المستقبل. يرى جان مارسيل كل صباح قرب الدرج المؤدي إلى الشاطئ، مارسيل هو يوغاني[1]، رجلٌ عجوزٌ، لوحت الشمس وجهه الغضين كالهنود. يرتدي سروالاً فقط وينتعل خفين. تحدث جان إليه عدة مرات أو أصغى إليه وهو يتكلم. فيما مضى، كان له حياته الخاصة تزوج وعمل في مكتب بريد وعندما ضاق ذرعاً انتقل للسكن في غرفة في المدينة القديمة وفي الصيف يؤم الشاطئ. حدد لنفسه هدفاً ألا يسلّم روحه إلا في "بيناريس". كيف يا ترى يظن أن يفعل ذلك؟ لديه فكرة عن الأمر: "إنه أمرٌ بسيط عندما أشعر بدنو اللحظة، سأسلك الدرب ولن أتوقف إلا عندما أصل بيناريس". لم يكن جان واثقاً أن مارسيل سيتمكن من اجتياز الحدود الإيطالية وصولاً إلى تركيا، إلا أنه لم يؤت بأي تعليق. هناك مجانين في كل مكان ويبدو له هذا الجنون منطقياً تماماً.

يحب مارسيل أن يروي للناس حكايات عندما يتوقف عن ممارسة تمارينه التنفسية، فيجتمع حوله الشبان وبضع فتيات يدخنون، ويعزفون الكمان ويقرعون البونغو. كان مارسيل يتحدث "اغريغور" بطريقة مشددة ومتقطعة بدوائر مستنسخة، تحدث عن المعارك المستمرة باللغة "بوروشاو بركريت"[2] في حكم المايا، لعل هذا ما يجعل البحر يشبه النهر في بعض الأيام.

تصبح بشرته تحت أشعة الشمس حمراء قاتمة، لقد كان ضامراً وغضيناً بليونة مثيرة للدهشة. في أحد الأيام، أخبر الشبان: "إن أهم

---

(1) – يوغاني: زاهدٌ هندي يمارس اليوغا.

(2) – بركريت: لغات الهند القديمة المنحدرة من السنسكريتية.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

هدف للوجود هو أن يصبح المرء سيد نفسه، أن يتمكن من السيطرة على كل جزء من جسده وكل فكرة تطرق ذهنه. سأل جان – حتى قلبه؟ وضع مارسيل قبضته على الحجاب الحاجز، شعر جان بنبضات قلبه تتباطئ لدى جس الوداج[1]، بالوقت عينه، سرت موجةٌ في جسد الرجل العجوز كشحوبٍ أو بالأحرى لونٌ رمادي استقر تحت بشرته المسمرة. لم تحتمل إحدى الفتيات التي كانت تشهد ذلك، فصرخت: "توقف عن هذا، أنت مجنون، توقف!" إنها فتاةٌ لطيفة إلا أنها بائسةٌ بعض الشيء وكحولية أيضاً. كان مارسيل يجذب إليه بسهولة هذا النوع من الفتيات، فيمارس معهن الحب رغم كبر سنه في إحدى الزوايا المعتمة على الشاطئ حيث تصدح موسيقا البونغو. بقيت عينا مارسيل لعدة ثوانٍ مقلوبة على وشك الإغماء ثم فتح قبضتيه فاستعاد القلب نبضاته وسرى اللون الآجري في بشرته، برزت أسنانه الصفراء مبتسماً: "إنه شيء واحد فقط، مجرد شيء، فاليوغاني الحقيقي ليس بحاجةٍ ليديه حتى يتوقف قلبه".

كان جان بحاجة للمال من أجل الرحيل إلى لندن فعمل بعدة أعمال، باع المثلجات وملبس اللوز لحساب لبناني يدعى حداد، ثم قام ببيع بطاقاتٍ بريدية لحساب شخصٍ يدعى "جوناس" وهو لوطي محارب تركه لأنه أُصيب بالهوس، ففي كل مرة يراه فيها يقول: "حسناً هل أقابلك اليوم؟".

عمل أيضاً بتأجير الفرش والمظلات على شاطئ "لاغالير"، في بناءٍ وضيع بطلاءٍ أبيض وأزرق أمامه مربعٌ من الحصى المزينة لحساب أحد الفرنسيين المولود في افريقيا وترك العمل أيضاً بعد أن سئم من شكواه الدائمة من العرب.

---

(1) – عرقٌ في العنق إذا قطع تنتهي الحياة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

عمل بشكل متتالي كوسيطٍ تجاري وموزع نشرات إعلانية ومنظف سيارات كما أعاد رسم واجهة براد أحد الحانات بما فيها من جبنة، وعمل كذلك كحارسٍ ليلي في أحد الفنادق المتواضعة في حي المحطة.

المهنة التي فضلها هي تفريغ شاحنة الخضار في سوق المحطة، فالعمل يتم بانتعاش الليل حيث تضيء المصابيح كالكشافات في السجون، عملٌ واضح، لا كلام فيه ولا مظاهر، مجرد عملٍ للذراعين والرئتين، يقوم بحمل سلةٍ من القصب وكيس ثم يضعها على عربةٍ مسطحة تنقلها إلى آخر سوق الخضار. لا موسيقا ولا صور مجرد هنغار شاسع حيث تهدر المحركات وهي تغادر وتدوّي العربات الكهربائية ومكبرات الصوت الأحادية التي تعدُ من وقتٍ لآخر سلسلةً من الأرقام: ستة، اثنان وعشرون، سبعة، ثلاثين، سبعةً، سبعة وثلاثين، ثمانية وثلاثين. لم يكن جان يعرف أسماء أولئك الذين يعملون معه خلا بعض الأسماء مراد وأبل وفرانسوا شباناً وكهولاً بالخمسينات من العمر أو أكثر بوجوه ذات علامٍ، جديةٍ ومرهقة، رجال من ذوي البشرة السوداء ومن جزر الانتيل ومن الشمال. ينتهي العمل مع بزوغ الفجر أو قبل قليل. يحصل جان على حسابه ثم يستحم مع الآخرين بمياهٍ نظيفة تنسكب من أنابيب صدئة تخرج من جدار طويل مغطى بالبلاط، كم من المتع الاستحمام بماء ساخن جداً بمرش قوي بعد ليلٍ طويلٍ من العمل ودعك شعرك بالصابون. يستحم العمال بحياءٍ دون أن يراقبوا بعضهم البعض ما عدا جان الذي يسترق النظر بين الفينة والأخرى ليرى تلك الظهور المغطاة بالشعر وتلك المؤخرات النحيلة والأعضاء الذابلة تحت المياه الساخنة.

يطأ الشوارع العريضة في الخارج التي تلوح تحت الضياء الرمادي للصباح تئنُ تحت حرارةٍ هاربةٍ من عرض البحر، يراود جان الدوار، كل شيء يدور من حوله ببطء ببطء كموسيقا "البوليرو".

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

دوّن جان على كرّاسه الأسود "البللورة" في الصيف:

- الأول من حزيران:

مقتل ستة ثوار في رو إيشيد في القسطنطينية.

سجل العمليات ما بين ٢٢ و٢٩ من حزيران:

مقتل ٦١٣ ثائراً وسجن ٢٣٠ آخرون.

مقتل "هاشون بوردو" على يد الجبهة الوطنية للتحرير في مودن.

- الثاني من حزيران:

محاولة اغتيال في الجزائر العاصمة (قذيفة)

شهيد و٢٢ جريح

دوغول في باتنة: "فرنسا واحدة بخمسة وخمسين مواطن من دانكيرك إلى تمانراست! الكل واحد!".

مقتل أحد عشر ثائر في تلمسن

عرض في السينما: العملاق تمثيل: جيمس ديان، روك هودسون واليزابيث تايلر.

- الرابع من حزيران:

محكمة دائمة للقوات المسلحة.

حكم في قضية الإرهابيين (اعتداء كازينو الكورنيش):

الحكم بالإعدام على ياسيف سعدي، مولاي علي، حطاب محمد، إبراهيم بن حميده.

- الخامس من حزيران:

انتحار فريدريك سيفورا منفذ الاعتداء في طيارة وهران – باريس في السجن.

- السادس من حزيران:

مقتل ١٢ ثائر في الجزائر العاصمة.

و٩ في وهران.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

في العريش: مقتل ٦ ثوار. قرب مونيه مقتل اثنان على الحاجز الكهربائي. قذائف في شارع دوغوسالان وشارع إيتوال "النجمة" في قهوة "مور" أودت بحياة أربعة وجرح خمسة عشر آخرين.

عرض في السينما: حذار الأسطول، غلين فورد.

- العاشر من حزيران:

كمينٌ أوقع بشاحنة عسكرية تحمل العتاد ما بين أويد ألوج وبليدا أودت بحياة ٣ جنود وجرح سبعة آخرين.

جبل تنوشفى: مقتل ٢٢ ثائراً.

- الثاني عشر من حزيران:

اعتداء إرهابي في باريس: مقتل عساكر السوق ومدنيين

القبض على ٤٧ من جبهة التحرير الوطنية في ليون.

الجزائر: مقتل ٨٦ ثائراً.

- الثالث عشر من حزيران:

بليدا: الحكم على إرهابي ذي ١٧ عاماً بالإعدام خلال جلسات اعتداء" كافي دي كوميرس" (قهوة التجارة) (لم يتجاوز عمره حينها ١٤ عاماً).

- الرابع عشر من حزيران:

اعتقال ٤ شبان جزائريين قاموا بالتلويح بأعلام جبهة التحرير الوطنية.

عرض في السينما: "أنا والملك" يول برانير ودوبوراه كير وريتا مورينو.

تابلت (الجزائرية): مقتل عشرين ثائراً.

بوجي: مقتل ٢٨ ثائراً.

درا الميزام (جبل القبيلة): مصرع ٩ ثوار.

جبل تنوشفي: مصرع ٢٣ ثائراً.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

إدغار كوينت، توفان (القسطنطينية): مصرع ٢٠ ثائراً.

حصيلة العمليات في الجزائر: مقتل ٤٥٧ ثائراً وسجن ١٥٧ آخرين.

- ١٩ تموز:

القسطنطينية (ضواحي تيسمسك) انفجار مدرعة تقود موكب إمداد مما تسبب بمقتل اثنين وجرح اثنين آخرين.

الجزائر العاصمة: مصرع ٨٩ ثائراً.

- ٢٣ تموز:

سوق أهراس (الحاجز الكهربائي): مقتل ١٢ ثائراً.

- ٢٤ تموز:

القسطنطينية: مقتل ١٣ ثائراً.

شيرا: مقتل ٣ من الخارجين عن القانون.

بيرغو (وهران): مقتل ٥ ثوار.

عرض في السينما: طيرُ الرُخ والأشغال الشاقة، الفيس بريسلي فنانون وموديل، ديان مارتن وجيري لويس.

- ٢٦ تموز:

ميديا شرق بيروغيا: مقتل ٧٥ ثائراً.

الجزائر: قذيفة على مصنع البيرة في شارع كوميرس "التجارة": مما أسفر عن ٤ جرحى بينهم طفلة.

- ٢٩ تموز:

عين الريش: مقتل ١١٧ ثائراً.

القسطنطينية: شارع كارامان، قذيفة أسفرت عن أربع جرحى بينهم امرأتين.

السينما: الجد "لوموكو"، جان غابان.

الفخ: راف فالون وماغالي نويل.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الإخوة كارامازوف: يول برانير وماريا شيل.

- الأول من آب:

كمين في "وارسني": مهاجمة موكب عسكري قرب "أوديسين" أودى بحياة ١٠ جنود.

السينما: جنون الحياة.

- الثاني من آب:

على بعد ١٠ كيلومترات من ينمور (وهران): مقتل ٤٣ ثائراً.

- الثاني عشر من آب:

مقتل ٥ عساكر من السوقة العسكرية قرب كارنو (أورليان فيل).

باتنا: مقتل ٣٣ ثائر.

حصيلة الأسبوع في الجزائر: مقتل ٥٦٢ ثائراً.

السينما: سايونارا، مارلون براندو.

عندما تمر طيور اللقلق، تاتيانا ساموالوفا.

- الثالث عشر من آب:

مقتل ٨٧ ثائراً في الجزائر العاصمة.

مقتل ٣٢ خارجاً عن القانون في "بول كازيل" و١٢ في بطنة

مقتل ١١٦ ثائراً قرب بليدا.

- الخامس عشر من آب:

مقتل ثوار في "بيل فو".

- التاسع عشر من آب:

إعدام الملازم دوبوست على يد جبهة التحرير الوطنية.

نيمور: مصرع ٢٢ مسلماً على يد الثوار في حنين، مقتل ٤١ ثائراً جنوب سانت لويس (وهران).

السينما: الهرّة. فرانسواز أرنول.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- ٢١ آب:

جبل بو ريطة قرب الكيف (الحدود): مقتل ٥ ثوار.

- ٢٦ آب:

مهاجمة جبهة التحرير الوطنية لقسم شرطة باريس مما أسفر عن مقتل ٣ حراس.

السينما: المغامرة البرية، مارلون براندو

العطش للسوء، أورسون ويلس، شارلتون هيستو، جانيت ليغ.

- ٣١ آب:

مصرع شاب مجند في باريس بإطلاق رصاص مسدس على يد مجهول إرهابي.

أويد تاريا "وهران": انفجار لغم بسيارة "جيب" أسفر عن مقتل ٣ عساكر.

سيدوق: مقتل ٢٥ ثائراً.

- ٢ أيلول:

دوفاك (وهران): مقتل ٥٧ ثائراً.

- ٣ أيلول:

مقتل ٥٨ ثائراً.

في السينما: شرق عدن، جيمس داين.

مجنون السيرك، داني كاي.

- ٤ أيلول:

زيمورا (وهران): مقتل ٢٥ ثائراً.

- ٦ أيلول:

مقتل١٥٢ ثائراً في الجزائر.

باستور (حاجز كهربائي): مقتل ١٠ من الخارجين عن القانون.

Twitter: @ketab_n

www.kutub-pdf.net

ديليني: مقتل شرطيين.

مقتل ثمانية جنود قرب باغار ومقتل ١٢ خارج عن القانون.

- التاسع من أيلول:

مقتل اثنان من صف ضابط في باريس (محطة الشمال).

عملية جنوب غرب كورين (باتنة) أسفرت عن مقتل ٩٢ ثائراً.

جبل بوزيغوزا: مقتل ١١٨ ثائراً.

بيرواغيا: مقتل ٦٨ ثائراً.

- الحادي عشر من أيلول:

المنية: مقتل ٥ ثوار.

أوريس: مقتل ٦٨ من الخارجين عن القانون.

- الرابع عشر من أيلول:

جرح عريف في الشرطة على يد مسلم.

- السابع عشر من أيلول:

قذيفة على دبابة في مرسيليا أسفرت عن موت شخص واحد.

حصيلة العمليات في الجزائر لهذا الأسبوع: مقتل ٧٤٦ ثائراً.

- التاسع عشر من أيلول:

مقتل شرطي على يد جيش التحرير الوطني ومقتل المهاجمين الاثنين.

- الثالث والعشرون من أيلول:

اكتشاف مجزرة في القبيلة أكثر من ٤٠٠ جثة.

حصيلة من ١٥ إلى ٢١ أيلول:

مونتغولفير: مقتل ٢٢ ثائراً. زريبة الويد: مقتل ١٨، أوريو: مقتل ٧.

تير: مقتل ٩، كومبس: مقتل ٢٧.

في السينما: سبع سنوات من التفكير. مارلين مونرو وتوم إيول.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مذكرات

أدوّن في هـذا السجل الأحـداث البـارزة الـتي تمكنـت مـن مراقبتـها بالمنظار من الطرف الغربي للميناء وحتى اليوم الأخير لحريتنا.

١٧٩٨ (السنة السادسة)

وصـول سـفينة القراصـنة "أبولـون" إلى "إيـل دو فـرانس" تحـت إمـرة ربانها ريبو مونتو دوفي قادم من مانغالور. أبحـر علـى متنـها عمـيلين من تيبو صايب بمهمةٍ سرية بهدف الحصول على مساعدات ضد الإنكليز.

مغـادرة الحرّاقـات "لافيرتـو ولاريجيـنيري" "أي الفـضيلة والمتجـددة" مواكبتان بارجتان ملكيتان عائدتان لفيليب باتجاه اسبانيا.

مغـادرة الحرّاقـة "لابرونـوز" أي "الآخـذة" ربانها "هيرميـت" تـصطحب إلى الهند جماعة مؤلفة من ستة وثمانين متطوعاً لدعم تيبو – صايب.

- السابع من تشرين الثاني:

مغادرة السميرية[1] "لانتالي" [أعاد إيبوليت تسميتها مالارتيك] على متنها المتمردين المنفيين إلى فرنسا يوم ٤ تشرين الثاني.

- العاشر من تشرين الثاني:

لاحـت في الأفـق مـع أوائـل النـهار قرصـنةٌ إنكليزيـة ممـا اضـطر الحرّاقين "برول غول" و"لابرونوز" للجوء إلى النهر الأسود هرباً منها.

١٧٩٩

- ٢٥ آب:

مغـادرة سـفينة القرصـنة "أمفيتريـت" الريـان "مـالارو" باتجـاه البحـر الأحمر بهدف نهب البواخر التي تحمل البضائع إلى مكة.

---

(1) – السميرية: سفينةٌ حربيةٌ صغيرة تستعمل لحراسة القوافل البحرية.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

- **٢٢ أيلول:**

لاح أسطول إنكليزي أمام المرفأ على أقل من ثلاثة آلاف متر، تمكنت من إحصاء ثمانية عشر شراعاً.

رفع الأسطول الحصار فتمكنت سفينة "برول غول" من مغادرة الميناء حوالي الساعة الثامنة صباحاً، على متنها المتمردين المعاقبين من بينهم الزوجين البائسين صديقاي لويس بيللوتي ولور دو باسان الذين لم نراهما مجدداً.

- **الثالث من شهر المطر:**[1]

أبحر مالارتيس اليوم على متن سفينة الصيّادة "لاسوية" باتجاه "جزيرة لارينيون" لإقناع حكومتها بالعدول عن مشروع الاستقلال.

عاد في السادس عشر من الشهر الجاري بأمسية عاصفة هوجاء دمّرت منازلاً في شارع "بووس" واقتلعت شجرتين من حديقتنا.

١٨٠٠:

كانون الثاني:

رأيت بالمنظار قرصنةً إنكليزية "سفينة لاتريماندوس" و"لادامان" بـ٧٤ مدفعاً تطارد "لابرونوز" والتي تمكنت هذه المرة أيضاً من الهرب إلى النهر الأسود.

أيار:

مغادرة سفينة القراصنة "أديل"، سفينة قلعية، الربان نيكولاس سوركوف.

٢٨ حزيران حتى ١٦ آب:

وفاة مالارتيس ونقل جثمانه إلى "شامب دو مارس". مساء السادس عشر من آب، رست البواخر الإنكليزية في المرفأ ورفعت الرايات احتراماً لعدوهم اللدود (القديم).

---

(1) - شهر المطر: ٢١ كانون الثاني حتى ١٩ شباط. الشهر الخامس من الروزنامة الجمهورية.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

٢٩ أيلول:

ازدياد أعداد سفن القراصنة.

لاحت مع الصباح سفينة "لاكلاريس" ربانها "بينود" و"أوجيني" ربانها "كوتانس".

خطر لي أن أقدم يد العون لميرفان لتجهيز قلعية "لوديدول". بيد أن ماري آن لم تتحمس لهذه الفكرة التي عهدت بها إليها، فبالنسبة لها القراصنة لا يختلفون بشيء عن عديمي الأخلاق، لا يفكرون سوى بالقتل والنهب. وهي تلوم الإخوة سوركوف بأن حصدوا المال بتجارة الرق.

تشرين الثاني:

شهدت وصول "لاكونفيانس" ربانها "روبرت سوركوف" إلى الميناء مع سفينة "لوكنت" وهي بارجةٌ إنكليزية استولت عليها جمهرةٌ من الناس وتصفيق إعجاب.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كل يوم يمر ينتزع قطعة من حياة العمة كاترين. لم يعد جان يولي الأهمية نفسها لتلك الزيارات، أحياناً يمر يومان أو ثلاثة أو حتى أربعة أيام دون أن يذهب إلى لاكاتافيفا . يبدو له أن أيام روزيليس قد ولّت دون عودة رغماً عنه، إنه ماءٌ يرشح مهما فعلنا، نقطة نقطة، نُشح بأنظارنا عنه وننساه لعدة ساعات، فتسيل لتراتٌ من الماء وتضيع إلى الأبد .

تكفكفت كاترين بصمتها . لم تعد توجه للسيدة روزيلا السخرية، ولم تعد تتفوه بكلمة لوالدة جان التي طالما عهدت إليها بأسرارها، خلا طلبٍ ما أو ملامةٍ، أو تشير باصبعها بحسمٍ لبضعة أشياء كانت قد حضرتها لها . دمىً وبقايا لنفائس أفلتت من براثن الكوارث التي ألمّت بروزيليس والنشالين الذين طمعوا بها . فوهةُ ساكسفون وحمالة ورقٍ برونزية تعود لكلاب والدها وكتاب الأدعية الخاص بأخوها جيلدا، ودبوسٍ فضي كانت تضعه ماتيلد على وشاحها .

تعرض شارون هذه الأشياء وكأن لها معنىً خاصاً : "انظر! كم هي قديمة! تعود لأيام موريس في روزيليس، هل تدرك ذلك؟" لم يبقَ سوى أن تقول: "إنها من عجائب الدهر!" .

ألقى جان على هذه الكنوز نظرةً خاطفة، إنها لا تروي عن روزيليس نفسها حيث كانت كاترين بريةً وهميةً هائمةً في غابةٍ من الذكريات حيث الأشجار قاتمة اللون، تبعثر عليها الشلالات التي تحضنها ندىً يبللها، روزيليس بوابة نهاية العالم، مملكة أراناني. كل ذلك لا يمتُ بصلةٍ لهذه الزينة الرخيصة التي تصلح لمنضدة بضائع أحد المرتزقة، ولكن ربما كانت والدة جان على صواب، لعل العمة كاترين أرسلت له هذه الأشياء كإشارةٍ عن السأم الذي تعيشه وعن هجرانه لها .

في عمر العشرين، لا يهم الشهر ولكن هل يبقى الأمر كذلك في الرابعة والعشرين؟ بدأ جان يحسب الوقت الضائع لدى دخوله قاعة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لاكاتافيفا وحين يرتقي الأدراج ببطء حتى الطابق السادس أسماءٌ جديدةٌ مختلفةٌ: أندريه وصادق وبيريغو وجينسون.. مجهولون، يصادف خيالاتٍ هاربةً. هاك، يوجد كلبٌ الآن في الطابق الثاني. استعاد الطبيب بونامو الشقة المفروشة في الطابق الثالث. ترى كم مرَّ وقتٌ على غياب جان؟ شهر، ستة أشهر أو أكثر؟ لقد حدثت أمورٌ عديدة، بدءاً برحيل سانتوس ثم تلك الحوارات مع كيرنس في حديقة أوليفيه، والليالي الطوال التي أمضاها بنقل صناديق الخضار لسوق المحطة، تلاه شقاقه مع ريتا بسبب ميلاني وليالٍ أمضاها في حراسة "فندق المسافرين" وأخيراً جان أوديل التي تهيم على وجهها كطيفٍ في الشوارع حاملةً في أحشائها بزرةً زرعها سانتوس ورحل.

فكر أن يسجل من أجل الحصول على شهادة في الفلسفة ثم عدل عن رأيه وقرر أن يحاول مجدداً بمسابقة دخول مدرسة الطب. لم يكن والده على ما يرام، لم يعد ينبس ببنت شفة، يمضي طيلة اليوم و ناظراه معلقان بنورٍ هاربٍ من النافذة. في بعض الأحيان حين تكون شارون على عجلةٍ من أمرها تسند غطاءً على ركبتي زوجها أو على ظهره المنحني لتقوم بطيِّه أو طيّ منشفة أو شرشف. يعاني جان بقبول فكرة أن يتحول الحب لقطعة أثاث سرمدية جامدة كقطعة من الخشب الميت. هناك كل أولئك الضحايا في الجزائر، يسيل الدم كل يوم جداولاً وأنهاراً تصبُ في البحر لتجعله مثقلاً بطيئاً محملاً بلونٍ كريه ورائحةٍ مقززة. يحلق جان بأفكاره إلى إنكلترا كأرض الميعاد حيث سيلاقي كل ما هو جديد، حيث سيولد كل شيء من جديد.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

زواج الأرواح

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

استعر الحب في خافق جان كهذا الصيف، سرى في عروقه دون أن يدري. كان جان يتردد إلى الشاطئ عندما امتنع عن النوم في غرفته في منزل أهله. كان يلتقي بجان أوديل، بفيء الجدار حيث يرتطم البحر، كانت تتردد إلى هنا إحياءً لذكرى سانتوس وكذلك جان وكأنه وجهة حج. كم مرة التقى جان بسانتوس ما بين الصخور وقت الدروس. في النهاية، لم يعد سانتوس يذهب إلى المدرسة ولم يعد يهتم بالفلسفة، لقد رمى كل ذلك خلف ظهره. بات يزدري الدراسة كما يزدري مغامرٌ الترهات الفجة التي يتفوه بها مراهقون ثرثارون. كان سانتوس يعرف الحياة، لقد عاشر فتاةً، وشهد مقاطع الكره بين والده ووالدته بل كان رهان طلاقهما، بيد أنه لم ينضم إلى أي طرفٍ منهما. أقام في شقة اشتراها له والده في "قصر باهلسن" ويتصرف بالمبلغ المعتبر الذي يرسله والده كنفقة. كان يحب أن يطيل البقاء تحت أشعة الشمس، عاري الصدر، مسنداً ظهره لساعات على الجدار يصيخ السمع للاهتزازات الصاخبة التي تصدرها الأمواج بارتمائها في أحضان الكاسر. يسبح ببطء إلى عرض البحر ثم يعود ويجلس في مكانه. قال مرةً لجان: "أحب أن أشعر بالعرق يتصبب مني فهو يغسلني من كل درن". لم يكن جان يجرؤ أن يعكر صفوه فهو يبتعد بعد مضي بضع دقائق. لم يكن سانتوس هنا للسباحة ولا للحصول على سمرةٍ محببة وإنما ليحترق بأشعة الشمس. جال جان بأفكاره ليحط عند بارمينيدس الإيلية أو إمبيدوكليس الذي رمى بنفسه في فوهة رأس "إتنا"[1]، مما يتعارض مع هذه المدينة المتواضعة، لا يحق سوى لجان أوديل بالبقاء. تأتي إليه مساءً، تخلع ملابسها وتتعانق مع سانتوس في أحضان الصخور في مأمنٍ من نظرات العابرين. يا لها من ذكرى عجيبة.

---

(1) إتنا: تقول الأسطورة أنهم عثروا على إحدى نعلي الفيلسوف إمبيدوكليس الذي رمى نفسه في فوهة إتنا ليكتشف سر هذا البركان، حيث بني برج حمل اسم الفيلسوف.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يجرؤ جان الآن على إطالة البقاء، يتقفى أثراً ما. إنه على ثقة بعثوره على المكان المحدد، يمرر يده على التراب الأحمر ما بين الكتل الكلسية حيث تنبت نباتاتٌ وأعشابٌ يتقطر عصيرها كنجومٍ صغيرة بيضاء يفوح منها عبق العسل مختلط بالفلفل، قال جان في سره: إنها رائحة عرق.

كانت جان أوديل هنا، يهفهف شعرها الأسود مع نسمات الريح. يبدو جسدها ناصع البياض رغم الشمس ربما بسبب التناقض بين لونه ولون "المايو" الأحمر الكرزي. وجهها نحيلٌ وعنقها طويل، نهديها صغيري الحجم وبطنها مكورٌ. لم تكن فتاة جميلة ولكنها كانت أفضل من ذلك، صادقةٌ لا خيلاء فيها. عندما يجلس جان بجوارها تتحدث إليه للتو وكأنهما قد تفارقا منذ برهة، نبرة صوتها غنائية ولهجتها لهجة سكان الجزر: "أتدري، منذ وقت قصير، جاء رجل عجوز وجلس هنا رماني بنظراته بيد أني لم أكترث، ثم نفخ بأنفه وكأنه مصابٌ بالزكام، ثم نظر إلى بطني، تجاهلته كأنني ما رأيت شيئاً. لا عيباً مني، لا أدري، ولا من باب الشفقة فلا يمكنني أن أعطيه شيئاً آخر سوى صورة بطني، حتى أنه لم ينظر إلى وجهي. هذا غريب؟ لابد أنك تراني مجنونة أليس كذلك؟

أشعلت سيجارةً وسحبت نفساً ثم وضعتها بين شفتي جان فشعر بطرفها المبلل بفمه، علت خفقات قلبه، اتكأ على مرفقه فارتجفت ذراعه بشكلٍ عصبي وهو يتأمل جسدها الرشيق الطويل ببشرتها اللامعة. إنها نفس الصورة التي رسمها سانتوس مراراً وتكراراً دون ملل أو كلل، تلك الصورة التي اجتاحت غرفته المرسم في قصر باهلسن.

وضعت جان أوديل بجانب المنشفة حقيبتها المصنوعة من الجوتة[1] وفيها كتابٌ وسجائر وولّاعة. لم تكن جان أوديل تقرأ سوى الروايات البوليسية، لم تكن تهتم بالفلسفة ولا بالسياسة ولا بالأخبار حتى أنها لا

---

(1) - الجوتة: ألياف تؤخذ من بعض النباتات وتصنع منها الحبال والأكياس.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تعرف تماماً ماذا يجري في الطرف المقابل ولا لديها أدنى فكرة عن الحرب التي خطفت حبيبها. حدثته ذات مرة عن الجنين: "سيرى النور في الشتاء، هذا جيدٌ له. -: ماذا ستسميه؟. ابتسمت وتابعت: "تحدثت بالأمر مع سانتوس، فقال لي إن كانت بنتاً سأدعوها "جميما" وإن كان صبياً سأسميه "جيم" أتفهم؟ إذاً لهذه اللحظة اسمه جيم أو جميما". ثم اغرورقت عيناها بالدموع وقالت: "إنني أفتقد سانتوس، فقال جان: وأنا أيضاً".

بقيا لوقتٍ طويلٍ بين الصخور دون أن يتحدثا والريح تهبُ من حولهما بقوة ترتجف بين يديها الأزهار الصغيرة المفلفلة. خُطفت طيور النورس مع حلول المساء كأوراق الشجر المتساقطة. أرخى الليل سدوله، أمسكت جان أوديل بيد جان وتكورت على كتفه وقالت: "ضمني إليك، ضمني بقوة. أنا متعبة. أنا خائفة. ".. لم يتمكن جان من معرفة دواعي الخوف، لعلها طريقتها بالتعبير عن الفراغ الشاسع الذي يحفر هذه المدينة، هذا الفراغ الذي يعصف بالأرجاء ويصفر في كل مكان. يفكر جان بفلاسفته وكأنهم أفراد عائلة سانتوس أو أقاربه، الذين سبروا منذ ألفي عامٍ خلت نفس السماء والبحر ذاته. لقد جازفوا على ضفاف المجهول وما يجب أن يكون وفُتنوا بلُجّة المستقبل المقيتة. وهي جان أوديل الفتاة البسيطة، عبرت بأسلوبها أفضل من كل أولئك الشعراء والعلماء، ترتجف خوفاً وبرداً، تشدُ نفسها بين ذراعيه لتنهل من دفئه دون كلماتٍ ولا جملٍ، فقط ولهانةً بوحدتها القاتلة.

قالت لجانٍ: "لم يعد لدي شيء، هل تصبح أخاً لي؟"، استنشق عبق بشرتها ممتزج بشذى نجوم الفلفل والعسل، شعر بموجة جسدها تخترقه، لم يجرؤ أن يقول لها: "لا، لا يمكنني أن أكون أخاً لك فأنا أحبك حباً جماً. ". ولا أنه يفضل مداعبة بشرتها الناعمة وبطن المرأة المكوّر الذي تحمله ويقبل نهديها وفاهها.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بعثر الليل بين الصخور نسمات باردة ورطبة، حتى تخال نفسك في عالمٍ آخر، بعيداً عن المدينة وعن الحرب بعيداً عن الإحساس بنفسك. فاض المطاف بها إلى النوم، مسندة رأسها على ذراعه، ثنت رجليها وتدثرت بذيل منشفة بحرية كبيرة. لم يكن الليل حالك السواد فهناك عند السمت يتبعثر نورٌ حليبي، فقاعة ترتجف تستمد ضياءها من مصابيح المدينة.

لم يعد جان يرتجف، ربما لأنه أخذ دور العاشق المبعد، العاشق الكتوم الذي آثر الحرمان على الغياب، مستمتعاً بالقرب من الحبيبة التي يهواها عبثاً. أو لعلها اللامبالاة أمام السرمدية التي يتحدث عنها الفلاسفة أو لعله ببساطة زهوٌ كبير. حسناً، إنه لأمرٌ جيدٌ ترك الزمن يمضي بالإصغاء لكل موجة ترتطم في تجويف الصخور حيث كان هناك منذ عشرة آلاف عام كهفاً مترامي الأطراف، والإحساس بنسمات الرياح وبهذا البروز الدافئ والناعم في بطن هذه الفتاة حيث تتكور الحياة.

ربما وبعد كل هذا فهي محقة، لقد أصبح لها أخاً بوفاة سانتوس، ليستقبلها أثناء تعبها ويحميها من برد الليالي ولأجل تلك المداعبة الخفيفة والشهوانية كقبلةٍ ولتلك الغريزة التي تُعي رجولته دون عنفٍ، هذه الأشياء لا نبوح بها لأحد.

تعود في الصباح الباكر إلى شقة والدتها في المدينة القديمة، شقة مفروشة للسياح، تحمل اسم: "نزل أورانج".

دخل جان منزل والديه وقصد فراشه مباشرة، وغطَّ بنومٍ عميق دون أن يخلع ملابسه حتى الرابعة بعد الظهر. لم تتفوه والدته بكلمة، ليس هناك سوى صرير كرسي والده المتحرك في الممر الذي يدوّي كملامةٍ. يبدو أن الدواليب تقول: انهض أيها التنبل! انهض! يا عديم النفع!

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

اصطحبت جان أوديل جان في أمسية عاصفة من أيلول إلى الهضاب. كانت تبدو غريبة الأطوار، متشحة بالسواد والشحوب يغطي وجهها أكثر من العادة وعيناها تسبحان في فراغٍ قاتل. أمسكت يد جان وارتقا الأدراج إلى طرف الشارع المقابل. إنه حي من المنازل غير المطلية وحقول من نبات الأقنثة[1]، في أعالي الجدران تقف هرر جرداء قرعاء، "عندما أموت سأعود لأكون هرةً شريرة مذعورة، يتصارع من أجلها كل النمور."

قالت هذا دون ضحك ثم أردفت: "وأنت؟ كيف ترغب أن تعود؟"

قبل حتى أن يجد الجواب، تابعت جان أوديل: "أنت ستكون عصفور. لن تكون عصفور دوري صغير يعيش في المدينة بل طير جميل يحلّق بعيداً مثل الإوز أو اللقلق. هل تحب طيور اللقلق؟ - قال جان: أظن أني ما رأيتها قط. فكرت جان أوديل ثم قالت: "ولا أنا، إنه سانتوس الذي روى لي أنه هناك في المغرب حيث ولد يوجد الكثير منها، تحطُ في أعالي الأبراج وتبني أعشاشها وفي الربيع تشرئب رؤوس صغيرة قرعاء، هذا جميل!"

بعد برهة، جلسا على مقعد يطل على المدينة، روت له: "لقد راودني حلمٌ غريبٌ. سمعت صوتاً من داخلي يقول: عندما تموتين ستعيشين حياتك منذ البداية، لقد أدخل هذا الخوف لقلبي، عدت إلى رحم والدتي مغمضة العينين وقبضتي مشدودتين وأدفع بكل ما أوتيت من قوة لأخرج.. ".

لم تعد تشبه جان أوديل تلك الشابة التي رافقت سانتوس، ففي تلك الأيام، كانت مليئة بالحيوية والمرح وتهوى التسلية. أما الآن فهي مرهقة مستنزفة، هناك خطر يحدق بها لا بل يبدو أن الموت قد انتشلها هي. حوالى منتصف الليل، عادا للسير خبط عشواء في أزقة الهضبة حتى وصلا مكاناً يطلُ على ثانوية، تبعثر فوانيسها نوراً ساطعاً أصفر اللون.

---

(1) - أقنثة: جنس نباتات معمرة ذات أوراق سنبلة مخرمة تستعمل للتزيين.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كان الطقس بارداً، شدَّت جان أوديل نفسها لأحضان جان لتنال قسطاً من الدفء، انزلقت يداها تحت قميصه وداعبت ظهره، شعر جان بكل عصب يرتجف في إيهابه. ثم فجأة اقتربت من جدارٍ صغير يطلُ على الفراغ وكأنها تود القفز. استدارت نحو جان وأشارت لأنبوبٍ يصل ما بين هذا الفراغ وسطح الثانوية، قالت: "هيا بنا نعبر، يمكننا النوم قرب المداخن، لن نشعر بالبرد. " تعابير وجهها ضائعة وابتسامتها متوارية. كم تبدو جميلةً ومجنونة بآن واحد والأمر له سيان، فالجنون وحده يمكن أن يكون جميلاً إلى هذا الحد، حراً إلى هذا الحد.

أمسك بيدها وتبعها على الأنبوب متوازناً فوق الفراغ. تلمع ساحة الثانوية بضوءٍ برتقالي وهمي، السماء تلمع أيضاً، تحضن الغيوم بقعةً وردية اللون وكأنها انعكاس المدينة. تقدمت جان أوديل ببطء على الأنبوب ثم استدارت للحظة وقالت: "لا تخف ولا تنظر إلى قدميك، سر معي سنصل. " يقترب الطرف المقابل رويداً رويداً ككشحِ طوفٍ كبيرٍ جداً. يهتز الأنبوب ويتموج قليلاً، وكأنهما يسيران على جذع شجرة لعبور جدولٍ. شعر جان بالهواء البارد يصفعه ويدفعه، فجأة، تغلب على خوفه.

سرت في جسده نشوةٌ، سعادةٌ عارمة فرغب بالضحك، ضحكت جان أوديل بدورها، أمسكت بيده فشعر بقهقهاتها. في الأسفل، ساحة المدرسة مزروعة بأشجار صغيرة. وهناك إشاراتٌ مطلية على الإسفلت. هناك بعيداً عن سطح المدرسة تتلألأ أنوار المدينة، يلوح البحر عند الأفق. إن الاختلاف بين الحياة والموت هو هذا الخط اللامرئي الذي يسيران عليه، ناعماً وصلباً مثل خيوط العنكبوت. أمسكت جان أوديل بيده لكنها كانت مستعدة لتحلّق، استدارت نحوه فتلألأت أنوار المصابيح في عينيها لتلقي فيها ألق الجنون وقالت: "أترى، ليس الأمر صعباً، انظر جيداً، نكاد نصل سنكون في مأمنٍ من الرياح ولن يتمكن أحد من العثور

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

علينا ... ". بعد لحظةٍ هبطوا على السطح. تصدر الريح بين الهوائيات موسيقا مصمَّة، السطوح مغطاة بالحصى الصغيرة تنبعث رائحة القطران الدافئ ممتزجة بعبق البحر وكأنهما بين الصخور، افترشا الأرض يغطيهما هواء المداخن. بقيا متلاصقان، تلاصقت شفاههما وتلاصق بطنيهما، ثم غرقت جان أوديل بالنوم من فورها.

قضى جان حاجته من أعلى الحافة، إنه ظمآن ويؤلمه جسده كله، لكنه بقي جالساً يتأمل الليل والمدينة المزركشة بالفوانيس ومصابيح السيارات التي تجوب الطريق السريع. قرر في هذه اللحظة بالذات الرحيل بعيداً عن كل هذا، إلى إنكلترا، إلى إيرلندا أو ربما إلى أميركا. كان يعرف أن الوقت قد حان وعليه مغادرة هذه المدينة والمضي قدماً. رغب بالضحك من وضوح هذا اليقين أمام ناظريه بل سرت القشعريرة في جسده، عيل صبره.

عاد وتمدد بقرب جان أوديل، تأملها وهي نائمة، تكورت قرب جسده حتى أنها طوّقت خصره بذراعيها، تهيأ له أن تتكلم أثناء نومها، لم يكن واثقاً لكنها قالت شيئاً ما مثل: "حبيبي"، سمعها دون أن يؤتِ بأي حركة. جافى النوم مقلتيه حتى انبثقت الشمس فوق السطح. ثم تفارقا، لحظة الوداع قبلته جان أوديل عند حافة شفتيه وعندما أراد أن يعيد لها القبلة بحماسٍ أكبر، دفعته "كلا، لا يجوز" فهي لسانتوس إلى الأبد. سيعقد قرانهما قريباً وسيكون والد طفلها، قررت العائلتان كل شيء مع مباركة الأسقفية وأركان القوات المسلحة.

ألقت الشمس من نورها على نصف وجهها وغرق الباقي في العتمة، هذه التي رسمها سانتوس، القذال[1] المفتوح حيث تهيم الروح. قالت بهدوء: "أتعرف لا أظن أننا سنلتقي مجدداً".

---

(1) - القذال: مؤخر الرأس أو الجمجمة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

سارت حتى منتصف السطح، يبدو أنها تعرف الطريق، يبدو أنها جاءت مسبقاً برفقة سانتوس ليتحديا الموت. اعترته رعشة رعبٍ. هبّت ريحٌ ثلجية من آخر العالم.

رفعت جان أوديل باب السقف ونزلا درجاً حديدياً مطلياً باللون الرمادي، دوّت خطواتهما في بيت الدرج كما لو أنهما في منارةٍ مرتفعة جداً. عبرا في الأسفل قاعة الدخول إلى الثانوية مزينة بلوحاتٍ إعلانية وهناك أبوابٌ كثيرة بلون الشوكولا، دفعت جان أوديل حاجز مخرج النجاة ليجدا نفسيهما في شارعٍ خاوٍ مزدحمٍ بالسيارات المصطفة. بدا كل شيء مغبراً وطيفياً. السماءُ محززةٌ كالسياط. هربت هرةٌ أمامهما ثم ذهبت جان أوديل مع التيار وغابت بين السيارات. تؤدي الأزقة المنحدرة إلى البحر، كل شيء في هذه المدينة حرٌ لا غاية له. يحب جان هذا البحر الهادئ الذي تغفو في جنحه وديانٌ مغمورة وحقول الشوك.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ولّى الصيف ليحل الخريف بسحبه الكبيرة البيضاء والسوداء التي تتدافع على رؤوس الجبال، لقد تم عقد قران جان أوديل، لم يرها جان مجدداً وإنما أخبره "سبروتشر" الضخم، إذ التقى به صدفةً في الطريق وقال له: "هل تعلم؟ سيعقد قران سانتوس على رفيقته، لقد تمت تسوية الأمور وحصلوا على الموافقات حتى البابا أرسل موافقته، سيأتي خوري وعقيد من الجزائر لهذا الغرض، هل سمعت بالأمر؟" ثم أضاف سبروتشر بابتذال تافه: "ستتزوج جثة؟" فأجاب جان بجفاء: "ليس بجثة، إنه زواج الأرواح". أو ربما فكر أن يقول ذلك لكنه ما تفوه بكلمة لأنه شعر خنجراً يخترق صدره، كابد الغيرة، فما تخيل أبداً أن تستحوذ جان أوديل على كل هذه الأهمية في حياته. راودته رغبةٌ عارمة بلكم وجه سبروتشر الضخم الأحمر الذي ذكّره بسانتوس.

إذاً في الثامن عشر من تشرين الأول، وطأ جان ساحة ثكنة "رين والدانوب" حيث جاء منذ عدة سنوات خلت ليتدرب مع سانتوس. لم يكن الطقس بارداً لكن الخريف نثر الصدأ على أشجار الكستناء. يا للغرابة! اختارت الغربان هذا اليوم بالذات لتجتمع على العشب المتآكل في الباحة الأساسية. تشبه جدران الثكنة جدران السجون بهذه الحجارة القذرة والنوافذ المرتفعة ذات الشبك. اجتمع الناس مثل الغربان يتشح بعضهم بالسواد، عدا جنود سرية المشاة الذين يشبهون المحاربين القدماء بالإضافة لثلاثة أو أربعة صيادين من الألب في سياحة.

ميّز جان والدة سانتوس، لم تتشح سواد الحداد بل كانت تبدو كالممثلة بفستانها الأحمر الرماني دون أكمام وقبعتها الكبيرة الهزلية.

رغب جان برؤية جان أوديل، تنحى جانباً لا بل توارى خلف شجرة، لا يبدو أن أحد يعيره اهتماماً.

توقفت سيارة في ساحة الثكنة حوالي الساعة العاشرة صباحاً، إنها جان أوديل، لم تكن تريد شاهداً، سيشهد على زواجهما جندي من سرية المشاة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تقدمت نحو مدخل الثكنة، كانت تسير ببطء شديد حتى خُيّل لجان أنها ثملةٌ أو تناولت مهدئات أو الاثنين معاً. لاشك أنها قبلت الأمر فقط لتستفيد من نفقة أرامل من قضوا بالحرب، من أجل الطفل الذي تحمله في أحشائها. خطر لجان أن لا أحد يمكنه الجزم بأن جميما أو جيم هو حقاً ابن سانتوس.

مرت جان أوديل قرب جان دون أن تراه، نظراتها غائبة، بعثرت الريح شعرها الأسود، لم تكن ترتدي وشاحاً ولا حتى قبعة، كانت ترتدي الزي نفسه الذي رآها به آخر مرة عندما أمضيا الليل على سطح ثانوية، يعاني قميصها الرمادي فوق بطنها المنتفخ.

أحاطها الأصدقاء والشهود ودخلوا معاً إلى الثكنة مع ضابط الأحوال المدنية. هناك شخص آخر يعرف جان أنه صحفي محلي، يرتدي بذلة بالية، جيوب سترتها منتفخة. يرتدي الخوري زياً عسكرياً مع نجمةٍ خضراء حول رقبته.

جثمت الغربان على المرج، هبت ريحٌ صرصر من الشمال. بقي جان متوارياً خلف شجرته، في الطرف المقابل للساحة، يوجد حقل الرمي. منذ وقت قريب، جاء مع سانتوس إلى هنا، على ما يذكر، من أجل مسابقة "طالب ضابط احتياط" لقد كانت فكرة سانتوس، لو حصلا على درجة صغيرة، يمكن أن يتم تعيينهما بالصفوف الخلفية أو يمكن حتى إرسالهما إلى المناطق المحتلة إلى برلين. خلال الشتاء، يمرغون بالطين زاحفين في أمسيات كل يوم أحد، ويلعبون لعبة الحرب في الأزقة المتعرجة ويعبرون جداراً من الآخر وهم يمدون أقدامهم إلى الأمام، كما يتدحرجون من أعلى برج التدريب. كان الملازم أول "ماريني" هو المسؤول عن التدريب، شابٌ طويل القامة، قوي البنية، يسرح شعره بشكل إبري. تقدم إلى المجندين الجدد قائلاً: "أنا الملازم أول ماريني، أجمع بين الفلسفة والرياضيات". لعله شعر بالخجل من سانتوس لأنه ينحدر من عائلة فنانين.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كان سانتوس يفضل جلسات الرمي، ينبطح على العشب ويثبت البندقية على منحدر مائل ويصوب نحو الهدف، سدد جان الهدف لعدة مرات فسخر سانتوس منه. كان يرمي دون أن يسدد وكسر مداخن المخيمات في آخر الحقل. حتى أنه كاد يصيب الملازم أول ماريني حين كان يغير الأهداف بسبب ذلك أو لأنه برهن بصورةٍ عامة عن مزاجٍ سيء، تم حذفه من المسابقة وجان معه.

والآن في نفس هذه الثكنة، ما بين جموع الغربان المرتعدة بريح الشمال، ستقترن روح سانتوس بروح جان أوديل، أليست الحياة مفككةً بعض الشيء؟

اقترب جان من الباب ودخل الثكنة بحذر، يتناهى لمسامعه صدى أصواتٍ وضحكات ربما. ارتقى الأدراج لقد كانت مصنوعة من الرخام المهترئ في الوسط حتى أن بعضاً منها قد تم تبديله بالغرانيت يخيل إليك أنك في قسم شرطة إن نظرت إلى الجدران بطلائها البالي والمتشقق. حاول جان أن يتذكر هل ارتقى هذه الأدراج فيما مضى، ليمر بمجلس المراجعة؟ يتذكر شيئاً يشبه المحكمة حيث قرأ الضابط ملفه: "أب إنكليزي... ولد في ايبوه في ماليزيا. ماذا كنتم تفعلون هناك؟"، يكاد النسيان يلف هذه الذكريات القديمة.

حفر موت سانتوس في حياته حفرة وقع فيها كل ما سبق، سنوات الدراسة والامتحانات وتهديدات الحرب المتفاقمة، لم تكن مجرد شائعات أو موضوع لبحثٍ تاريخي ولا حتى حوارٌ يدور في مقاهي الطلاب بل حرب شعواء قاتلة تعيث موتاً وتعذيباً، تأبّط زمنٌ ولّى كل ذلك ورحل.

في نهاية الممر القذر هناك قاعة كبيرة لعلها صالة رياضية أو قاعة طعام الضباط قديماً. يسود البرد الرطب في الأرجاء. لامس جان لدى عبوره الممر مشعاً مطلياً باللون البني ليتأكد أنه مطفأ لا بل باردٌ جداً.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

استحضر الرسالة التي كتبها له سانتوس من هناك، بعد برهةٍ من وصوله. عدة أسطر فقط دون ذكر المكان لأن الرقابة كانت تمنع. كان يشتكي برسالته من البرد، تحدث عن الرسم فنساء الجزائر يرتدين الأبيض مثل مريم العذراء، قال: "كل شيء على ما يرام، إننا ملوكٌ هنا!"، هذا هو أسلوبه الساخر. كان لابد من قراءة ما بين السطور، لا تحذُ حذوي، إنه جنون، يفضل مخيم السويد أو كندا أو ماليزيا، لا تطأ المكان هنا.

لم يقرأ أحدٌ هذه الرسالة، رغب للحظة بالاحتفاظ بها ولكن مبدأه هو ألا يحتفظ بشيء، يقرأه ثم يرميه.

لم تصدح أنغامٌ راقصة من القاعة الكبيرة، لمَّع جنود السرية الأرضية، تجمَّع المدعوون في الزاوية كالغربان على المرج في آخر القاعة، حملت مائدةٌ ذات قاعدة بعضاً من السندويشات وزجاجاتٍ من عصير الليمون ولكن لا يبدو أن أحداً يرغب بلمسها. كان ذلك يشبه طقوس زواجٍ وجنازةٍ بآنٍ واحد. تمت الطقوس ونطق ضابط الأحوال المدنية بالكلمات المخصصة وحسب العرف أدخل الخوري الخاتم المقدس في إصبع الزوجة. كانت جان أوديل تقف بجوار "ليا بالاس"، وجهها شديد الشحوب يتناقض مع الفستان القرمزي الذي ترتديه والدة سانتوس. تصدر أصواتٌ صاخبة من الضباط على الجانب. على الطاولة، وضع كتابٌ مفتوح في الطرف المقابل للسندويش. اعتقد جان أن الشهود سيمهرون إمضاءاتهم وكذلك جان أوديل ستمضي تحت اسمها واسم "ليا" ابنها.

فُتن جان بهذا المشهد الذي يساوره طيفٌ طاعنٌ بالقدم لا بل فوق الطبيعة، مشهدٌ تجتمع فيه مائدةٌ من الأضحيات وخيال شابة يقترن بظلٍ، كان حرياً به أن يحدث في الزمن الغابر في أحد الكهوف بنور شمعداناتٍ كبيرة. لا ينقص سوى الموسيقا، في نفس اللحظة التي خطرت

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لجان هذه الفكرة، وضع أحد العساكر لاقطة الصوت فدوى صوت في الصالة الرياضية، تلك الموسيقا المرعبة المؤلمة "أداجيو ألبينوي"[(1)] على الأقل لم تكن "أريا لشوبرت"[(2)]، ارتعد جان بالواقع لذكرى سانتوس الذي كان يكره الأغنيات العاطفية، لو كان هنا لاختار موسيقا الجاز دون شك Venice العائدة لـModern Jazz Qiartet أو Way out west لـ Sonny Rdlins. قطعاً لم يكن ليختار هذا الكمان أو ذاك الصوت الجاد الحزين الذي يتردد صداه كصافرة إنذار قبل القصف، لكن الصمت لا يحتمل.

تنحت جان أوديل جانباً، أغمضت روحها كما يغمضون أجفانهم والأحداث تدور من حولها كريحٍ عاصفة تهدر بالواقع وتبعثره.

سرت قشعريرة في جسد جان، راوده الاشمئزاز للحظة والدوار الذي يعتري الجسد لحظة الإقياء. اتكأ على الباب، فجأة التفت الحضور لوجوده، نظروا إليه، تعرفت عليه والدة سانتوس، خطت نحوه ثم عدلت عن رأيها، فهمت وقالت كلمة للضباط وتابع الحفل مجراه.

لم تكن قشعريرة، بل وجود سانتوس بالاس كمجرى ريحٍ هاربٍ، ككلماتٍ يُهمس بها بين البوابتين. حضر رغم الطقوس العسكرية، رغم عصيرٍ الليمون وموسيقا "آريا" المرعبة، لقد عبر القاعة، لم يشعر به أحدٌ سوى جان وليا. ثم غادر عبر الباب المفتوح نحو باحة الغربان وفرغت الصالة الرياضية وكذلك تلك الشابة بشهرها السادس التي تقف بأرجلٍ متباعدة وقد تقوست رئتيها تأنُ تحت وطأة ثقل الوزن كتمثالٍ من حقبة ما قبل التاريخ.

عاد الجميع مع نهاية تشرين الأول لأعمالهم، لمتاجرهم ودراستهم وعادوا يرتادون المقاهي، جان كالعصفور يغطُ على الغصن. ينهمر المطر والسماء متشحة بالسواد. اجتاح الطوفان منطقة "لوفار" في جبال الألب

---

(1) - توماز و ألبينوني: "عازف الكمان الهاوي من البندقية"، ملحن إيطالي ١٦٧١ – ١٧٥١.

(2) - فرانز بيتر شوبرت: ملحن نمساوي ١٧٩٧ – ١٨٢٨.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

البحرية "ألب مارتيم" حتى مصب نهر "رون". وفي إيطاليا، فاضت السيول الموحلة. تفاقمت صحة رايموند مارو مع حلول فصل الأمطار، لم يعد يبرح كرسيه، يتعلق بمعصمي شارون ليتقدم بلا انتظام يحجل بجسده المكسور لنصفين. لا يعبر وجهه لا عن ألم ولا عن غضب، إلا في بعض الأحيان يعبر عن نفاذ صبره عندما لا تتجاوب ذراعاه وقدماه مع أوامر الدماغ.

لم يعد جان يطيق البقاء في الشقة. لابد أن يخرج، أن يهيم في الشوارع أن يستقل الحافلة وينزل في آخر محطة ليكتشف حارات جديدة حيث الأبنية الكبيرة تغرد بالموسيقا الصادرة عن مكبرات الصوت. غيّر الزمن العمة كاترين أيضاً، لم تعد تتحدث أبداً حتى ذكر اسم روزيليس لا يبثُ فيها الحياة. يعلم جان أنه لا يستطيع مجابهة حرمانه من شقة لاكاتافيفا. لقد وقَّع الطبيب على موافقته، حصلت العمة على غرفةٍ في مأوى العجزة بإدارة راهبات، يقع في آخر "فالون اوبسكور أي الوادي المعتم". هام جان على وجهه في الأزقة ليتمكن من سلوان هذه الفكرة، مشط الشوارع طيلة النهار دون وجهةٍ بانتظار أن يرتب أمور السفر إلى إنكلترا.

وصلت أول رسالة من وزارة الحربية، قائد مكتب التجنيد في مرسيليا المنطقة التاسعة "القائد البروهات" إلى "الشاب مارو جان جيلدا" يجدد تأجيل التجنيد حتى عمر السادسة والعشرين من أجل الدراسات العليا (دراسة الطب). على الوجه الآخر للرسالة، كتب بحروف صغيرة على ورقة صفراء نص قانون ٣١ آذار ١٩٢٨ حول التمرد العسكري. يخصص أحد الجوانب لملء خانة مستلم الرسالة. ملأته شارون وأرسلته.

في إحدى الأمسيات بينما كان عائداً من نزهاته المرهقة والعابثة، لمح طيف امرأة لم يتعرف عليه للتو، آه! إنها ريتا. لقد مر وقتٌ طويل على

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لقائهما الأخير. تبدو أكثر شحوباً من المعتاد، تلوح عيناها في العتمة كبقعتين غامقتين.

- كيف الحال؟

- وأنت كيف حالك؟

- أفكر بك، لم تعد أخبارك تصلني.

- آه، لا شيء... سأغادر إلى إنكلترا.

- آه! حقاً.

- وأنت؟ وميلاني؟

- لقد رحلت، لم نعد نحتمل العيش معاً.

- حقاً، وأين هي؟

- لا أدري، وهل يهمك؟

رغب جان بمتابعة طريقه، لقد كان منهك القوى ويرغب بالنوم.

قالت له بصوتٍ مرتجف:

- هل ترغب بزيارتي؟

- لا أظن أنها فكرةٌ جيدة.

- آه! حقاً.

- اسمعي، علي الذهاب، لابد أن أرى والدي قبل مغادرتي.

تمسكت به وقالت:

- متى سنلتقي؟

- لا أدري. ثم وضع رجله على أول درجة.

قالت: - لا تدري؟

- كلا، لا أدري.

- غداً؟ بعد غد؟

- كلا، ليس غداً.

- إذاً حالاً؟"

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كان صوتها منخفضاً أو مخنوقاً ثم فجأة تشنجت وخطت نحو جان وصفعته بكل ما أوتيت من قوة، صفعةً واحدة. ثم هو بدأ يرتقي الأدراج ببطء بادئ الأمر ثم أربع أربع. يطن في رأسه دوي الصفعة كالجرس ووجنته تلتهب. عندما وصل إلى الطابق الأول، استدار لكن ريتا كانت قد غادرت. مازالت وجنته تلتهب بعد بضعة أيام في القطار المتجه إلى لندن.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

جامايكا

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

فيل وقلعة

كان الطقس في لندن بارداً وماطراً سماء متشحة بالسواد، لكنه جيد. أحب جان هذه المدينة على الفور، شيء ما من القسوة والتوتر، لا شيء من الحنين، لا تردد ولا أحلام. كان الوقت يقترب من عيد الميلاد. أقام جان لعدة أيام في نزل عائلي "تورنبول" على مقربة من مستشفى سانت توماس حيث يتابع دروسه، يكاد المال الذي أخذه من والديه ينفذ رغم أن أجرة النزل زهيدة. لابد من إيجاد شيء آخر.

تدير النزل فتاة عانس اسمها "إيما"، كانت تحب اللون الأخضر، كل شيء مطلي بهذا اللون الجدران والسجاد والستائر والمغطس تحت الدرج حتى شبك النوافذ وأطباق الفطور، في البدء، لم يلفته اللون، ثم بات رويداً رويداً يتسبب له بالغثيان. التقى جان في قاعة الطعام عند الإفطار بجورج بورير، مال كلاهما للآخر، ربما لأنهما يتناولان الحبوب مع الحليب والبيض والنقانق حدّ التخمة في الفطور لئلا يضطرا لتناول الطعام طيلة اليوم. كان "بورير" طالباً في الآداب وهو أيضاً يفتقر للمال ويبحث عن سكن أقل أجرة من نزل "تورنوبل".

خطرت له فكرة؛ دخل جورج إلى غرفة الفتاة العانس بينما كانت تعد البيض والنقانق في القبو وهشّم حُقّة النقود وأخذ كل القطع النقدية "الشلن" التي كانت قد جمعتها في عدادات مدافئ الغاز، ثم قال لجان: "حسناً، هيا نذهب؟" فتحا نافذة القاعة لئلا يعبرا أمام الدرج وغادرا حاملين أمتعتهما.

كان جورج بورير يحمل كماناً في غمده، اشتراه من Pawn-shop لدى وصوله. كان الطقس شديد البرودة رمى على السماء والأرض رداءً ثلجياً رمادياً. سار كلٌ من جان وجورج خبط عشواء طيلة اليوم حتى حلّ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

المساء في أزقة الأحياء. ترتعد الغربان في الحديقة من جانب "لامبيث". بيد أن الشابان لا يشعران لا بالبرد ولا بالتعب، اشترى جورج بقطع "الشلن" قارورة كحول من بائع النبيذ لأنها الأرخص ثمناً ولفّها بكيسٍ ورقي ليخفيها عن الشرطة. لا يواجه جورج أي مشكلة في ابتياع المشروبات الروحية فشاربه الثخين الأسود يوحي بأنه قد تجاوز العشرين من العمر. تجرّعا كلٌّ بدوره جرعاتٍ كبيرة من الكحول. طعم Ruby wine لاذعٌ وكيميائي بعض الشيء لكنّ السكر يجعله قاسياً، حسناً طعمٌ سيء ولكنه لذيذ بآن واحد. كان جورج يقول مع كل جملة "حسناً" ليقلد بذلك "جانسبرج"[1] أو "بيتنك دوفريسكو". "إنني أتخيل رأس العجوز إيما عندما ستجد مكمورتها الخنزير الصغير إرباً إرباً". أجاب جان: "نعم سبع عشرة خمسين". اعتادا طيلة إقامتهما في نزل "تورنبول" أن يعطيا رقماً لكل حدث مميز خلال وجودهما. سبع عشرة كان الرقم الخاص بالآنسة إيما: "نعم، حسناً، سبع عشرة خمسين"، كما خصصا الرقم إحدى عشر لسلطة المعجنات الباردة التي تقدمها الآنسة إيما يوم الأحد صباحاً للفطور، وثلاثة عشر ونصف لعلبة كريات الجبنة التي تغرف منها مساءً أثناء مشاهدة التلفاز، ربطا الرقم اثنان وعشرون بجندي يتردد لمقابلتها في بعض الأمسيات لعله عشيقها الرسمي، ويبقى الرقم سبعة عشر ونصف رقم رأس إيما حين تكتشف أن ادخارها بالشلن من الغاز قد نُهب وأن من قام بسرقتها شابان غريبان.

هاما على وجهيهما في شارع "سان جورج" باتجاه المحطة وهما يركلان علبةً معدنية، ياله من حي كئيب كأيام الآحاد، على طرفيه أبنيةٌ صغيرة من القرميد الأحمر ومتاجرٌ باكستانية وهندية. إحدى هذه

---

(1) - آلن جانسبرج (١٩٢٦ – ١٩٩٧)، شاعر أميركي وأحد مؤسسي "Beat Génération" "جيل البيت".

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

المتاجر بقي مفتوحاً رغم الطقس المتجهم والوقت المتأخر، اشترى جان علبة سجائر woodbines وتقاسما السجائر، تسبب لهما التبغ اللاذع وحلو المذاق بالدوار. لملم النهار نوره ونثر البرد ليزداد أكثر فأكثر. اشترى جان أيضاً قرب محطة المترو سمكاً مقلياً في قمعٍ من ورق الجرائد، إنه يتقطر دهناً بل له رائحة نتنة إلا أنه دافئ فتناوله هو وبورير بشراهة.

تسارع الناس نحو "واترلو" مخفضي رؤوسهم وقد احمرَّت آذانهم من شدة البرد. راودت جان رغبة بالضحك بأن يكون في شوارع هذا الحي لا هدف له ولا رادع، برفقة هذا الشاب الألماني ببشرة غامقة كالأتراك. تخيل للحظة أنهما قد يكونا مجرمين يدبران لعملية اختطاف.

صرخ أحد الحراس أمام قسم الشرطة، على مقربةٍ منهما قائلاً: "هي أنتما هناك!". تظاهر جان وجورج أنهما لم يسمعا شيء وتابعا طريقهما غير مبالين، فلحق بهما الشرطي وأمسك بذراع جان: "لماذا لم تتوقفا حين ناديتكما؟" فقال جان: "أنا لا أُدعى "أنتما هناك"!" فحدجه الشرطي باستهزاء وقال: "وماذا يجدر بي أن أدعوك؟"

- حسناً، فلتنادني أيها السيد.

أفلت الشرطي ذراع جان وقال: "جيد جداً، أيها السادة، فلتعطياني أوراقكما وأخبراني إلى أين أنتما ذاهبان".

تحدث جورج بلهجته الألمانية الحادة وقال: "أيها الضابط كل ما هنالك أننا طلاب نبحث عن مكانٍ زهيد الثمن لقضاء هذه الليلة، فلا وسيلة لدينا لارتياد الفنادق، هل أدركت ما أقول؟".

تفحَّص الضابط أوراقهما فكان لجواز سفر جان البريطاني وقعه على الضابط إذ عبّر وجهه الضارب للحمرة عن ترحابٍ يكاد يكون أبوي وقال: "أصغيا؛ لا يجدر بكما السير هكذا في هذا البرد، إن كنتما تبحثان عن ملاذٍ من ليلٍ باردٍ، سأسدسي لكما نصيحة بالذهاب إلى "كينيغتون بارك" مقابل "نافي دوبو"، المكان زهيد الثمن، ستكونان بمأمنٍ من الليل

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

القارس". صفق جورج كعبيه على الطريقة الألمانية، كثيراً ما يفعل ذلك ليؤثر بالإنكليز وقال: "شكراً جزيلاً، أيها الضابط". من السهل على مجرمين نشالين أن يستحوذوا على ثقة الآخرين باستخدام كلمات ينتظرها الآخرون مثل ضابط، طالب وأي كلمة أخرى من هذا السياق. ستكون شوارع لندن تحت متناولك بوجود نبرة ألمانية وجواز سفرٍ صحيح حتى ولو كان ممهوراً بخاتم القنصلية الفاسدة. لن يكون حتى نُزل تورنبول عائقاً في وجه الحرية سبعة عشر وسبعة عشر ونصف. أناطا الرقم ثلاثة وثلاثين برأس رجل الشرطة الأحمر.

تلفُ كل هذه الشوارع كدواماتٍ حول مركزٍ مجهول وكانت تعجُ دائماً بالحركة. قد يكون مستشفى سان توماس قلب هذه الشوارع، ذاك المستشفى ذو الجدران من الآجر حيث يذهب جان كل يوم والمدرج الذي يلقي فيه الأستاذ بادو دروسه عن علم التشريح العصبية على الفهم، أو جامعة "كوليج" حيث سجَّل جورج بورير بفقه اللغة والأدب، أو تلك الزوابع الصغيرة التي تخطفه كل مساء "مفرق طرق أوكسفورد، شارع توتنهام كورت، ساحة سلوان وشارع فولهام".

لا مكان لهما في جيش الخلاص[1]. استقبلهما جندي ببشرةٍ صفراء، تَنشر قبة سترته رقبته النحيلة، كادت نظرات عينيه الصغيرتين الشريرتين تخترقان جان شكاً ثم حطتا على وشاح الجامعة الملون الذي يلفه جورج حول رقبته، لابد أن لهما هيئة مساكين مزيفين أو غشاشين أو متطفلين يبحثان عن المغامرة. "عليكما الذهاب إلى نُزل "إنسيت ستريت". سدَّ الرجل معبر الملجأ وكأنه قصرٌ منشودٌ. استعاد جورج نبرته الألمانية التي تدبُ الرعب في قلوب الإنكليز وقال: "هل بوسعك أن تدلّنا

(1) - جيش الخلاص: شبه منظمة عسكرية لنشر الدين ومساعدة الفقراء أنشأها في إنكلترا وليم روت عام ١٨٦٥.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

على الطريق؟" إنه يزن تسعين كيلوغراماً وله أنفٌ مكسورٌ وشاربٌ أسود مهيب، رمقه الجندي من جيش الخلاص بنظرة تعلو كتفيه وبحث عن نجدةٍ متوقعة: "إنه ليس ببعيد، عليكما السير حتى "والورث" ثم تنزلان في إحدى الشوارع لتجدان "إيست ستريت" هناك، لن تخطئا الهدف".

هام جورج وجان مجدداً في الشوارع تحت ندف الثلج التي بدأت بالتساقط. كان جان نحيل البنية فشعر بالبرد رغم أنه حشا قميصه بورق الجرائد لتشكل حدبةً مضاعفة كما في "غونيغول شاريفاري". في الطرف المقابل لـ"نا في دوبون"، يجري نهر "تاميز"[1] بمياهه السوداء الكثيفة ببقعٍ بيضاء اعتقد جان أنها من الندف الثلجية، أشار بها لجورج بكلمة واحدة "ثمانية" وكان الرقم الذي يحمله طبق العجة النرويجية الذي تحضره الآنسة إيما، يشوب هذا السواد شيء ما مقرفٌ وناعمٌ بآن واحد. استحوذ جورج على إعجاب إيما بمنكبيه العريضين وثقل وزنه وتشدقه بالكلام، لكن إيما كانت مغرمة ودون أن تبوح لأحد بالممثل الأميركي "كلينت والكر" الذي يمثل في مسلسل لرعاة البقر وهي لا تفوت منه حلقة، إيما من أولئك الناس الذين يأخذون جانباً من كل شيء وتخلط بشكلٍ طبيعي بين الممثل والبطل الذي يرتدي زيه. كثيراً ما قالت لجورج: "ستبدو وسيماً بزي رعاة البقر". ارتبط "والكر" بالرقم اثنان وعشرون وحب الآنسة إيما المرتجف بالرقم اثنان وعشرون ونصف، ولكن لم يعد كل ذلك يشقّ ابتسامةً في وجهيهما.

صار جان يعرف كل هذه الأسماء " جسر ساوثوارك " و" جسر لندن " و"تاور بريدج " و"شارع جامايكا و روثيرهيث" ورصيف "شامبر" الشاطئي و حديقة "تشيري" و "وابينغ". إنها أسماء كر وفر، أسماء تدعوك وتلغيك. يكتنف السواد قلب هذه الأسماء، وجنونٌ بارد كأسماء

---

(1) - نهر تاميز: نهر يعبر جنوب إنكلترا.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

المحطات تلك التي نراها تضمحل مع الليل حين نجري بالعكس إلى الطرف الآخر للعالم.

يكلف المبيت في نُزل "إيست ستريت" شلن واحد في الليلة بالإضافة لستة بنس[1] من أجل الاستيقاظ في الساعة السابعة صباحاً. لم تكن غرفاً بل حجيرات تضم سريرين بينهما فاصلٌ مصنوع من تلك المادة الضاربة للون البني والتي تستخدم في صناعة خلفية أجهزة المذياع ذات المصابيح. نُقشت بعض الأسماء على الفاصل كما لو أنها جدران سجنٍ وهناك أيضاً آثار حشرة البَقّ وثقوبٌ تم سدُها بالأوراق. لا يستقبل النُزل سوى الرجال، تفوح منه رائحة الأقدام والطعام البارد والفقر. تمدد جورج على فراشه ونام لتوّه تقريباً متدثراً بمعطفه الأسود، دون حتى أن يخلع نعليه، يلتقط أنفاسه بقوة إنها أنفاسُ مصابٍ بالربو.

جافى النوم أحداق جان، إنه يصغي لكل صوتٍ يصدر وكل صرير يطقطق وصوت الإطارات الرطبة على عتبة "ايست ستريت"، تتلاطمه موجاتُ جلبةٍ من تلفاز أو مذياع غرفة الحارس الليلي. يعصف به شعورٌ قاتل بالوحدة، شعورٌ بالضيق يلمسه بيديه، يتجرعه كؤوساً يتنفسه من الشحوب الرمادي الذي ينثر الليل. يتملكه بقوة ويتأبطه بظلمته حتى يعجز عن التفكير بشيء آخر، لم يكن قادراً على استحضار أي ذكرى وكأنه لم يعش يوماً قبل ذلك وكأنه ولد ثم وصل و وقع مباشرة في هذا الدرب المعتم، سلبه لبه هذا النهر الأسود اللامع الجاري بين مرفأين، حملته زهور الزبد الملونة لرقم ثمانية الخاص بالآنسة إيما بصوتٍ منخفض في كبد العتمة أعطا جان لكل هذا الرقم "ثلاثة عشر".

هاما مجدداً على وجهيهما في الشوارع لدى بزوغ الفجر، شارع "بوروغ و والوارث" وأيضاً شارع "داروين" و ساحة "بانتون" و ضفة

---

(1) - البنس: $\frac{1}{12}$ من الشلن أو $\frac{1}{240}$ من الجنيه الإنكليزي.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

"بـروك" و شـارع "رودنـي" حتـى محطـة "بريكلايـز ارم" ثـم اتجهـا نحـو الشرق إلى "جامايكا وبرونيل" وحـاذا "روزيرهيـث" حتـى المرافـئ الرائعـة، الخاوية، المزروعـة بالرافعـات والـصواري سـوراي و نيلـسون و دورانـد و تـري. مـا اتجـه جـان قـط باتجـاه الـشرق نحـو الرصـيفين الـشاطئين "وجنـيتي و سـاوث". يتبعـه جـورج مزمجـراً فهـو كـان يفـضل شـيليزيا وبيمليكو، وإن اقتضت الحاجة نحـو حانـات " هاميرسميث"، إنـه يرغـب برؤية فتيات، يرغب أن ينضم إلى الـشبان، يريد مواكبـة آخـر الـصيحات ورؤية أحدث الصور والاستماع للموسيقا.

بـدأ جـورج في الآونـة الأخـيرة يـثير حفيظـة جـان حقـاً، فهـو مهـووس بإلقاء قصائد لهين[1] وشيلر[2] أو "هاول لجانسبيرج"[3] ضـمن نـص، وكل ما يكره جان، مثل الاسـتعراض والبحـث في نظـرات الآخـرين وتحفيـزهم حتى نقول لهم أننا بحاجة للحب والعاطفة. ماذا عن روح الجسد.

غاية جان من لندن هي بالضبط: القسوة والشراسة والحقيقة، غادر عذوبة المتوسط المقرفة للبحث عن غايته، ترك زيف أمن المنازل القديمة ترابيـة اللـون وأسـقف الآجـر والعش العـائلي وخاصـة الـدناءات الـصغيرة اليوميـة، فـارق شـبكة صـداقات الطفولـة والـذكريات وريتـا وعاداتهـا وممارسة الحب الساعة الخامسة بعد الظهـر. ودّع غـروب الـشمس علـى البحـر ميـت الأمـواج. لـن يتخلـى عـن أغلـى شـيء في الـدنيا لاكاتافيفـا والعمة كاترين ليجد ما يشابهه تقريباً. إنـه بحاجـة لـشوارع هـذه المدينـة العنيفة، لميناء "غرينلاند " حيث نخـر حـوضٌ كبير قـوارب الحـرب بمائـه

---

(1) - Heinrich Heine: شاعر ألماني منعت قصائده في ألمانيا. وهـو يؤمن بـسعادة الثـورة. عزف قصائده كبار الموسيقيين مثل غوته وشوبرت وبراهام.

(2) - Schiller: شاعر يوناني ١٧٠٨ – ١٨٥٥ – بون كريستوف شيلر.

(3) - Howl de Ginsberg: قصيدة كتبها الشاعر الاميركي Allen Ginsberg عام ١٩٥٥ (١٩٢٦-١٩٩٧).

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

القائم وفاحت رائحة الجلفاط[1] اللاذعة، في بركة ابتلعت سكة الرافعات. شارع " بلوغ" و " ايفلين " و " ويت دوك " و "رصيف سانت جورج الشاطئي " . صرخات النوارس المتوارية والأمواج اللطيفة. يذرُ المطر الناعم البارد كالطحين بعد الثلج فيلج في ملابسك ليسقي جلدك ويخترقه إلى العظام.

أليس البرد مجرد وهم؟ هذا ما قرأه على باخرة "انفيكتا Invicta" التي تجتاز المعبر ما بين كالي ودوفر عندما وصل إلى إنكلترا، عندما تسمَّر جان على ممشى السفينة تكتسحه زخات أمطارٍ جنوبية ناعمة، من حوله المهاجرون النيجيريون والغانيون والولف[2] واقفين متكئين على مقدمة السفينة، تكسو أجسادهم قمصانٌ مزهرة وقد تطايرت صداراتهم البيضاء مع الريح واعتمروا قبعات حمراء اللون. اتكأ بجانبه على حاجز السفينة أحد "اليوربين"[3] بوجهٍ مدروزٍ بالندبات ويعتمر قبعةً ضخمة من فرو الفهد، أما باقي جسده فحسبه رداءٌ طويلٌ من القطن الأزرق السماوي، ينتفخ بنفحاتٍ الريح من الخلف كالشراع. خاطبه جان بسؤال: "من أين أنت؟ وإلى أين أنت ذاهب؟ سال المطر على وجه الرجل كالعرق ليغسل هذا اللون البرونزي، لونٌ خشبيٌ ضاربٌ للسواد بل لونٌ بازلتي. لم يفهم الرجل السؤال، لعله توجس خيفةً؟ لعله فقط لا مبالاة سيد من الغابة هائمٍ على هذا القارب في متناول البرد والمطر.

عليه الاتجاه شرقاً، نحو الشرق تماماً حيث الأحياء مقفرة لا ابتهاج فيها، بجدرانها من الآجر وأراضيها الغامضة، يحاول أن يلتقط بين الأبنية بقع نهر "التاميز" السوداء وجنبات الأشجار العارية.

---

(1) - الجلفاط: ما يسد حزوز السفن بالزفت أو دهن هيكلها الخارجي بالزفت أو مادة عازلة.

(2) - الولف: أحد الأعراق في السنغال وغامبيا وموريتانيا.

(3) - يوروبا: أحد الأعراق شرق أفريقيا.

Twitter: @ketab_n

www.kutub-pdf.net

عشر جان في جامايكا على مسكنٍ، غرفةً كبيرة فارغة في الطابق الأول أعلى متجرٍ للمشروبات الروحية.. أما جورج فانتهى به المطاف للعودة إلى سبعة عشر حتى بعد ضربة سبعة عشر خمسين. لابد أنه تأسف على تهشيم المكمورة، لابد أنه أظهر البراءة في عينيه ومثّل هيئة الحزين الآسف بوداعةٍ طفولية ولابد أن الآنسة إيما صفحت عنه باسم "كلينت والكر".

تشغل السكن ٢٣٧ في جامايكا فتاة صهباء إيرلندية اسمها روزي، يشاركها الطابق الأرضي عشيقها فرنسيٌّ أسمر قصير القامة وممتلئ اسمه السيد "ليروكس"، لا يخفي الفاصل الرقيق شيئاً من أسرار علاقتهما إلا أنهما يتظاهران على مرأى من الناس بهامشٍ من التهذيب بل التصنع يلامس إلى حدٍ ما العجرفة. يتناهى لمسامع جان دون انقطاع نداءات صادرةٌ عن الممر "سيد لورو.. و.. و. " — "نعم آنسة روزي" "آنسة روزي! — نعم عزيزي؟"

البرد في الغرفة الكبيرة قارسٌ، افترش جان مرتبةً على الأرض مباشرة وتدثر بأغطيةٍ. أعطته الآنسة روزي كل شيء تقريباً: سخانة الشاي الكهربائية والوسادات التي استخدمها كمقعدٍ ومصباحين دون واقٍ حتى اللوحة الشنيعة التي جلبتها من متجر المرتزق "أداموني"، وكل ما تبقى من أطباق وكؤوس وملاعق أو سكاكين حتى منفضة السجائر والمناشف، كلها وليدة عمليات نهبٍ بسيطة على اليمين واليسار من الكافتيريا أو المستشفى أو حانات "شيليزيا"، أهم ما في هذه الغرفة هي مدفأة الغاز التي تعمل بعداد شلن شديد الشراهة ولكن الطلاب في سانت توماس علّموا جان كيف يداعب الشعلة التي تكاد تخبو بعلاقة ثياب مربوطة بسلسلة حديدية، كما أنها الآنية المنزلية الوحيدة التي بحوزته في حال رغب بطهي قطع الخبز أو النقانق التي يشويها على شبك حديدي يبقيه بعيداً بواسطة علاقة ثياب على شكل سيخ يشك

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

فيه قطع اللحم والمشواة. كل هذا مقابل ستة ليرات استرليني بالأسبوع والدفع مسبقاً. شرق جامايكا منطقة قذرة لكنها نالت إعجاب جان بسبب قربها من نهر "تاميز" على طريق السفن. بعد مسيرٍ لا يتجاوز العشر دقائق من الرصيف الشاطئي "Durand"، تلوح إطلالة خلابة على "إيل دوشيان أي جزيرة الكلاب". ليتخلى جان بسهولة عن جنوب كينسينتغون Kensington South وبيمليكو Pimilco مقابل Rotherhithe وجزيرة إيل دوشيان.

هو بالأحرى ركنٌ إيرلندي، يتسارع الناس مساءً بعد أن تغلق الحانات أبوابها يتدافعون أمام متجر الآنسة روزي لشراء النبيذ والجِن وأنواع أخرى من الكحول المخلّطة. يتجرعون الكؤوس في إحدى الزوايا، يترقبون وصول الشرطة ثم يتشاجرون. يركل بعض السكيرين الباب المعدني ما إن يغلقه السيد لوروكس عند منتصف الليل ويبدؤون برمي الشتائم كنوعٍ من الشكوى. حاول السيد لوروكس أن يوظف حارساً شخصياً وهو عملاقٌ أوكراني اسمه كورنارد إيفتيشوشنكو وكان يعمل عادةً صانعاً عند المرتزق أدافوني في شارع "فولهام". لكنه كان عملاقاً طيباً لطيفاً جداً بل ويميل للمشروب مثل أولئك الذين يرغب بائع النبيذ طردهم خارجاً. في إحدى الأمسيات عقب مشاحنة مدمنين، سيطر هيجانٌ مدمر على كورنارد وبدأ برمي الزبائن في الطريق وكأنهم مجرد أكياس قطنية، ثم بدأ برمي الأثاث عند عتبة المتجر وحوالي خمسين قارورة نبيذ حتى وصل رجال الشرطة أوسعوه ضرباً واقتادوه إلى السجن.

عمل جان عند أداموني، في الأوقات التي لا محاضرات فيها من أجل كسب المال. يعتني بمتجر الأثريات ثلاثة أيام خلال الأسبوع. متجر الأثريات هذا هو الاسم الذي يطلقه "أداموني" على متجر الأشياء القديمة حيث تدور نفس الأسرة ونفس الخزائن لتشتريها مجدداً عائلات تعبر من "إيست إيند"، عائلاتٌ فقيرة من الباكستان وإفريقيا.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

المتجر عبارة عن معرض طويل لا نهاية له، يعجُّ بالبضائع بعتمة حالكة يطلّ على ساحةٍ حيث تمضي المفروشات الغير مطلوبة وقتاً قبل أن تصبح آثاراً حقيقيةً بفعل تقلبات الطقس.

أدامـوني رجـلٌ قـصير القامـة ممتلـئ وأصـلع، حبتـه الطبيعـة ذكـاءً وحيوية وإنسانية تظهر في بعض الأحيان. بدا جلياً تأثره بأن وظف في خدمته طالباً في كلية الطب فضلاً عن أنه يتكلم اللغة الفرنسية. كان متجـره مـلاذاً لـبعض النـاس مـن الطبقـات الـشعبية مـثلاً "كورنـارد إيفتشوشينكو" الذي يعود للعمل في كل مرة يفيق فيها من ثمالته ويخرج من السجن. ومن بين من يرتادون متجره أيضاً امرأة يهودية كئيبة فيها مسحةٌ من الجمال تدعى سارة، تمر كل مساء لتمضي بعض الوقت ثم تختفي إلى مكانٍ مجهول. تحتسي القهوة ذات الرائحة الفواحة مع أدامون، تدخن كثيراً وتتحدث معه، وتبكي في بعض الأحيان. حياتها مترعة بالاهتمامات فهي تمثل بالسينما والمسرح، تعيش حسب قول أداموني في شقةٍ في شيلسا وهبها إياها رجلٌ واسع الثراء عشقها في مطلع شبابها. عندما تأتي لتعرب عن ما يجول في خلدها إلى أداموني، يبقى شابٌ معتلٌ ماكرٌ بانتظارها عند مدخل المتجر، تربط بينهما علاقةٌ عاصفة. هذا هو عالم أداموني الصغير.

لم يكن جان يشعر أنه جزءٌ من هذا العالم رغم عمله. عندما يرغب بنيل قسطٍ من الراحة، يجلس على مقعد مريح ويقرأ محاضرات علم التشريح للدكتور جيفاكو في بوريس باستيرناك. مهمته أن يقوم بالاتصال بأداموني في منزله الكائن في شارع فولهام لدى دخول أحد الزبائن المهمين فيطلب منه الانتظار لبعض الوقت، كما يتوجب عليه إقصاء المزعجين وإنزال البضائع مع "كونارد".

لم يكوّن جان معارفاً له في مدرسة الطب وفي مستشفى سانت توماس. لقد رأى في معظم الطلاب أبناء عائلاتٍ متباهين بأنفسهم

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وفارغين، لديهم خطط عمل وعلاقاتٍ مسبقة، منهم من سيأخذ مكانه في عيادة "البابا" الاستشارية ومنهم من سيعمل في المشافي الكبرى، ويتحدثون عن مستقبلهم بالطب الاختصاصي. من جهة أخرى، فهم يتبادلون مزاح طلاب الطب مثل ما جرى مع المسكين "هولم" الذي دسوا في جيب سترته يداً تم قطعها على طاولة التشريح. كم أضحك منظره عندما اكتشف هذا الشيء البارد في جيبه المدرسة برمتها لأسابيع طوال وخاصةً حيله ليتخلص منها في القمامة بعد وضعها في جرائد قديمة!

سئم جان من جو المبالغة الجنسية السائد بين الطلاب، ففي كل مكان، تدور الحوارات عن الحب لا بالأحرى عن ممارسة الحب، كيف مارسه ومع من وأين وكم مرة. بطل هذا التبجح شابٌ اسمه "ألبيك"، شابٌ أشقر يطغى عليه الحزن، له ذقنٌ خفيفة وعيناه فاترتا المقل بلونٍ أزرق غامق وهو أحد الطلاب اللامعين في المدرسة سيكون قطعاً رئيس قسمٍ قبل أن يبلغ الثلاثين عاماً أو ربما وزير الصحة. أصغى جان في أحد الأيام لنظريته القائلة: "إذا ما ارتوى سائر الجسد وتفرع في شعابه العصبية مثل ما يحدث في حالة الإثارة فإن ممارسة الحب تغدو أمراً طناناً". قال هذه الكلمة بالضبط مما جرَّ عليه انتقادات الجميع على مدار أسابيع تقريباً، فرد جان عليه بكلمةٍ لاذعة رمته في صفوف محبي النكد أو حتى البابوية: "جيد جداً، أليس هذا ما ندعوه التفكير بالماديات".

نالت حصص الطب إعجاب جان رغم كل شيء فهي شديدة الوضوح، لا لُبس فيها ولا تعتريها مشاعر تافهة. الأيام التي يمضيها في المستشفى برفقة المضطربين والمتسكعين الثُرم كانت غنيةً بالمعلومات. ترقب جان أن يُحمل "كورنارد إيفتسوشنكو" وقد فارق الحياة ثملاً يرتدي زي الفارس الروسي الموحد. يشبه هؤلاء الناس المجهولين المتشابهين أولئك الذين التقى بهم في نُزل "إيست ستريت" حيث أمضى الليل سابقاً برفقة جورج بورير.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كانت غرفة الإسعاف مرعبة وجميلة، ممرٌّ طويلٌ بنوافذ ذات شبك مضاءة بأنابيب النيون، حيث تأخذ المعاناة الإنسانية جانباً عديم الشفقة. في أحد الأيام، بينما كان مجتمعاً مع زملائه في السنة الأولى، تم اصطحاب غلام يتراوح عمره ما بين سبعة عشر عاماً وثمانية عشر عاماً لعله باكستاني أو أفغاني وقد جزَّ معصميه خلال مشاجرة، حتى المتشدق "ألبيك" بقي مسمّراً، زمجر بكل بساطة: "ألا يعلم أولئك المرضون أبناء الزنا أن عليهم وضع قثطرةٍ له، علَّ ذلك ينقذ حياته". لفظ الغلام أنفاسه الأخيرة قطعاً، خلال تحويله، مختنقاً بالإقياء.

لم يعد يلتقي جان بجورج بورير حالياً، لقد كان ذلك بالنسبة له تسليةً فقد وصلا لمرحلة لا يتحدثا سوى بالرموز. "ثلاثة وثلاثين! سبعة وعشرين! ثمانية وعشرين، خمسين! اثنا عشر! سبعة عشر ونصف! أربعين!".

يعقب ذلك ضحكة صغيرة مسموعة ويقهقهان قليلاً. بدأ جورج يتردد إلى نادي "سوهو" وهو كهفٌ مجهز كبيت مشبوه مخفي، يعجُ بالدخان والضجيج حيث يلعب روّاده القمار والهويست[1]. المسؤولة عن المكان (البترونة) فرنسية، شابةٌ سمراء طويلة القامة وهشّة البنيان، كانت تضاجع كل من ينال إعجابها من الشبان، مما جرَّ عليها اللقب الفظّ: "بوبل أي قمامة". غالباً ما يخرج جورج مع "بوبل"، وفي بعض الأحيان يتردد جان لمقابلتهما في القبو في نهاية الأسبوع. لقد جذبته "بوبل" في نهاية المطاف فهي فتاة جذابّة ومؤثرة أكثر من أولئك الشبان الذين يغوونها، فهم وقحون وسذج ولا قيمة لوجودهم.

لمس جان في عيني "بوبل" غموضاً وتشوشاً ولفتته مسحة الكآبة الباسمة التي ذكرته بجان أوديل في الآونة الأخيرة. يعود أصل "بوبل"

---

(1) - الهويست: ضربٌ من لعب الورق، يلعب بين أربعة أشخاص اثنان مقابل اثنان.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لمنطقة في أعماق فرنسا، قرية يزرع فيها الشمندر تدعى "بوريو"، تبقى أحياناً برفقة جان، أمامها تلة من فناجين القهوة الفارغة وتتحدث عن الناس في قريتها وعن الشتاء القارس حيث تتجمد حتى الأعشاب. كان ذلك يمضي كالانتظار وكأنه قصفٌ جوي أو كأنه شيءٌ يطفو على السطح وما إن يخرج من هذا القبو حتى يتدمر كل ما حوله.

كان جان يحب تلك اللحظات التي يراوده شعوره بأنه لامس جذور عدة عوالم، لعل هذا ما يشده لبوبل فهي نقطة التقاء الناس الذين لا يتخيلون أن يلتقوا بطريقةٍ أخرى. يجد الجميع مكاناً لهم في ماء عينيها القذر فهم يزدهرون في أحداقها، فهذا "ديكسون" أستاذ جامعي طويل القامة، نحيلٌ، ينتقي ملابسه بذوق رفيع مثل "غاري كوبر"[1] كما أنه رجلٌ لوطيٌ بشكل علني، أرخى شعره ذو اللون الرمادي الرومانسي، صوته خفيضٌ رقيقٌ جداً بنبرة ساخرة. وهاهو "براين" شابٌ ممشوقٌ ونحيل مثل هرة في المزراب، يتشح بالسواد، إنه شاعرٌ يعزف على الغيتار مع جورج بورير وهما حقاً متشابهان. ثم هناك مجموعة "جون جيمس" وهم شبانٌ سوقيون يرتدون جلد أسود له مسامير مثل "الميكانو" ويتزينون بسلاسل ونجوم وحتى صلبان معقوفة، كانوا يجلسون في إحدى الزوايا بعد أن يهرب من سبقهم إليها كل الناس تكرههم وتخشاهم، فمن المعروف أنهم يعتاشون من أعمال النهب والسرقة، والقبو الخاص بهم مليء بالبضائع المسروقة: مجموعات صوت وأجهزة تلفاز وغسالات وحتى دراجات نارية.

جون جيمس شابٌ عنيفٌ ذو بشرةٍ غامقة، دخل السجن رغم أعوامه التي ما تجاوزت الثلاثة والعشرون. وجهه ملائكي عذب مقطَّب الجبين، له يد في كل الشجارات. يشارك في كل جولات المصارعة التي يتم

---

(1) - Gary Cooper غاري كوبر: ممثل أميركي ١٩٠١ – ١٩٦١ مثّل في أفلام Highnoon western وفيلم city street crime.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تنظيمها في أراضي "إيست إند" الغامضة، قيل أنه كسر فك أحد خصومه بلكمة واحدة، ترافقه في حانة "سوهو" فتاة، لا يظن جان أنه رأى فتاة تضاهيها جمالاً، طالبة ألمانية اسمها "إنجي"، تحضر دروس الأدب بنفس صف جورج، شعرها أشقر قصير، ناعم وبرّاق كالذهب ووجهها مرسومٌ كوجه لعبة، لم تكن طويلة القامة لكنها رشيقةٌ ومرحة، يتساءل جان في سره كيف لشخصٍ مثلها أن يتعلق بهذا الفظ.

تحدث جان إليها لمرتين أو ثلاثة لدى خروجها من الجامعة حيث تذرع برغبته لقاء جورج. من بين أفراد عصابة جون جيمس، هناك أستاذ الرسم التمثيلي في "جامعة كوليج"، اسمه ويل هاريسون وهو رجلٌ عملاق ملتحي و ذي شعرٍ طويل، يرتدي أيضاً الجلد الأسود المرصَّع بالنجوم. غالباً ما يتردد إلى أوساط المهربين بيد أنه يمقت النازيين المندسين بينهم. يلقي دروس الرسم التمثيلي بزي العصابة ولكن لا ملامة توجه إليه. هذه هي إنكلترا، البلد الأكثر بعداً عن الأعراف في العالم. يتحاشى جان أن يذكر أمام هؤلاء الناس، أن له أصولاً فرنسية، فهم يجدون اللغة الفرنسية لغة "همس" بحروفها ذات المخرج الأنفي وحرف "u" الذي تمطّ الشفاه للفظه.

التقى جان بأليسون عند محطة "روزيرهيث"، وهي فتاةٌ بسيطة بوجهٍ وردي وعينين زرقاوين رائعتين. ذهبا معاً ليتجرعا بضعة نواطلٍ من البيرة في حانة جامايكا. تعمل أليسون كممرضة في مستشفى سانت كريستوفر في "واترلو". ترتدي تحت واقي المطر الزي الموحد بلونه الأزرق والأبيض. يبدو أن لديها متسعٌ من الوقت، فأصاخت السمع لجان مع أنها لم تفهم سوى نصف الكلام. إنها لا تكره اللغة الفرنسية، على العكس، تجد نبرتها محببة جداً.

يعجُ جو الحانة بالدخان بل موبوء برائحة البيرة الثقيلة، مزدحمٌ بجلبة أصوات وصراخ شبانٍ يلعبون برمي الأسهم على الجدار. إنه

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يتسبب بالدوار. مرَّ زمنٌ طويل، لم يصاحب جان فتاة مثل أليسون، شخصٌ لا يطرح المشاكل ولا الكثير من الأسئلة. شخصٌ ليس مسيطراً مثل ريتا ولا مُحبطاً مثل بوبل.

شربا وتحدثا وضحكا كثيراً، ثم غادرا عندها أمسكت أليسون بشكلٍ طبيعي بيده ليتنزها في الشارع. السماء تمطر، قبَّل جان أليسون تحت المصباح أصفر اللون، كانت قبلته الأولى خرقاء ثم باتت أفضل، شفتاها دافئتان ومنتفختان وتفوح من أنفاسها رائحة البيرة ودخان السجائر. التصق شعرها الأشقر بوجنتيها مبللاً بالأمطار المنهمرة حتى أن خصلةً من شعرها اندست في فيه. كان الأمر طريفاً وجيداً، أضاءت أنوار السيارات جامايكا وتردد صدى الإطارات المبتلّة في الشوارع. إن الحقيقة تظهر أقوى مما هو معتاد.

هاما بالشوارع يده غافية في يدها حتى وصلا "غرين ويتش"، أشار جان لدى عبوره أمام المبنى رقم ٢٣٧ في شارع جامايكا، على متجر المشروبات الروحية وقال: "هنا أسكن". اجتمع بعض الإيرلنديين أمام الباب المغلق بانتظار ساعة الافتتاح التي تصادف مع وقت إغلاق الحانات. تحدث جان عن الآنسة روزي والسيد لورووكس فضحكت أليسون من كل قلبها مبرزةً أسنانها الكبيرة البيضاء. لقد رغب بها وخشي أن يُكشف أمره فلعل ذلك جزء من اللعبة، إنها فتاةٌ بوجه بريء ومناكب عريضة وأيدٍ كبيرة تسير كالصبية ضاربة كعبيها أولاً.

عادا حوالي منتصف الليل نحو المبنى، يتدافع الزبائن في متجر الآنسة روزي لشراء "Ruby wine"، بالكاد تمكنا من اقتحام القاعة. قبَّل جان أليسون على الأدراج المضاءة بمصابيح خافتة، حاول جان حلَّ أزرار سترة التمريض فقالت أليسون: "كلا، ليس هنا، هيا فلنذهب لمنزلك". دخلا الغرفة الكبيرة قارسة البرد وكأنهما يرقصان، فتعانقا وقد أطبق شفتيه على شفتيها. طردت أنفاس أليسون كل قذارة هذه

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

المدينة التي تلفها الظلمة وكل عتمة مستشفى سانت توماس وممر الإسعاف ولابد أنها محت عتمة مستشفى سانت كريستوفر أيضاً.

لم تكن تتحدث عن مهنتها، لكنه يتخيل يديها العريضتين تضغطان على الكمادات وتركبان القثطرة في إبرة منغرزة في وريد يد مريضٍ. شدَّت نفسها في أحضانه بكل قوتها كشخصٍ يخشى أن يقع. حلَّ أزرار سترتها وخلع قميصها النسائي وردي اللون، جذعها طويل وضيق بنهدين صغيري الحجم وبشرة ناصعة البياض مرصعة بالشامات. تمددت على الفراش، أسبلت جفنيها واستسلمت للمداعبة. طلبت إطفاء النور، مارسا الحب ببطء في البداية ثم عضت أذنه بقوة وتمتمت شيئاً مثل: "هيا، كفَّ عن اللامبالاة أو بالأحرى كف عن تمثيل دور الأحمق، هذا شاق أتدري"، ثم داعبته بيديها وتمايلت برشاقة على إيقاع رغبتها، ما عرف جان قط فتاة مثلها تلبس الهدوء والاحتشام بوقارٍ وتتقن القيام بهذه الحركات بهذه البراعة. تلف العتمة هذه الغرفة الكبيرة ولا يتحداها سوى لافتةٌ كُتب عليها باللون الأحمر "بعد ساعات After Hours" تضيء بقعةً كالفسق في السقف، ينثر نوره الخافت على جسد أليسون المتكأ على الفراش و على عينيها الذابلتين، وقلبها الذي يخفق بشدة وأنفاسها السريعة. شعر جان بقطرات العرق تسيل على وجنتيه وظهره، بللت قطرات العرق صدريهما وبطنيهما الذين يصدران جلبة كالمحجم[1]. فجأة اقتحم النور المكان وبعثر لمعانه الذي لا تدركه العينان بل تلامسه كل أعصاب الجسد. بدا كل ذلك رائعاً بشكلٍ من الأشكال، وسط عنف المدينة وضجيج السيارات التي تعبر شارع جامايكا وصراخ المدمنين في الأسفل الذين يتشاجرون لابتياع آخر زجاجة كحول، يغفو جان وأليسون في فقاعة سعادة، لم تقذفهما خارج الزمن بل في قلب الزمن في النقطة الأكثر دفئاً في الواقع.

---

(1) – المحجم: آلة كالكأس توضع على جسم المريض فتجتذب الدم.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أمضيا وقتاً طويلاً بعد أن استسلما لنشوة الحب، ذهبت أليسون لتغتسل على المغسلة، أصدر الماء الذي يسيل على الأرضية صوتاً، قالت: "تباً لقد بلّلت كل شيء"، ثم جاءت وجلست على الفراش ومازالت العتمة تلفها. تابعت: "لا أريد إنجاب أطفال، أتفهم؟"، مازال جان يترنح في غفوته. سألته وهي ترتدي ملابسها على محمل السرعة: "هل استمتعت؟" فعلّق جان يستحضر جملة سانتوس بالاس في الجزائر: "أشعر أنني ملك!".

- "ملك! أنت تبالغ قليلاً أليس كذلك؟".

ثم سحبته من ذراعه وقالت:

- "هيا! أيها الملك إني أتضور جوعاً، اصطحبني لتناول الطعام".

تشعر أليسون بالجوع الشديد بينما يتسلل النعاس لأحداق جان لكنه ارتدى ملابسه، واقتحما برد الليل باحثين عن مطعم في المرفأ قرب "سوراي Surrey".

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مضى زمنٌ طويل وجان يبحث عن الواقع وها قد عثر عليه في محاضرات مدرسة الطب. لا تسلية بين الطلاب ولا حوارات حول السياسة والحرب والعنصرية، لن يفتن العقل بأفكارٍ حول الحرية والهوية والغاية من الخلق. لا شيء أيضاً حول الكينونة فوق الوجود المادي. كلا، لا شيء مما كان يتحدث الناس أيام انكساغورس حول المكانة الشعبية ولا حتى عن العالم العنيف أيام بارمينيدس من المدرسة الإيلية بعبيده وجنوده وومومساته.

تلوح في لندن هضبةٌ تدعى "جزيرة الكلاب" مقابل من "إلفنت أند كاستل" و"شارع جامايكا"، تشبه إلى حدٍ ما جزر اليونان. تشعُ بالذكاء والقدرة والظلم أي تشعُ جمالاً. لم يعد جان يتخيل حياته بعيداً عن هنا أو العودة لمدينة طفولته حيث اختنق بسماءها الفارغة. يتنزه كل يومٍ في الصباح الباكر وأحياناً في كنف الليل على طول شارع جامايكا، يتأمل تغير الفصول. مرت شهور الثلج والسيارات تنزلق على الوحل و أنوارها مضاءة في وضح النهار، ثم نبت للأشجار في "ساوث ورك" زغبٌ خفيفٌ بلونٍ أخضر ناعم يموج على الأغصان السوداء كالبخار.

عادت الطيور مجدداً، وضع جان زجاجة الحليب كالمعتاد عند حافة النافذة فوجد آثار نقراتهم، ربض جان خلف الزجاج يتأمل زوجاً من طيور الدغناش[1]، ينقر الذكر والأنثى سدادة القنينة للعق القشدة السميكة. تلامس حدائق "لاميث" أبنية مدرسة الطب من الآجر، هناك بدأ جيشٌ من السناجب بالتجول من مقعدٍ لمقعد بطريقة مضحكة. شرع جان بجمع الفول السوداني واللوز من مطعم الطلاب من أجل السناجب الذين باتوا يتعرفون عليه ربما من خياله أو من صوت خطواته.

---

(1) - الدغناش: عصفور من فصيلة الشرشوريات زاهي الألوان، قصير المنقار يأكل الثمار والحبوب.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ينظم أموره دائماً ليعود بمفرده، لم يكن يرغب أن يرتبط مع الآخرين، لكلٍ محيطه الذي يهنأ بكنفه ولا يريد جان أن يمسّ أحدٌ محيط دائرته. لدى خروجه من مدرسة الطب، يلج إلى محيط دائرة جامايكا أو يعسُ في محيط دائرة شارع فولهام الذي يتوسطه متجر أداموني للأثاث بنصبه الطاعن بالقدم. وهناك أيضاً محيط دائرة "سوهو"، القبو حيث يجتمع راقصي الرول بزيهم الأسود الجلدي وويل هاريسون متلألأً بنجومه وأحياناً جون جيمس المرعب برفقة إنجي.

شعورٌ مميز أن تحيا حياةً مؤقتة وكأنها حتمية. هذه الشوارع وهذه الجادات ومحطات المترو، روزيرهيث ومستشفى كريستوفر حيث تعمل أليسون اللطيفة بكدٍ ومحاضرات الأستاذ بادو وحديقة السناجب. أصوات المدمنين في الليل التي تتردد في الشارع مترافقة مع ركلاتهم على الباب المعدني ونبرة الآنسة روزي العذبة وهي تنادي السيد لوروكس. كعلم الصحة الذي يمارسه الجهلاء، يلتقي بأليسون لأمسيتين في الأسبوع وبعض أمسيات أيام الأحد، يتسكعان يداً بيد ويذهبان لتناول الطعام في إحدى حانات "بارادايس ستريت" ثم يمارسان الحب لدى عودتهما إلى غرفته الكبيرة، يتصببان عرقاً ليلتصق جسديهما في الهواء المتجمد. يحتسيان كؤوس الشاي ويدخنان السجائر. لا يتجاذبا أطراف الحديث وكأنهما زوجين مرَّ على علاقتهما عدة سنوات.

وجه أليسون لغزٌ عميق، تلغي البساطة المرسومة في عينيها كل الافتراضات. يلقي زغبٌ ناعمٌ ظله على شفتها العليا، فتستخدم لتشقيره ماء الأوكسجين في المستشفى. يعتلي نهداها الصغيران جذعها الضيق. تقف حافية القدمين منحنيةً على المغسلة لتغتسل بطريقة فاحشة وهي ترش الأرضية.

إذاً يتوجب الانزلاق من دائرة لأخرى دون تجاوز الحدود. يُحدق به خطر أن يتخطى أحدٌ حدود محيطه أو أن يخطف وحدته ففي

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

المستشفى هناك مناوبات لثلاث مرات بالأسبوع. كان الأمر سيان بالنسبة لباقي الطلاب "هولمسن والتمان وميداوس" وحتى الحكيم ألبيك، فقد تمرنوا جيداً، لا يؤثر بهم سوى الفشل بالامتحانات أو الفشل الجنسي إن اقتضى الأمر.

دخل جان في خدمة العجزة بقلب خافق وكأنه في بيت درج "لاكاتافيفا" ويرتقي الأدراج درجةً درجةً، تشدُّه زقزقة طائر النغر الثاقبة من شعره ليلتقي بالعمة "كاثي مارو".

تعرّف جان على أغلب الرجال والنسوة في جناح أمراض الشيخوخة، كانوا يترقبون مجيئه – أو على الأقل يعيش جان في هذا الوهم-.

كان هناك بحارٌ عجوز اسكتلندي، اسمه إيرفان ماك لاغلن، كان يعمل ميكانيكياً على متن سفن الشحن المتجهة إلى افريقيا أو ماليزيا حتى فيدجي. إنه رجلٌ هشٌ نحيلٌ، تغطي حاجباه السميكان عينيه، لحيته بيضاء ضاربة للصفرة تُذكر أنه كان شاباً أصهباً. لا يتكلم سوى بضع كلمات لا تلبث أن تختنق. يهاجمه الموت بسرطانٍ في الحلق.

يجلس جان بجانبه على أريكةٍ من الأسل[1] الهندي، يوجه له جملتين أو ثلاث وأحياناً دعابة، فيرمقه الرجل قصير القامة دون ارتياب، لعله أيقن أن جان هو الرجل ذو المريول الأبيض الأقل خطورة في المستشفى. أحياناً يتوصل للفظ جملة أولية: ".when I was in the South Seas" عندما كنت أبحر في بحر الجنوب..." لكنه لم يذهب لأبعد من ذلك. ماذا عسى ميكانيكاً في قعر السفينة قد رأى من بحر الجنوب؟ لعله مازال يتذكر ذاك التأرجح البطيء جداً على أمواج المحيط الهادئ. أو لعل صرير مراوح السفينة يتناهى لمسامعه من تلك البحار البعيدة؟

---

(1) – الأسل: نباتٌ ذو أغصان كثيرة شائكة الأطراف ينبت في الماء وفي الأرض الرطبة وتصنع منه الحصر والحبال.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أحب جان ماك لاغلن، وبات يمضي معه وقتاً طويلاً في حين يتابع باقي الطلبة زيارتهم.

تعرّف أيضاً على امرأة عجوز، عملت طيلة حياتها كطاهية في فندق "كوبورج كورت" في "كينسيغتون"، ثم طُردت بعد أن فقدت التميز بين السكر والملح وبين الخيار والكوسا. تتنزّه في الممرات حاملةً حبلاً، فسألها جان: "بماذا تستخدمين هذا الحبل؟" فحدجته مستغربةً: "عندما أطهو وأنا ثملة أتعلق بهذا الحبل المربوط بالسقف فلا أقع على الفرن".. منطقٌ!

لكلٍ حكايته وعاداته المضحكة وأساطيره الخاصة، ولكلٍ مرضٌ سيودي به إلى حتفه، يهيمون بين هذه الجدران المطلية بالأخضر الكئيب كالأطفال الضائعين، وآخرون لا يبرحون أسرّتهم، تبقى وجوههم للأعلى وأنظارهم معلقة بالسقف.

يأتي أغلب الطلاب مرغمين مرة واحدة في الشهر لإلقاء الضوء على محاضرات أمراض الشيخوخة، بينما انخرط جان طوعاً لخدمةٍ أسبوعية تقوم على ثلاث ساعات دفعة واحدة لثلاث أيام خلال الأسبوع الواحد. حتماً، هذا أفضل من الخدمة في طب الأطفال أو التوليد، فهنا في جناح مرضى الشيخوخة، لا يقدم الطبيب شيئاً هاماً كما ذكر الأستاذ "ريكور"، فهو هنا ليرافق المرضى الميئوس منهم. لعل ما نال إعجاب جان هو الاقتراب مما لا جدوى منه كنوعٍ من الترف الأخير الذي قد يحظى به من يترقب الموت.

إنها حافة الجرف الصخري. يوماً ما، كانوا هنا مع يومياتهم العائلية وأهوائهم والأقمار تدور من حولهم. كانت إيماجو مطربةً ذائعة الصيت في أعوامها الثلاثين حتى نقلت عملها إلى الولايات المتحدة من كارولين إلى نياغارا فالاس، كانت تصدح أحياناً بأنغامٍ أوبرالية بصوتها المرتعش.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كنيسد البحار الذي ومن دون سبب يمثل الغضب ويبدأ بقذف الشتائم بوجه طاقمٍ غائب. وجاك واليس موظف البنك، بنظراته الجلية وتعابير الضيق بسبب نسيانه كل الأرقام.. أندرو الملتصق بكرسيه المتحرك حتى باتت قوقعته وملاذه حيث يدس كنوزه والخرق التي يجمعها أثناء عبوره. جيرميا المنشغلة بجمع الفتات اللامرئي، وبولا التي كانت سيدة مجتمع تقريباً، فهي دائماً متبرجة بحواجب ورموش سوداء كالفحم وقد شدّت بشرة صدغيها بملاقط فولاذية خبأتها تحت الشعر المستعار. تخاطب جان على أنه المفضل فتقول له: "يا حبيبي! يا سكر! يا عسل!".

ليس للكثير منهم من عائلةٍ سوى طاقم المستشفى، ولا اهتمامات لهم سوى علب الأدوية والغسيل والفحوص، وحدودهم لا تتجاوز نهايات الممرات والقاعات العامة والأسرَّة والحمامات بالإضافة لقاعة الطعام التي تستقبلهم ثلاث مرات باليوم. عاد جان بعد مرور يومين إلى هذا الجناح، لم يكن على ثقة من الموجودين، دُفع بهم بعيداً جداً، سقطوا أسفل الجرف الصخري يبدو آخرون باقون لكن أبديتهم خفيفة وكأنهم يسبحون في نفحات ناعمة جداً.

ساعد جان طيلةً هذا الصيف ماك لاغلان ليصل لساعة موته. اجتاح الانتفاخ رئتيه وهو يقارع المرض منذ أسابيع خلت، في إحدى الأمسيات حقنه جان بجرعةٍ زائدة من المنومات البربيتورية، رأى آخر شرارةٍ للحياة ترتجف في أحداق العجوز المغامر في بحر الجنوب كوميض اندهاشٍ وامتنان، ثم انهار صدر ماك لاغلان تماماً ومات. الكل يعرف أن من أرسل الجرعة هو حقل اختصاص الأستاذ "ريكوير" وجان لم يكن سوى الأداة المسؤولة. كان الأمر سهلاً، أضفى عليه شعوراً لا يحتمل بالقدرة. جرى ذلك في أحد أيام قيظ الصيف في التاسع والعشرين من آب تقريباً. وصل جان متأخراً إلى حانة "سوراي" حيث كانت أليسون

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بيمبروك" بانتظاره بيد أنها لم توجه له أي لوم. أفرغ كأساً أو اثنين من البيرة وقال: "حسناً، هيا بنا؟" نظرت إليه أليسون قلقةً وقالت: "ماذا، ألا ترغب بتناول قطعة؟" فكرر: "كلا، هيا بنا؟".

أوقف سيارة أجرة ليذهب بأقصى سرعة إلى ٢٣٧ جامايكا، تشدّه رغبةٌ عارمة ليحلّ قميص أليسون وينعم بدفء نهديها وينهل من صباها ولتتطاير من حولهما فقاعات الرغبة والمتعة. بنفس الوقت، بدءاً من هذا اليوم أدرك جان أن شيئاً ما قد تغير بينهما، شيئاً يفضي للنهاية.

ثم كان هناك ذلك الشيء العجيب، ذاك الخبر الذي يتردد من فمٍ لفم وبعيدٌ جداً بآن واحد وكأنه وميضٌ متلاشي يجوب الفضاء قادمٌ من كوكب آخر. زف جورج له الخبر أو ربما "بوبل" أو ربما الطلاب في مدرسة الطب قد قرأوه في يوميات الصحف: حطت الحرب أوزارها. تفاوض شارل دوغول مع جبهة التحرير الوطنية في إيفان التنازل عن "الصحارى" مقابل وقف إطلاق النار. اكتفى جان بقول: "آه حسناً، إذاً انتهى كل شيء". جال بأفكاره إلى سانتوس وجان أوديل وفكر بفريدي موتانا وعائلة بايز وكل أولئك الذين أبحروا على متن Commandant Quere والذين نصبوا الخيام على المرفأ بانتظار أن يعودوا إلى منازلهم. انتهى كل ذلك أيضاً. الآن لم يعد يعني الفرار شيئاً ولا الرمز العسكري الملخص بهذه الكلمات: لا رضوخ، لا خنوع، مناورة العدو. كل أولئك الذين لم يغادروا إلى الجيش لئلا يموتوا فأطلقوا على أقدامهم النار أو منهم من حقن نفسه بإبرة "كافئين" قبل المثول أمام مجلس المراجعة وأولئك الذين مضغوا الصابون ليخرج الزبد من فمه بالإضافة لمن أمضوا عدة أشهر في العيادات النفسية ومن تعرضوا لصدمات كهربائية زد عليهم أولئك الذين أقدموا على الانتحار. أموريتو الذي هرب فأضاع حذاءه ثم لجأ إلى السويد. دروست الغارق في غياهب سجون "تولون" لأنه تجاوز أراضي جبهة التحرير الوطنية. وكيرنيس الذي حصل على

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

إذن ليفجّر بالبازوكة[1] كل السيارات التي تمر بطريق النزهات أمام حديقة أوليفيه "كل ذلك انتهى".

لا يأبه الناس في لندن بكل هذا، حتى الشوارع السوداء والواجهات القرميدية والحدائق التي عراها الشتاء لا تأبه لشيء. سلبت هذه اللامبالاة البهية لبَّ جان وانتزعت قطعةً من مراهقته. هل هذا هو سلام إيفان أو ببساطة هو التطور الطبيعي للعالم الذي يدفع البعض ويرفع الآخر دون أن نتمكن من معرفة من هو الجدير بالضبط؟ في الزمن الغابر أضاع رايموند مارو في إيبو مستقبله ومجده عندما كان عليه الاختيار ما بين الحقيقة والواقع. إنه نفس الانزلاق القهَّار نحو عالم آخر، حقبة جديدة لا ينتمي إليها الاستعمار حسن النية ولا الحنين للامبراطوريات اللذين باتا عقيمين بين يدي قوة المراهقة وزوبعات اللغات والأعراق والاعتقادات التي تقدح في لندن وستوكهولم وجنيف وباريس وصولاً إلى إيفيان.

أخيراً أعلن استقلال الجزائر في الأول من تموز، دخل الرئيس يوسف بن خدة الجزائر العاصمة ورفعت الأعلام الخضراء على السواري وعلّقت على النوافذ. راود جان انطباع أن أوار ذاك اليوم يلفح وجنتيه هنا في شوارع لندن. كان الطقس حاراً رطباً والحدائق تعجُ بالناس. يشعُ نوعٌ من الكهرباء من كل شيء. تبدو الفتيات أكثر جمالاً من أي وقتٍ مضى وهنَّ يرتدين البنطال القصير "الشورت" أو البالرينيا[2]. ترتسم الضحكات على وجوه الناس والعشاق يمارسون الحب في الهواء الطلق في حديقة سانت جيمس وكينسينغتون بالكاد يغطيهم غطاءٌ على الشاطئ.

---

(1) – البازوكة: سلاحٌ تطلق منه الصواريخ على الدبابات ونحوها.

(2) – بالرينيا: حذاء نسائي يشبه حذاء راقصات الباليه.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بالوقت نفسه، شعر جان بفراغٍ قاتل وإرهاق، وكأن العلاقات التي ربطته مع هؤلاء الناس لم ترَ النور يوماً فهي تتبخر في الأثير بفعل ريحٍ قويةٍ بعض الشيء أو حيِّزٌ من الفراغ.

ليست هذه المدينة سوى هيكلاً قاسياً ومهترئاً، هيكلاً من المرجان يستخدم الناس كلٌ بدوره ويغادروه دون أن يغيروا فيه شيء. ماءٌ يسيل فيملأ الثغرات ثم يفرغها، وبنهاية الدورة ما الذي جرى؟ هل يضفي فقط شيئاً من المعرفة ومزيداً من الحكمة؟ تشبه هذه المدينة في عمقها جناح الطاعنين بالسن في المستشفى. جرفٌ صخري يتمسك الرجال والنساء بحافته يتأرجحون فوق محيط النسيان وكلما دُفع الأحياء ازدادوا سرعةً و شراسةً كل يوم وكل ليلة بل بكل لحظة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مذكرات (يتبع)

١٨٠٢

١٩ كانون الثاني

وصول الحرّاقة الإنكليزية "لو بينكوان أي البطريق" قادمةً من الكاب. سمحت المفوضية بعد إجراء المفاوضات بإنزال القارب إلى الماء. زفت خبر السلام القريب ما بين فرنسا وإنكلترا ولكن ما صدق النبأ أحدٌ ما.

٥ شباط

وصول سفينة "بيلليه أي الحَمل"

آذار

وصلت الحرّاقة "تيميس Themys" إلى الميناء وعلى متنها الجنرال "دي بروليز" و٢٠ رجلاً من الجيش.

هذه هي السفينة التي نقلت الخبر المشين، مرسوم ٣٠ فلوريال الذي أعاد العبودية إلى المستعمرات الفرنسية. وقّع هذا المرسوم كلٌ من بونابرت وكامباسيريس والوزير ديكري وتم تحريره على الشكل التالي: ستبقى العبودية طبقاً للقوانين السابقة في عام ١٧٨٩. عادت النخاسة واستيراد العبيد، لن يجدي نفعاً ذِكر الغم والوجوم الذي تملّك ماري آن.

٦ كانون الثاني:

وصول السفينة التجارية "لابسيشي" مسلحة بالقرصنة "تريهوارت".

١٨٠٣

الثامن من آب:

مركب الشحن "لاجيوغراف" عائدة من هولندا الجديدة.

١٣ آب:

عودة كازوارينا، الربان فريسيني.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

١٧ آب:

وصول السفينة "بيل بول أي الدجاجة الجميلة"، الريان بروياك.

ظهرت الساعة العاشرة صباحاً أمام الميناء السفن الحربية "لينوا، لاسيميلانت، لاأتلانت، مارينغو التي تحمل ٧٤ مدفعاً".

٢٨ آب:

وصلت حرّاقة الدولة "لوديليجان" الريان روات قادمة من ترينكيبر.

١٥ أيلول:

صباحاً، اصطحبت "أتلانت" على متنها المتفق عليه "كافايغناك" بعد أن عينه بونابرت قنصل في مسقط.

٢٥ أيلول:

وصول الحرّاقة "بيرسو"، الريان هالغان. نقلت خبر إعلان حرب إنكلترا منذ ١٦ أيار.

٩ تشرين الأول:

أبحرت السفينة الحربية "لينوا" نحو باتافيا.

تشرين الثاني:

غادرت سفينة "لابسيشي" ليل دوفرانس.

الأول من كانون الأول:

وصلت إلى الميناء غنائم لينوا: القلفية "ميناتشي" وبحار الصين.

كانون الأول:

مغادرة سفينة القراصنة "ألفريد" الريان "غروفليت".

١٨٠٤:

٢٥ آذار

مغادرة سفينة القراصنة لاباريا، الريان "كينيت".

الأول من نيسان:

عودة مارينجو، عدة أضرار، ١١٥ بحار مريض.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الثامن من أيار:

العودة من البينغال: "لابيل بول" و"أتلانتا" مع غنائمهما: المركب "ألفيا" على متنها ٩٠٠ برميل. تم بيع حمولتها بمبلغ إجمالي قدره ٤٥٢١٧٠٥ فرنك و٦٦ سنتيم.

٢٥ أيار:

مغادر "بيرسو".

١٠ حزيران:

وصول سفينة القراصنة "هينريت" الريان هنري.

٣١ تشرين الأول:

السفن الحربية لينيوا باتجاه الميناء الجنوبي الشرقي.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

عاد الشتاء بسرعة ولم يكن بجعبته أخباراً طيبة عن عائلة مارو. أخبرته شارون في إحدى رسائلها عن تدهور الوضع الصحي للعمة كاترين وعن القرار الصعب بإدخالها في مأوى عجزة. ولم يكن والد جان أحسن حالاً، تتدهور شيخوخته وهو يعاني أكثر فأكثر بالتحرك. يتردد ممرض إليه مرتين في الأسبوع للخدمات الأساسية وتهتم شارون بالباقي. لم يعد يصله معاش الضابط المتقاعد في الجيش الاستعماري لجلالة الملك بعد أن حصلت الحكومة المالية على استقلالها . تشبه والدة جان العمة كاترين بابتعادها عن الشكوى ولكن يُقرأ اضطرابها ما بين السطور.

امتنع جان عن الاختلاط بالمجموعة التي تتردد إلى قبو سوهو خلال هذه الفترة. طُرحت بالبدء فكرةٌ خرقاء كلياً في هذه الليلة ليلة سانت سيلفستر وهي أن يركبوا جميعهم السيارة واتفقوا على موعد عند سطح الجسر المعلّق "كاليفتون" أعلى مدخل "أفون" . تشكلت مجموعة صغيرة في سوهو تضم براين وبوبل وجورج وجيريميا وبعض طلاب جامعة كوليج. توقع جان مجيء إنجي فوافق على الخروج برفقتهم، فكرةٌ غريبة لابد أنها تمقت هذا النوع من التصرفات الغبية. أما من ناحية جون جيمس وعصاباته، فليلةٌ مثل هذه الليلة تتيح لهم فعل الأفضل.

ذهبوا مساءً يستقلون ثلاث سيارات، ركب جان مع جورج في سيارة فوكس زرقاء قديمة تعود لوالد براين، جلست بوبل بالمقدمة مع أحد أصدقاء براين وبعد لحظات تشاجرت معه فعادت إلى الخلف لتجلس على ركب جان. كان المطر رذاذاً والدرب خطيرة ومملة. أُضيئت اللافتة الكبيرة التي تدل على وجود ضحايا على الطريق في "سلوغ" . قبل نصف ساعة من منتصف الليل، تقريباً، بعد طريق لم يتوقفوا فيها أبداً تقريباً إلا مرة واحدة في "ريدينج" لملأ خزان الوقود وإفراغ المثانات، دخلوا بريستول شبه نائمين. لا تداعب أجواء العيد الضواحي أبداً. على طول

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الجادات المستقيمة تضم الفوانيس تحت جنحها بركاً صفراء اللون تنقطها الأمطار. فيُضاء الوادي الكبير بغموض هناك بعيداً بمصابيح تنثر ضياءها على الجسر المعلّق الرائع والخلاّب. ركنوا السيارات على سطحٍ عند مدخل الجسر.

هنا، لا تمطر السماء، يا للغرابة! بل الهواء لطيف. تحمل ريحٌ خفيفة عبق البحر، تتدحرج علب البيرة على السطح وأغلب المحتفلين باتوا سكارى قال أحدهم أننا سندخل العام الجديد بعد أقل من عشر دقائق.

أصاب جان الدوار إرهاقاً وهيجاناً، اقترح جيريميا الذهاب أسفل سطح الجسر، زعم أنه حضَر شيئاً مماثلاً فيما مضى عندما كان صبياً حيث كان هناك قاربٌ يتم إصلاحه فشعروا كأنهم في غرفة استقبال (صالون)، كانت الفكرة مجنونة فنالت إعجاب الجميع حتى بوبل تخلت عن خوفها من الفراغ. جيريميا شاب طويل القامة نحيلها مثل براين، شعره أسود طويل يلامس كتفيه كفجري أو كهندي من أميركا. تقدم وحده على الجسر في نور المصابيح الساطع وقد صالب يديه فبدا كطير ناحلٍ.

تسلق الدرابزين ثم اختفى، تساءل جان "ما الذي جرى؟ ماذا يفعل؟" لكن صوته ضاع مع المدى، لم يسمعه أحد. يلفحهم الهواء النشوان، نزلوا الواحد تلو الآخر في الثقب الأسود تحت سطح الجسر وكان جان آخر من نزل. السلم مصنوعٌ من قضبانٍ معدنية باردة، أصبحت زلقة بفعل الرطوبة. يعصف الهواء بشدة تحت الجسر حاملاً معه خرير النهر الغريب وهدير البركة. يتهادى الزورق إلى الأمام والخلف كطوف بين يدي الموج العالي، تمدد جان على بطنه فوق أرضية الزورق قلبه يخفق بشدة وراحة يديه مبللة بالعرق. مضى الوقت حتى دفعهم بعيداً جداً عن منتصف الليل، فاتكأوا الواحد على الآخر على متن الزورق حتى بزوغ الفجر.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ها قد مرت خمس سنوات في لندن. هطل الثلج هذا العام بحلول نيسان، فغرقت المدينة بغيمة فضية. تدثرت الحدائق والساحات والأزقة والأراضي المجهولة قرب لامبيث بطبقة لا يمكن اختراقها.

شعر جان أن رئتيه تحترقان أثناء ذهابه إلى مدرسة الطب سيراً على الأقدام، عانى في عبور الحديقة وكأن جداراً خفياً يمسكه. قبل دخول المبنى، أمام الصيدلية، قرأ درجة الحرارة التي يشير إليها مقياس الحرارة بالدرجات وبالفهرنهايت: 14°F - 10°C

التصق جان بالمشمع في حجرة ثياب الطلاب المقيمين، تلف الغشاوة عينيه ويخفق الدم في صدغيه. ربت بعض المارة على كتفه: "هل أنت بخير يا عزيزي؟" اقتحمه البرد فجعله يقف لحظةً في مواجهة أخطائه أمام هذه المدينة التي تبتلعها العتمة تحت سماء صافية، بقع الثلج والضباب الذي يلف الأشجار كالإنذار.

أدخلت عدة جثث إلى قاعة التشريح، متسكعون فاجأهم الصقيع خلف أحد الجدران أو في غرف المرفأ المهجورة. تجمّع الطلاب ذوو المريول الأبيض حول الأستاذ "ريكيور"، ينثر فوقهم المصباح نوراً يكشف شحوب وجوههم وكأن الموت قد لامسهم أيضاً.

- "هاي. مارووا"

أعاده صوت أليك المرعب للواقع، بشكلٍ خاص لئلا تختلط الدوائر. وجه أليك رخو لا حدود له وشعره كثيفٌ، أما عيناه فزرقاوان وزوايا فمه متهدلة، إنه شاب مهووس بالجنس. بالحقيقة يرى جان أنهم لا يختلفون بشيء، بالعمق، عن تلاميذ المدرسة عندما كانوا قديماً يقلبون مسرحيات "كورين" أو قصائد فيكتور هيغو بحثاً عن كلماتٍ يحرِّفون معانيها.

"ماذا تفعل هناك وحدك؟ تعال إلى هنا، لا تخف الأموات، هاك فتاة جميلة من أجلك".

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

اشترك الأستاذ "ريكور" بالجوقة فقال له بوقار: "أتعرف أيها الشاب لمزاولة هذه المهنة لابد من تخطّي مخاوفك".

إنه يشبه "غروشو ماركس"[1]، دون ضحك.

التقى جان بجورج في قبو سوهو. لم تعد أليسون تلتزم بالموعد منذ برهة من الزمن، لم تطرح الأسئلة ولم تشرح شيئاً، إنها هكذا حين يزعجها شيءٌ ما تستخدم الطرق الناجعة حقاً هي ممرضة جيدة بالنهاية.

يتم التحضير لمباراة ملاكمة للهواة قرب هاميرسميث، جورج واثق من حضور جون جيمس، إنها فرصة مؤاتية لرؤية إنجي. كان جان يحلم بوجهها المرسوم كلعبة وعينيها اللامعتين كماءٍ متجمد.

كأنها طقوس وداعٍ للشتاء وللندن ولكل شيء، ستعود إنجي قريباً إلى ألمانيا لحضن عائلتها وتطوي كل شيء مع النسيان. سيتجه جان نحوها وسيقول لها: "لا أكف عن التفكير بك، أنا أحبك. إن شئت نذهب معاً بعيداً جداً إلى أفغانستان أو إلى ماليزيا". كان مستعداً لمجابهة جون جيمس وعصابته ذات الجلد الأسود.

لعل "أليسون بيمبروك" تنتظره في حانة "سوراي" جالسةً إلى المائدة تحتسي كأس "شيري"، تحلق على جنح الأحلام وتطرد الشبان الذين يرغبون بمجالستها بنفس الحركة التي تطرد فيها الذباب ولكن دون أن تخبو ابتسامتها اللطيفة.

لندن مدينةٌ عنيفةٌ وشريرة ومنعزلة ومؤثرة ومجهولة. يعج القبو بالحركة، هناك من يرتادوه عادةً ولكن مرت أشهر لم يقابلهم فيها جان. جيريميا وبراين وبوبل والأستاذ ديكسون الذي يشبه غاري كوبر وآخرين لم يتعرف جان غليهم. بالكاد تغير العالم من حوله خلال ثلاث سنوات.

---

(1) - Groucho Marx غروشو ماركس: ممثل أميركي ١٨٩٠ — ١٩٧٧.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

صار طلاب جامعة كوليج يترددون إلى القبو وآخرون يلفون وشاح "سلوخ" و"بريغتون". بانتظار وقت المعركة، يحيطون ببطلهم وهو طالبٌ من بريستول يدعى تومي يتشح وشاحاً أزرق وأسود، شاب بدين قصير القامة له رأسٌ يشبه رأس الكلب ومنكبي مصارع حقيقي، منكباه عريضان ومتقدمان.

استحوذت الثمالة على جورج فبدأ بالشجار مع الطلاب، يشرب ثم يرتمي على مقعده. امتقع وجهه بحقد لا مبرر له. تم طرده من الجامعة في بداية العام وانتهت إقامته في إنكلترا. كان يكيل بالشتائم كل من يقترب منه بالإنكليزية تارة وبالألمانية تارة أخرى، حاول براين أن يهدأ من روعه ثم توصل بمساعدة بوبل لسحبه إلى الرصيف حتى يتقيأ.

يدور الأستاذ ديكسون حول نفسه في غيمة الدخان في القبو ويسيطر على الطلاب كطائرٍ مائي. تلمع عيناه الصفراوان في العتمة لتبدوان بلون "تاوي بورت" يحيط به ذائعي الصيت، بالطبع غاب جون جيمس وعصابته فقد أصبح القبو بالنسبة لهم مكاناً كثير الارتياد وحقيراً. أدرك جان أن إنجي لن تأتي.

تناقلوا بلحظة معينة خبر أن مكان المباراة في "شيفيريدس بوس غرين". غادر تومي القبو مع مشجعيه من "سلوخ" و"بريستول"، تشكلت مجموعة انضم إليها كل من جورج وجيريميا وبراين وبوبل وخبوا المسير نحو فولهام. توسعت المجموعة حتى شكلت رتلاً مترامي يختلط مع المارة. بعد مسيرٍ لا بأس به، استقل البعض سيارات أجرة وآخرون استقلوا المترو إلى "فولهام براوداوي" أما جان فتابع سيراً على الأقدام حتى يعثر على حافلة.

كان الطقس بارداً ورطباً بليلٍ حالك العتمة عندما وصل جان لحديقة "بروك غرين"، ثم صعد طريق "شيبهيرد بوش" حتى وصل الحديقة. كانت الجموع قد احتشدت في الساحة وتوقفت عند المدخل

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

سيارتين أو ثلاث تابعة للشرطة. نصبت منصة الحظ على حافة الحديقة مضاءة بكواشف موصولة بشاحنات مولِّدة، لم يكن جان يرى شيئاً لكن أصيب بالصمم من الجلبة الصادرة عن الجموع وهم في غالبيتهم طلاب. كان البعض ثملاً يصرخ بقوة ويرفعون معاصمهم للأعلى والبعض نزع سترته غير آبهين بالبرد، يرقصون قرب الحلبة وقطرات المطر تهطل من شعرهم الطويل. بدت المنصة كزورقٍ منير يتهادى على أمواجٍ من الحشود، تتلاطمها موجةُ صراخٍ وغضب. تقدم جان وسط الجموع دون أن يتعرف على أحد الوجوه وكأنه رسى في عالمٍ مفكك.

اختفى طلاب سلوخ وبريستول، لم يبقَ سوى هؤلاء الشبان القادمون من كل الزوايا في الضواحي، رجال ذوو بشرة سوداء و الكوكني[1] وأشخاص تتعالى أصواتهم باللهجة الإيرلندية ونوتينهام.

بعد برهة، ظن جان أنه لمح تومي في خضم الملاكمة على الحلبة، لمح ظهره العريض ومنكبيه ذات الأقواس، يتلافى اللكمات المضطربة التي يوجهها له عملاقٌ بدينٌ جداً كما لو أنهما يتشاجران في الشارع. ضربات الملاكم الشاب المباشرة على جسد العملاق جعلته يقطب جبينه ويتقهقر، اهتزت أجواء الساحة بالهتاف والشتائم وغطت الحديقة حتى ارتجفت لصداها مروج العشب الملتهبة بآخر هطول ثلجي.

لم يرَ جان بعد المباراة، إنه يتقدم بين الجموع بحثاً عن إنجي، أصابه الدوار رغم أنه ما شرب شيئاً. يدفع الناس يوجه لكمات مفاجئة ويتفوه بالشتائم. يموج المكان بحقدٍ لا مبرر له وغضبٍ لا هدف له، جوٌّ ينثر الثمالة بين الجموع التي تصرخ بين الفينة والأخرى "ها! هان! هي!"

---

(1) – الكوكني Cockney: تشير لشعبٍ ولد في إحدى مناطق لندن وتتحدر منها الطبقة العاملة وتميزها لهجةٌ خاصة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

صرخات تشقّ صدور الملاكمين، لتدوي اللكمات على الصدوغ فترتجف لها سابع أرض.

فجأة رأى جان إنجي، إن الشابة ترتدي هي أيضاً زياً أسود اللون، بنطالٌ وكنزة سوداوين والتصق شعرها الأشقر حول وجهها ندياً بقطرات المطر، وكأنها خرجت لتوها من الاستحمام، رغب بالضحك لهذه الفكرة وبالوقت نفسه أصيب بألمٍ في المعدة، شعر بأنه متيمٌ بها بكآبة وغرابة. تعرّفت إنجي عليه فابتسمت في وجهه بلطف: "هل جئت لحضور المباراة؟" لم يسمع جان ما قالت وتمتم: "هل ترغبين بمرافقتي؟"

هاهي أمام ناظريه هيفاء ناعمة كالإلف[1]، لا تنظر أبداً نحو الحلبة. لمح جان في أحداقها نظرةً غريبة تنمّ عن معنى غامض. إنها خيال قد يوصله للخلاص ويعطه سبباً ليغير حياته، لا بل هو يهذي. لاحظت إنجي كل هذا لعلها ظنت أنه أكثر من الشرب مثل أغلب المشاهدين، فاقتربت منه وقالت بصوتٍ ناعم دون أن تشيح عينيها عنه: "عد إلى منزلك، ليس الوضع جيداً هنا".

- هل ترافقينني يوماً ما؟

- "كلا، لا أستطيع، فقلبي مشغول بآخر. لكن أختي بريدجي ستأتي من ألمانيا وقد حدثتها عنك وهي ترغب بمقابلتك.

لم يجرؤ جان أن يبوح لها ويقول: "أنا لا أريد أختك فأنت هي من أحب". أدرك أنه يتصرف كأخرق لا يغفر له فلن يراها بالتالي أبداً. لا تفارق الابتسامة محيا إنجي، رمقته بنظرة خاطفة فوق كتفيه. اقترب جون جيمس من الحلبة محاطاً بعصابته بزي من الجلد الأسود، عاري الصدر تغسله الأمطار، نحيلٌ مرسوم العضلات وبشرته شاحبة. أطلق تعبيراً عن عنفٍ متوحشٍ. لم ينظر نحو إنجي ولو لمرةٍ واحدة بينما كانوا

---

(1) - إلف: جني صغير في أساطير اسكندينافيا يرمز إلى الهواء والنار.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يشدون قفازاته، لكن جان واثقٌ أنه رآه وهو يتبادل الكلمات مع لعبته، أثارت هذه الفكرة حفيظته فرغب بالاقتراب من الحلبة لكن إنجي منعته وأمسكت بذراعه. بدت حقاً آسفة أنها سبب كل هذا وقالت: "أرجوك، ارحل الآن، لا يجدر بك البقاء هنا، هذا المكان ليس لك". حاول جان لمرة واحدة نوعاً من المقايضة، مساومة على معروف: "حسناً ولكن هل يمكنني اللقاء بك لاحقاً"، مازالت الضحكة ترتسم على مبسمها وقالت: "يوماً ما، ربما".

تمشى جون جيمس على الحلبة وتبختر كديك شاب، تدل علاماتٌ حمراءٌ على ظهره أنه تلقى لكمات فيما مضى. علت جلبةٌ من بين الجموع فجون جيمس معبودهم وسيأخذ بثأرهم. تم إجلاء العملاق بعد أن تلطخ وجهه بالدماء. بقي تومي في الحلبة بظهره المقوس وقد أسند قفازاته على الحبال، تلفه هيئةٌ من القوة والهدوء، تبع بنظراته خيال جون جيمس الراقص والذي يكيله بالشتائم. كان جان ليدفع غالياً حتى يلقن تومي هذا الغلام الدرس الذي يستحقه. شعر أنه لم يمقت في حياته شخصاً إلى هذا الحد. حدث هجوم موجز مفاجئ بعدها مرَّ تومي أسفل الحبال وخلع قفازاته وكأن الجولة لم تكن.

بدأت الجموع تكيل الشتائم وصعد رجال الشرطة إلى الحلبة والعصي بأيديهم. ضاعت إنجي عن أنظار جان، دفعته حركة الهروب إلى خارج الحديقة. خبَّ المسير نحو محطة "هامير سميث" ليستقل المترو. ترتجف كل أعضائه برداً وغضباً وخوفاً، لا يعرف بالضبط. اعتقد أن كل شيء انتهى وأنه لن يرى إنجي مجدداً.

أُصيب كورنارد إيفتشوشنكو بأول نوبة جنون في أواخر هذا الشتاء. سارة هي من أخبرت جان بالأمر، جاءت إلى باب المدرسة الطبية مضطربة تبحث عن جان ثم قالت: "يجب الذهاب إلى شارينغ غروس،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لقد احتجزوه مع المجانين، يجب أن تفعل شيئاً" . في إحدى الليالي القارسة، أضرم كورنارد النار في متجر أدامونى بعد أن كسر الأثاث بالفأس. خال أنه في مخيم في السهب مترامية الأطراف حين قاتل الأوكرانيون إلى جانب الألمان ضد ستالين.

كان العملاق كورنارد يرتدي زي الفارس الروسي الموحد أبيض اللون ومثُل أمام الباب فأسه بيده يتوعد ويهدد باللغة الأوكرانية.

لزم عشرة رجال شرطة ليتغلبوا عليه، حتى أن الفارس الروسي للدون لم يقبل أن يستسلم للعدو وتوضع الأغلال في يديه إلا بعد تدخل أدامونى وفرض سلطته البسيطة عليه. أدخله رجال الشرطة بعربة السجن بعد أن أوسعوه ضرباً وحقنته ممرضة حقنةً ضموريدية بمادة يحقن بها الثور حتى يُصرع.

دخل جان مستشفى "شارينغ كروس"، اسره مظهر "كورنارد"، ذاك العملاق الذي يحب التبختر بزي الفارس الروسي في شوارع "بايسوتر" تحول لرجلٍ عجوزٍ مُحبط بنظراتٍ فارغة و أثرم بعد أن تهشم طقم أسنانه خلال هذه المغامرة. ذاك الجسد الضخم الذي لا يتسع له السرير أصبح هامداً مثقلاً بوزنه كجلد حوتٍ مرمي. مازال شاربه الأبيض الأخاذ بجانبيه المتهدلين يزين محياه بيد أن ذقنه نمت بلونٍ رمادي داكن ليشبه أي متسكعٍ.

جلس جان على كرسي قرب سريره، يبدو أن كورنارد لم يتذكره فبدأ جان بالعبارة التي يستخدمها لحواراته معه منذ أن تعارفا: "مطر؟ ثلج؟" فاستدار نحوه ولفظ كلماتٍ بصوتٍ مثقل: "ربما مطر، ربما ثلج، لا أدري". ثم أضاف بضع كلماتٍ أوكرانية وأعقب: "أعطني سيجارة" هذا ممنوع، لكن جان أخرج علبة السجائر "Woodbines"، وسحب كورنارد نفس دخانٍ بشراهة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بقي جان قرب كورنارد حتى هبط الليل وما نبس ببنت شفة. يزفر الرجل العجوز بين الفينة والأخرى تنهيداتٍ ويهمهم ببضع كلمات. تغطي ذراعاه الكدمات وقد سُلخت سلامياته وتلقى ضربة عصا على جبينه فوق عينه اليمنى كمدمنٍ اصطدم بالجدران.

أقبلت إليهما ممرضةٌ لطيفة حمقاء بعض الشيء ثم خمنت وزن كورنارد: "يبدو صديقك قوي البنية، هل هو مصارع حر؟"

فأجاب جان: لن تري في حياتك شخصاً يفوقه قوة، لو شاء لرمى الجميع من النافذة ويخرج بهدوء دون أن يمنعه أحد".

طلب جان اللقاء برئيس القسم، قال:

- ماذا تنون أن تتصرفوا مع هذا الرجل؟

لاح السأم على وجه الطبيب النفسي وقلّب بإهمال أحد الملفات.

- هل تعلم أن هذا الرجل قد أمضى منذ مجيئه إلى إنكلترا ثلاثة أرباع حياته في السجن أو في المستشفى؟

- ماذا فعل؟

- حسناً، في البدء سجنه الروس ليتخلصوا منه مع نهاية الحرب بإرساله إلى مخيم السجناء قرب ليفربول. لدى خروجه بعمرٍ يناهز ٤٨، بقي مشرّداً وتمكن من الزواج خمس مرات دون أن يقدم على الطلاق. في كل مرة ينتهي به الأمر في السجن ولكن لا يتم احتجازه طويلاً. لم يرغب أحدٌ بذلك. والآن هذه النوبة.. قرر صاحب المتجر ألا يقدم شكوى لكنه لم يعد يرغب بوجود هذا الأرعن في متجره. لابد من إدخاله بين المجانين الخطيرين إن لم يكن أحدٌ يرغب بالاعتناء به؟

- ماذا لو أقام في منزلي؟

رمقه الطبيبُ بانتباه وقال:

- هل تأويه أنت؟

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

قال جان:

- كورنارد ليس بمجنون إنه فقط ضحية حرب، طالما تعارك في المخيمات الخطيرة وكل الناس يطونه مع النسيان، إنه ليس خطيراً إلا حين يكثر من الشرب، إنه بطل حرب.

أغلق الطبيب الملف:

- "لا مانع لدي لو شئت أن توليه عنايتك ولكن لا تأتي لتقدم شكوى لو أضرم النار في منزلك".

لم يتحمس السيد لوروكس للفكرة متأثراً بالتجربة السابقة بيد أن الآنسة روزي لم تجد ما يعيق بل على العكس طلبت منه أن يحمل صناديق المشروبات الروحية خلف المتجر، قالت لجان: "صديقك رجلٌ مميز". أدرك جان عندها كيف تمكن كورنارد أن يعقد قرانه على خمس إنكليزيات بآن واحد.

مازال الفارس الروسي يتحلى بقوةٍ خارقة متحدياً كل ما تعرض له من إهانات، حيث يتمكن من رفع أوزان هائلة بيد واحدة. رآه جان يحمل في أحد الأيام قطعةً خشبيةً مع ثلاثة حمالين، هو بطرف والثلاثة الآخرون بالطرف المقابل، قال كورنارد: "ها!"، كان الوحيد الذي تمكن من نزع العارضة. عندما حل الصيف، أخرج زيه الأبيض من حقيبة الأمتعة واعتمر قبعته المصنوعة من الاستراخان وحزم حزامه الأزرق السماوي، ثم ذهب يتبختر في الأحياء الجميلة حول "كينسينغتون" ليلتقط له السياح صوراً. قالت له الآنسة روزي: "كان عليك أن تصبح ممثلاً في السينما".

في الحقيقة، لقد تم توظيفه في السينما يومي السبت والأحد كديكورٍ عند مدخل سينما توتنهام. فيما بعد، أخذه مدير حانة سوهو

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كطاردٍ للمزعجين لكن كورنارد لا يكون عنيفاً إلا إذا شرب، خلا ذلك هو الرجل الأكثر وداعة في العالم.

إنه وقت امتحانات المقيمين وكدّ جان بالعمل في منزله. يعود كورنارد في وقتٍ متأخر من الليل حاملاً زيه في حقيبة صغيرة. حضر له جان في البداية سريراً بلونٍ خشبي وضعه عند المدخل إلا أن كورنارد آثر أن يفترش الأرض.

تهاجمه ليلاً مخاوف لا مبرر لها فيضع حاجزاً عند الباب واضعاً عدة كراسي على طاولة الدراسة وعندما سأله جان مما هو خائف رمقه بنظرة شاردة تقول إنه نفسه لا يعرف السبب. ذات مرة عرض عليه صورة في مجلة تظهر عرض أزياء في الساحة الحمراء في موسكو، فبصق على الصورة وعجنها بين يديه ورمى بها بعيداً. وعبّر وجهه عن كرهٍ عميق.

توجست أليسون بيمبورك منه خيفة وقالت:

- "لماذا سمحت له أن ينام في منزلك؟ إنه خطير".

فرفع جان كتفيه قائلاً:

"ليس جنونه لا أكثر ولا أقل من جنونك وجنوني، الفرق أنه لا يخفيه". لكنها لم توافق أن تأتي إلا في الأمسيات التي يغادر فيها كورنارد إلى السينما.

بات جان يلتقي بسارة أكثر فأكثر منذ مجيء كورنارد إلى جامايكا. مازالت تعيش على إيقاع نوباتها مع ذلك السويدي. كما حقدت على أداموني لأنه طرد كورنارد. كانت تأتي في بعض الأمسيات بعد أن تحتسي النبيذ باعتدال وتقصُ على مسامع جان مقتطفاتٍ من حياتها الماضية وعلاقتها الصعبة مع والدها. ففي عمر السادسة عشر، تركت عائلتها لتعيش على متن قاربٍ برفقة رجلٍ يكبرها ثلاثين عاماً وهو صاحب مصرف متقاعد، كان صديقاً لوالدها خلال خمس سنوات

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

خلت. جابا معاً البحر المتوسط من مرفأ لآخر، حاذا شاطئ إيطاليا ورسا في البنغا وريجيو دو كالابر مروراً بـ"لاسبيزيا" وأوستي وليفورن. كما عاشا في كابري وريميني ثم سيسيل، ثم تنقلا من جزيرةٍ لأخرى في اليونان.

تتمدد سارة على الفراش لتروي حكاياتها، تتشح دائماً بالسواد بشحوب وجهها وكآبة محياها. غيرت شكل أنفها حتى تشبه إنكليزية لكن فضحت عيناها الجميلتان يهوديتها، تلك العينان السوداوان النديتان وشعرها الكثيف المربوط عبثاً. كان جان يحب الإصغاء لها وهي تتحدث عن البحر، هناك: "في الفجر، لن تعرف مارو – كانت تناديه مارو مثل طلاب المدرسة الطبية – الماء والسماء رقراقتان شفافتان، الجزر حالكة السواد والمنازل ناصعة البياض وكأن الكون خلق البارحة. وفي منتصف الظهيرة هناك الجروف الصخرية الطبشورية وشوارع القرى التي تعجُ بالنسوة سوداوات البشرة في حين أن الرجال غائبون، كان ذلك لاذعاً وقاسياً. لا ظل يلوح في المكان حتى يراودك انطباع أن لا موطأ قدم لك هنا، إنه متراصٌ وشرير نعم شرير ولكن رائع الجمال. يغير المساء كل شيء ليعيده فائق النعومة والحنان، يتراكض الأطفال على الأدراج والبحر يغدو بنفسجي اللون. تتناول وأنت في الميناء بطيخاً بطعم العسل".

رغب جان أن يعرف المزيد فسألها عن فلاسفة اليونان، سألها عن انكساغورس وبارمينيدس إيليه وزينون[1]. خشي أن يبدو بهيئة العالم، لكن سارة لم تقرأ أبداً. إنها تعيش غرائزها حب وعاصفة أما الفلسفة فلم تكن تعنيها البتة.

---

(1) – زينون Zénon: (٤٩٠ – ٤٣٠) ق.م، فيلسوف من إيليا يستخدم المنطق لحل الألغاز الكونية. من المدرسة الإيلية.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

إنها امرأةٌ جميلة. وقع اختيارها على جان لأنه يشبه حسب قولها جون صديقها السويدي، بل أكثر من ذلك، أسمائهما متشابهة بيد أن الشبه يتوقف عند هذا الحد. فجون شابٌ مغرورٌ ومتقلب لا يتقن سوى أن يجعل سارة تعاني، لذلك كان جان يكنُ له الاحتقار. إنها امرأةٌ يلفّها الغموض، هناك رفَلٌ في حياتها لم يتوصل للإمساك به. عندما كانت تعيش مع "فرانكي سشوارتزن" صديق والدها على متن القارب الشراعي متهادياً بعيداً عن كل شيء بين يدي ريحٍ عابثة مستسلمين لأهواء أسماء الأماكن. في أحد الأيام أخرجت صورةً صغيرة من نوع كوداك وكانت هي الذكرى الوحيدة التي أبقت عليها من كل تلك السنوات التي أمضتها في عرض البحر، رآها جان، صورةٌ بالأبيض والأسود مع منظرٍ مضيء وصخور بيضاء وأيكةٌ من الألوة[1]، ينثر البحر من الخلف ألقاً أخاذاً. يقف رجلٌ عاديٌ بجانبها، منحنٍ قليلاً، أصلعٌ وملتحي ويضع نظارات لحسر النظر، تحطُ يده على كتفها وهي جالسةٌ على صخرة ترتدي بنطالاً قصيراً جداً يكشف عن ساقين فاتنتين تضجان بالصبا في وضعية مثيرة بعض الشيء كما في "روزنامة المرآب"[2]، يلقي شعرها المتطاير ظلّه على عينيها.

علّقت سارة قائلة: "أرأيت كان شعري قصيراً". خطف الحلم بشبابها الهارب ذهنها. قال جان: "تشبهين أودري هيبورن[3] في شاراد". نشلت الصورة مباغتةً وقالت: "لم يرَ هذه الصورة أحد حتى جون لم يلقِ عليها ولو نظرة".

انقبض قلبه وذُهل بآن واحد. كيف تساوره الغيرة من ماضي سارة، كيف له أن يقع في غرام ألمانية لم يرها إلا لثلاث أو أربع مرات في حين تربطه مع عشيقته الشابة علاقةٌ يومية سطحية بالأحرى صحية؟

---

(1) – الألوة: عود يتبخر به.

(2) – روزنامة المرآب: تقويم إيطالي صمم مع صور فتيات جميلات مثيرات وصور سيارات.

(3) – Audrey Hepburn أودري هيبورن: ممثلة بريطانية ١٩٠٩ – ١٩٩٣.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لم يساور سارة الشك بالأمر وتابعت سرد حياتها الماضية مع فرانكي شوارتزن بصوتٍ عذبٍ تقاطعه ضحكاتها، لقد تنبّهت وكأنها عادت تلك الشابة غريبة الأطوار التي رمت كل شيء خلف ظهرها، تركت عائلتها ودراستها وحياتها المناسبة لترتمي في المغامرة على متن قاربٍ برفقة رجلٍ يكبرها ثلاثة أضعاف عمرها .

قال جان مدفوعاً بغيظه: "لابد أن يكون شخصاً مرعباً من الداخل ذاك الذي ذهب هكذا برفقة شابةٍ في مقتبل العمر، أليس كذلك؟"

فأجابت بجفاء:

"على العكس تماماً إنه الرجل الأكثر لطافة ممن التقيت في حياتي والأكثر كرماً" .

- إلا أنك تركته وشأنه؟

فكرت سارة وهي تقول: "لم يكن الأمر كذلك" .

تتحدث تارة باللغة الإنكليزية وتارة بالفرنسية دون نبرة: "لن تفهم، ظننت أنك لا تشبه سائر الناس، فليس لك نفس اعتباراتهم، لكنك بالنهاية أنت مثل كل الرجال تبالغ بالمثاليات ثم لا تهب ثقتك لأحد" .

التزم جان بالصمت، ظنت سارة أنه قد تضايق مما أضحكها، لثمته وداعبت رأسه كطفلٍ صغير وقالت: "إنها غلطتي أنا الشيطان" . اقتربت منه كثيراً حتى شمّ عطرها ذا عبقٍ مفلفلٍ بعض الشيء، قالت له: "ولكن أنت لطيف ولا تنوي الأذى للآخرين وحتى ولو اقترفت خطأ ككل البشر تقترفه بطريقتك" .

تبادلا سحب نفسٍ من نفس السيجارة التي أشعلتها وتمددا على الفراش.

"فرانكي، كان رجلاً ملاطفاً، لم يكن أبداً مثل والدي.. لم يكن يطلب مني شيئاً أبداً . أتعلم كنت أتغيب في بعض الأحيان لأسابيع، أذهب فيها

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مع شابٍ التقيته على الشاطئ، هربت وعندما عدت وجدته حيث تركته، ينتظرني في زورقه ولم يطرح علي الأسئلة ثم غادرنا. كان ربان السفينة يعلم وجهة فرانكي، رحلنا نحو لارانكا وكانا أو الاسكندرية. مازلت أذكر الشتاء والبحر رمادي اللون حيث تلاطمتنا الأمواج العاتية، تغلغل الملح في كل شيء، تزمجر الريح حتى داخل الحجرة، فنمت مطوية على نفسي في سريري في المقدمة وأنا أصغي للطمات الموج على هيكل السفينة، كان ذلك كالحلم". توقفت عن الكلام والتدخين وعلقت ناظريها بالسقف القديم المتشقق والمرصع بثغراتٍ يختفي منها السطح. يتسلل ضجيج السيارات في مدخل جامايكا لا صوت للبحر.. ستأتي أليسون خلال لحظات وستطرق الباب بخفة أو سيأتي كورنارد ليخلد للنوم في المدخل ككلب، رأسه متكئ على حقيبته الصغيرة التي تحتوي على زيّه الصيفي، زي الفارس الروسي للدوق. طرحت سارة سؤالاً برقةٍ وكأنها مازالت تحلم: "ستغادر قريباً أليس كذلك؟" تساءل جان كيف لها أن تعرف أنه يحضر نفسه؟ ثم أضافت: "أنت لا تنتمي لهذه المدينة ولا تنتمي لأي شخصٍ هنا، لابد أن تغادر فهذه المدينة تلتهمنا، لا شيء هنا، لا شيء سوى الوهم والكذب، كل هذا غير موجود".

جاءت أليسون بعد قليل وأمضت وقتاً تتجاذب فيه أطراف الحديث مع سارة، جلستا على الأرض مقابل مدفأة الغاز التي تلتهم الشلن، دخنتا وتحدثتا. أخذت الغفوة جان وهو مستلقٍ على فراشه يتناهى صوتهما لأذنيه. لاحقاً بعد أن حلَّ الليل، استيقظ وهو ينعم بدفء جسد أليسون. وكأنه يطفو في حلمٍ، هو أيضاً يشعر بدوران ذهنه، كم كان ذلك ناعماً، يحيل كل ما هو فائق الصعوبة في هذه المدينة إلى العدم، المدمنون الذين يرتطمون بالباب الحديدي في الأسفل ليطالبوا بنبيذهم والمسنون في كوخ الأموات في مستشفى سانت توماس والحلبة المنصوبة على المرج الملتهب في "شليهيردا بوش" حيث يلكم جون جيمس وجه شابٍ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مسكين ظنّ نفسه ملاكماً وإنجي التي ستغادر إلى إنكلترا إلى الأبد. مارس الحب بعذوبة مع أليسون إلى جانبهما يتطاير شعر سارة وكتفها العاري، امتزجت أجسادهم ليسود نورٌ هائل ودفء كبير في كبد الغرفة المتجمدة.

ذهب جان لزيارة جناح المسنين بعد الامتحانات في منتصف شهر حزيران، لم يعد أحدٌ يذكر "ماك لاغلن" ولا العجوز إيما حتى كينسيد الذي يتوعد، وكذلك جيريميا وبولا صاحبة قناع الجمال كلهم اختفوا. حتى المعاونون تغيروا. إنها السنة الأخيرة للأستاذ ريكور الذي سيتقاعد ويذهب إلى مكانٍ ما في سيسيل أو نورماندي. غير أن الجميع هنا في الممرات يهيمون على وجوههم بثياب نوم السجناء المخططة كما في السينما، ثياب النوم الرقيقة بقايا عصور النهضة. يجلسون على الكراسي النقالة نفسها ويشغلون المقاعد عينها ويتمددون على نفس الأسرّة يتأملون السقف ذا البقع الثابتة ويتشبثون بشباك النوافذ ليلقون أنظارهم على الحديقة ذات المروج الضاربة للصفرة.

أليسون هي الواقع الوحيد، تعلّق جان بجسدها الدافئ ليلاً حتى لا ينتشله العدم مع أنه على يقين أنه وبالوقت نفسه لن يستطيع أن يقاوم ولا مفرَّ له من التيار. فكّر بعد الحب بالعمل الذي ينتظره في مستشفى سوزامبتون حتى ينتهي من المدرسة الداخلية. لاذ بالصمت متأملاً انعكاس أنوار جامايكا على السقف. سألته أليسون نفس السؤال الذي طرحته سابقاً ريتا: "بماذا تفكر؟"، أجاب نفس الجواب دون أن يعيره اهتماماً: "لا شيء، أتأمل وأقول في سري ترى هل يمكنني أن أكون هنا أو في أي مكانٍ آخر". لابد أن هذه المدينة انتزعت منه كل خيوط الإنسانية. بعدها جلست أليسون وأسندت ظهرها إلى الجدار، لاحظ جان أن وجنتيها وعنقها رطبين، فسألها: "ماذا بك؟" هزت رأسها، لم ترغب أن

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يرى دموعها وعندما قبلها وحاول مداعبة نهديها من تحت سترتها، دفعته بعنفٍ وقالت: "دعني،لا أريد".

فكرت هي أيضاً أن جان شرير ولكن لم يكن دافعه الشر، ودّ لو يفسّر لها منذ البداية هيمن عليه الفراغ بعد أن حلّت به كل هذه النوازل، تردي وضع العمة كاترين ببطء ثم اختفاء "أورو" وخراب "لاكاتافيفا" تلاها تلك الأحداث المرعبة والحرب والحقد العرقي الذي يثقل أهواء فرنسا، وكيرنس ونظرة الألزاسي الشاحبة،فضلاً عن السجين العربي معصوب العينين، موثق اليدين بسلاسل حديدية الذي يتعثر وهو ينزل الهضبة نحو ضفة النهر حيث ستتم تصفيته.

"بسبب تلك اليهودية"، على العكس تماماً، منذ تلك الليلة المترنحة ثملاً حين ناما ثلاثةً على فراشٍ واحد، امتنعت سارة عن المجيء، بحث عنها جان عبثاً، لم يكن جان متيماً بها لكن غيابها زاد من عمق الفراغ الذي يلتهم هذه المدينة. يملأ الغيظ قلب أداموني فهو يعشق سارة، صار يضمر الضغينة والغيرة لجان. أعاد كورنارد ليعمل في خدمته انتقاماً لخيبات أمله ولكنه أساء معاملته وكأنه عبد. بعد ظهر أحد الأيام، جاء جون إلى متجر الأرمني، بدا وكأنه يعاند سيء الأيام. لم يعد لديه المال الذي تمده به سارة ليعيش، تحدى كورنارد في "لعبة مكاسرة"، كم كان الطلب عبثياً! لكن كورنارد كان ليربح في الروليت الروسي لو طلب منه. جلسا إلى طاولة صغيرة الحجم، جون على كرسي من حديد أما كورنارد فاسترخى على أريكة مقابله. بدا الأوكراني كدبٍ ضخمٍ غافٍ، لم يعد نفس الرجل الذي كان قبل توقيفه ومكوثه في المستشفى النفسي. بدأت المعركة خلال لحظات، بدأ جون يشدُ ذراعه حتى برزت عروق رقبته من فرط الجهد، تلفت كورنارد من حوله دون أن يفهم ما يجري، أدهشه حنق هذا الشاب للّيّ ذراعه. تحرك للحظة أراد أن ينهض متكئاً على الذراع الأيسر للحظيرة فاستغل جون الفرصة ليثبت يده على الطاولة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

جن جنون السويدي فرحاً وصرخ بأنه الأقوى وطالب بدفع الرهان، دفع غضبٌ باردٌ جان ليجلس بدوره في مواجهته وقال لجون: "حان دوري الآن". نظر إليهما كورنارد وهو يبتسم بسذاجة، أدخلت رؤية هذين الديكين الشابين يتواجهان الضحك العذب لقلبه. تمكن جان بدوره وخلال لحظات من تثبيت يد جون على الطاولة، ثم نظر إلى السويدي باحتقار وقال له: "إنها مجرد لعبة، لا شيء مهم فيها، يتمكن أياً كان من فعل ذلك، لن تكون مهما فعلت نظيراً لهذا الرجل".

ضمَّ كورنارد جان في أحضانه بعد رحيل جون، ما ربطت الصداقة بينهما أبداً مثل هذه اللحظات، لكن جان كان يعلم أن كل هذا يشارف على النهاية. كورنارد إيفتشوشينكو على حافة الجرف سيبتلعه النسيان هو أيضاً عما قريب.

ثم كانت زيارة عائلة أليسون في "بيكنهام هيل" وهي ضاحيةٌ حزينة بمروجٍ منبسطة، لكل بيتٍ من القرميد عش طيورٍ وطاقة من الروبينية[1] تزينه نوافذ منحنيةً تطل على صالة تلفاز. هنا تعيش عائلة بيمبروك، الأب ميكانيكي متقاعد في البحرية والأم ممرضة في الحي.

قال دون تفكير: "نعم أحب أن تقدميني لوالديك"، ربما تأمل بشيء ما وراء هذا اللقاء لعله رغب بفصلٍ أو توقف في الزمن. على كل حال، ليس لكل ذلك أهمية، إنه يشبه رؤية الطائرات في "هيثرو" أو المرور بسوق الحرامية في بورتيلو. كانت أليسون بانتظاره في محطة "بيكنهام"، تقود سيارة والدها الخضراء القديمة من نوع "موريس مينور"، كان المطر رذاذاً وماسحة الزجاج تصرُّ بشكل مضحك.

حضَّرت السيدة بيمبروك وجبةً خفيفة مع نبيذ البورت "Tawny Port" وقطعٍ من الجبنة بالإضافة لثلاثة أو أربعة أطباق. ظن جان أنه

(1) - الروبينية: جنس أشجار تزيينية.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

من وقتٍ ليس ببعيد ربط الرقم ستة وثلاثين بكل هذا وكذلك الرقم ستة وثلاثين فاصلة خمسة.

أليسون بين أحضان عائلتها فتاةٌ متقلبة ومزعجة وتطلب من الجميع وخاصة أختها الصغرى جنيفر التي كانت تراقب جان بمكرٍ.

بينما كان كبار السن يشاهدان التلفاز مساءً وجنيفر تلعب بالحديقة، وضعت أليسون الموسيقا في مجموعتها الصوتية في غرفتها "شاودو" أو "بول أنكا" أو شيءٌ ما من هذا القبيل، ثم تمددا على الموكيت أخضر اللون ليتبادلا القبل والمداعبات، أراد جان ممارسة الحب لكن أليسون رفضت خلع بنطال الجينز، تظاهرا للحظات حتى تصببا عرقاً، علت الحمرة وجنتي أليسون هيجاناً، لقد أصابها ألم في بطنها وانتفخت أما جان فهرع للخروج وما إن داعبه الهواء النقي حتى شعر أنه على ما يرام. ارتمت أليسون بين ذراعيه وقالت: "متى سأراك مجدداً؟" لم يتمكن خجلاً من الكذب فهو سيغادر إلى سازمابتون بعد أسبوع ولن يعود أبداً دون شك، فقال دون مواربة:

"لا أدري، أظن بعد وقتٍ طويل".

تذكر غضب ريتا وصفعتها على الدرج قبل رحيله، لكن أليسون لم تتفوه بكلمة لا لأنها لا تشعر بشيء بل لأنها لا ترغب باستغلال مشاعرها. لذلك كان جان يكنّ لها الحب وأحزنته هذه اللحظة الأخيرة، همس لها وهو يضمها بشدة: "لم أخلق لك، لابد أن تنسيني".

- "لماذا تقول هذا؟ هذا ليس صحيحاً، ها أنا ذا بين يديك".

على رصيف المحطة قبلته بعنفٍ يائسٍ وقالت بصوتٍ مخنوق:

"الآن، انتهى الأمر، غادر صديقي".

طردت حزنها وهي واقفة على سلم المقطورة بهزة رأسٍ وعادت تلك الفتاة البسيطة التي التقى بها في محطة "روزيرهيد"، صرخت قائلة: "حسناً إذاً غداً في الساعة التاسعة في الحانة؟"

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

صفق المراقب البوابات وأقلع القطار ببطء نحو لندن.

لم يعد كورنارد يخلع زيّه الأبيض ذا الحزام الأزرق السماوي صيفاً، لم يعد يسكن في جامايكا ٢٣٧، آثر النوم في العراء في الطقس اللطيف تحت ظلال أشجار الحدائق كما لو أنه يخيم في سهول دينبر الشاسعة. لا يخشى شيئاً في الخارج، يمكنه مراقبة غزو الستالين.

يتسكع نهاراً في محطات المترو مفضلاً "سيركل لين" والمحطات مفتوحة السقف مثل "شيلسا" و"هاي ستريت كنيسينغتون" و"بونتي بريدج". التقى به جان في ماريلبون جالساً على أحد المقاعد وحقيبته الصغيرة إلى جانبه، ينظر إلى الناس وهم ذاهبون وعائدون، تغضنت عيناه بابتسامة سرمدية، اتجه جان نحوه في البداية لم يتعرف كورنارد عليه:

"إذاً كيف الطقس غداً؟"

نظر كورنارد إلى سقف المحطة، لا سبيل للكلام عن الثلج في قيظ الصيف. تجاوز الصعوبة قائلاً: "غداً الطقس ماطر". تصافحا وتبادلا بضع كلمات أو بالأحرى تكلم جان وأجاب كورنارد بقعقعة دب راضٍ. نهض العملاق فجأة عندما لاحظ فريسته المفضلة رجلٌ متكرشٌ وأنفه في السماء، رأسه صغير وشعره كثٌّ، يرتدي واقية مطر ويحمل مظلة بالآن نفسه. خمن جان أنه أستاذ في جامعة كوليج يدرّس جورج بورير فقه اللغة. اعترض كورنارد طريقه بعرض منكبيه، توقف الأستاذ وجال بناظريه يمنةً ويساراً وكأنه يبحث عن منفذ، مدَّ كورنارد يده بأمرٍ وقال بصوتٍ ذي مخرجٍ حنجري: "سيجارة جيم". تردد الأستاذ للوهلة الأولى ثم بسرعة شعر بالخزي و مدَّ له علبة السجائر، فاختار ثلاث سجائرٍ وأعاد له الباقي ببهاء. أعطى كورنارد إحدى السجائر لجان عندما عاد إلى المقعد ودخنا بهدوء وهما يتأملان الناس ومقطورات المترو.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

إنها المرة الأخيرة التي يلتقي فيها جان بكورنارد، بعدها اختفى أو بالأحرى وبكل بساطة توقف جان عن الذهاب إلى المحطات التي يتردد إليها الفارس الروسي. أقلق غيابه الآنسة روزي: "وصديقك الروسي ذاك طويل القامة والقوي جداً، ألم يعد يأتي؟"

ذهب السيد لوروكس في إجازة الصيف ودعا الآنسة روزي لزيارة عائلته في نورماندي أو بروتاني. سيوصد متجر المشروبات الروحية بابه، عهدت الآنسة روزي بالمفتاح لجان الذي ينتظر شهر أيلول ليلتحق بمكانه في مستشفى سوزامبتون.

دخل جان في إحدى الأمسيات إلى المتجر وأضاء كافة الأنوار. بالحقيقة كانت هذه المرة الأولى التي يدخله فيها فعادةً ما تهيمن هجمات المدمنين على الباب والذين يطردهم القانون من الحانات، تلمع زجاجات "روبي وين" و"الكحول" بوميضٍ شرير يشبه آلات التقطير المنضدة التي يقف خلفها السيد لوروكس مصنوعة من الخشب غامق اللون. يبدو المتجر كبيراً رغم مساحته الصغيرة مليئاً بالزوايا المخبأة والغرائب. عانى جان لفكرة أنه أمضى كل تلك السنوات فوق هذا الكهف، قفل الباب من الجانب المؤدي إلى بيت الدرج وخرج إلى الشارع.

لم يغمض النهار بعد عينيه حين وصل "سوهو"، التقى بجورج بورير على مقربة من القبو، كان يراقب رقص المومسات على المنصة الدائرية. شرب جان زجاجة نبيذ من متجر الآنسة روزي لينضم دخان السجائر في القبو ويتسبب له بالدوار. يضجُ المكان بالناس وموسيقا " Good Boys"، يرقص براين دبويل على أنغامها المسترسلة. يحتسي ويل هاريسون بيرته في إحدى الزوايا يتردد صدى قهقهته الصاخبة في "فالستاف" وأناسٌ آخرون لا يعرفهم أحد، سياحٌ فرنسيون ربما عبروا بحر المانش بحثاً عن المغامرة مع فتيات من الشمال ألمانيات وسويديات

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وفنلنديات يقلدن بتبرجهن إيفا ماري سانت[1] وشعرهن قصير مجعَّد على الجوانب.

لم يبدُ كل ذلك واقعياً، إنه مجرد زخرفةٍ يتشوش بها الذهن وتنفخ الدخان في العينين، ارتمى جان على أحد المقاعد وهو يفكر بإنجي وأختها بريدجي ويندم على الفرص الهاربة، لابد أنهما عادتا إلى ألمانيا لحضن العائلة بعد سنوات من حياةٍ مجنونةٍ ليعقد قرانهما على شبانٍ جيدين أغنياء بما فيه الكفاية وتمضيان عطلتهما في جزيرة "هيلغولاند"[2].

بسط الليل جنحه على المدينة وتسلل حرّه حتى القبو. صعد بعض الناس على سطح الأرض ليتحدثوا. تردد صوت شجار ومزاح ماجن وصفير. قال بورير لجان: "هناك جولةٌ في منزلك في جامايكا". شعر جان أنه يخاطب أحداً غيره "أتسمع، ها؟ يبدو أنهم هناك، كسروا الباب ويفرغون الآن القبو". هذا ما جرى. ذهب الناس الواحد تلو الآخر إلى جامايكا وكأنهم ما كانوا هنا. كالحلم رأى نفسه جالساً على المقعد عاجزاً عن الحراك في حين بدأ النهب ولا شيء يمكن أن يدفعه ليقرر فعل شيء. ماذا لو أعطى لك ذلك رقم: "ستة وستون أو سبعون؟" استشاط جورج غضباً وقال: "إنه جون جيمس، ها أنا واثقٌ أن ابن الحرام هذا هو من دبر كل شيء ليأخذ بثأره". فاض غضبه على جان، أعمل النبيذ أثره فما عادت أفكاره جلية، ما أثار حفيظة جان هو أن جون جيمس يروّع إنجي، رحلت بسببه بعد أن كتبت لأختها التي أتت لاصطحابها. توعد جون جيمس أنه سيقتلها، توقع أن جان يخبأ إنجي في منزله من أعطاه العنوان يا ترى؟ يمكن أن يكون براين أو جيريميا أو

---

(1) – Eve Marie Saint إيفا ماري سانت: ممثلة أميركية ولدت عام ١٩٢٤.

(2) – Heligoland هيلغولاند: أرخبيل يوناني جنوب شرق بحر الشمال.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ربما حتى جورج بورير. وجوههم جميعاً ممتقعةٌ من الكحول وأنظارهم خاطئة لا يمكن فهم أي نظرة. لكن عنوان متجر ٢٣٧ جامايكا معروف للجميع، إنه في متناول الأيدي، سيذهبون جميعاً إلى هناك بعد أن سرت شائعة أن الكهف مهجور وهو مليء بزجاجات النبيذ لا رقيب له. فقَد جان المفتاح في بداية السهرة أو لعل إحدى الفتيات قد نشلته.

هاهو يسير الآن بسرعة في ممرات المترو، ركب أمواج المتسكعين المتجهين إلى المركز إلى حي العرض يتبعه جورج مترنحاً وتعبر ملامحه عن الجنون مما أبعد الناس عن طريقه. فكر جان بكورنارد لو أنه فقط كان هنا لسوى الأمور كلها ولرمى على الرصيف كل أولئك المتطفلين والطفيليين والمحتفلين الوقحين. تهبُ نسماتٌ رطبةٌ دافئة على طول جامايكا، تجري مياه نهر "التاميز" بطبقتها الزيتية وتسيل خلف أبنية المرفأ. تذكر جان عندما، ومنذ وقت طويل خلا، هام مع جورج بورير في الشوارع بحثاً عن مكانٍ يأويان إليه ليلاً والثلج القذر قرب ملجأ "إلفنت أند كاستل".

لابد أن جون جيمس وعصابته قد حطّموا باب متجر الآنسة روزي، إلا أنهم فرّوا حاملين بضعة صناديق من الكحول. لم يبقَ الآن على الرصيف سوى عددٌ من المدمنين يجرّون أقدامهم. كانت شقة جان تغصُّ بالناس، صبيةٌ وفتياتٌ لا يعرف جان منهم أحداً، إنهم صغار السن ربما تلاميذ مدرسة. تتدحرج على الأدراج زجاجات "روبي وين" ومشروبات أخرى أثمن مثل البرندي والجن والفودكا. وهناك زجاجات من مخزن السيد لوروكس السري نبيذٌ رفيع فرنسي ومن تشيلي وافريقيا الجنوبية. ميّز جان الزجاجات التي عرضتها له الآنسة روزي وكأنها قطعٌ ثمينة. تفوح رائحة التبغ والكحول في كل مكان. بقي جورج في الأسفل أمام باب المتجر. قال: "سأقوم بتنظيف كل شيء". لكنه اكتفى

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بمقاسمة الزجاجات مع أولئك الذين يخرجونَ من المتجر. أما جان فواجه المشاكل في طابقه مع عصابةٍ أقامت في منزله وخاصة "ويل هاريسون". لقد انتشروا في كل مكانٍ، تمددوا على الفراش حتى في الحمام. شوَّش الغضب ذهنه، كان عليه الاتصال بالشرطة ويقدم شكوى. هاجم ويل هاريسون وحاول أن يوقعه أرضاً، لكن هاريسون كان يتمتع بقوةٍ مفاجئة لا تتناسب مع كونه مفكراً. زمجر قائلاً: مجنونٌ ثائرٌ! دفع جان على السجادة وجلس على صدره، منطقياً كاد يخنقه بذاك الوجه البدين الملتحي الذي أمتقع حقداً. حاول جان للحظة أن يقاوم لكن خصمه كان ثقيلاً جداً، رأى فوقه رأس هاريسون مضاءً بنور المصباح الكهربائي ولمح لحيته الصهباء وأسنانه المسوسة، ظن أنها آخر صورة يراها قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة.

تحيط به صرخاتٌ تعلو وتنخفض، ضجيجٌ يشبه ذاك الضجيج ليلة الملاكمة في شينهيرد بوش غرين. لاح أمام ناظريه وجه فتاةٍ ناعمٌ جداً تلمع عيناها الجميلتين، ظن أنها إنجي هبطت كملاك من السماء تصرخ قائلة: "دعه! دعه! ستقتله!" خفف ويل هاريسون من ضغط حوضه ثم ابتعد، أصدر الهواء الداخل لرئتيه صفيراً كبخارٍ ملتهب. جثت قربه أليسون بيمبروك وحطت يديها على وجهه وصدره. عاد جان لوعيه، كان متمدداً على الفراش ورأسه يغفو على ركبتي أليسون. غادر الجميع تقريباً ربما ذكر أحدٌ ما كلمة "شرطة". تكدست الزجاجات والحطام وعقب السجائر على كل مساحة الغرفة الكبيرة.

فيما بعد، ضمت أليسون جان ونزلا الأدراج نحو متجر المشروبات الروحية، الدرجات ملطخةٌ بالنبيذ ومحروقةٌ بالسجائر. أدرك جان حين فتح الباب الجانبي أن المتجر قد نُهب عن بكرة أبيه، تتدحرج الزجاجات الفارغة على الأرض، حتى البراد الذي يحفظ فيه السيد لوروكس نبيذ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

"الشابلي وبويلي فويسي[1]" قد كُسر، في هذه الأثناء، أثملت الضجة المصمّة جان ثم أدرك أن لصوص جون جيمس أفرغوا صناديق الكحول والنبيذ بينما اجتاح الطلاب والمتسكعون شقته. ارتجفت ساقاه حين أيقن هذه الحقيقة التي سقطت فوق رأسه وأصيب بالغثيان. شرع براين وأليسون وثلاثة آخرين بالترتيب في حين دفع شابٌ لا يعتقد جان أنه قد رآه يوماً القذارة بالمكنسة. جرح أحد اللصوص نفسه وهو يكسر زجاج الواجهة مخلفاً سحباً من الدم على منضدة البيع، أما في المرحاض، فقد تقيأ أحدهم قرب الحوض. كانت المهمة متعذرة المنال، زد على أن الساعة تدق الرابعة صباحاً فهُزم الجميع أمام النوم أما جورج بورير فقد اختفى.

سحبوا الباب المعدني وقوّموه كيفما كان. تتجمع على الرصيف جثث الزجاجات بكومةٍ مدهشة. أطلق براين دعابةً بلحظةٍ ما فأدخل الضحك لقلوب الجميع. فجأة شعر جان بالعزاء وكأن هذا الحفل البائس والعنيف قد وضّح كل شيء وبيّنه. إنه شكلٌ من أشكال الوداع للندن لتلك المدينة المعتمة والقاسية والعابرة. دوامة المهاجرين الذين أتوا من أحد الجوانب عبر محطة فيكتوريا نحو كل هوامش الامبراطورية تبعثرت وتفككت وتم طردهم كالماء الآسنة السوداء تتغلغل في ثقوب فيض.

أغمضوا أجفانهم قليلاً في أنحاء الغرفة الكبيرة حيث غلبهم النعاس. انضم كلٌ من جان وأليسون وبراين وبوبل لبعضهم البعض مفترشين الأرض متكئين على الوسادات. بقي فقط الشاب الأسمر الطويل ساهراً على الدرج صامتاً يدخن سجائره كهندي من أميركا. توحي أمواج

---

(1) – Pouilly-fuissé et Chablis: مدينتان شرق فرنسا تشتهران بالنبيذ الرفيع.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

السيارات المتدفقة على طول جامايكا أننا في موكب طويل انطلق من مكانٍ ما ويصل لمكانٍ مجهول.

افترق الجميع مع بزوغ الفجر، ستأتي الشرطة لا محالة. سحب جان باب الدخول وأدخل المفتاح في ثقب صندوق البريد. أخذ جان حقيبته يوم أحدٍ شمسه مشرقة وضع فيها كتب محاضراته وكتب الفلسفة والهرمونيكا الصغيرة التي قدمتها له أليسون كتذكار عندما ذهب إلى بيكنهام، إنها لا تساوي دون شك الناي الفضي الذي اصطحبه جان أود معه لينضمَّ للثورة، حسبما روت كاتي مارو، لكنه أيضاً أقل إرباكاً.

ثم غادر.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مذكرات (يتبع)

١٨٠٥:

٢١ شباط:

وصول سفينة القراصنة "لابيلون"، الريان بيرود مع غنائمها: لوريان "الشرق" و(لوميلوفيل" بحمولة ٨٠٠ برميل وسفينة لالادي بينتيك.

٢١ نيسان:

عودة سفينتي لابسيشي و" لابيل بول أي الدجاجة الجميلة".

أيار:

وصول سفينة القراصنة نابليون ذات ٣٠ مدفع، الريان "لونوفيل".

كانون الأول:

وصول "روبوست" بغنيمةٍ ثمينة "سوركوف".

١٨٠٦:

١٥ شباط:

مغادرة سفينة القراصنة "لومانشو".

٢١ شباط:

إعصار في جزيرة بونابرت، استعادة سبع سفن غارقة.

٢٥ شباط:

وصول الحرّاقة "لاكانونيير" الكابتن "بوراين" وفي ٢٧ عودة "مانشو" مع ثمانمئة ألف قرش كغنيمة.

٢٢ آذار:

وصول الحرّاقة "لابيمونتيز" الريان لويس إيبرون دو سانت مالو، مع الغنيمة وارين - هاستينغو ١٢٠٠ برميل و٣٠٠٠٠٠٠ فرنك من الشاي.

٢ آب:

غادرت سفينة القراصنة "دوسور أي الأختين" ميناء باتجاه الصين.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كانون الأول:

إعصار.

١٨٠٧:

٨ شباط

إعصار انتزع صواري سفينة "لاسيميلانت". غرق رحلة بحرية إنكليزية قيل أن على متنها ١١٠٠ شخص.

٢٨ شباط:

إعصار

١٠ حزيران:

عودة روبرت سوركوف على متن قاربه الجديد "لوروفونا أي العائد". احتشد الناس عند الميناء للتصفيق له، على مقدمتها رسمٌ غريبٌ لأحد الأموات يبعد حواجز نعشه.

الرابع تشرين الثاني:

وصول السفينة الإنكليزية "آن" التي اختطفتها السفينة الحرّاقة "لاكريول"، الربان "ريبو مونتودوفيرت".

١٨٠٨:

٦ آذار:

وصول سفينة "لامانش"، القبطان دورفال، بغنيمة ثمينة من نبيذ بورتو والنسيج.

١٦ آذار:

عودة بويـﬞ الذي يبيع غنائمه على المرفأ ١٩ سفينة بيعت الأغلى ثمناً بـ٣٠٠٠٠٠ فرنك.

٢٨ نيسان:

مغادرة "لافينوس" و"لاكريول" و"لانتروبران" في الساعة الثامنة صباحاً.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تعلو خفقات قلبنا حين نطأ مكاناً بعد طول غياب وكأنها لحظات تلت الحرب. نتقدم في الشوارع ونحن نستنشق عبقها نتقفى الآثار القديمة، نترصد الأصوات المألوفة ونصعد القنوات. مازالت شوارع حي المحطة فارغةً وعديمة النفع.

مقهى الفنانين بواجهته الكئيبة وستارته المصفرَّة التي تخفي عن عيون المارة القاعة الكبيرة التي غالباً ما يشغلها مجموع المالكين. هاهو فندق بريجس حيث عمل جان كحارسٍ ليلي بمدخله المهدَّم والمزين بتماثيل نسوةٍ بدينات إلى جانبه بيت الدرج من الشباك الحديدية. أوصدت أغلب المتاجر ومستودعات المكانس الكهربائية ومصانع البطاقات وقوائم الزواج وبائعي التبغ وكذلك بائعي الألوان وبائعي الأقمشة والمصابيح الكهربائية أبوابها في وجه أواخر الصيف فصلٌ يكون فيه الظل حاراً. يشبه قطران الطرق المعبدة البحر والبحر مثقل يطفي عليه لون الزفت. هو الفصل الذي بعث في قلب جان قديماً ضيقاً لا يقهر كاقتراب الربيع.

هام على وجهه في الطرقات دون أن يقصد حقاً هدفاً أو باباً أو رقماً. غالباً ما تتغير واجهة المتجر الصغير حتى لم نعد نعرف إن كان "تيمي" أو "كوديك" أو "كازينو" أو "بون لي أي الحليب الشهي". أُنزلت الستارة الحديدية وألصق عليها بشكل مائل لصاقةٌ ممزقةٌ بعض الشيء: "مغلقٌ بسبب الجرد"، أما تاريخ إعادة الفتح فقد التهمته أشعة الشمس.

أُصيب جان بالغثيان حين وطأ شقة والديه أمس. لم يتغير شيءٌ هنا ولكن لم يعد شيءٌ كسابق عهده. يعبق الجو الحار جداً برائحة العفونة والغبار. لم يعد والد جان قادراً على الحركة وهاهو متجمعٌ في كرسيه، يمضي أيامه جالساً على أريكته المتحركة متجهاً نحو النافذة معلقاً ناظريه بجدار المبنى المقابل الضارب للصفرة. إنه لا ينبس ببنت شفة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

فقد قضمت هجمة المرض كلامه وجعّدت أساريره، تجمدت على وجهه النحيل ابتسامة هامدة وارتسم ضيقٌ أسيلٌ فُتن جان بجماله. إنه يشبه الآن جندي في الجيش الاستعماري، زمن حرب كلاب الصيد، حين واجه القائد الأعلى لينقذ حياة الإرهابية الصينية "لي مانج". هذه الحكاية التي كانت أسطورته ومجده وفشله والتي نفته كسير الجناح ومريضاً إلى أوروبا. نما شعره الطويل الأبيض متهدلاً على كتفيه وشُذبت ذقنه بالمقص أما شعر حواجبه فبقي كثاً. اعتذرت شارون بالقول: "لم يكن يريد لكن لم يعد بوسعي أن أحلق له، أنت تفهمني؟".

قبلت جان قبلة طويلة وعانقته وقد اغرورقت عيناها بالدموع قالت: "لن تغادر مجدداً؟" بدت محبطة ومتعبة. حاول جان أن يدخل الطمأنينة والسلوان لنفسها. شاركها وجبة العشاء رز أبيض مع بريْد[1] بالكاري. سألته شارون: "ستحاول تسوية وضعك بالخدمة العسكرية أليس كذلك؟". فراوغ بالإجابة. الآن وبعد أن حطت الحرب أوزارها، لم يعد لذلك أهميةٌ كبرى، بل لعله أمرٌ منسيٌ. عانق جان والده فشعر كم أصبح هذا الجسد خفيفاً. مدّ له يده فتعلق والده بها بكل قوته وكأنه لن يفلتها أبداً. ابتسم جان وقطّب جبينه متأثراً لفكرة أن كل قوة هذا الرجل ارتمت بين يديه.

مازالت "لاكاتافيفا" كسابق عهدها، تم تركيب مصعد، شغل قفصٌ مرعب حديدي رمادي اللون بيت الدرج. بالطبع هناك أسماء جديدة على الصناديق البريدية لكنها تتالت بإيقاعٍ يستحيل من خلاله تمييز إن لم يكن السكان القدماء قد عادوا "انيزوني، فيلاردو، جيرفازي، ماتيوتي، بن عمار، ليوتكيوس وروميغا ورازالي".

---

(1) - بريْد les brèdes: تدل على مجموعة أوراق النباتات التي تؤكل بعد الطهي وهي كلمة مقتبسة من اللغة البرتغالية.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تجاهل جان المصعد وارتقى الأدراج ببطء شديد كما مضى تتعالى خفقات قلبه. لا يتسبب أي مكان آخر وأي منزلٍ آخر بخفقان قلبه كما يفعل مبنى "لاكاتافيفا"، فكر بالكليشة التي يعيدها العاشق على مسامع عشيقته التي سيلاقيها في ظل أحد السطوح. بالنسبة له تعده هذه الغرفة بالنشوة والمتعة.

كانت شقة العمة كاترين الصغيرة المسقوفة عالمه الطفولي بكنوزها الغامضة التي تعود لزمن روزيليس، ودون شك أيضاً الباب الموصد على لغز أورور دو سوميرفيل.

هاهو الباب الذي يهتم لأمره أمامه بالضبط، مازال اسم "أدهيمار دو سوميرفيل" محفوراً على الصفيحة النحاسية الجميلة. لكن عائلة "جندر" هربت منذ وقت طويل عندما غادر إلى لندن، ذكرت أمه له ذلك في إحدى رسائلها. غادر السيد والسيدة جاندر دون ترك عنوان لهما، أما أورور فقد استقبلتها مؤسسة دينية للمعوقين. شغلت الشقة الآن محامية، علّقت بجانب الصفيحة النحاسية بطاقة كتب عليها: السيدة ميريل أنزيوني محامية في المحكمة. أخذ اسم عائلة "سوميرفيل" طابعاً غريباً وكأن ذاك الزمن لم يكن موجوداً وأنه ليس سوى حلماً معقداً في خيال صبي صغير.

لم يكن المصعد يصل حتى الطابق الأخير فبقي الدرج فيه على حاله، مفكك الآجر والندبات تملأ مقدمة درجاته. لم تتحرك أبواب غرفة السطوح فالحداثة لم ترتقِ إلى هذا العلو. حطّ الجبصين والديكور رحالهما عند الطابق حيث تقيم المحامية وحتى عمليات التنظيف. ينثر الزجاج المخفي خلف محرك المصعد نور النهار المغبر. لمح جان أسفل الباب الشعاع الأصفر الذي أحبه قديماً عندما تغيب الشمس ناشرةً النور في غرفة العمة كاترين بقي جان لوقتٍ طويل أمام الباب يترصد الضجيج في المبنى. صخب أطفال صادرٌ عن الباحة وعواءٌ ضعيفٌ لكلب

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

في مكان ما في الطابق السفلي، هذا كل شيء. لم يعثر على ما يتعلّق به ليبحر إلى الزمن الماضي. أكثر ما تفتقد إليه الذاكرة هي الأصوات والروائح وكأنها العناصر الأكثر الواقعية جوهر الزمن الضائع.

يطارد جان في الشوارع الروائح حين يهيم على وجهه بعد الظهر من كل يومٍ منذ عودته. يفوح عبق المازوت والمشريات[1] وزيت الزيتون من الماء الآسن في البرك حول المرفأ. لم تعد هناك حزمٌ من الفلين حمراء اللون على الرصيف منذ أيام الحرب وحتى صفائح الزيت باتت أكثر نُدرة. فيما مضى، كان الأطفال النحيلون يلعبون عند هذا الينبوع الذي تحول الآن لحوضٍ جافٍ مغطى بالقذارة. يغفو بعض المتسكعين في فيء أحد الجدران الصخرية ممددين على قطع كرتونية. ناداه أحدهم بلغةٍ لم يفهمها لعلها مجرد قرقرة كحولية، رجلٌ بأنفٍ مكسور ويد بالجبيرة ووجه مقشور أما عيناه فتلمعان بلونٍ أصفرٍ فاتح جداً. أوسعه المتسكعون ضرباً في إحدى الليالي لا يدفعهم سوى الرغبة بضرب إنسان هكذا على سبيل الصدفة، أعطاه جان قطعة نقدية دون تأخير، ذكّره بكورنارد إيفتشوشنكو في محطات المترو فعلت الغصة قلبه، إنه لا يعرف عما يبحث في هذه الشوارع وهذه المدينة، ربما يحمله الحنين، ضيق المراهقة حين كان يبدو له كل شيء دون نهاية وتضيع الجادات التي لا نهاية لها في الضباب البنفسجي عندما يرخي الليل سدوله. وصل إلى حديقة أوليفيه. بقيت السماء هنا بكراً والبحر يتلألأ بين أوراق الشجر حيث تصدح الشحارير بزعيقٍ مثيرٍ للقلق، لكن الأبنية قد اجتاحت كل مكان حتى وصلت للحاجز الحجري حيث كان يأتي ليجلس ويقرأ كتب الفلسفة ويراقب حلقات العشاق، وكأن الفلسفة قد سُحبت من هذا المكان ولم تترك سوى المظاهر ووجودٌ دون تاريخ.

---

(1) - المشريات: نباتات خلوية أي مركبة من خلايا مجتمعة ليس فيها ساق ولا جذر.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

العمة كاترين محتجزة في إحدى الدور عند مخرج المدينة في نهاية الوادي المشهور "أوبسكور أي معتم". هو أمرٌ طالما تم طرحه ويكفي مغادرة جان إلى إنكلترا لتنفيذه، وصلته رسالةٌ من والدته ممهورةٌ أيضاً بتوقيع والده بيدٍ مرتجفة. استُهلت بالكلمات الآتية: "نعم نحن نعلم أن هذا الخبر سيدخل الحزن إلى قلبك ولكنه أصبح أمراً لا مفرّ منه". فبعد الحادث الذي تعرضت له، استحال أن تعيش بمفردها تكابد الضرارة والوحدة زد عليها المشاكل الصحية التي يعاني منها والد جان والصعوبات الاقتصادية، كما يهددها "بابا" بالطرد، ففي أحد الأيام عندما كانت العمة كاترين تحضر عشاءها نسيت أن توقد الغاز فقفز الفرن، و ارتطم بابها في الجدار المقابل وتحطمت النوافذ بشكلٍ دائري. وصل رجال الإطفاء وسدّوا مصدر الغاز. بدأت العمة بالطهي على الغاز الكهربائي الدائري فاحترق الرز والعدس فلعنت الكارثة. لاحقاً قررت الكارثة كل شيء، الحل الوحيد المقبول كان في إيجاد مكان لها في منزلٍ تشرف عليه الراهبات وبذلك تتمكن العمة من حضور القداس كل صباح.

بعد ظهر كل يوم حوالي الساعة الخامسة، يأم جان حديقة جوزافات كما كان يفعل في الماضي في "لاكاتافيفا". جوزافات هو اسم بيت الراحة ويمكن أن يسمى أيضاً "بيتاني" أو "بيت – فاجي" أو "جينيزارت". يتجه نحو القاعة الكبرى، قاعة النشاطات حيث تلعب المقيمات باللوتو بانتظار وقت العشاء. ميَّز العمة كاترين عن بعد جالسة على الكرسي منتصبة الجذع مرفوعة الرأس. لا تلعب باللوتو ولا تصغي للموسيقا حتى لا تتحدث. عندما اقترب جان منها، لم تبدِ أي ردة فعل، لكن هناك شيء ما انبسط في أساريرها وكأنها أدركت بفطرتها أنه أتى. علاوةً على ذلك فقد انكمشت يداها باعتلال المفاصل. حطتهما الواحدة بالأخرى جامدتين في حجرها.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يسود الضجيج في الصالة ويطلق لاقط الصوت معزوفات قديمة. "كلافو" و"باتاشو" و"غيتاري".. تشكلت حول كاترين فقاعةٌ من الصمت، سورٌ خفي يعزلها ويحميها.

جلس جان قبالتها وأمسك بيديها، مازالت بشرتها جافة وراحة كفها قاسية. يرغب بمعرفة الكثير، في جعبته الكثير من الأسئلة ليطرحها. يغلق الزمن كل يوم وفي كل ثانية والألغاز القديمة مازالت كامنة.

"هل تذكرين الأيام الأخيرة في روزيليس، أيتها العمة؟ عندما ركبتم العربة ومعكم كل الأمتعة نحو "روزهيل". لم تخبريني لماذا أبحرتم بالقارب إلى فرنسا برفقة والديك وماتيلد، لمَ لم تبقوا في إيبين في منزلٍ آخر. ولم تخبريني أيضاً حين انتقلتم إلى بوردو أين أقمتم. ثم وصلتم إلى فرنسا بعد الحرب عام ١٩١٨، لابد أنه زمنٌ شديد القسوة. في شهر كانون الأول لم يكن بحوزتكم ملابس شتوية دافئة وبعد ذلك بقليل انتقل جان شارل لرحمة الله متأثراً بالكريب الاسباني وكذلك "ديزيريه" والدتك التي توفيت هي الأخرى في المستشفى العسكري، ولا أحد يعلم أين كان مثواهما الأخير.".

حان دور جان الآن بالكلام بعد أن أصبحت ذاكرة كاترين بين يديه، ربض كل ما شهدته وكل ما عرفته في قلبه، إنه يتكلم بهدوء رغم الغوغاء التي تعمُ قاعة النشاطات متحدياً كلمات أغنية "حدثني عن الحب وعن المكسيك"، يحدثها بنفس الصوت الذي روت به. أحياناً كان يخترع ويحلق على جنح الأحلام بصوتٍ مرتفع: "يوم الرحيل، هل تذكرين، أيتها العمة! لقد اصطحبتي ماتيلد إلى الحديقة واختبأتما. كان كل شيء جاهزاً والعربة مليئة بالعلب الكرتونية والصناديق والملابس والأواني. قلت لماتيلد حينها: "صه! انتظري قليلاً أيضاً، لا تذهبي على الفور". ووالدتك تناديكما وجيلدا غاضب! هل تذكرين، قضية المركع حين قالت والدتك للبواب: "خذ كل ما تريد ولكن اترك لي مركعي". لابد أنه كان

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أثاثاً مميزاً، أليس كذلك؟ أو بالأحرى شيءٌ قديمٌ مزينٌ بالمخمل القرمزي والعماد الصغير الذي اهترء بين يديها. أنت وماتيلد، ذهبتما خلال ذلك الوقت إلى الوادي، بعيداً جداً إلى طرف الكون لآخر مرة. كان الحرُ مرهقاً وتتربص بكم العاصفة، جافى النوم الجميع هاتيك الليالي".

ما تذمرت العمة كاترين، أصغت دون أن تؤتي بأي حركة. كان جان واثقاً أنها تستمع لكل ما يقول فعندما توقف ليلتقط أنفاسه، شدّت بخفة على يديه، مجرد دفعة، هزةٌ تشبه رعشة النوم.

"ليلة رأس سنة ١٩١٠ أمضيتِ برفقة ماتيلد الساعات الأخيرة في الغابة لئلا تسمعان الضجيج المشؤوم للتحضيرات والصناديق التي يتم تثبيتها وصوت المنشار الذي يقطع خشب الأبنوس بغرض بيعه. لم ترغبي برؤية شومان مندوب أصحاب البنوك الذين حملوا كل شيء حتى البيانو الذي كنت تداعبين أوتاره، حتى الشمعدانات المذهبة المعلقة عالياً بل حتى المنضدة الصغيرة التي نحتها جدك شارل بالخشب الأسود من أعالي الجبال. عدت مساءً بعد أن انتهى كل شيء وأخبرتهم أنك لن تحملي شيئاً. في اليوم التالي، أرسل فريقاً من الحطابين لقطع كل الأشجار لأنه يريد جزَّ كل شيء ليتحاصصوا وفي كل مرة تقع قطعة من خشب العنب الأسود كان له صدىً كصرخة ألم فتسدين أذنيك لئلا تسمعينها ...".

لم تكن قاعة النشاطات في جوزافات هي المكان المرام لاختراع ماضي روزيليس مع كل هذا الضجيج والنساء الذاهبات والعائدات ورائحة القهوة والحساء وأيضاً تلك الموسيقا العابثة التي تحلّق في الفراغ: Trenet, Rossi, Mariano. هل كانت "الغراموفون" تصرُ هكذا في اليوم الأول من كانون الثاني عام ١٩١٠؟

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

"كان عمرك عشرون عاماً وبالكاد تجاوزت ماتيلد السادسة عشر. غفت حياتكما بأسرها هناك في الغابة وبين الشلالات ومع مجرى النهر ومعبد آرانياني في طرف العالم. ما عرفتما شيئاً آخر وما رغبتما بشيء آخر. كان عمر جدي هيري في تجاوز الخامسة والعشرين و سافر إلى فرنسا لدراسة الحقوق كان بعيداً عن روزيليس. قال حين علم أن منزل روزيليس سيباع ويدمر: "الآن، أرغب بالبقاء بعيداً ولن أفكر بالعودة أبداً". لم يكن الأمر كذلك بالنسبة لك ولماتيلد، لا خيار آخر لكما، مكانٌ آخر تلوذان إليه، وكذلك الأمر بالنسبة لوالديك ووالدتك، هبطت الكارثة على هامتهما كالموت الزُؤام، كأشجار الأبنوس والخشب الأسود التي تنتظر أن تقطع. إذاً سددت أذنيك وبقيتِ مع ماتيلد في الحراج حينها كنتما "رجال الغابة" ولدى عودتكما، كان الجوع يقضُ بطنيكما الخاوية كحيوانات تائهة، علق بفستانكما العشب والشوك، وددتما لو تلملما بين يديكما وللمرة الأخيرة عبق الغابة وضوع روزيليس".

لم يعبِّر وجه العمة كاترين عن أي ردة فعل، ربما مجرد نور داخلي ساطع منذ أن توقفت عن الكلام. حدثت الكارثة منذ خمس سنوات خلت، منذ أن رحل جان هرباً من براثن الحرب. عثرت عليها السيدة روزيلا وقتئذٍ على أرضية المطبخ المربعة تمسك بيديها القدر الصغير الذي تطهو فيه الرز، اعتقدت السيدة روزيلا أنها قد لفظت أنفاسها الأخيرة، فرتبت أمورها حتى تسلم لأيدي الموت، مدَّدتها على الأرض وصالبت يديها على صدرها، في تلك اللحظة تنفست العمة كاترين وارتجفت أهدابها. طلبت السيدة روزيلا رجال الإطفاء أما العمة كاترين فقد مكثت أشهراً عدة في المستشفى ولدى خروجها، كانت عاجزةً عن السير والكلام. إلا أنها بقيت تجيب على كل ما يقال لها إذ تشدُّ يديها النحيلتين بقوة وتحرك جفنيها كرعشة جناح فراشة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

رغب جان بالإمساك بالزمن الهارب. فيما مضى حين غاب وامتنع عن المجيء إلى "لاكاتافيفا"، لم يكن لكل ذلك من أهمية تذكر. كانت العمة كاترين تكمل جملتها وكأنه قد غاب لربع ساعة لا أكثر مجرد جولة في الحي. هي التي علمت جان أن الوقت لا يحصى وأن اختراع الساعة كان ذريعةً سيئةً.

أما الآن فبات من الصعب عليه أن يلعب هذه اللعبة. إنها قاسية تفوق قواه حين يمضي كل شيء بكل لحظاته وأوتاره وأشياءه التي اختفت، وكل ما خبا ولن يعود يوماً وكل ما انمحى.

يشعر جان أحياناً بالدمع يفيض في عينيه، يشده الشوق ليتابع هذه اللعبة الطفولية، أن يتظاهر أن ما حدث شيء وكأن العمة كاترين ليست في طريقها إلى الغياب.

"أتذكرين يا عمة، عيد رأس السنة؟ كان الحر خانقاً والزوابع تتوعد من بعيد، تودِّع الوجبة الأخيرة روزيليس حيث حضَّرت ديزيريه المائدة في الخارج في ظلال أشجار "الجامروزا" وكأن الأمور تسير بمجراها العادي، وكأنكم تمضون نزهة بكل بساطة، حضَّرت والدتك على الموقد دجاجاً مشوياً لا أدري من أين أتت بتلك الدجاجة، بعد أن فكك القُن منذ زمن طويل وتم بيعه. طهت الدجاج بالفرن المصنوع من القرميد خلف المنزل حيث كنتم تصنعون الخبز منذ ولادة منزل روزيليس، حضرته مع الفاصولياء والذرة وشوت البطاطا الحلوة مع ماء القصب. أترين أنا أذكر كل شيء وكأنني كنت حاضراً هناك، لقد كانت وجبة الغداء الأكثر غرابة والأكثر طرافة ليوم رأس السنة، تخيمون كالبوهيمي المتنقل أمام المنزل الكبير الفارغ قرب البغال المربوطة التي نفذ صبرها. أطلق سيمون وجيلدا المفرقعات بعد الغداء بحضور "هيرفي" وزوجته وجدتي "سيسيل"، بالكاد كان عمر والدي "رايموند" ثلاث سنوات، لابد أنه كان يراقب كل شيء بعينين مندهشتين. عدتِ أنتِ وماتيلد من

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

نزهتكما بالغابة وجلستما لتناول الطعام، لم ترغبي بالبكاء، وقلتِ لي أن عينيك بقيتا جافتين لئلا يفرح شومان والمصرفيين برؤية دموعك تنهمر. فرِغتم من تناول الوجبة حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر وشربتم آخر زجاجة نبيذ ثم غادرتم تاركين وراءكم الأواني على المائدة والكؤوس تقريباً ممتلئة وكأنكم تريدون أن تقولوا للناس القادمين أن لا أهمية لكل هذا وشرعتم برحلة المنفى بعيداً عن هذه الجزيرة بعيداً عن الأشرار وعن عمليات النصب الصغيرة".

إن النهار يشارف على النهاية، لتبسط حديقة جوزافات الحر مع كل مساء وكأن الشمس ستتوسد حقاً الأرض. يلملم الغسق ضوضاء السيارات تحت جنحه أو لعله هدير البحر الذي تلاشى. أغلق جان عينيه فرأى حديقة روزيليس. هاهو تحت العريشة يتأمل أوراق الشجر ويميز بوضوح نداء طيور الفاوند.

رن جرس جوزافات معلناً حلول صلاة التبشير، فارتعشت كاتي، إنه الصوت الوحيد الذي ينثر الرعشة في جسدها. دفع جان كرسيها على طول الممرات حتى باب الكنيسة لتسمع الصلوات. ذاب كل ما تبقى فهو مجرد مظاهر. لم يبقَ سوى ذاك الصفاء المنبعث من ذلك الثغر الصغير في نهاية الممر الطويل ليعلّق هذه المرأة المسنة الضريرة بالحياة.

ترك جان الكرسي في نهاية الكنيسة وتراجع بهدوء في الظل حتى لامس ظهره الأبواب الصافقة والتي تغلق مصدرة صريراً يخدش النغم البطيء جداً الذي ترتله الأخوات أمام المذبح. أُوصدت الأبواب وجان في الخارج.

التقى جان طيلة الشتاء بمريم في "مقهى الفنانين" وهو مقهى قديم بزجاجٍ مشدوفٍ مع شرفة ما بين أعمدةٍ تعلوها تيجان، يبدو أن "غوستاف إيفل" هو من صمم الرواق الخارجي. إنه ليس مقهى للشباب.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يسود الصمت حين تنتهي المطربات من عرضهن. لا يوجد لا فيلبر ولا صندوق جوك[1]. تقتصر الأصوات على هدير السيارات وموجات ضجيج تنبعث من الأحاديث وقت الشاي.

ضربت له مريم موعداً في تمام الساعة الثامنة بعد خروجها من الدروس. يا لحسن الحظ، قال جان في سره، بعد الزيارة إلى جوزافات وبذلك لن أهدر وقتي. مريم طالبة في آخر سنة في ثانوية الفتيات، ستحضر لفحص البكالوريا بالفلسفة. لا أهمية لهذا بل لم يكن موضوع حديث. عندما التقى مريم للمرة الأولى حدثها عن مشاريعه وعن رحلته إلى المكسيك، سألها هل هي من هناك أم من أميركا اللاتينية. كانت تقف على رصيف المحطة وهو عائدٌ من لندن، لفته وجهها الناعم شديد السمرة ولون عينيها. سارا معاً جنباً إلى جنب على الرصيف، سألها ككاسحٍ صامد: "هل يسعني أن أرافقك بالسير؟ فأجابت دون حياء: "نعم لو شئت". عمرها ثمانية عشر عاماً وعمره ستة وعشرين فشعر أنه هَرِم.

منذ عودته من لندن، وهم يلتقون كل يوم تقريباً. لم يكن لديه ما يشغله آنذاك. أمامه ستة أشهر ليقدم على تأجيله من الخدمة أو يصبح متخلفاً. سأل مريم: "هل تعرفين السويد؟" فهزت رأسها، حدثها عن أموريتو الذي أقام في ستوكهولم وتزوج هناك. فطرحت عليه أحجيةً: "هل تقول لي أنا من أين؟"، تردد ما بين ترهة وفداحة: "إسبانية، ربما؟" ضحكت حقاً وقالت: "ابحث نحو الجنوب"، ثم خلصت باختصار لتقول بمرة واحدة: "أنا من القبيلة، جزائرية، ولدت في وهران". وأخذت بالوقت نفسه وضع التحدي وكأن ذلك يشكل اختلافاً حقاً.

---

(1) – صندوق جوك: آلة باسم مخترعها وهي عبارة عن صندوق يوضع في المحلات العامة يختار الناس ما يشاءون بعد إنزال قطعة نقدية في ثقب خاص.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وقع اختيارها على مقهى الفنانين، كانت تحب الرفاهية والفنادق الجميلة والمطاعم المترفة إلا أنها لم تكن تجر ذيول الخيلاء في مظهرها، شعرها مربوط بقطعةٍ من المطاط وأظافرها قصيرة جداً ولا تتزين بأي حلية سوى خاتماً من الذهب الأبيض أو البلاتين حتى لا يوجد قرطٌ للأذنين مع أن شحمة أذنها مثقوبة. لم تكن طويلة القامة بل و نحيلةٌ جداً، ترتدي كل يوم بنطال جنز وكنزة مفتوحة عند الرقبة. لقد كانت أكثر الأشخاص الحقيقيين الذين قابلهم في حياته، فمنذ سنوات في هذه المدينة أو بعيداً عنها لم يقابل سوى صوراً و خيالات. في يوم عودته بالذات التقى صدفةً بطريقه بالشخص الذي طالما رغب بلقائه، امرأةٌ مزدوجة فهي تشبه غيرها لكنها مختلفةٌ تماماً بآن واحد.

قال بغباء: "أود عبور الصحراء"، نظرت إليه بعينيها الصفراوين الصافيتين "أتعلم أني ما وطأتها قط". كانت تدخن بعصبية كتلميذة مدرسة، تسحب نفساً عميقاً وتزفره على الجانب، بلطفٍ بطرف شفاهها، ثغرها رائعٌ.

"كان عمري ثمانية أعوام إبان الحرب، كنا نعيش وسط وهران، كانت والدتي سقيمةً فلم تكن تخرج أبداً، يطرق الموت باب أفكاري طيلة الوقت. في أحد الأيام صباحاً، خرجت كالمعتاد لأشتري بعض الحاجيات و أحمل الخبز، رغيفين كبيرين من الخبز يكاد يكون حجمهما أكبر من حجمي. كنا نفتقر للمال فما كان بوسعنا أن نشتري سوى الخبز. لدى عودتي من المخبز كان علي عبور طريقٍ عريض يعجُ بالحركة. فجأة، توافدت دبابات الجيش الفرنسي أو لعلها كانت مدرعات، لا أعلم. إلا أنني مازلت أذكر ذاك الضجيج الصادر عن دواليبها عند مدخل الجادة وتلك الغيمة السوداء الهاربة من ثقل دواليبها، انبعثت رائحةُ دخان لاذعة".

يصغي جان لمريم بينما يلمع نور الليل على كل زجاج النوافذ فينثر انعكاساً مغبَّراً كالرماد على شعر مريم ويضيء وجهها ذا اللون البني

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كالخشب. أقبلت للتو النادلة وهي امرأة ثقيلةٌ الحركة وتبدو عدائية، وأحضرت الطلب. نظرت إلى مريم ثم وضعت كؤوس المياه المعدنية على قطع الكرتون الدائرية ووجهت لجان هذه الكلمات: "هاهي كوكوبيل ويل"، لكنه لم يؤتِ بأي حركة.

تابعت مريم حديثها وكأنها لم تسمع شيئاً لعلها اعتادت:

"بدأ الناس يتراكضون خبط عشواء أما أنا فما فهمت لقد كنت صغيرةً جداً وبقيت وسط الجادة متشبثة بالخبز، رأيت قافلة المدرعات مقبلة نحوي، اقتربوا كثيراً حتى أنني لمحت عيون الجنود من كوة الرمي، ثم لا أدري ما الذي جرى، كادت الدبابات تعبر فوقي لكن أحداً ما، رجلٌ لا أعرفه هرع نحوي، أمسك بخصري ورماني على أحد الجوانب. سقط رغيفي على الأرض ودهستهما المدرعات، بكيت لا لأنني خفت فلم أفهم وقتها شيئاً، بكيت لأن خبزي قد دُهس ولم يعد لدي شيء أحمله إلى المنزل".

كان جان يصغي ويتخيل بنفس الوقت مريم وهي في الثامنة من العمر بصدّار على فستانها القديم ذي الدائر، تنتعل صندلاً، تتلاعب ضفيرتي الشعر الأسود على كتفيها. فكر فجأة بسانتوس وكيرنيس لعلهما كانا في موكب الدبابات الذي عبر ذاك اليوم في الشارع المركزي في وهران.

"بعد ذلك، ساء وضع والدتي. أتى والدي إلى فرنسا واصطحبني معه لدى حصوله على عقد عمل في أحد المعامل. أقمنا عند أخيه سعيد قرب باريس في رومورانتان. توفيت والدتي لكن والدي أبى أن أعود إلى الجزائر بعد أن اندلعت الحرب، عهدت بي جارةٌ في منزلها برفقة زوجها، عائلة "مانسيت"، ترعرعت في كنفهما. كنت بالنسبة لهما الابنة بعد حرمانهما من الأطفال، كنت أدعو السيدة بانسيت "ماما لو" فاسمها ماري لويز، أقمنا في منزلٍ في أحد الضواحي في "جوان فيل لوبون". ما

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

التقيت بوالدي سوى لمرة أو مرتين خلال العام في العيد مع نهاية شهر رمضان. توفي والدي أيضاً عندما أتممت الرابعة عشر إثر حادث سير، كان يقود شاحنة لتسليم بعض المواد لكنه قضى حتفه في مكانٍ ما قرب ليون، ولم أعرف حتى أين وارى الثرى، هذه حكايتي. لا أدري لماذا رغبت بسردها على مسامعك، عادة لا أتحدث عن هذا لأحد أبداً".

شارف مقهى الفنانين على الإغلاق فشرع كلٌّ من مريم وجان بالبحث عن زاويةٍ يلجآن إليها بحلكة الليل، أطفأ النُدل الأنوار في حانات المدينة ووضعوا الكراسي على الطاولة، أما الملاهي فقد عجَّت بالناس والضجيج والدخان. استقلا الحافلة نحو المطار، تبقى قاعة الانطلاق مفتوحة للرحلات الليلية، هناك مقاعدٌ من المولسكين الأزرق وطاولات منخفضة مغطاة بالجرائد. مكانٌ لا إشارات فيه وكأنه محطةٌ تائهةٌ في الفضاء في الطريق نحو الفادوسانتورا. غفا الناس على المقاعد رغم نور الكهرباء والصرير الرتيب للدرج المتحرك الذي يتحرك وحده.

أغلقت كافة المكاتب أبوابها، ينتظر المسافرون طيارة الفجر إلى "تل أبيب" أو إلى باماكو"، أو متشردون من التيبت تم توقيفهم على الحدود، أحدهم شابٌ شديد السمرة، أنفه مكسور، شعره أسود طويل ومربوط أما وجهه فيشبه المنغولين. لم يغمض له جفنٌ، ظل يدخن بصمت جالساً على مقعده طول الليل. جلست مريم بجواره للتحدث إليه، أصغى إليها دون أن يكف عن التدخين ودون حتى أن يجيب بكلمة أو بمقتطفاتٍ من الجمل. ابتسم مرة، قال لمريم أنه ولد في الجزائر، لكن والديه إسبانيان. غادر مع اندلاع الحرب، لم يكن قد تجاوز الثانية عشر بعد، فأبحر سراً على متن قارب إلى مرسيليا. لم يعد إلى هناك لكنه يظن أنها خوت على عروشها، لم يجد أثراً لوالديه لعلهم رحلا إلى إسبانيا أو إلى المكسيك. قام بعدة أعمال حتى أنه صور في أحد أفلام رعاة البقر الإيطالية مقابل مبالغ زهيدة. ربما لا صحة لما روى، لابد أنه اخترع كل شيء.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تأمل جان مريم، إنها بعينيه رائعة الجمال تحت النور الذي ينشره المصباح، إنها تتقن التحدث إلى المجهولين، لا يتملكها الخوف من أحد، وجهها أملس جداً كحجر في الصحراء. خطر له أن هذه الفتاة ستغير هذا المطار الفارغ لمركب فضائي مغامر،إنها مثل جان لايربطهما الانتماء بأي مكان.

تحيي الحمى جسد هذه المدينة مع اقتراب الربيع. لن يغلبنا النوم، إنها الثانية صباحاً أو أكثر ومازال جان ومريم يتسكعان حول المطار. تعمل المومسات في الأزقة المؤدية إلى البحر، يرتدين تنورات قصيرة من الجلد الأسود وبوليرو مذهب، يضعن شعراً مصطنعاً أشقر اللون. تمر نفس السيارات أمامهن بمصابيح مضاءة فتلقي انعكاساً معتماً على النوافذ، ليسود انطباعٌ بالفراغ والصمت.

هناك، يتعلق الطريق في الأحياء الغافية. إنها ورشةٌ غير كاملة مع ذيولٍ طويلة من البيتون تنبثق فوق الأسطح. هذا الشارع الذي اجتاز "فالون أوبسكور" يعبر أيضاً أمام منزل جوزافات، تخيل جان أن كاتي في فراشها في الغرفة التي تتسع لثلاثة أشخاص، هامدةٌ كالرفات تسمع نفس زمجرة المحركات ونفس قرقعة الإطارات على جسر "بايليت".

وصل جان ومريم إلى أرضٍ مسطحة أعلى الهضبة أمام العلم الأزرق المنصوب دلالة على المطار. ياله من شعورٍ غريب، أن تكون هنا وهناك بآن واحد، أن تنتمي لعدة حكايات معاً. مريم، تلك الفتاة الصغيرة في وهران وتلميذة المدرسة هنا تترقب وقت الامتحانات. جان في لندن وفي إيبين عام ١٩١٠ بنفس الوقت، يوم رأس السنة عندما تأرجح كل شيء في أحضان الصدفة. والعمة كاترين في جوزافات وعيناها مفتوحتان كل ليلة على ذاك الفراغ الأسود الذي يعيش داخلها منذ خمسة وعشرين عاماً.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لم يتحدثا، جلسا على مقعد، اقتربا من بعضهما البعض كثيراً حتى تلامسا، لكنهما ظلا مستقلين كلّ في عالمه. شفتاها ناعمتان جداً، أسبل جان جفنيه، يرغب بلعق أنفاسها من شفتيها، لكنه لم يجرؤ.

ستغلغل الحياة بعد قليل في أوردة المدينة،و يتجمع الطلاب باقتراب التحضيرات للامتحان، بعد عدة أسابيع ستحصل مريم على بطاقة البكالوريا ليتم تحديد اسم المكان ورقم الصف. فكّر جان بالسويد وكندا والمكسيك، كل شيء جاهز لهذا الرحيل الجديد. لابد أن يرحل بعيداً قبل أن يبدأ الدرك بالبحث عنه. لابد من المضي قدماً في هذا البحث و وضع نقطة النهاية.. لكن ترى هل سيجد إجابة لدور هذه الدائرة أو أنه سيلاقي الإجابة بعيداً عنه جاهزة للقراءة؟

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لم تبتعد أورور دو سوميرفيل كثيراً. رماها ذاك الجندي العابر بعد أن نهل منها، كان ذلك جلياً للعيان. أما عائلة جاندر فقد ركبوا البحر بعد أن قبضوا ثمنها ورحلوا إلى الأبد. تتبع جان العلامات عبر سؤاله في المساعدات الاجتماعية حتى وصل إلى مبنى في بروفانس[1] بجدرانٍ لا طلاء يكسوها، يختبئ في بطن تلة في أحضان حقول الأقنثة[2]. لاذت أورور إلى هنا قرب أخوات "كارميل" بعد هروب عائلة جاندر الذين أثقلت الديون كاهلهم. وقَّعت والدة جان الأوراق بعد أن اضطرت للكذب متذرعة بأن قرابةً بعيدةً تصلها بهم. كما ساعدته مفوضية الإندوصينين القدامى. لقد كانت أيام "أدهيمار دو سوميرفيل" أيام مجدٍ وشرف قبل الانهيار عام ١٩٥٦. مازالت أورو تلك الفتاة الصغيرة الغامضة المغلقة في ماضيها، تلك الطفلة التي ولدت تحت الأمطار لم تكن الأمطار الحزينة والرتيبة لبلدان الشمال بل ذاك الوابل العنيف على حقول الرز ممزوجاً بالشمس والضحكات وصرخات الأطفال، رياحٌ موسمية حقاً. لعل هذا السبب الذي دفعهم ليطلقوا عليها اسم "أورور" أي "الفجر". كانت والدتها امرأة تافهة، جاريةٌ عبرت في حياة أحد الجنرالات وعندما أنجبت الطفلة أعطته إياها كما لو أنها شيءٌ ما أو كلبٌ صغير. غادر الجنرال بعد زمنٍ قصير، أبحر و في متاعه تلك اللعبة ذات العينين من السبج الأسود دون أن يثق من أنه والدها.

روت شارون لجان هذه الحكايا بعد عودته من لندن. لكنها لم تروِ له ما الذي جرى فيما بعد حين لاقى الجنرال حتفه إثر أزمةٍ قلبية وعمره يناهز الستة والستين عاماً بينما كان يحلق ذقنه بسكينٍ صغيرة في الحمام. بقيت الصغيرة أورور في إحدى زوايا غرفة المهملات في الشقة الكائنة في شارع "رين جان" واعتنى بها الزوجين جاندر، لم يهتم الجنرال

---

(1) – بروفانس: مقاطعة في فرنسا.

(2) – الأقنثة: نباتات معمرة ذات أوراق سنبلية مخرمة تستعمل للتزيين.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بأمور التبني كاملة، اقتصر الأمر على إعطائها اسمه كنزوةٍ رائعة. هل اعتقد يا ترى أن الاسم وحده يكفي؟ أصبحت أورور شيئاً بين يدي هؤلاء الناس المرعبين، الخادمة التي ما ملكوها قط فعرضوها للإهانة وانتهكوا حقوقها، يوماً بعد يوم ازداد سجن صمتها. مازال جان يذكر كل ما كان يروى، تلك الهمسات التي التقطها من زاوية الباب مختلساً السمع لبعض الحوارات الدائرة، مازال يذكر غضب العمة كاترين عندما تتكلم عن عائلة جاندر والطريقة التي يعاملون فيها أورور غضبٌ مفرط وعابثٌ لضريرةٍ تدور حول نفسها في المطبخ تتخبط بالأطباق والأواني وتكيل أولئك القذرين والدنيئين بالشتائم.

تلوح على هذا الباب الموصد في الطابق الخامس من "لاكاتافيفا" اللوحة النحاسية التي تلمعها السيدة جاندر بانتظام مع ذاك الاسم العجيب، المثير للسخرية، اسم هجران وترهات يخفي في طياته مأساة يتيمة تحولت لخادمة تتعرض لعنف ودناءة سادتها.

يذكر جان أيضاً أنه طالما توقف عند هذا الباب في طريقه للطابق السادس. يقترب على رؤوس أصابعه ليشعر ويسمع ويكتشف وجود أورور. ترى هل كان يشك بوجود مصيبةٍ على الطرف الآخر من الباب؟ وإلا لماذا كان يخفق قلبه عندما يرى الممر المعتم وفي نهايته ذاك الباب المرتفع والمطلي حيث تلمع الصفيحة بوميضٍ شرير؟

أما الآن فقد أصبح هذا الباب مجهولاً، المطرقة مقشورة بلونٍ ذهبي تم طليه بلون أخضر غامق باريسي بامتياز يرمز للرفاهية مخبأة. مازال المقبض والصفيحة النحاسية يلمعان بوميضٍ باهتٍ، نورٍ غامضٍ ثابتٍ. إنه واثق أنه لم يعد هناك مآسي خلف هذا الباب.

في إحدى الأمسيات، لم يذهب جان إلى منزل جوزافات، أراد أن يتحقق من الأمر. فضغط على جرس منزل السيدة ميشيل أنزيوني. تخيل أن تستقبله موظفة استقبال في غرفةٍ صغيرة معقّمة كما يحدث

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

عند طبيب الأسنان، والحال أن المحامية شخصياً هي من فتحت له الباب.

إنها امرأة بالخمسينات من العمر، نحيلة وبشرتها شديدة السمرة يبدو عليها الاضطراب. اصطحبته مباشرة إلى مكتبها، غرفة كبيرة مضاءة دون ستائر، تعجُّ بالملفات والأعمال الفنية. قالت له: "اعذرني، سأعود خلال دقيقة". أدرك أنه كان وحيداً في صالون استقبال الجنرال حيث أقامت عائلة "جاندر" فيما بعد وشرعت أورور بتقديم العشاء والقهوة وربما البابونج بينما يشاهدان التلفاز.

ما الذي تغير؟ إنها غرفة جميلة حقاً بخشبياتها وسقفها المزين بملاكٍ والنافذتين بقوسٍ خفيضٍ. هل أمضت أورور حقاً طيلة تلك السنوات سجينة الرعب الذي يرافق يومياتها؟ كان ذلك في حياةٍ أخرى دون شك، حياةٍ بعيدةٍ جداً لا يمكننا نبشها حتى لو حككنا بجنونٍ هذا الطلاء وهذا البرنيق.

نظرت السيدة أنيزوني إلى جان بدماثةٍ وانتباه وقالت: "ماذا أفعل من أجلك؟"، كان بوسعه أن يخترع قصة ما ليبرر مجيئه، قضيةً أو طلاق. لكنه رغب فجأة بقول الحقيقة، فتحدث عن عائلة جاندر، هذان الزوجان عديمي الذمة وأورور الفتاة المعاقة عقلياً التي نهبوها وحوّلوها لخادمةٍ لهما والمواعيد التي ضربوها مع رجال أعمال مقابل مالٍ أو وعدٍ أو خدمة لتذهب أورور متبرجة ومرتدية كمومس. أصغت إليه السيدة أنيزوني ودونت ملاحظاتها، أخبرته عن إمكانية القيام بعمليات بحث. حقاً غيب الموت الوالد ولكن لابد من وجود شهود وإجراء تحقيق لتحديد هوية والدة أورور في هانوي. وإرغام عائلة جاندر على إعادة حصة من الإرث، من مردود الشقة التي قاموا ببيعها، لابد أن تتم ملاحقتهما على الجرائم التي اقترفوها من نهبٍ واغتصاب. تبدو متأثرة بصدقٍ، ربما لأن هذه القصة قد جرت بين جدران هذا المنزل، في

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

شقتها وأنها ما تخيلت أبداً هذه الأشباح. شعر جان بالخزي لأنه اقتحم حياتها بهذا العنف. راوده انطباع أنه استغل قصة أورور ليرضي فضوله المرضي بعبور هذا الباب المثقل بالأسرار واقتحام هذه الشقة حيث قضت الفتاة تلك السنوات المرعبة. صافح السيدة أنزيوتي ووعدها بأن يعود لمقابلتها، على كل حال سيتصل بها هاتفياً ليبقى على اطلاع على مجرى القضية ثم هرب بأقصى سرعة وهو يعلم تماماً أنه لن يعود مجدداً إلى لاكاتافيفا.

شُيِّد مركز تأهيل الأطفال المعاقين بعيداً عن كل شيء في بلد الزيتون وحقول السلق، لا يصله طريق السيارات. توقف عن ساحة سانت إيزيدور، قريةٌ غافيةٌ بين يدي الشمس حول كنيسة قبيحة. ذهب جان سيراً على الأقدام وقطع كيلومتر ونصف مما تبقىٍ من المسافة في طريق قروية حيث يلتهم العشب حلة القطران التي تكسوها. كان يوماً ربيعياً لطيفاً، بل حاراً. يسمع طنينَ الحشرات في أشجار الصنوبر. قرر جان أن يذهب ليلتقي بأورور منذ أن عرف عنوان الدار. هاقد مرّ ثماني سنوات على آخر مرة التقى فيها بأورور. لم تكن مدة طويلة لكن بدا له أنها تتعلق بطفولته وزياراته إلى "لاكاتافيفا"، حين كان يكشف النقاب يوماً بعد يوم عن الحياة بروزيليس لدى إصغائه لحكايا "كاتي مارو".

توجس خيفة بينما كان يعبر الطريق الضيقة، ماذا لو لم تتعرف عليه؟ أو أكثر سوءاً، ماذا لو رفضت رؤيته؟ اتصل مع الإدارة ليخبرهم بزيارته. أجاب على أحد الأسئلة بالقول: "أورور إحدى أقاربي". حُدد الموعد لهذا اليوم مع بداية المساء. اقترح المدير أن يأتي لإحضاره بالسيارة عند آخر موقف للباص لكن جان رفض. أراد أن يبقى حراً ويطلق رجليه للريح إذا خانته الشجاعة.

دخل جان إلى حديقة المركز، عبر أمام مسكن البواب، كاد يغادر بالواقع. تتعالى أصوات بضع فتيات وهن يلعبن بالكرة على أرض

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مسطحة حُوِّلت لساحة لعب. تُلهب أشعة الشمس سياطها على الممرات ذات الحصى الأبيض لتجفَّ الجنبات في أصيصها، تتكأ داليةٌ على الباب ملتفة حول المزراب، هناك أعلى المبنى تقوم الأخوات بلباسهن الرمادي بحراثة بستان فاكهة ذي طبقات. رأى جان ذات يوم في منزل والديه صورةً لها إطار معلّقة أعلى المدفأة تضم أربعة صفوف من الفتيات بوجوه كئيبة يحطن براهبةٍ مسترجلة قليلاً. خلفية المبنى غائرةٌ وضبابية في أحضان الحقول المترامية، هناك ميّز جان أورور دو سوميرفيل ذات الشعر الأسود الفاحم القصير وعينان كثقبين في وجهها الذي غار في تعابير سأمٍ وحزن، ها قد مرّت عدة أسابيع على وصولها إلى المركز، أيقظت هذه الصورة في ذكريات جان ألماً قديماً يلتهب كالرغبة بالعدالة والثأر.

انتظر جان أورور في قاعة الانتظار حيث التقى المدير وهو رجلٌ مدني، قصيرُ القامة، حاد النظرة، هو من يدير الأمور المالية من إعانات ونفقات ترد للفتيات، سأله: "أظن أنك أحد أقرباء الآنسة "دو سوميرفيل"؟. لم يطرح جان أي سؤال لكن المدير بدأ بعرض الحسابات: "المبالغ المدفوعة هي أربعمئة وخمسة وثلاثين منها تكاليف السكن مئتين والتكاليف الطبية والتأمينات مئة وخمسين، تموين وإكسسوارات مئة وستة وستين". رفع رأسه عن دفتر الحسابات ثم قال: "الإكسسوارات نعني بها الصابون والكولونيا والمحارم والمواد الصحية وإلى ما هنالك". ثم تابع: "مرتّب، مئتان، نقصد بالمرتّب أجراً رمزياً، تسير الأمور بسهولة ففي حالة ابنة عمك يقوم عملها على المعالجة، الشهر المنصرم جعلت الماء يفيض بنا وقبل ذلك قلبت صفيح المازوت قرب المدفأة، لكنها فتاة خدومة وشريفة، أعتقد أنك ستلمس الفرق. هل مضى وقتٌ طويل على آخر مرة التقيت بها؟

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وصلت أخيراً أورور، تصطحبها فتاةٌ من جزر الأنتيل يتراوح عمرها مابين الثالثة عشر والرابعة عشر وتدعى روزالي. بالحقيقة فوجئ جان بالتغيير الطارئ على مظهرها و كذلك بالسرعة التي لاقاها بها، إنها هي وليست هي. مازالت تنعم بذاك الوجه الجميل الناعم دون أهدابٍ أو حتى حواجب لتحيط بتلك العينين المائلة. لكن تعابير محياها قد تبدلت، تذكرت شخصاً ما بعيداً وغائباً وكأن الألم لملمها في جعبته. هذه الفتاة التي دخلت إلى قاعة الانتظار تشبه فلاحةً فيتنامية صغيرة، كانت ترتدي كنزة رمادية تبدو قديمة وبنطالاً مخملياً بني اللون لا قصة له وتنتعل حذاء رياضياً ممرغاً بالطين. تبعثر شعرها بسبب الركض وعلت وجنتيها حمرةٌ مدهشة. لكن ما تغير حقاً هو نظرتها خلف نظارة حسر النظر ذات الإطار البلاستيكي الضارب للون الوردي، رمقت جان بوضوحٍ بألقٍ فعال ومسلي يعجّ بالحركة، لابد أنها تعرفت على جان لكن عيل صبرها، رغبت أن تعرف ماذا يريد منها. بقيت على عتبة الباب دون أن تقترب غير آبهة لدعوة المدير. تقف روزالي إلى جانبها مترنحة، قالت: "إنها بكماء وصمّاء ولكن يمكنني التحدث إليها فقد تعلمت لغة الإشارة". ظللوا للحظة هكذا جان جالسٌ على الكرسي والمدير مسترخٍ في أريكته وأورور لم تبرح عتبة الباب. يتعالى صراخ الفتيات من الحديقة وهن يتشاجرن من أجل المباراة، شعر جان أنه قاطعها عن أمرٍ ما. اقتربت أورور أخيراً وبحركةٍ نشيطةٍ جداً ليسود جوٌّ من الضحك. لثمت جان قرب شفتيه جانب فمه.

بعد لحظة، أدارت عقبيها وأطلقت ساقيها للريح متجهة نحو الحديقة ترافقها روزالي. تلاشت كل الصور القبيحة التي تنضح من الماضي. لقد أصبحت أورور شخصاً آخر وطوت كل شيء مع النسيان. لم يبقَ أمام جان سوى مستطيل الباب أبيض اللون لتلتقط شبكية عينيه خيال الفتاتين المعتم. هناك، ميدان أورور الجديد الحديقة وألعاب

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الأطفال والصلوات في الكنيسة، ليهيمن صراخ الفتيات اللواتي يتشاجرن بجولة الكرة على الهدوء السائد.

أعطى جان الأخوات حفنةً من المال، جزء من مدخراته. إنه واثقٌ أنها لن تصل لأورور لكنها على الأقل لن تذهب لذاك الرجل قصير القامة ذي الوجه القبيح كالجرذ الذي يزوّر الحسابات ويحوّل نفقات المعاقين. قالت له الراهبة التي أعطاها المال: "هل عرفت أنه سيتم عقد قران أورور عما قريب؟"، وضحت له باختصار بعد أن نظر مستغرباً: "ميشيل، فتى جيد، بستاني المركز، يقلّم أشجار الحديقة هو أيضاً أبكم وأصم. بالطبع سيتابعان حياتهما هنا مع المقيمين في الدار، فهم الآن عائلتهما".

خبَّ جان بالمسير في الطريق الريفي ما بين أوراق السلق والزيتون باتجاه ساحة سانت إيسيدور، وما انفك يفكر بشقة عائلة جاندر والباب المشؤوم المزين بالصفيحة المحفورة بالآربيسك حيث يلوح اسم "ادهمار دو سوميرفيل". تذكر أنه كان يتوجب عليه الاتصال بالسيدة أنزيوني من أجل البحث، إنه على يقينٍ أنه لن يجري هذا الاتصال. سيضمحل سخط المحامية فلديها الكثير لتفعله في حياتها اليومية خيرٌ من أن يجتاحها ماضٍ لا يخصها، لن يكون هناك ما يعيب. فجأة تحول كل ذلك لسخرية لدى جان ولم تبقَ سوى لثمة أورور خفيفةً كجناح فراشة ليتبخر على جنحها سيء الأيام.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تغير كل شيء خلال هذا العرض السينمائي. يوم الأربعاء ١٤ حزيران ٦٧. كان الطقس رديئاً جداً مطر وبرد ورياح. هطل الثلج على قمم الألب. تحضُر مريم لفحص الفلسفة، يلتقي جان بها حوالي الساعة السابعة من كل مساء في مقهى الفنانين.

كانت تقوم بمراجعة الفلسفة فتحمل كتبها سبينوزا وكنت ونيتشه. تضع كتاب الفيلسوف الذي تحبه فوق الجميع وهو سارتر: "ما هو الأدب؟" و"الوجودية تعني الإنسانية". كانت تحب أيضاً مسرحياته: الباب المغلق و المومس المحترمة.

تجلس في آخر القاعة متكئة على الجدار الزجاجي تراقب حركة السيارات، الناس في الخارج في ذهابٍ و إياب، يراودها انطباعٌ أنها في أعماق كهف. تدخن بعض السجائر وتحتسي قهوتها السوداء بدون سكر. تُعزف الموسيقا في بعض الأمسيات لتسلية الزبائن. كانت مريم تحب الاستماع لغناء امرأة طويلة القامة هجينة من أب وأم مختلفين بلون البشرة، لم تكن شابة إنها قريبةٌ من الأربعينات، شعرها طويل جعد بلونٍ كستنائي فاتح. يبدو أنها من كامبودج أو من البرازيل ما بين أفريقيا وآسيا، لم تكن مريم تعرف اسمها فأطلقت عليها لقب: "جنوب شرق آسيا". جاءت المطربة متأخرة قليلاً، اعتلت المنصة في آخر القاعة، قرب الحانة، يرافقها عازف جاز على الجيتار، يبدو مسناً حقاً، لابد أنه غجري. عزف بضعة ألحانٍ ثم شرعت "جنوب شرق آسيا" بالغناء، أغاني "كول بورتر" Love for sale، I Love Paris وNight in Tunisia وأيضاً Low-doun، بصوت خفيضٍ أجشٍ يبث القشعريرة في أطراف الجسد. مضت ساعةٌ تقريباً وهي تغني متشبثة بمكبر الصوت دون أي حركة، بالكاد يتموج جسدها الطويل في ثوبها الأسود. ثم غادرت دون أن تلقي نظرةً على أحد، غير آبهةٍ للتصفيق الهزيل الصادر من عمق القاعة والذي لم تنضم مريم إليه. حلَّ محلها مطربةٌ أخرى عديمة الفن،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تتململ على إيقاع "تشا .. تشا". كم كانت غريبةٌ هذه الفتاة التي تشبه طيفاً. حاول جان أن يتخيل كيف يمكن أن تكون حياتها وكيف وصل بها المطاف إلى هذه المدينة إلى قاع هذه المدينة؟ اخترعت مريم قصة حبٍ أو خيانة. لعل "جنوب شرق آسيا" هربت من منطقة اندلعت فيها الحرب إحدى مدن فيتنام حيث تعبر المدرعات الأميركية الشوارع الرئيسية بمصابيحها المضاءة التي تعلن خطر دهس الأطفال. أما جان فاعتبر أن القصة تقوم على المال فهي تغني في مقهى الفنانين إضافة لمهنةٍ أخرى كئيبة بمردود سيء كبائعة في أحد المتاجر الكبرى أو نادلة في أحد الفنادق الزهيدة.

إنها أسابيع هاربةٌ من الزمن، تلك الأيام التي أمضاها بزياراته إلى جوزافات والقلق الذي يعيشه مترقباً أي إشارةٍ تدل على نهاية تأجيله والتحاقه المحتم. أما مريم فكانت تقرأ دروس الفلسفة في المقهى، في بعض الأمسيات كنوعٍ من المفاجأة، كانت جنوب شرق آسيا تأتي لتغني لهما دون أن تراهما ترافقها الموسيقا العذبة التي يلحنها الموسيقا العجوز الغجري. ليطوفا في الفضاء كمعلقين ما بين منطقتين. شعورٌ قد يدوم مدى الحياة، لكنه لم يدم.

ذهب جان ومريم مساء يوم الأربعاء ١٤ إلى السينما. لم يتوقعا ماذا سيحضرا، ذهبا صدفةً. بدأ المطر ينهمر وهبات الريح والغبار تمشط المكان. تراكض المصطافون خافضي الرؤوس وظهورهم منحنية تحت وابل المطر.

دخلا إلى السينما، كان الفيلم قد بدأ، فيلم غريبٌ يتخلله عودةٌ للماضي مع دافيد هيرينفز وعينيه الواسعتين الذابلتين وفانيسا ريدغراف رائعة الجمال والتي تشبه حسب رأي مريم "جنوب شرق آسيا". كان المشهد إباحياً فتاتان عاريتان تماماً تركضان في شقة في لندن، ثم يتبع ذلك قصة جريمة صوَّرها المصور بالمجهر، فما كانت

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

واضحة. عندما انتهى الفيلم رغبت مريم برؤيته منذ البداية. أرهقتها إعادة الدراسة وربما أنهكتها كثرة الدخان والقهوة. هناك هالات سوداء حول عينيها، بدت عصبية المزاج، لم تكن تثبت في مكان واحد. بدأ المشاهدون المبللون بالتوافد إلى قاعة السينما التي كانت شاغرةً تقريباً. تنقلت عاملات السينما بين صفوف المشاهدين وسلال السكاكر بين أيديهن. قالت مريم: "أنا بحاجة لأدخن". ناقشا خروجاً سريعاً مع العاملة عند المدخل فقالت: "حسناً ولكن حافظوا على التذاكر وإلا فلن يكون بوسعكما العودة". كان الهواء بارداً ورطباً أمام السينما. جيد، هاقد هبط الليل والسيارات تمر بمصابيح مضاءة وماسحة الزجاج تعمل بسرعة. لم يسرع الناس للدخول لعل ما أرعبهم اسم الفيلم Blow Up أو انطونيوني.

دخنت مريم دون أن تتفوه بكلمة، تحدث جان عن لندن بقليل من الزهو. مع أنه لم يتعرف على شيء في فيلم أنطونيوني عدا لون جدران الآجر وبعض المناظر قرب "كنفتسبريدج" فهو مكان مترف فني في لندن لم يتعرف عليه، لا يمت بصلةٍ "لإلفنت أند كاستل" أو "شارع جامايكا".

بالكاد كانت مريم تصغي إليه، بدا وجهها بنور الواجهة الزجاجية أكثر نعومة، شيء من الطفولة والتعب يداعبا وجهها بآن واحد. ظن جان أنه متيمٌ بها ولا مفر له من هذه المشاعر بالوقت نفسه. كان ذلك مجرد لحظة، انقطاعٌ في سير أحداث، لابد أن يُغلق دون أن يتمكن من مجابهته فمريم ستلحق بوالدتها بالتبني إلى باريس بعد انقضاء الامتحانات وربما لن يتقابلا مجدداً، يشبه ذلك أغاني "جنوب شرق آسيا". لحظة، مجرد لحظة، نغمٌ عابر ثم سيعود ضجيج الشارع مجدداً.

عادا إلى قاعة السينما بينما شارف الفيلم على البداية، عرضوا أخبار محلية صوراً بالأسود والأبيض، قاسية وعنيفة في ساحة الوغى

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

في سيناء والصحراء وكذلك الدبابات المصرية التي أضرم القصف الإسرائيلي النار فيها. فجأة، صورةٌ هزلية ومأساوية يصعب الدفاع عنها: تتبعثر أحذية الجنود المصريين المهجورين على رمال الصحراء المترامية وكأن نهراً موحلاً قد تلاشى. ساد الصمت على هذه الصور كأنها مشاهدٌ بعيدةٌ جداً، ثم تحطم بصوت المعلّق المخنخن والوهمي ليتحدث عن كونتيلة عجرود وخان يونس وشرم الشيخ. أخيراً بينما بقي جان ومريم مسمرين عند عتبة الباب، التهب الضجيج في قاعة السينما، في البدء علا التصفيق ثم اجتاحت موجةٌ من الضحك وهتافات الفرح، وقف الجمهور وهم يحركون أياديهم، أمامهم الجدار حيث تتهافت ظلالهم بضوء شاشة الرمال تخطها تلك الصور التي لا نهاية لها، صوراً تدفعهم للوثب والاهتزاز، وللاحتفاظ بالضحك وهتافات الفرح. تم عرض مشهداً هزلياً من فيلم صامت مع كل تلك الأحذية التي أفلتت من الجنود الفارين. لاحظ جان أن كل تلك الأحذية أو على الأقل الأحذية في الصف الأول تعود لقدمٍ واحدة ولكن أين ذهبت الأخرى؟ ثم صوراً أخرى مرعبة لكن دفق الضحك وصرخات الفرح ظل مندفعاً، رجالٌ من رفح معصوبو الأعين وموثقو المعاصم خلف ظهورهم بسلاسل حديدية أدمت أياديهم، تتقدم جماعة السجناء وهم يحجلون كحيوانات معرقلة في هذا الحقل من الغبار. ازدادت الضجة في القاعة، يتوعدون ويهددون.

دبَّ الرعبُ في قلب مريم، خرجت، أخفضت رأسها، رفعت الباب ذا المصراعين وأطلقت ساقيها للريح في القاعة حتى الشارع، كان على جان أن يركض حتى يلحق بها، تلذذ بالزوبعة الباردة التي تبصقها العاصفة وذاك الفراغ الذي يهدد الشارع اللامبالي. ضمَّ مريم إلى صدره، إنها صغيرة وهزيلة لدرجة أن تكوّن لديه انطباعٌ أنه يضم طفلةً تشهق، فتمتم: "لا شيء، انسي، لا شيء..."

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تحت الأمطار المنهمرة وبأقصى سرعة ابتعدا عن حدود السينما كمكانٍ لعينٍ حيث يصرخ الناس بالثأر ويطلبون التدمير. انطبعت في مخيلة مريم صورة ساحة المعركة مع تلك الأحذية المبعثرة والجنود المصريين جاثين عند ناصية الطريق بوجوهٍ مذعورة تلتهمها اللحى، وأولئك ذوي العيون المعصوبة وأولئك الذين يراقبون الكاميرا بنظراتٍ شاردة. سحبت مريم جان نحو الهضاب، سارا وسارا طويلاً حتى باتت المدينة بأسرها مجرد هالة بيضاء بين الأشجار. قالت: "أنا متعبة، متعبة جداً" . ثم أضافت: "لا أستطيع العودة إلى منزلي هلا اصطحبتني إلى مكانٍ ما" . يقبع فندق أسفل الهضبة، فندق ذا اسم متصنع أو بالأحرى بالٍ: "نزل إيسارد" أما صاحب الفندق فرجلٌ يبدو عليه التعب، قدّم لهما الغرفة ثم فتح صنبور حوض الاستحمام وقال: "كما في الولايات المتحدة، مضخةٌ واحدة وبضغطة واحدة يمتلأ الحوض خلال عشر دقائق" . سخر جان من الفكرة أما مريم فلم تلقِ عليه نظرةً حتى.

اعترى صاحب الفندق الشك وكأنه لمس ما يثير الريبة: تلميذةٌ بالثانوية هائمةٌ على وجهها مع أستاذ الأدب، إما هي "خطيفة" أو ربما "مومس" . كانت الغرفة طويلة وضيقة، السرير في آخرها، تفوح رائحة المعقمات، تطلُ النافذة على الحديقة المبللة بالأمطار،أضاءت نباتات الستارية بنور إحدى اللافتات. أخذ جان الغرفة، ثم تمدد على السرير بعد أن نال منه التعب. كانت مريم ترتعد، لم ترغب باستخدام حوض الاستحمام العجيب. قالت: "أتعلم، عندما جئت إلى فرنسا كدت أقضي بالملاريا التي حملتها من الجزائر. لكن ماما لو هي من أنقذت حياتي، غسلتني بالماء الدافئ الذي كانت تبرده رويداً رويداً لتخفيض الحرارة. كانت ممرضة، كم أحببتها ! وكذلك السيد مانسيت، إنه يعاملني بلطفٍ. عندما جئت لأحيا في كنفهما كنت سقيمة وهزيلة. لدى وفاة والدي، رفض عمي أن أبقى بينهما بيد أنني ألححت وما كان بيده حيلة" .

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ارتمت في أحضان جان وقالت: "مدني بالدفء إنني أشعر بالبرد". مازالت ترتجف، وتلاحقها تلك الضجة الناس الواقفين وأصواتهم وضحكاتهم والحقد الذي طفا على وجوههم حين رأوا الرمل المنقط بأحذية العرب.

أطفأت الأنوار، لكن نور اللافتة الذي يلمع فوق نباتات الستارية العتيقة ينثر ضياءه في الغرفة. حسناً، إنهم يبعدون كيلومترات عن ذاك الحقد وعن الناس الذين يصرخون في قاعة السينما. خلعت مريم ثيابها واندست بين الأغطية: "لقد شعرت بالدفء الآن، إن قلبي يخفق بشدة، هاك! هل تريد أن تلمسه؟" أخذت يد جان ووضعتها على صدرها ما بين نهديها الناعمين، فشعر بالخفقان السريع كعصفورٍ أسير. داعب نهديها بعذوبة ورسم بأنامله قوس كتفيها. رغب بممارسة الحب إلا أنها ابتعدت قليلاً وتكورت ثم قالت: "لا رغبة لي، أرغب بالنوم فقط". ثم خلدت للنوم كحيوانٍ صغيرٍ يشعر بالأمان.

اتكأ جان على مرفقه، أصغى لأنفاسها المنتظمة. رأف الغطاء لحاله فابتعد قليلاً ليكشف عن جسدها ناصع البياض حيث يرسم العمود الفقري طريقاً أكثر عتمة نحو الكلى، تأمل جيدها وشعرها المعقود المترامي على الوسادة. يا لها من لحظة رائعة يا ليتها تدوم للأبد. ليلةٌ برفقة مريم في هذه الغرفة القديمة قرب نبات الستارية المضاء بالمصباح وكأنهما في صندوقٍ مقفل يعزلهما عن العنف والحروب والأجساد النحيلة بل وآلافٍ الأحذية التي تعود لقدم واحدة والمهجورة في الصحراء.

تسلل النوم لأحداقه قبل بزوغ الفجر. يهزُّ صخب الدراجات النارية الهدوء وكذلك صرير شاحنة القمامة على طول الطريق. لم يكن نوماً بكل معنى الكلمة، راوده حلم أن مريم استدارت نحوه وابتسمت حتى لمعت أسنانها البيضاء في وجهها الغامق وقبلته قبلةً غامضة أضرمت في

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

جسده اللهب وسرى فيه الشبق، شد إليه جسدها العذب وتغلغل فيه برقة حتى حمله الحب إلى عالمٍ آخر. لاحقاً بعد وقتٍ طويل، لاح النهار شاحباً، استيقظ بقلبٍ خافقٍ، ناداها بصوت مخنوق: "مريم!... " لكنها بقيت قرب النافذة، بعد أن أخذت حماماً في حوض الاستحمام ثم ارتدت بنطال الجينز الضيق وكنزتها من القطن بني اللون. "إلى أين أنت ذاهبة؟"، ظلت بعيدة ونظرت إليه دون أن تتفوه بكلمة. أشعلت أول سيجارة صباحية، علقت حقيبتها وهمست: "هس هس، سأذهب لمنزل والدتي لأعيد دروسي، نَم". لم يجرؤ أن يقول لها: "متى أراك؟"، لأنها ستهز بكتفيها، لم يحدث شيء. لا معنى لكل ذلك، ليلة في السرير نفسه لدحض خوفها. شعر أنه وحيد بل ترك حلمه الشبق ألماً في جسده. استسلم للنوم وفي الساعة التاسعة والنصف، حملت النادلة طعام الفطور قهوة مع الحليب مع شطائر المربى والزبدة. ما تناول شيئاً شهياً هكذا منذ وقت طويل. خشي أن يلتقي بصاحب فندق إيسارد ونظراته المواربة، لكن لم يكن هناك سوى الحارس الليلي بهيئته كالورق المعلوك، سأله: "هل ستحجز الغرفة اليوم؟"

هز جان كتفيه وقال: "كلا، لا أظن". لاحقه شعور انعدام التاريخ كما في نهاية شارع جامايكا، تهبط الأزقة المرتبكة بأشجار الفلفل إلى أحضان هدير المدينة وكل تلك الأغصان المجتمعة في حقل المحاور الكبيرة. يتدفق سيلٌ من الصهاريج والسيارات، تخترق مصابيحها الصفراء الضباب الصباحي كشعلة الثعابين الرمادية الكبرى التي تسبح فوق سطح الماء.

قليلاً ما ينام، إنه ينام بشكل سيء فحيثما كان، أمسية عند أهله في الغرفة القديمة الصغيرة برائحة الغبار والماضي، رائحة لاذعةٌ لاذعة أكثر من رائحة العفونة والودف الجاف. وأحياناً في أحد الفنادق الواقعة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

في أرباض المدينة أو في فندقٍ بائس في أحد الأماكن التي لا يحب حيث يراوده شعورٌ بأنه يمر هنا مرور الكرام وغداً سيبتلع النسيان كل شيء. يحدث في أحيانٍ أخرى أن ينام في العراء متدثراً بالنجوم الساطعة (إن وجدت) مفترشاً الشاطئ حيث كان يعطي مارسيل اليوغاني قديماً دروسه.

لعله قرر الذهاب أخيراً إلى بيناريس فلم يجد له أثراً. كما يستسلم للنوم في الحديقة المجاورة للمحطة حيث يجب أن تفتح عينك لا بل عيناك لابد أن تبقيان متيقظتان واحدة على الشاذين الخاطفين وأخرى على رجال الشرطة الذين يقومون بجولاتهم.

يبدو البحر رائع الجمال مع بزوغ الفجر سلساً وعذباً تحت سماءٍ لا لون لها. تتزلج ثعابين الضباب ببطء من لجة البحر حتى الشطآن لتدفع حثالة المدينة. تلامس أسرابٌ من الطيور الأمواج يصعدون بخطٍ غير مرئي. تنتظر قوارب الصيد لتحريك الملفاف وإطلاق الصوت المصمم لمحركاتها، خطر لجان في هذه الساعة من الوقت أن الحرية هبةٌ من السماء. لا شيء يجعله مضطرب ولا يذكر شيئاً. يبدو على العالم المرئي نوعٌ من التعب.

مازالت العمة كاترين ممسكة بالزمام رغم تدهور الزمن، شعر جان أنه لن يتوقف عن التواصل معها حتى هنا ما بين الصخور مقابل البحر اللامبالي. فكان ذلك بالنسبة لها يوازي فقدان روزيليس، يحاول أن ينهل من هذه الزوايا المعزولة البعيدة عن أنظار المدينة حيث يتخيل نفسه قد عاد إلى الحقبة البلستوسينية[1] حيث يسيطر دون منازع طيور الإوز والحيتان قبل أن يبدأ الخلق. سيذهب إلى جوزافات مساء اليوم ويروي على مسامعها كل ذلك، لتداعب هذه الكلمات وجهها المرهق كالماء الغائر العائد لبطن الصخور الأسود.

---

(1) - الحقبة البلستوسينية: ما يعود للعهد الرابع.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

قدمت مريم صباح العشرين من حزيران فحص الفلسفة الكتابي. الموضوع: "إن خلود الروح يعنينا لا بل يلامسنا بعمقٍ لدرجة أن نتخلى عن أي شعورٍ لتأسرنا عبثية البحث عن ماهيتها. " (باسكال. فكر)

التقى جان بمريم في مقهى الفنانين حوالي الساعة الخامسة بعد الظهر. إنه يومٌ دون "جنوب شرق آسيا" فما مكثا سوى نصف ساعة. ثم قام جان باستئجار غرفةٍ في المدينة في شقة مفروشة بائسة في الطابق الثالث من أحد الأبنية. قررت مريم كل شيء، أنزلت الستائر، اندست في الظل الدافئ عاريةً بين الأغطية الخشنة. بشرتها تقشعر خوفاً وقلب جان يخفق بقوة كما في الحلم الذي راوده تلك الليلة. إنه يرتجف وكأنها المرة الأولى أما بالنسبة لمريم فكانت بالنسبة لها المرة الأولى، تغلغل جان فيها فآلمها وعندما توقف قالت بغضب "تابع!" أسبلت جفنيها، وجهها مضطرب وتعضُ على شفتيها، تعبيرٌ عنيفٌ وكأنها مضغوطة أو مرغمة مما يضفي نشوةً وخوفاً بآن واحد،يحرر فوضىً غريبة وجنون لكنه أحب بالوقت نفسه هذه القطيعة وهذا العنف. فاحت رائحة الأجساد، رائحة غريبة طاغية، أنفاسٌ لاهثة، قلبه يخفق بشدة وكأنه قفز إلى حنجرته حقاً، زرع نظراته في أحداقها ما بين أهدابها الغامقة لاح في بياض عينها ألمٌ كبير. يعبق المكان برائحة الحرب وأجساد نساء وهران في السوق في الحمامات، رائحة الأرض التي اغتصبها الجنود، تنتشر رائحة الخوف والمهانة وتلك الرائحة اللاذعة التي تنثرها المدرعات وهي تعبر الشارع العريض وذاك الرجل الذي قفز وسحب الفتاة الصغيرة إلى الخلف فأنقذها من براثن الموت بعد أن مرغها بالغبار في حين دهست الدواليب والزردات الفولاذية رغيفي الخبز على الطريق. إنه يقرأ الآن كل ذلك على وجهها مغمض العينين ولعق كل تلك الذكريات.

ناما معاً غير آبهين لصخب الزمامير في الشارع ولا لأولئك الناس الذين يتسارعون ويتدافعون والذين لا أحد يعرف إلى أين هم ذاهبون؟

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ماذا يريدون أن يفعلوا وبمن يريدون أن يلتقوا؟ ناما جنباً إلى جنب وقد بللتهم قطرات العرق. أصبح الهواء بارداً أكثر فأكثر. تبعثرت الكلمات والأشياء وتفكك ثم تتطايرت كدخان السجائر. فكر جان بسفره القريب وبالتهديد الذي لمسه في الرسائل الممهورة بخاتم وزارة الحربية بالنص التالي: "يجب على الشاب X أن يمثل حاملاً دفتر الخدمة العسكرية بانتظار الامتحان الخاص بتأجيله ذاك اليوم وتلك الساعة في الثكنة X... " تمت خربشة المساحات البيضاء بسرعة، تُبعت بإمضاء القائد نابليون وتوقيع الملازم ماريني. خطر له كل ذلك بلامبالاة، ليس لديه ما يقول لوالدته ووالده أما مريم فهي خارج كل شيء. كما أنها غارقةٌ بأمر هام آخر. امتحانات البكالوريا كالحمى السيئة وما مارست الحب معه إلا للتخلّص منها. لكلٍ منهما قصته، هذه هي الحكايا.

سيحل الصيف هنا قريباً، هذا واضح وقد غادر الناس. قالت مريم: "وجدت عملاً في فندق في شاموين، هل ستتردد لرؤيتي؟" أفلت جواباً: "ربما.. ". إنه يكذب. ففي هذه اللحظة، توقف كل شيء. القطار والقارب نحو إنكلترا وزمن الانضمام لرحلة الطيران نحو تورونتو حيث ينتظره براين وبوبل، حيث وجدوا عملاً هناك. ثم سيتجه بالطريق جنوباً إلى غريهوند عبر الولايات المتحدة وداكوتا ووايمينغ وأوكلاهوما وتكساس حتى ماكلان. ثم نحو الجنوب أيضاً إلى المكسيك. يتحرق جان شوقاً الآن لدرجة أن سرت القشعريرة في جسده.

بقي نائماً قرب مريم في الغرفة الرمادية وسط المدينة بينما تكمل الشمس دورانها والظلال تجوب الساعات في الخارج. هبط الليل فتفارقا...

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لم يعد هناك متسع من الوقت للفهم والتنبأ، كان الملازم ماريني شديد الوضوح: "إنك على مفترق طرق. إنني أسدي لك نصحاً بالإجابة على الاستدعاء لئلا تعتبر كفارٍ من الجندية. إنها جريمةٌ نكراء ستنغص حياتك العملية طيلة العمر، أما لو بررت غيابك لمتابعة تحصيلك العلمي فقد تحصل على تأجيلٍ لعامٍ أو عامين، أرجو منك ألا تستخف بالأمر".

وافق الملازم ماريني ذو الذقن المربعة والشعر الأسود القصير والنظرة الثاقبة اللامعة أن يتحدث إلى جان مارو إحياءً لذكرى مراسم زواج الأرواح، ليس فقط احتراماً لسانتوس وجان أوديل بل وأكثر "لليا بالاس" تلك الفنانة التي تعيش حياتها كما لو أنها تمثل في مسرحية.

قال جان لوالدته: "يا له من كذّاب ملعون"، نظرت إليه شارون دون أن تفهم شيئاً، تابع قوله: "تخيلي يقول لي أن أتقدم لأمر التجنيد. إنه يعلم تماماً أنني في حال لم أستجب فلن أكون فاراً من الجندية وإنما فقط متخلف". كان والده بصورة الوضع لكنه التزم الصمت. قدّم والده استقالته حين قررت إنكلترا إرسال شبابه ليقاتل في الأدغال ضد المقاومين الشيوعيين. أو بالأحرى، كان مرغماً لأنه قد قام بحماية "لي منج" عندما صدر بحقها حكمٌ بالإعدام. كان واقعاً في شباك حب هذه الفتاة الجميلة ذات الوجه الذي تلوح فيه المراهقةُ المغامرة، احتفظ بصورتها حتى النهاية، حتى عندما عاد إلى فرنسا ليتابع حياته مع شارون وابنه. رغب جان بأن يتحدث معه بهذا الخصوص ويستفهم منه حول هذا الأمر، لكن فات الأوان.

عندما اندلعت الحرب في ربوع فرنسا، ما مرّ يومٌ لم تثر حفيظته ضد القمع ولرفع يد القوات المسلحة. كم حزن على ملايين الشبان الذين يرسلون ليلقوا حتفهم في الجزائر لأغراض استعمارية. لكن اليوم تغلّب عليه التهاب المفاصل. لم يعد يقرأ حتى New statesman التي توضع كل أسبوع في صندوق البريد. مازال يصغي لـBBC بجهاز الراديو ذي الأمواج القصيرة، قبل أن يتناول طعام العشاء مساءً. Bom bom

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

إنها قضية استقلال bom! Bibici world service, this is the news جزيرة "موريس"، إنه يترقب حدوث ذلك منذ سنين خلت وهاقد حان الوقت، ستعقد الانتخابات مع نهاية العام. خطرت كاترين في بال جان، في القاعة المشتركة في دار جوزافات. هل تراها تعلم ماذا يجري هناك في ربوع جزيرتها البعيدة جداً بالزمن والنائية وراء المحيط؟

إنها الأيام الأخيرة قبل الرحيل إلى أميركا. يجوب جان المدينة ويلملم كل خيوطها، يعلم أن قريباً لن يبقى شيء على حاله، فكل يومٍ يشهد غياب متجرٍ ما أو حانة أو عنوانٍ، ترقص اللصاقات فالساً لا ينتهي على صناديق البريد في "لاكاتافيفا" أو في أي مكان آخر.

فهاهو صالون الحلاقة "موتوسو" على سبيل المثال حيث كان والده يحدّث تسريحته العسكرية على رصيف المرفأ، صاحبه رجلٌ طاعنٌ بالسن مميز من بروفانس يتحدث "أوكسيتان"، يرتدي ثوبه الأبيض وحذاء الأسود الملمع. أما الآن فصار اسمه Nuoc-Man مطعمٌ فيتنامي يقدم وجباتٌ غريبة حول مرشات الماء و البونساي[1] من البلاستيك الأخضر. لم يكن الحلّاق هو الوحيد! في صباح أحد الأيام، لملم العطّار ومحله عند ناصية الطريق في ساحة "أورلوج أي الساعة" أمتعته مكانس أوسيدار[2] و دلاء روبسون[3]، هجر المتجر وكُسرت واجهته وصار المتسكعون يلقون بقذارتهم خلف الشباك. أما ورشة الحذاء الملاصقة للاكاتافيفا، مازال يذكر الرسم الذي يزخرف واجهته، منظراً ملوناً لخليج نابلس و بركان فيسوف[4]. أما اليوم فهو مستوصفٌ تديره

---

(1) - البونساي: كلمة من اليابانية تعني الأشجار التي تنمو في أصيص.

(2) - مكانس أوسيدار: مكانس خاصة لتلميع الأرضيات الخشبية.

(3) - دلاء روبسون: نوع من الطلاء مانع للرطوبة.

(4) - بركان فيسوف: بركان في إيطاليا، ثار عام ٧٩ وحصد ١٦٠٠٠ ضحية عدا عن الأضرار المادية الفادحة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

صيدلانية حائزة على شهادة، يعلوه صليب أخضر يرفُّ، ليس لكل ذلك سوى طيفاً من الأهمية الواقعية. الأشياء تغدو وتعود والدولاب يدور فتقذفهم الرياح في الجحيم. لكن لاكاتافيفا هامة، لم تكن بالنسبة له عديمة الأهمية، أما الآن وكاتي مارو قابعةٌ في سجن جوزافات وأورور دو سوميرفيل تعيش بين جدران دار إعادة تأهيل المعاقات وهاهي الآن ستقترن بالبستاني وستنجب أطفالاً، سيعبر جان أمام الباب، أمام الموزاييك اللازوردي حيث حفرت حروف ذاك الاسم العجيب بالذهب وكأن كل ذلك لم يرَ النور يوماً، كأنها كانت أضغاثُ أحلامٍ أو مجرد بابٍ لمبنى متواضع في شارع رين جان في أحد الأحياء التي تعجُّ بالمهاجرين من جنوب شرق آسيا.

دوَّن جان على طرف ورقةٍ عنوان الخالة إليونور الجديد. تردد جان إلى فيلا "بيل فو أي المنظر الخلاب" لثلاث أو أربع مرات عندما كان صغيراً، كانت تشغل الطابق الأرضي مع العم فانيا والهرر السبعة أما الآن فقد سوي بالأرض وبني مكانه برجٌ من البيتون، مشروع فندق سيطلق عليه اسم هرة: "أنغورا". يا للغرابة!

لطالما كانت إليونور الوجه المعاكس للعمة كاترين بشكلٍ مطلق. بعد أن غيّب الموت العم فانيا، حصلت على اثنين مليون (قديماً) من التعويض (إنها امرأة راسخة رغم أن عمرها يناهز الثمانين عاماً) بعد أعطيةٍ نادرة للدعوة القضائية ومعنىً حاداً للتشبث بالحياة. اشترى مقاولون المنزل وألزمتهم عند كاتب بالعدل بمبلغٍ يدوم مدى الحياة بعد أن أصيبت بالتهاب قصبات حاد ألقى عليها هيئة الموت. قرر جان أن يمرَّ للقائها بعد أن روت له شارون هذه الحكاية الطريفة.

تعيش الآن أعالي هضبة في مبنى من طراز العهد القديم ومحاطاً بنباتات الأقنثة، حديقة "سيدرات أي شجر الكبّاد". قال جان في سره إن

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

هذا العنوان يليق بها تماماً. ليس المبنى سوى فندقاً خاصاً على وشك الانهيار، يقف الذهب والرخام الاصطناعي من الماضي ليشهدوا على الخراب، أما سكانه فهم مزيجٍ غريب، مسنون هاربون من أصقاع أوروبا قبل الحرب وأيضاً من روسيا قبل الثورة وأرغموا على السكن مع عصبة من الشبان وأصحاب جنح في مقتبل العمر وقد خرجوا من "الأحداث" وكذلك تجار وبعض المطلوبين للعدالة علاوة على الهاربين المختبئين.

عادةً ما نصادف في النهار المسنين أما مع هبوط الليل فيخرج المتسكعون ويفرضون قوانينهم في حي "سيدرات". هذا ما شرحته الخالة إليونور لجان، كما أشارت إلى الكوة على مستوى الأرضية، وهو منبع النور الوحيد المفتوح على الساحة الداخلية، قالت له: "أراقبهم كل مساء، أعرف أولئك الذين يعيشون في المنزل ولكن حين ينضم إليهم متسكعين من أماكن أخرى، أعرف أن عليّ إغلاق بابي وقفله جيداً وأن ألتزم منزلي."

لم تتغير إليونور قيد أنملة منذ تلك الأيام التي كان جان يذهب فيها إلى فيلا "بيل فو"، مازالت تضع عقدتي الشعر الزرقاوين لتخفي الملاقط الفولاذية التي تشد بهما بشرة صدغيها، يشبه وجهها المومياء المصرية بأرنبة أنف دقيقة ومعقوفة وحواجبها المرسومة بقلم الفحم، أما وجنتاها المتهدلتانِ فمرسومتان كدائرتين ببودرة حمراء اللون.

كان جان يخافها في طفولته ويرفض أن يقبِّلها، أما الآن فهو يتعاطف مع هذه المرأة التي ترفض الاندثار. إنها تذكّره ببولا سيدة المجتمع في جناح المسنين في مستشفى سانت توماس.

"يأتون في بعض الأمسيات، سكارى أو لست أدري ماذا، فيستمتعون بدبّ الرعب في قلوب الناس هنا، ويركلون باب غرفتي بقوة فأصرخ بهم: "ارحلوا من هنا وإلا اتصلتُ بالشرطة"، فيسخرون مني لابد أنهم يعلمون أن ليس لدي هاتفاً".

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

نظر جان أيضاً من الكوة، القاعة الداخلية فارغة، يتسلل النور من الزجاج المحطّم باهتاً رغم شمس الظهيرة. لا صوت يكسر الهدوء. فقط حركة الهرر الهارية في الشقة، ترى كم عددهم؟ عندما دخل جان لمح ثلاث قطط يتراكضون تحت السرير وبعد برهة لمح عند مدخل المطبخ هرة بيضاء صغيرة تمدُّ رأسها، قالت إليونور: "هذه إيما، إنها تطالبني بطعام الغداء، المسكينة لا تكف عن الطعام ولكن انظر كم هي نحيلة".

تذكر جان أن والده أخبره فيما مضى أن إليونور عندما كانت تسكن فيلا "بيل فو" كانت تأكل من جفنة قططها. تكدّست علب طعام القطط على الرف في المطبخ، لعل إليونور لم تغير نظامها، ما بدا له منفراً عندما كان صغيراً صار اليوم مؤثراً. تختلف تماماً عن القسوة التي أبدتها العمة كاترين بعد أن غيّب الموت أختها ماتيلد إذ دسّت السمّ لكل قططها لئلا يكابدوا حياة بائسة.

تراكمت تحت سقف هذه الشقة الصغيرة كل ذكريات إليونور عندما كانت تعمل كمطربة أوبرا في مستغانم قبل أن ترتبط بالعم فانيا فلاتيف. برامج الأمسيات والمراوح ورسوم الأزياء. لم تكن تضع الصور في ألبوم مثل كاترين بل اصفرت واختلط الحابل بالنابل في أحد علب الأحذية. عام ١٩١٠ كانت ترتدي الزي الأوكراني والاسكندنافي، أو الياباني. في الصفحة الأولى من إحدى الصحف صورة لإليونور مع السيد "آفز" وهو أحد مغني الأوبرا. كانت إليونور في مقتبل العمر ترتدي فستاناً قصيراً وبنطالاً من الدانتيل وتعتمر قبعةً ذات شرائط، شديدة الشقار مبتسمةً إلى جانب رجلٍ قاسٍ يرتدي معطفاً طويلاً وقبعة التشريفات: "هذا عمي الأكبر شارل مارو، عندما جاء إلى موريس، كان عمري خمسة أعوام حين غيّب الموت والدي، أُلتقطت الصورة في لوكسمبورغ".

- لماذا غادرت والدتك موريس، أيتها الخالة؟

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

هزَّت كتفيها :- "أندري لقد غادرت دون أسف. لم تكن تنتمي لعائلة مارو في روزيليس، لقد كانت مسكينة. لم ترغب والدتي البقاء هناك، آثرت أن أكون فرنسية، كانت امرأة صعبة وما رغبت بالاقتران بشخصٍ من موريس وكذلك أنا. وبالنتيجة تزوجت من رجلٍ عسكري توفي جراء مرض التيفوئيد، وأنا... " ضحكت ضحكة طويلة وتابعت: "وأنا، يبدو أنني كنت صعبة المِراس مثل كاترين، رفضنا كل من تقدم إلينا حتى ما عاد يهتم لأمرنا أحداً". ظل الضحكات ترنُّ في الشقة. تحمست عندما سألها جان ماذا تعرف عن روزيليس: "تحدث الناس جميعاً عن هذه الحكايا، عندما طُردت عائلة مارو وهاموا في أصقاع الأرض بحثاً عن النجاة. نحن لم يكن لنا أي علاقة بالأمر، لم يكن يخصنا، أما بالنسبة لهم فكان الأمر شديد القسوة وخاصةً بالنسبة لجدك ولجان شارل عمي".

لقد جاء جان من أجل ذلك فهو يعلم أن الحقيقة بين يدي الخالة إليونور. سأل: "هل كان الوكيل شومان هو السبب..".

قاطعته إليونور: "لا علاقة لشومان بالأمر فهو مجرد ممثل، كيف نعبر عن هذا؟ فهو مسخَّرٌ لخدمة العم "تادي"، هل تعلم هو الأخ الأكبر لشارل، أقام دعوى وطالب بحصته من الميراث، إنها زوجته الثانية، غاب اسمها عن بالي لعله إيتين أو أنطوانيت، هي التي قامت بالدسائس ليتم بيع روزيليس عن طريق البنوك وجمَّد تادي الشراء متذرعاً بأن الشركة في وضعٍ سيئ فقام بعملية بيع قسرية عبر ممثله شومان وهو أخ زوجته لم يكن بحوزة أهل روزيليس المال لشرائه، لقد خسروا كل شيء المنشرة والغابة والمنزل الذي يسكنوه، هذا ما جرى حينها. رحلوا ثم لقي سيمون مصرعه عام ١٩١٥، كان شاباً وسيماً، التقيت به حين التحق بالجيش الإنكليزي، جاء لزيارتنا في باريس. بعد برهةٍ من الزمن، غيَّب الموت جان شارل متأثراً بالكريب الاسباني على ما أظن. بعد ذلك، جاء كل

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الشباب إلى أوروبا جدك وجيلدا أيضاً ليلتحقا بالمدرسة الإكليريكية، أما كاترين فبقيت في موريس لتعتني بوالدتها، وعندما توفيت جاءت كاترين بدورها إلى فرنسا مع أختها ماتيلد المريضة فقاسيتا سنوات عجاف في باريس، كابدتا البؤس في موريس لكن الوضع في فرنسا كان أشد سوءاً..."

تحدثت إليونور بصوتٍ يرتعد قليلاً لكن وجهها بقي جافاً كوجه هندية طاعنةٍ بالسن: "أقول كل هذا ولكن أنا كنت وقتئذ في باريس، يناهز عمري الثمانية عشر عاماً وأبذل جهدي في دروس الغناء، يمكنني أن أقول لك أن ذلك لم يكن يثير اهتمامي كثيراً، أما بالنسبة لجدك وكاترين والمسكينة ماتيلد، كان حتماً شديد القسوة، نزلوا من الجنة ليلاقوا فجأة الشتاء في باريس". لم يرغب أن يحدثها عن الدفتر الذي كتبته كاترين، وما النفع من ذلك؟ إنها حكايةٌ سرية مليئة بالضغينة والأشباح، قصةٌ لا تفضي إلى النهاية جرحٌ لا يلتئم. ابتعدت الخالة إليونور، إنها تحلم وتحلّق عالياً في حين تتجول قططها تحت أثاث الشقة.

"يصعب عليك معرفة كيف كانت باريس في تلك الحقبة من الزمن. طالما حدثتني والدتي عن حمى موريس، ظلت مريضة في روزهيل، كان المطر ينهمر مدراراً وعندما خطف الموت والدي من بين أيدينا، أحسنت عائلة مارو إلينا حتى نتمكن من العيش، ما كنا بالنسبة سوى من عائلة جوسينيل التي تربطهم بها معرفة، هل تفهمني؟ لذلك كانت باريس بالنسبة لي ولوالدتي حرية"، رغم أننا أقمنا في شقة سيئة في شارع "ديدو"، كان هناك الصالون والدعوات وكانوا يخاطبوننا كأننا في الخدمة، أذكر أنه كانت تجمعني صداقةٌ بفتيات روسيات صغيرات بعد الحرب، إحداهن كانت تدعى "انطوانيتا" من "إكاتيرينبورج"، كم كانت جميلةً، كنا نخرج معاً ونذهب للرقص وكانت تغني بصوتها العذب. ثم تزوجت من أميركي ولم أرها فيما بعد".

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مال النور في الشقة الصغيرة. راقب جان من الكوة الباحة الداخلية الضيقة التي غفت بالظل، لم تتخلَّ إليونور عن غمزة عينيها، قالت: "أتعرف أظن أنهم لن يأتوا اليوم فاليوم يوم الأحد وهناك زيارات لدى كافة الطاعنين بالسن". ثم أطلقت زفرةً صغيرة عادة ما ترافق حديثاً طويلاً: "لو أنك تسكن هنا فقط لعرفوا أنني لست بمفردي وهناك من يحميني لتركوني وشأني.

- لمَ لا تقدمي شكوى للمدير؟

هزَّت كتفيها وقالت: "بابا؟" فهزأت باحتقار: "أنا أناديه "البابا" كما كانت صديقاتي الروسيات يقلن، إنهن حقاً ساحرات، لا عليه سوى أخذ الأجرة وهذا كل شيء. كلما زاد عدد المستأجرين في الغرفة زاد ربحه. إذاً، إنك تدرك أن الأمر سيان بالنسبة إليه إن ذهبت أو مكثت. إنه يؤجر سريراً واحداً لعاملين مهاجرين، إنه هو من يرسل إلينا المتسكعين حتى نغادر بأسرع وقت ممكن".

لكن كبريائها لا يسمح لها التلذذ بالمأساة. فجأة، نهضت عن أريكتها وبحثت بين ذكرياتها الفوضوية ولوحت بورقة ضاربة للصفرة، كُتب عليها بحروف كبيرة وضيقة: RAVEL, LE BOLÉRO

"كنت بالصف الأول مع والدتك شارون، هنا التقت بوالدك. كان في إجازة في باريس، جاء لرؤية شقيقات والديه". بالنسبة لجان فالوقت الذي يسبق ولادته هو العدم، أما بالنسبة لإليونور فهو مجرد ذكرى من بين ذكرياتها وليست ببعيدة جداً. كان عمر والدة جان ثمانية عشر عاماً، أما إليونور فكان يزيد عمرها عن الخمسين. حصل لقاؤهما في أكاديمية "إراتو". حيث كانت إليونور تعطي دروساً بالغناء.

"كانت هذه هي المرة الأولى التي تحضر فيها والدتك حفلة موسيقية، وفي هذه المرة الأولى كان العزف بارعاً والموسيقا مؤثرة جداً. في النهاية، وقف كافة الناس في القاعة منهم من صرخ جنوناً ومنهم من صفق، لدى

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

خروجنا علت الحمرة وجه شارون واغرورقت عيناها بالدموع ترتعد حماساً.

أظن أن بهذه اللحظة وقع والدك بغرامها فهو باردٌ جداً في بزة الضابط الإنكليزي وهي مبعثرة الشعر البني وبشرتها أندلسية. عُقد قرانهما بعد ثلاثة أشهر ثم لحقت به إلى ماليزيا، ثم شهدت السنوات التالية ولادتك هناك. كنت إذاً طفل تلك الموسيقا لـ"بوليرو".

كان جان يعرف هذه القصة ولكن سماعها من فم إليونور سبب له الدوار، فكل هذا حاضرٌ جداً وقويٌ جداً.

غادر جان منزل العمة إليونور بسرعة فقد حل المساء باسطاً القلق في ساحة المبنى وعلى الأدراج حتى في زوايا الشقة حيث تتجول الهرر كحيوانٍ مطارد. شدت إليونور على يديه عند عتبة الباب بقوةٍ يتخللها اليأس: "ستعود بسرعة؟" لم تسعفه الشجاعة ليقول لها أنه يغادر في هذه اللحظة أو غداً ولعله لن يراها مجدداً، قال: "بالطبع يا عمة". لعلها ليست بلهاء، فقالت متذمرة: "نعم، نعم أعرفكم أنتم عائلة مارو لا للسيف و لا للكيف، فأنتم كالعصفور على الغصن".

عند سافلة الهضبة في أحد الأحياء الراقية الذي يطلُ على البحر كالشرفة، وطأ جان "سمر بالاس" حيث تسكن "ليا بالاس"، خطرت له تلك الأوقات التي كان يزور فيها سانتوس، تعرَّف على قاعة الدخول المثيرة للضجر وبيت الدرج الحلزوني والمصعد الذي ينزلق على طريقه النحاسي دون أن يصدر ضجيجاً كسلة المنطاد. كان عمره حوالي ستة عشر عاماً عندما جاء إلى هنا للمرة الأولى وكان عمر سانتوس وقتئذٍ سبعة عشر أو ثمانية عشر عاماً، تضاربا في غرفته لا لشيء فقط من أجل الضحك مع بعض العنف الجنسي تقريباً. هذه كانت بداية صداقتهما، لم يكن سانتوس قد تعرف بجان أوديل بعد، بدا كل هذا من

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ماضٍ عبثي لا يعوّض. ليا هي من فتحت له الباب، تأملته للحظة وكأنها تبحث في ذاكرتها، ثم دعته للدخول. هنا لم تلملم بعد الشمس خيوطها بل إنها تتلألأ في غرفة الاستقبال بضياء أخاذ مجردٍ من أي ضيق. ينبسط البحر من بعيد فوق سطوح المدينة القديمة كغطاءٍ من ألق.

لعب الزمن بهيئة ليا بعض الشيء، إنها أكثر نحولاً وخطوط الفم والأنف أكثر وضوحاً، لكنها مازالت جميلة ومؤثرة.

لا يعرف جان ما الذي دفعه لزيارتها، لعله رغب بإزالة الانطباع السيء الذي خلّفه بحضوره زفاف سانتوس عن بعد. رغب بالاعتذار لكن الكلمات لم تسعفه، أدركت ليا أن عليها أن تتحرك فحملت إليه كأس ماءٍ عذب فرشف ببطء ودسّ أنفه في الكأس.

سألته بجملة جاهزةٍ تحمل عدة معانٍ حسب الظرف: "ماذا أصبحت؟"

"لست أدري علي أن ألتحق بالخدمة، لقد تم استدعائي".

- وماذا أنت عازمٌ أن تفعل؟

رشف جان جرعة ماء وقال: "لا أعرف بعد، لن ألتحق فوراً عليّ أن أنهي ما أنا مقدمٌ عليه في هذه الأثناء". لامس فوراً القسوة في حديثه وكأنه يعني بقوله: "أن الحرب قد حطت أوزارها". أو "وقّع ديغول اتفاقيات إيفيان". في تلك الأثناء، خطف أيادي الموت سانتوس وكان عليهم أن يمثلوا تلك المسرحية ليكون لابن جان أوديل ابن، فدمدم: "أنا آسف، أنا ... " لكن ليا نظرت إليه وما أضمرت الضغينة، تطلُ عيناها من وجهٍ مسنٍ محتفظتان بشبابهما سوداوين ورطبتين، ارتعد جان حين لاحظ كم تشبه هاتان العينان عيني سانتوس.

قالت ليا: "أظن أنك تتقفى أخباراً عن زوجته؟" لم تذكر اسمها حتى بل اكتفت بتلك الكلمة البعيدة، لم يتخللها الاحتقار، فقط المحافظة على المسافات: "زوجته"، فتابعت بعد أن نظر إليها جان دون أن يتفوه بكلمة:

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

"لقد أنجبت طفلاً وأسمته إريك"، ثم أضافت دفعةً واحدة: "إنهما في إسرائيل في تل أبيب في كنف عائلة زوجي السابق. أعتقد أنها عادت لدراسة الفن. احتفظ بصورةٍ لهما ولكنني لم أعد أعرف أين وضعتها".

قال جان بسرعة ليتخلص من الموقف:

- لا مشكلة، لا أهتم برؤية الصورة.

حتى أنه لم يندهش أن الطفل لم يحمل اسم جيم كما كان متوقعاً، كل ذلك ينطوي في جعبة حكايةٍ قديمة. لابد أن ليا توقعت سبب وجود جان.

نظرت إلى جان بعينين نديتين لا دموع فيها وقالت: "ها قد مرت ثماني سنوات"، لمعت عيناها بشوقٍ شجي: "أتعرف، ما مر يومٌ ولا ساعة دون أن أفكر به.. كم كان ذلك طويلاً، ثماني سنوات. يراودني إحساسٌ أحياناً أن هذا الانتظار سيفضي إلى النهاية وأنه سيدخل إلى هنا، حتى أنني أسمع الآن صرير المفتاح في القفل. لهذا فوجئت حين قرعت الباب. أظن أنك تطرق الباب مثله، رنةٌ واحدة قصيرة جداً. في الماضي كنت أقول له: "سانتوس لا ترن الباب هكذا ففي كل مرة أتساءل إن كنت قد سمعت شيئاً أم أنه صوتٌ من الخارج صرخة طير أو شيء ما قد اصطدم، وها أنت ذا ترنّ بنفس الطريقة.

قال جان: - آسف. لكن ليا لم تعد تسمعه.

- "كانت ترغب بأن أعيش معهم هناك ولكن لا استطيع، إن ذلك أقوى مني، يراودني انطباعٌ أنه سيعود يوماً ما؟ هنا كان، لقد كنت هنا عندما قُرع الباب وحمل لي الدرك تلك الورقة التي أخبرتني أنه لقي مصرعه هناك في ربوع وهران، إذاً علي أن أبقى هنا، أتفهمني؟ لن أتمكن أبداً من مبارحة المكان والذهاب إلى هناك؟"

انسحب جان بهدوء وكأنه يقفز على رؤوس الأصابع ولم تتشبث به ليا، رافقته إلى الباب، إنها امرأةٌ طويلة القامة نحيلتها منحنيةٌ قليلاً

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ولكن ما فارقتها الهيئة الإمبراطورية، هيئة الأميرة اللبنانية بردائها الأحمر الغامق، قالت: "إن لم تغادر، عد لزيارتي بين الفينة والأخرى".

في لحظة ذهابه، قام جان بحركة خرقاء كتلميذٍ عاشق، قبّل يدها، فابتسمت ابتسامة غامضة وقالت: "عُد لزيارتي جاناً". نادته باسمه، لقد تذكرت اسمه بعد كل ما ألمّ بها من نوازل مما رماه في دوار من السعادة.

ماذا يبقى حين يزرع الزمن ألغامه في كل شيء حتى كل ما شهد حضوراً قوياً لم يعد كما كان؟ يهيم جان في شوارع هذه المدينة متقفياً أثراً أو إشارة ليستكشف مواقع مخططٍ لم يعد يعرفه. مازالت حانة "لافوال" هنا لكن القائمون عليها قد تبدلوا، لم يعد يجتمع فيها سيئو مرسيليا، يقال أنها تصفية حسابات. أو القادمون الجدد من أوروبا الشرقية ويوغسلافيا ورومانيا وتشيكوسلوفاكيا. تم إعدام أحد اللصوص هنا على الرصيف، فحزم أهالي مرسيليا أحزمتهم وذهبوا نحو الغرب قرب مخيمات القادمين من شمال أفريقيا، معاهدةً ما بين الجنوب والشمال.

أما الشقق المفروشة في الأعلى فقد غابت هي الأخرى بعد أن تم بيعها بالمزاد، غادر القادمون من شمال أفريقيا إلى مناطق أكثر ترحاباً في جبال الألب أو نواحي كركاسون. رحلت ريتا دون أن تترك عنواناً وتزوجت ميلاني وانتهى كل شيء، انتهى.

تقفى جان أثر كيرنس ولكن والداه رحلا أيضاً. التقى صدفةً بأحد رفاق الصف الذي صار طبيب أسنان، اسمه غوفري فأخبره أن "هيري في كيرنس" قد التحق بالبحرية ليتابع دروس الهندسة الإلكترونية. إنه في مكان ما في إحدى القواعد السرية في المحيط الهادئ ربما في "كيرغويلن" ولن يعود أبداً.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أما أموريتو فهو يحيا حياةً سعيدة في السويد حيث تزوج من فتاة شقراء ورزق بأربعة أطفال. يبدو أن حالة العجوز سوفور أوموريتو الذي أطلق النار على ابنه تتردى، فقد هاجمه المرض وأصيب بالشلل. روى طبيب الأسنان لجان أن أموريتو جاء إلى فرنسا خلسة عبر إيطاليا ليلتقي بوالده لكن للأسف لم يتعرف والده عليه.

كل الدروب تودي إلى نفس الغياب، إلى صفيحة البحر الخمري مساء حين تحلّق الطيور دنفاً نحو الغسق.

تشق الفقاعات حديقة "أوليفيه" وكذلك ورشة "كيتسيماني" التي شارفت على النهاية: "زوروا الشقة الشاهدة!"، بحث جان عبثاً عن الألوة القديمة التي حفر عليها فيما مضى، في إحدى الأمسيات التي عزف البلوز[1] الاسم العجيب الذي يدل على لوحات سانتوس بالاس: ANAXAGORA SERA، لم يبقَ شيء سوى شجرة زيتون عند المحيط محترقةٌ تقريباً. غابت شمس الفلاسفة في طور الغموض، خطر لجان أن الثورة كانت طويلة الأمد.

---

(1) - بلوز: موسيقى جاز ألفها زنوج الولايات المتحدة الأمريكية.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مذكرات (يتبع)

١٨٠٩:

١٤ أيار:

مراقبة عدة أشرعة إنكليزية بقلق، روي أنه في إنكلترا أُطلق على "إيل دو فرانس" اسم "عش القراصنة" ولابد من تدميره.

٢١ أيلول:

إبحار الإنكليز تحت إمرة الريان "كوتنبج" إلى جزيرة "بونابارت".

١٨١٠:

٢ كانون الثاني:

الساعة الحادية عشر صباحاً، وصول سفينتي "لابيلون" و"لامانش" مع غنائمهما: "لامينيرف" و"الأميرال دروري".

١٣ كانون الثاني:

وصول "فينوس" الريان "هاميلن".

٢٥:

وصول القلعية المغامرة "لافانتوم" أي "الشبح".

٢٦:

وصول سفينة "انتروبران" مع غنيمة.

٧ نيسان:

الاستيلاء على سفينة الثلاث صواري الأمريكية "أوسيان أي المحيط" للريان ماسفيرسون.

٢٠ – ٢٨ آب:

اندلعت حرب الميناء الأكبر.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

٢٨ تشرين الثاني:

إحصاء ستين شراعٍ للعدو باتجاه الشمال الشرقي في هذا الصباح الباكر. خسروا المعركة سلفاً، دبَّ الرعب في قلب ماري آن واستدعاء الحرس الوطني.

علمنا أن اتفاقية التسليم تمت في الثالث من كانون الأول في الساعة الواحدة صباحاً استولى الإنكليز على الجزيرة و قيدت حريتنا .

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كيلوا[1]

اسمي كيامبي، إنها من ولدت، أنا "أوزوي"، "وايمبي" أنا المحارب أسكاري الذي ارتدى زيه المصنوع من جلد الجاموس ومدججٌ برمحه القصير، أنا "ملايكة" الملائكة و"سيمبا" الأسد و"فيزي" الضبع و"تويغا" الزرافة و"موتو" النار، أنا "تومبو" الذي يسير مطقطقاً بأنيابه، أنا طبل "نغوما" الذي يقرع معلناً الحرب في السافانا حتى البحار الداخلية والجبال ذات القمم المغطاة بالثلج، إلى أروشا وأونفوا، ما يسمى زانزيبار وصولاً إلى سونغا منارا لتحط في كيلو كيزيواني.

أنا كل هذه الأسماء وكل هذه الأماكن. لي وجه وجسد كل أولئك الرجال وتلك النسوة اللواتي حملنني، فأنا "بنتي benti" الفتاة الغالية و"mke" زوجتهم وأمهم التي وضعتهم في هذا العالم في خضم ألمي.

يلوّح السيد بسوطه، سوطاً مؤلماً مصنوعاً من جلد الجاموس، أربع قطعٍ من الجلد مجدولة تنتهي بعدة عقدٍ لتنهش الجسد نهشاً. يمكن للسيد أن يقتل من يريد بسوطه. يمد ذراعه بالسوط لعبده "مبوا" عندما يسأم من كثرة الجلد، فيقترب ذاك الكلب ويمسك بالسوط ويتابع عمل سيده.

في أحد الأيام، كان عمري يناهز العشرة أعوام، دخل رجالٌ إلى قريتي وأجهزوا على والدي واصطحبوني إلى "أروشا" ليبيعوني إلى أحد "مواريبو" الذي كان هناك.

أقمت في منزلٍ كبيرٍ أبيض تتوسطه ساحةٌ يشغلها حوض ماء عذب. قدمت لي بعض النسوة خبزاً وعصيدةً وحليب ماعز. مكثت في هذا المنزل لعدة أشهر، أعمل في خدمة "المواريبو"، أقطع الخشب وأكنس

---

(1) - كيلوا: جزيرة على الشاطئ الشرقي من افريقيا تعود لتنزانيا.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الباحة. ثم قام بإرسالي مع عدة نساء ورجال غرباء، طويلي القامة ونحيلين، أجسادهم تنوء بآثارٍ واضحة وعلى وجوههم أيضاً، يتراكضون عاريين تماماً وموثقين بالأغلال اثنان اثنان. كانت الطريق طويلة والشمس حارقة، لفظ عدة رجال أنفاسهم الأخيرة على الدرب حيث تركوا لأنياب "فيزي" الضبع. أما النساء فلم تلقَ أي منهن حتفها، فقد سهر "موارابو"[1] على راحتهن، كان يرسلهن بالدور على هوادجٍ معلقة على ظهور جمال، لا تتوقف إلا للشرب أو لقضاء حاجة.

أعاقت الأغلال أولئك الغرباء من الجلوس، ما إن يفيئوا لظل شجرة، أو صخرةٍ ليلقوا الراحة حتى يضربهم "الوابوا" والعبيد، صارت أعينهم بيضاء والزبد غطا شفاههم، تساقط الرجال على الأرض اثنان اثنان بالنير الذي يوثقهما فيصدر صوتٌ يشبه غصناً جافاً يسوط الأرض، خلا ذاك الصوت، لا همس ولا أنين فالموارابو يمنعهم. لا صوت إلا "للوابوا" الذي يعوون من ورائنا كالكلاب: نجوا أها ! نجوا أها ! Njo! Aha.

حلَّ الليل باسطاً البرد في الأصقاع، افترشنا الأرض ووضعنا أيدينا على وجوهنا لنحميها من العقارب، فأنفاس الناس تثير العقرب: "نجي Nge" لذلك كان علينا وضع أيادينا على فمنا، هذا ما علمني إياه والدي يوماً ما. بقي الغرباء جالسين اثنين اثنين عاجزين عن التمدد. لقي البعض مصرعهم خلال الليل علمت أن سم "نيوكا" الأفعى قد سرى في أجسادهم وهي تزحف على الأرض تحت نور البدر.

ينهض "موارابو" مع بزوغ الفجر يرتدي ثوبه الأبيض ويمشي بين النائمين يضربهم بعصاه الطويلة. أولئك الذين لم ينهضوا، يلتقطون أنفاسهم الأخيرة وهم يهذون فيتركون لبراثن الحيوانات المتوحشة. سرنا

(1) - موارابو: كلمة في اللغة المحكية في مناطق شاسعة من أفريقيا وتشير للمنحدر من أصولٍ عربية.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لوقتٍ طويل حتى أنني ما عدت أذكر كيف يبقى المرء جامداً دون حراك. خطرت والدتي لبالي وإخوتي الصبية، فكرت بوالدي الذي قتله قطّاع الطرق يوم اختطافي. ما بكيت أبداً.

سرنا حتى وصلنا إلى الأمطار، إنها المرة الأولى التي أمطرت فيها بعد وصولنا أمام كيلوا، إلى خليج كيلوا الكبير "كيلوا ماسوكو" أمام جزيرة "كيلوا كيزيواني". ما رأيت البحر قط، تأملت ذاك المسطح الناعم المتلألئ فاعتقدت أنه تلك البحيرة الكبيرة التي تعانق قريتي في مقاطعة "أروشا".

سرنا حتى لامسنا الرأس ثم في اليوم التالي، حملتنا الزوارق موارابو ذات المجاذيف إلى الجزيرة أنا وباقي النسوة. هناك مدينةٌ أكبر من أروشا مع الكثير من المنازل البيضاء والقصور والباحات وهناك أيضاً ساحةٌ مترامية الأطراف تحيط بها الأعمدة، هنا سوق النخاسة.

أدخلنا "الموارابو" إلى غرفةٍ معتمة وقذرة وقدّم لنا المأكل والمشرب. لم يتفوه أحد بكلمة. خطفوا وليد إحدى النسوة واسمها "نينجي" فناحت وبكت كما آلمها الحليب السائل من نهديها الراغبين بإرضاع الوليد. سمعت صوت نحيبها طيلة الليل وما جرؤ أحدٌ أن يقترب منها، كان صوتها حاداً جداً وكأن الرضيع الذي خطفوه من أحضانها مازال يصرخ بحنجرتها.

بعد بضعة أيام توافد بعض المحاربون واغتصبوا كل النساء وأنا أيضاً قام أحد الرجال بانتهاك عرضي، ظننت أنني سأموت من الدم العذري الذي سال. ثم جاء "موارابو" آخر واقتادني مع فتاةٍ أخرى لا أعرفها إلى سوق النخاسة، تم بيعنا معاً واصطحابنا إلى منزلٍ مجاور للميناء. أبحرت الفتاة على متن قارب أما أنا فبقيت لعدة أيام دون مأكل ومشرب والحمى تنهشني حتى خلت أني سأقضي بحرارتها، لكن جرّعتني امرأةٌ عجوز ساحرة "مشواي" دواء شديد المرارة قضى على الحمى. كانت

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الشخص الوحيد الذي حنا عليَّ منذ أن انتشلت من قريتي مسقط رأسي، لذلك لم أرغب بمفارقتها. تكوّرت في أحضانها وقلت لها: "أزانت ماما، أزانت ماما" وكانت تلك آخر مرة أتحدث فيها بلغتي الأم.

قدم الرجال من "مورابو" لاصطحابي وإرسالي إلى قاربٍ ما رأيت مثله بحياتي، إنه أكبر حجماً من منزلٍ ومليء بالرِّق. في قعر القارب، كان الحر شديد والبحر يرشح ما بين ألواح الخشب، العتمة حالكة لكأنك في بطن حيوان. احتلت النسوة والفتيات المراهقات غرفةً في مقدمة السفينة إلى جانب أكياس من الرز والذرة البيضاء، لم توثق الأغلال معاصمنا.

كنت أرتعد برداً رغم الحر المرهق. تمكنت بعد أن اعتدت على العتمة من رؤية بقية أجزاء القارب المقسَّم لثلاثة طوابق، رقد على كل لوحٍ رجلٌ موثق الأغلال مع آخرين بسلسلةٍ طويلة تشدُّ على أذرعهم، لا تفصل بينهم مسافة تسمح لهم بالنهوض أو حتى بالجلوس. لم أكن أراهم بوضوح لكنني أسمعهم.. لم يتكلموا ولا حتى يصرخوا لكنهم يصدرون طنيناً بحناجرهم ونخيراً يملأ فضاء القارب تارة يعلو وتارة يخبو ليصبح همهماتٍ ذكرتني بطنين النحل حول الخلية في الغابة. بقي القارب لأيام عدة في المرفأ بسبب الأمطار أو ربما لأن القراصنة يهاجمون "كيلوا". كنت أسمع هدير العاصفة وما انفك الماء يرشح لقعر القارب حتى توجب غرفه بأواني مصنوعة من الكرنيب[1]. انتصبت قليلاً وكأنني على وشك الجلوس لئلا يتم ضربي فتمكنت عبر فتحةٍ من رؤية خليج كيلوا والعديد من القوارب التي تشبه قاربنا، اجتمعت كل تلك الصواري لتشكل غابةً تختبئ خلفها بعيداً منازل المدينة البيضاء وقصور الملك. حمل إلينا بعض الرِّق بثياب بيضاء الطعام مع حلول

(1) - الكرنيب: نبات معترش من الفصيلة القرمية.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

المساء، حمل أحدهم قدراً وحمل آخر ملعقةً خشبية ووضعوا عجينة الذرة بين أيدينا. لاحقاً، أتى رقٌّ آخر بقربة ماء فشربنا بالدور، امتلأ قعر القارب بالقذارة وبكل مرة ينظف أحد العبيد بسكب دلو في البحر حتى تفوح رائحةٌ واخزة جداً فتضطر لسد أنفاسك.

لم أكن أميز الليل من النهار فالظلمة حالكةٌ في قعر القارب. لم أكن أنام ولا أسهر وكأنني في حلمٍ أستعيد فيه كل الأسماء كأطيافٍ تدور من حولي. "ملايكة" اسم والدتي، "موتو" النار و"نياني" الجاموس و"فيزي" الضبع. هذا الطنين المستمر يموج تارةً قوي وتارة حاد فيملأ القارب ويملأ رأسي لا أتمكن من إخماده حتى حين أضغط بيدي على أذني وبكل ما أوتيت من قوة.

التقيت لأول مرة في حياتي في ميناء كيلوا برجلٍ ذي بشرة بيضاء "موزانغو" من "موزانيق" بشرة بيضاء غامقة. كان ذلك ليلة مغادرتنا، نزل لقعر القارب عبر سلم فعندما نزل دخلت الشمس عبر الثقب وبعثرت نورها عليه كان يرتدي زياً أبيض اللون، لم يكن يرتدي ثوباً مثل "موارابو" فقط زياً ضيقاً عند الركب ورداءً قصيراً بأكمام مغلقة عند المعصم ويعتمر قبعةً بيضاء مصنوعة من الشعر، لحيته وحواجبه بلونٍ أبيض أما وجهه فشديد الحمرة. نزل ببطء اتجه إلى مقدمة السفينة حيث تجمعت النسوة، تسمرنا ذعراً بنظراته التي حطت على كل واحدةٍ منا، لقد كانت نظرةً بيضاء منزوعة البؤبؤ كالعميان. تراجعنا حتى طرف القارب هرباً من هذه النظرة.

رأيت خلف الموزانغو الرجل الذي اشتراني من قاطعي الطرق ومن وراءه يقف رجلان بأثواب طويلة ويمسكان بساطور اللحام، دوّى المكان بأنين النسوة ذعراً إذ ظنن أنهم قادمون لقتلهن وتقطيعهن. تحدث الموزانكو مع الموارابو بلغةٍ غريبة فأجابه بنفس اللغة. التزم الوابا[1]

---

(1) - كلمة في اللغة المحكية في مناطق شاسعة من أفريقيا تشير للسكان المحليين.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

والرِّق الذين يحملون السواطير بمكانهم في الخلف، رفعت رأسي فاتجه "الموزانكو"[1] نحوي وضع يده فوق رأسي خلف عنقي، فسرت الرعشة في جسدي حتى شعرت بفيضان سيتدفق من أحشائي ويعتلي حنجرتي. لكنه تركني ركضت لأندس بين النساء الأخريات فتقيأت على الأرض.

غادر القارب لاحقاً كيلوا وما أدركنا ذلك إلا بحركة الأمواج لأن مياه البحر رشحت أحياناً من ثقوب ممشى السفينة وتدفقت على كل من وُجد في قعر السفينة. في البداية، وقع الجميع بشرك المرض ثم هدأ البحر أو أننا اعتدنا، فلم يعد أحدٌ يتقيأ. في اليوم الثالث، هاجم القارب ألمٌ آخر، ألم ندعوه في بلدنا "ندوي" والذي يهاجم بسرعة هائلة، يغطي الجسد بالجراح وتفوح منه رائحة الموت. هاجم المرض أولاً "الوابا" من جزيرة "أنغواما"، لكنه ابتعد عن أولئك الموجودين في مقدمة السفينة والذين أبحروا من كيلوا. وقع في شرك الموت اثنان في قعر القارب في البدء، حضر الرِّق بأثواب بيضاء لأخذهم فحلوا وثاقهما ورموهما في عرض البحر عبر النافذة المجاورة للسلم. شهدت الأيام التالية مصرع اثنين آخرين ثم ثلاثة ثم ستة. ريح "بيبو"، عصفت ريح المرض بالقارب. دبَّ الذعر في قلب "الموزانكو" فعاد وقد غلَّف وجهه بقماشٍ أبيض وما ترك سوى ثقبين للنظر، وسار ببطء في قعر القارب كالشبح، مغلفاً يديه وقدمين بالقماش الأبيض. تأمل كل عبدٍ الواحد تلك الآخر وكل من أشار إليه، فك "الوابا" وثاقه ورموه بالبحر حتى الأحياء منهم، تناهت صرخات رعبهم لمسامعنا حين التهمهم البحر. أحصى فيما بعد أحد الرِّقيق عددهم فكان العدد يفوق الخمسين، أغرقهم جميعاً بيوم واحد الموزانكو فيليبير. فيما بعد، هدأت الأرواح السيئة وطُرد مرض الزهري كما يدعونه هنا وهَجر القارب.

---

(1) – موزانكو: كلمة في اللغة المحكية في مناطق شاسعة من أفريقيا وتشير إلى الشعوب المنحدرة من أوروبا.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وصل القارب إلى جزيرة موريس ميناء سويلاك في العاشر من آذار ١٨١٧ . حسبما رُوي لي فيما بعد، كاد القارب يلامس مرفأ "تاماريان" حيث الرسو سهلٌ وفي مأمنٍ من الريح، لكن الإنكليز يمنعون بيع الرّق الجدد، فاتجه القارب نحو جنوب الجزيرة حيث ارتمى على الرصيف الصخري.

تركنا القارب عبر فتحة في المقدمة تسربت منها مياه البحر وكذلك فعل أغلب الرجال الذين فُك وثاقهم. كان الشاطئ أمامنا مع مصب نهرٍ قريب لدرجة أننا نسمع الأصوات التي تنادينا من أعالي الصخور. رغب بعض الرّق بالهرب سباحةً فجرفتهم الأمواج. أقبل من جهة الشاطئ أربع عبيدٍ معتوقين أرسلهم شارل لوليفير، رجلٌ ذو بشرة سوداء لكنه يمتلك مزرعةً في هذا المكان، هم من أشاروا إلينا طريق النجاة عبر الرصيف الصخري. كنت من أوائل النسوة اللائي لامسن اليابسة على مقربةٍ من كوخٍ من القش يعلوه صليب. أقمنا في قرية الرّق المعتوقين، توجه كل من نجا من الغرق إلى مساكن الفلاحين العائدة للمدعو "لوليفر"، في نهاية محور سويلاك، ثم تم بيعهم لصاحب المزرعة "هيبوليت كوفيليه" أما أنا وبعض النسوة الأخريات فقد تم بيعنا لـ"مينيسي" في مقاطعة "موكا" حيث بقيت بصفة خادمة الغرف إلى يوم "ثورة الرّق".

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

حدود

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أرض "غيرورو" هي المكان المرام لخلع الماضي. يبعد شارع لونا حيث عثر جان على سكن عشرين دقيقة سيراً على الأقدام عن المركز حيث يعطي دروساً بالإنكليزية. إنه حيٌ جذّاب يشارف على الشيخوخة بقارعة الطريق المحفَّرة بانتظام وتلك الأرصفة المتصدعة حاضنةً من بعيد الأكاسيا التي تُحتضر. شُيّدت أبنيةٌ صغيرة مؤلفة من ثلاثة طوابق لا لون لها من القرميد الصلب، بالتناغم مع بعض فلل فاخرة من البيتون محاطةً بشباك مرتفعة. أمضى أسبوعين في فندق "فرانسيس" الذي نهش حصةً لا بأس بها من مدخراته ثم انتقل للعيش في ذاك الحي، شعر في اليوم الأول أنه وقع في قعرِ حوضٍ ثم رويداً رويداً اعتاد فهذه المنازل تشبه إلى حد كبير "لاكاتافيفا".

تنقل جان ما بين "فندق فرانسيس" وشارع "لونا"، أقام لوقتٍ طويلٍ في فندق "أورغواي" في الشارع الذي يحمل نفس الاسم و يتوسط المدينة. أقام في الطابق الأخير تحت السطح المسطح في غرفة طويلة، تضيئها نافذةٌ ذات شبك تطلُ على قسمٍ من المكسيك حيث الأبنية المجاورة غير منتظمة ومتباعدة كأسنانٍ منخورة، يبرز من المدينة المنخفضة بل ينتصب برج أميركا اللاتينية كحرف الألف وسط الضباب المصفر.

مديرا فندق "أورغواي" أخوان اسبانيان شحيحان وصامتان يتناوبان بقراءة الصحف في رواق الفندق والاستماع دون كللٍ للمذياع وهما ينفخان بالسيجار، لكن جان يتفاهم معهما، يغلق الأخوان حوالي الساعة السادسة باب غرفة الاستقبال ويستسلمان لقيلولة حتى الساعة العاشرةِ مساء، يتناولان وجبةً خفيفةً من الحليب والخبز المحلّى ويسهران حتى بزوغ الفجر.

أقام جان في الفندق حوالي أربعة أشهر من شهر آب حتى تشرين الثاني دون أن يبرح المكان، يتسكع صباحاً في شارع "ألاميدا" ثم يأم

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

المكتبة العامة المجاورة للفندق. قرأ كل ما تسنى له عن تاريخ المكسيك وعن أخبارها ومذكراتها، أوروزكو ي بيرا[1] و ريفا بلاسيو[2] وهامبولدت[3]. المكتبة معتمةٌ وقاسية أما قاعة المطالعة فكانت تعجُ طيلة الأيام بالتلاميذ والتلميذات الذين يأتون لقراءة مجلات مصورة وكتابة واجباتهم أو تجذب الغالبية منهم لقاءاتٌ غرامية. تعرَّف جان على بعضهم لأنه تردد إلى المكان بانتظام. يقبل إليه بعض الصبية ليتحدثوا معه باللغة الإنكليزية ويطرحوا عليه الأسئلة بينما يجلس متكئاً على الجدار وهو ينفخ الدخان في وجه الشمس التي تضمه. حوالي الساعة الثالثة، يتجه إلى المطعم المتاخم حيث تكلف وجبة "كوميدا كوريدا"[4] خمسة بيزو[5]. لن يبذّر وفق هذا النظام الكثير من المال الذي جمعه من عمله في مستشفى سانت توماس. أجرى حساباته ليلاحظ أن المال الذي بحوزته يكفيه لخمسة أشهر وإذا ما قنَّن قد يكفيه لثمانية أشهر. استثنى الصودا والعصير المعلّب بصورةٍ عامة لغلاء سعرها، الرفاهية الوحيدة التي يتلذذ بها هي احتساء فنجان من "الكابتشينو" في قهوة سانبورن في مركز المدينة. تكدست الغيوم فوق المدينة مع نهاية إحدى أمسيات شهر آب، فاتجه جان إلى غرفته ليتأمل عبر النافذة لمعان البرق الذي يتراقص أعالي وادي مكسيكو.

وجد مع نهاية أيلول عملاً كمنظمٍ للدروس في مكانٍ يسمى بأبهة "المعهد العالمي للغات الأجنبية" يشغل قبو مبنى في شارع "بينتو دو ألفرادو" وهو عبارة عن شقة مقسمة لغرفٍ صغيرة معزولة بالخشب المعاكس.

(1) - أوروزكو ي بيرا Orozco y Berra ١٨١٦ - ١٨٨١ : مؤرخ مكسيكي وعضو في الأكاديمية المكسيكية للغات.

(2) - ريفا بالاسيو Riva Palacio ١٨٣٢ - ١٨٩٦ : سياسي ومفكر مكسيكي.

(3) - هامبولدت Humboldt الكسندر فون هامبولدت مستكشف وجغرافي بروسي.

(4) - كوميدا كوريدا: وجبة متكاملة تقدم في المطاعم الشعبية في المكسيك.

(5) - البيزو: وحدة النقد في عدد من بلدان أمريكا اللاتينية.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أعطـى جـان دروسـاً باللغـة الإنكليزيـة لطـلاب قليلـي المهـارة يعـود غالبيتـهم لأوسـاط شـعبية ويتـأملون بتحسـين ظـروف العمـل: سـكرتيرة ومضيفة وباعـة ونـادل. كما كان هنـاك العديد مـن الرجـال الناضـجين الذين يتوافدون بدافع الفضول أو آملين بالتقاء الفتيات. لم يكن العمل مرهقاً ومردوده سيئ لكن الميزة أن مدير المعهد رجلٌ أميركي مكسيكي اسمه "جوان كوشـران" لـه اتـصالات مـع وزارة الخارجيـة قـسم الغـير مهاجرين مما قد يسهل عليه الحصول على فيـزا F-m3[1] والتي تُجدد كل ستة أشهر.

تعلّم جان أن يحب روتين الحياة في شارع لونا بعد أن استأجر هذا الاستوديو الصغير في مستعمرة غريرو، كما أحب الحياة في "جامايكا إيست" في لندن. القاسم المشترك الوحيد فيما بينهما هو المساحة الشاسعة التي تشغلها المدينة وما حولها مما يضفي انطباعٌ بأنه مهما فعل ومهما طالت حياته لن يتمكن أبداً من التعرّف إلا على بضعة شوارع وبضعة منازل و قلّةٌ من الوجوه. أما فيما تبقى فلا تشابه البتة. مكسيكو مع أرض غريرو وريفورما وألميدا وريفولسيون ليست سوى أحياء من الحجر والقطران تجوبها حشودٌ غفيرة لا تنتمي إليها. تسحق الشمس كل شيء في منتصف الظهيرة تمد أذرعها عبر الغيمة الرمادية التي تعكس نوراً خافتاً شاحباً يخلخل الهواء ويشدُ على الصدغين فيكتم الأنفاس لكن الناس لا يأبهون. يخرجون إلى أعمالهم من أفواه المترو وطالت أرتال الانتظار أمام المطاعم وعلى طول الأرصفة. يتراكضون على قارعات الطرقات بحثاً عن حافلة أو سيارة أجرة. يقترب المتسولون متشحين بالسواد من الأرتال وهم يتوسلون ثم يدسون القطع النقدية في جعبهم التي خاطوها داخل سترهم. يتسلل الأطفال بين السيارات من

(1) - visa F-m3: فيزا تُعطى للأجانب الذين يقيمون في العاصمة المكسيكية بشكلٍ مؤقت لمدة تزيد عن ١٨٠ يوماً.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أجل قطعةٍ نقدية ويبيعون العلكة والكبريت والصحف القديمة. سار جان بينهم وهم يوجه ضربات بالمرفق، لقد شعر أنه تحول هو أيضاً لنملة لا تبقى على قيد الحياة إلا للحظاتٍ في مكانٍ يلتهب بألسنة الشمس.

مكتبة شارع أرجنتينا كبيرة وباردة ويسودها الصمت، إنها كنيسةٌ قديمة استولت عليها الثورة. سقف الكنيسة عبارةٌ عن قببٍ عالية والأبواب أقواسٌ قوطية تتوسطها أعمدةٌ من الحجر الوردي. تتنقل طيور الدوري من نافذة لأخرى تصدح بزقزقتها العذبة. بالكاد يتسلل ضجيج حركة السير في الخارج والازدحام في شارع "إيزابيل لاكاتوليكا" ونعيق زمامير سيارات الأجرة.

يرتاد جان المكان كل فترة بعد الظهيرة بعد أن يفرغ من دروسه ليقرأ الكتب التي ينبعث منها الماضي وهي متكئةٌ في ظل المكتبة تتجول بين الأعمدة قرب الجدران القديمة. هذا يضفي عليه إحساساً يكاد يشبه ما كان يراوده قديماً حين كان يصغي للعمة كاترين وهي تروي له عن روزيليس، عن ذاك الزمن الغابر حين شيَّدت جدتها ماري آن مع جان أود جنة الفردوس في إيبن. غاص جان لساعات في لغة "موتولينيا[1] وتوركيمادا"[2] القديمة وكذلك اللغة المحكية في ساهاغان[3]، ثم انسلخ من بين الكلمات ليجد نفسه في الشوارع يبهره نور الغسق ويذهله صخب المحركات وحركة الناس. وصل إلى حديقة "ألاميدا" فتثاقلت خطاه في الممرات التي يشغل العشاق مقاعدها. وصل "أرض غيريرو"[4] مع هبوط الليل.

---

(1) – موتولينيا Motolinia: (١٤٨٢ – ١٥٦٨) مبشّر من الفرانسيسكان من أوائل الكهنة الذين وصلوا إلى إسبانيا الجديدة عام ١٥٢٤ في شهر أيار.

(2) – توركيمادا Thomas de Torquemada (١٤٢٠ – ١٤٩٨): لاهوتي ومؤسس الحركة الإسبانية المسيحية.

(3) – ساهاغان Sahagun: مدينة في المكسيك.

(4) – غريرو Guerrero: مدينة في المكسيك.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

إنهما اللحظتان المفضلتان من اليوم حين تتوقف المدينة عن اندفاعها المسعور فيتباطئ كل شيء كحمى تنحسر ويغدو الهواء أكثر رقةً وعذوبة. وهناك الصباح حين يذهب جان حوالي الساعة الثامنة ليحضر الخبز من المتجر عند زاوية "زيرو"، عندها تلثمه النسمات التي تحمل بعضاً من برودة الليل، يتدثر المسنون بأوشحتهم وتلتهم قبعاتهم رؤوسهم حتى العينين. يحتسي بضعة رجال أعمال وموظفي الوزارة عصير البرتقال عند ناصية الرصيف مع بيضٍ نيء. تكنس النسوة الثرثارات الغبار عن عتبات منازلهن. لم تبدأ بعد السيارات بالهدير ما عدا بعض الحافلات أو الشاحنات التي تفرقع بين الفينة والأخرى متجهة إلى ساحة "ريفولوسيون". يتسرب ذاك النور الخلاب من بين الضباب القذر فلا تحزر هل يشارف النهار على البدء أم على النهاية.

اللحظة الأخرى، عندما يسبل الليل سدوله في غسقٍ يبعثر درره الرمادية، فتتثاقل خطى الناس قبل أن يلجأوا لمنازلهم، يتسكعون في شوارع موسكيتو وغريرو والفتيات يلتصقن بالأشجار الهزيلة يتجاذبن أطراف الحديث، يتمايلن بغنجٍ وأيديهن خلف ظهورهن. تكنس النسوة الثرثارات نفس الغبار عن نفس العتبات. كلٌ يلتزم مكانه على طول شارع "غريرو" الذي يستمد نوره من مصابيح الأسيتيلين[1]، الباعة المتجولون الذين يدفعون عرباتهم ذات الدواليب لبيع عرانيس الذرة المسلوقة و التاكو[2] المحشو بالسمك الدسم. ينثر كل ذلك كآبةً قادرةً على محي كل هموم اليوم. خطر لجان أنه قد يترك كل شيء من أجل ذاك الصراخ الكئيب الذي تطلقه الآلة البخارية التي تدور ببطء في الشوارع المجاورة، ذاك الضجيج الثاقب الصادر عن صافرة بائع البشامال والذي يبحر في العتمة كطوفٍ يتقاذفه مدُ الليل وجزره.

---

(1) - الأسيتيلين: غاز عديم اللون ويستخدم في التلحيم.

(2) - تاكو Tacos: طبقٌ تقليدي في المكسيك وهو عبارة عن عجينة الذرة أو التورتيلا محشوة بأنواع مختلفة من السمك والجبنة والخ.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تعرف جان أثناء ذهابه إلى المكتبة العامة في شارع "أرجنتينا" على فتاة غريبة رائعة الجمال، لكأنها خرجت مباشرةً من الوقائع الهندية. فتاةٌ طويلة القامة، عريضة الجذع لكن حوضها ضيق. تربط شعرها الأسود الداكن "ذيل حصان" وغرة تغطي جبينها كالطلاء، تشدُ شعرها من كلا الجانبين إلى صدغيها بملقطين من البلاستيك الوردي المثير للاشمئزاز فتبدو عيناها كقطرتين مائلتين بلون الحجر الأسود، نظراتها مراوغة كالذئاب. أما وجهها فأملس جداً بلون الشوكولا.

في كل مرة يلتقي بها في المكتبة يراها ترتدي الزي نفسه ثوبٌ أزرقٌ كهربائي وحذاء ذي كعبٍ عالٍ وحقيبةٍ بحمالة من البلاستيك بني اللون. ترسم شفتيها بقلم الحمرة أما عيناها فلا حاجة لهما بأقلام التجميل. يشدُ قرطٌ بشكل بدرٍ ذهبي اللون شحمة أذنيها إلى الأسفل.

عادة ما تأتي حوالي الساعة الخامسة بعد الظهر وتقرأ كتباً باللغة الإنكليزية. وجه جان الحديث إليها في استراحة "الدخان"، كانت تدخن بعصبية غير آبهة لمزاح الفتية من حولها، اسمها عادي "باميلا" لكنه يعطي معنىً غريباً إذا ما ارتبط بهذه الفتاة الغريبة. قالت إن عمرها لم يتجاوز العشرين بيد أن زينتها وفستانها ذا الذوق القديم يضفيان عليها المزيد من السنين، لكن حين يتأمل وجهها تبدو له أصغر من سنين عمرها. ذكرته تلك العينين المائلتين السوداوين بلون شعرها والفراغ المرسوم في أحداقها بعيني أورور دو سوميرفيل.

في إحدى أمسيات تشرين الأول، اتجها تحت وابل الأمطار إلى مقهى "سانبورن" لاحتساء الكابتشينو. حدثته باميلا عن أخيها "جوكان" الذي يدرس في مدرسة البوليتكنيك[1] في "تلاتيلولكو"، كما حدثته عن قريتها الأم "تيانغيستينغو" وعن وادي "تولوكا". تعمل كسكرتيرة لدى كاتبٍ

(1) - مدرسة البوليتكنيك: متعددة الفنون.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بالعدل في شارع "موندا"، وتسكن هي وأخيها عند خالتها في جادة "غريرو"، تتحدث إليه بتحفظٍ ملموس لعل الشك ساورها لأنه إنكليزي أو لأنه يكبرها بكثير على ما يبدو.

نظرت إليه ذات مرة وسألته بلغتها: "ما هو هدفك؟" لم يفهم كلمة "هدف" بلغتها فكررها عدة مرات وكأنها طُرفة، لكنها لم تضحك بل حدجته بهيئةٍ وقورة بتلك العينين المائلتين اللتين تكشفا النقاب عن لغزٍ ضاربٍ بالقدم. راوده الدوار لأنها ذكرته مجدداً بأورور. أعادت السؤال بصيغة أخرى:

"ماذا تقصد من حديثك معي كما تفعل الآن؟"

فأجابها بسؤال: "لا شيء، لا أرمي لشيء. وهل يجب أن تكون لدي أسبابي لأتحدث إليك؟". لم تجبه بل علّقت ناظريها عليه، شعر بالضيق لسؤالٍ طرحه على نفسه: هل يحق لباميلا طرح هذا السؤال عليه وهو مجرد عابرٍ في هذه المدينة؟

خطر له بسرعة أن لهذه الفتاة أصولٌ تمتد للجبال المحيطة بالمكسيك وهي مرتبطة بهذا المكان بعصورٍ من المعاناة والظلم. هي ليست مجرد هندية جميلة تخطف أبصار الرجال في الشارع ولا فتاة يمكن لغريب أن يرميها بشباكه مقابل فنجان قهوة أو فنجانين ولا حتى فيلم في السينما ولا أن يصطحبها لغرفةٍ في فندق. كل ذلك خطر له وهو في قاعة سانبورن الكبيرة بين كل أولئك الناس الأنيقين، تلك البرجوازية السائدة التي تحدجهما بطرف العين استغراباً سائحٌ برفقة فتاة من الشعب ترتدي فستاناً رخيصاً وتضع ملاقط شعر وردية.

قالت باميلا: "سأغادر الآن". لمعت في أحداقها دمعة غضب، لملمت حقيبتها البنية الكبيرة وغادرت حتى دون أن تنتظر أن يسدد جان الحساب ولم ترشف من فنجانها رشفةً واحدة، لحق بها جان إلى الشارع لكنها لم تتفوه بكلمة واحدة حتى وصلت إلى منزل خالتها.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

جوكان صبيٌ بأعوامه الأربعة عشرة، يبدو هندياً بجدارة، عادةً ما يرتدي سترةً من البلاستيك الأحمر وبنطال جينز وحذاء رياضياً ويعتمر قبعة "البيسبول". إنه جذّاب بالمجمل أضمر العداء لجان حين التقى به للمرة الأولى لأنه يرافق أخته. في إحدى المرات رافق جان باميلا إلى سوق "غريرو" وترك حقيبة ظهره في عهدة جوكان ولدى عودته وجد أغراضه مبعثرة على الأرض ويركلها جوكان بقدميه، سأله جان: "لماذا فعلت هذا؟" أجاب جوكان هازئاً: "أتدرب على لعب الكرة". لم يقل جان شيئاً ولكنه اشترى له لاحقاً كرة قدم جديدة ومنذ ذلك الوقت سارت الأمور بشكل أفضل.

معظم تلاميذ البوليتكنيك أبناء فقراء قادمين من القرى المجاورة للمكسيك أو من الضاحية الكبيرة: أميكاميكا، تيزكوكو، ميلبا ألتا، تلاياكابان. يوحي اسم المدرسة بالطموح لكنها بالحقيقة تشبه ميتماً، بوجود الطلاب ذوي الزي الموحد "الأخضر الرمادي" والرؤوس الحليقة والجوع الذي يبدو على الوجوه الواجمة بنظراتٍ مشاكسة. التعليم الذي يتلقونه لا يعود عليهم بالنفع الكبير، معظمهم يلتحقون بالجيش أو يعملون كمتمرنين وبأفضل أحوالهم يصبحون "مهندسين" أي عمال مختصين. لكنهم حقاً ظرفاء وماكرين لا يضمرون الشرّ، يتحدثون بلغة عامية جداً يصعب على جان فهمها. يستقل في بعض الأحيان جوكان المترو فيتحدث مع أخته باللغة "ناهوتال" لغةً بحروفٍ زلقة تصفر كالنعيق. لكن جان يجدها لغة جميلة وهي تثير دهشة الناس. قدم جان لجوكان نماذجاً من قصائد" نيزاهوالكويوتي"[1] ليسمع إلقاءه بلهجته الغنائية حيث حرفي "ت ك" رطبة وانفجارية أما حرفي "ش ل" ثقيلين لتبدو بعض الكلمات وكأنها باللغة الروسية.

---

(1) – نيزاهوالكويوتي Nezahualcoyati (١٤٠٢ – ١٤٧٢): محارب وفيلسوف ومعماري وشاعر من المكسيك.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

سأله جان: "كيف وجدتها؟" هزَّ جوكان كتفيه وقال: "لم يعد أحدٌ يتحدث هكذا". لكنه بالتأكيد تأثر أن يقرأ هذه الأبيات المكتوبة بلغةٍ يضمر لها كل الناس الاحتقار. قال لجان: "ينظم جدي دون بيدرو أولغان شعراً كهذا، لقد كان مدرساً في المدرسة قديماً خلال حقبة الثورة".

- هل يمكنني لقاءه.

تردد جوكان: - إنه الآن طريحٌ في المستشفى في تولوي، سأسأله وسأحدثه عنك.

تربط ما بين جوكان وباميلا علاقة مليئة بالحب، فلا يمضيان نصف يومٍ دون أن يلتقيا. يشكلان معاً خليةً منعزلةً على هامش المجتمع. إنها طريقتهما بالبقاء في هذه المدينة العنيفة التي تلتهم أولئك الذين يقدمون على المغامرة هنا، مثلهما يتسول أبناء فلاحي القرى "أوتوميس" في مستعمرة "غواهتيموك" وتمارس فتيات "نوكالبان" أو "أزكابوتالزاكو" العهر بين يدي الناحية الوردية ويتخدر الصبية بالاسمنت اللاصق.

في إحدى الأمسيات بينما كان ثلاثتهم عائدين نحو جادة "غريرو"، أحاطت بهم مجموعة متسكعين لاحقوا باميلا لكن وجود شاب غريب هو ما أثار حفيظتهم. بدأوا بتبادل الشتائم والكلمات النابية ثم أمسك أحدهم بباميلا، كاد يداعب نهديها، انقض جان عليه وأمسك برقبته ثم انهال عليه جوكان بالركلات حتى تمكنت باميلا من الإفلات من بين يديه وهي تتفوه بحماقات بصوتٍ حاد للغاية. لمح جان في العتمة نصل سكينٍ يلمع فسحب جوكان إلى الخلف. في غضون ذلك، عجَّ مفترق الطريق بالناس والسيارات التي أوقفها الفضول، أدرك المتسكعون أن الأمور لن تسير على ما يرام فسارعوا بالانسحاب باتجاه الشوارع المجاورة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وصل جوكان وباميلا لاحقاً إلى منزل الخالة في الرقم "٢٠٠٠" من جادة "غريرو"، كانا يلهثان وباميلا ترتعد غضباً أو خوفاً. قال جوكان: "إنهم من مدرسة آرانس، إنهم يسعون دائماً للمشاجرة في البوليتكنيك، عادةً يكونون في حي "سيوداديلا" لا في "غريرو"، إن حاولوا مجدداً مهاجمة أختي سأجهز عليهم". لثمت باميلا جان على وجنته بشكلٍ خاطف وقالت: "شكراً لمساعدتك".

عاد جان إلى منزله وقد سرى في جسده الاضطراب كتلميذ مدرسة من هذه القبلة وبالوقت نفسه شعر بنفسه مضحكاً بشكل غامض.

يقصد جان دير غريرو للقاء الأب "أندريس" عندما لا يكون لديه دروسٌ في المعهد العالمي. التقى بأندريس خلال الأسابيع التي تلت وصوله لفندق أورغواي. في صباحٍ ما بينما كان خارجاً من الفندق، كان هناك أشخاصٌ جالسون على الرصيف بزاوية جدار يفترشون كرتوناً قديماً. زوجان رجل وامرأة شابان لا يزيد عمرهما عن الخمسة وعشرين عاماً، ومعهما طفلين، فتاة صغيرة عمرها أربع سنوات ورضيعٌ ترضعه والدته خلف وشاحها.

إنهم لا يشبهون المتسولين العاديين الذين يتجولون في مركز المدينة، يبدو أنهم عائلةٌ من الفلاحين فالرجل يرتدي قميصٌ وبنطالٌ نسيجي أما هي فترتدي بنطالاً أسود اللون وكنزةٌ رمادية، كلاهما ينتعلان صندلاً من الإطارات. "إنه فصلُ الأمطار. انحنوا متحاشين الأمطار تحت إفريز الفندق والمرأة جاثية على الكرتونة المبللة على طريقة الهنود. بدت الحيرة على وجهيهما لكنهما لا ينتظرا شيئاً. فقط الفتاة الصغيرة تنظر إلى المارة، تحيط رقبة والدها بذراعيها وتختبئ خلف ظهره. أوقفته نظراتها المذهولة والمذعورة فتحدث إليهم. يتسارع المارة ويتدافعون أمام المشهد وبالكاد يلقون نظرةً عابرةً، رجالٌ يحثون الخطى إلى مواعيدهم

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

المضروبة يتأبطون ملفاتهم وتنعطف النساء بأزيائهن الرفيعة لئلا يعبرن على مقربةٍ منهم.

أعطى جان للرجل حفنةً من النقود دون أن يدري هل سيوجه له إهانةً أم لا. احتفظ الرجل للحظة بالورقة النقدية ثم أعطاها لزوجته التي دستها في جيب بنطالها. قرفص جان على كعبيه قرب الرجل وسأله من أين هو؟ فأجاب أن اسمه "رويز" وهو من ولاية "فيراكروز"، غادرها إلى الشمال بحثاً عن عمل. اسم زوجته "مارتينا" أما الفتاة الصغيرة ذات العينين الوجلتين فاسمها "إيفا". أمضوا ليلةً في فندق في إيكسوشيميلكو، أما الآن فلا نقود تسعفهم لمتابعة الطريق. مدَّ الرجل له ورقةً كُتب عليها اسمٌ وعنوان: الأب أندريس، دير غيريرو عند زاوية مينا. تركتهم الحافلة في المركز في الصباح الباكر ثم تاهوا في الطرقات فهم لا يعرفون أحد وإنهم الآن مرهقون. لن يتمكن جان من مرافقتهم عليه الذهاب لعمله، أومأ لسيارة أجرة، دلَّه على العنوان وأعطاه أجرة الطريق مقدماً ثم غادرت العائلة بأكملها ولم يبقَ سوى قطعة الكرتون المبللة على الرصيف. رفع الاسباني الذي يعمل في الفندق الكرتون المبلل وبرطم: "كل يوم يحدث هذا". لم يستحسن سلوك جان الذي أشار إلى الإفريز الذي احتمت تحته العائلة وقال: "يُستحسن أن تنزع هذا؟". هزّ الاسباني كتفيه دون أن يبدي أي انفعال ثم عاد لقراءة الصحيفة في رواق الفندق.

لم تخطر لجان هذه الحادثة إلى أن ذهب إلى نفس العنوان في أحد أمسيات يوم السبت بعد بضعة أسابيع. الدير بناءٌ كبيرٌ من الحجر الذي اسودَّ من التلوّث، تم بناء عدة ملحقات في الساحة. في بيت الحراسة، لم يسمع أحدٌ باسم "رويز" وعائلته الصغيرة. لعل سيارة الأجرة قد اصطحبتهم بنفس المبلغ إلى محطة بيونافيستا" حيث يستقلون القطار إلى الشمال، أو لعل السائق اكتفى بأن يقلهم حيثما كان فرحاً بالمال الذي أعطاه إياه.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وهكذا التقى جان بالأب أندريس، تصعب مناداته بكلمة "أب" فهو من نفس جيل جان تقريباً، يسكن في الدير ويقيم القدّاس في الكنيسة للراهبات والمضطرين الذين يلوذون إليها. لم يقابل جان في حياته شخصاً يشبهه، شابٌ طويل القامة منحنٍ قليلاً، شعره كستنائي مربوط ولحيته شقراء ووجهه النحيل متناسق الملامح يرتدي نظارات،كما يرتدي زياً مدنياً. كنزة رمادية اللون وبنطالاً من المخمل المضلع، حافٍ القدمين بنعله الفلاحي. ما يميزه فقط صليبٌ صغيرٌ مصنوعٌ من خشب الشمشاد معلّقٌ بعنقه. حدّثه جان عن روزير ومارتينا، أصغى إليه الأب ثم حدثه بدوره وبهدوءٍ دون مغالاة. بعد ذلك قدم لجان منازل الدير. دعاه لتناول الغداء بما أن عقارب الساعة تدق الثانية في قاعة الطعام، كانت الأطباق المقدمة عادية رز مع البازلاء وبعض من الشايوت[1] وحساء الدجاج مع الدردار الجاف. شغلت قاعة الطعام الأخوات بزيهن المدني يجلسن أربع أو خمس إلى مائدة واحدة وأيضاً المسنّون الذين يعيشون في الدير أو ممن يأتون من الجوار لتناول الطعام.

لم يتحدث أندريس عنهم ولا عن المشاكل التي يواجهها. تحدث عن طفولته في الشمال في "توريون" وعن رحلته إلى الولايات المتحدة حين كان عمره خمسة عشر عاماً وعن الفترة التي كان فيها ناسكاً. رغب أن يعرف لماذا غادر جان أوروبا ولماذا قطع دراسته.

شعر جان بأنه يتحدث إلى شخصٍ يعرفه منذ زمنٍ بعيد رغم ما يواجهه من مشاكلٍ في اللغة، تم استدعاء الأب أندريس لنجدة امرأة تعاني ابنتها من مرضٍ عضال، فنهض وصافح جان ثم قال مازحاً: "عد متى شئت سيكون هناك دائماً رزٌ ودردار." خرج جان من دير غريرو بشعورٍ من السلام والعذوبة ما عرفه منذ وقتٍ طويل.

---

(1) - الشايوت Chayote: نوع خضار في المكسيك يدعى "القرنبيط ذو الشوك".

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كيلوا (يتبع)

أنا كيامبي والدي اسكاري محاربٌ يرتدي جلد الجاموس ويحمل رمحه المصنوع من الخشب المقسّى وبشماله ترسٌ من الجلد. والدتي "ملايكة" وأخي "ويمسو" وأختي الكبرى "أموتو"، ما نسيت أسماءهم قط.

أعطتني الآنسة أليكس اسم بلقيس بسبب لون بشرتي وشكل عيناي. هذا ما قالته لي عندما دخلت ساحة منزل "مينيسي"، أمسكت بيدي وقالت أنني سأكون ملكها وأنها ستقوم بحمايتي، عندها ما فهمت كلامها لكنني فهمت عينيها اللطيفتين وابتسامتها. كما أعطتني فستاناً يعود لطفولتها، فستاناً أبيضاً طويلاً بأكمام منتفخة حيك من قماشٍ غاية بالخفة حتى لتظن أنه منسوجٌ من خيوط العنكبوت. إلا أنني ما استطعت أبداً أن أنتعل حذاءً فقدماي عريضتان وقاسيتان جداً.

أنا من كنت أعتني بالآنسة أليكس، أنام في رواق غرفتها على غطاءٍ منبسط على الأرض. أحضر الشاي وأغسل ملابسها وأنسق ياقة فساتينها وأرتّب فراشها وأفرغ دلو الحمام ولكنها لم ترغب أن أعمل في المطبخ.

أبقى جالسة في الأمسيات بفيء العريشة عند قدمي آنستي، كانت تجد المتعة بتعليمي الحياكة والتطريز ما أتقنته تماماً. كما انكبّت على تعليمي القراءة بكتاب الصلوات ما كلفني جهداً كبيراً، وعندما أكبو نعساً كانت تقرصني بقوة وتصرخ بي: "أيتها الحمقاء هي أيتها الحمقاء!"

صرت أتحدث الآن بلغتها كما تعلمت قليلاً من اللغة الإنكليزية وبعض الجمل التي أكررها على مسامعها عن ظهر قلب على سبيل تسلية المدعوين: Tea if you please, My lady? (شاي لو سمحت، سيدتي؟) أو "A piece of cake, your honor" "قطعة من الكيك، فخامتك". غالباً ما يتردد زوارٌ من الحكومة إلى منزل مينسي.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تنبسط مزارع القصب و استخراج الروم على مقربة من هنا وكذلك بيادر القمح وحقول المنيهوت[1] والخضار. لا ترغب سيدتي أن أذهب إلى هناك، حتى أنها منعتني من التحدث إلى الرّق الذين يعملون في الحقول متذرعةً بأنهم سيئو الخلق وأشرار وأنهم قد يلحقون بي الأذى ويجهزون علي. ما غامرت بالذهاب إلى هناك، بل دبّ الرعب في قلبي، لكن نسمات الليل كانت تحمل إليّ دندنة أصواتهم وأغانيهم وقرع طبولهم، تسري القشعريرة في جسدي وتتراءى لي ذكريات طفولتي قبل اختطافي، فأبحر في قريتي وأتجول في منزل والدي لتملأ الغصة قلبي حين أتذكر "الويمويزي" خاطفو الأولاد الذين أجهزوا على والدي وأضرموا النار في كل الأنحاء حتى يسبونني.

هربت في إحدى الليالي وسرت عبر الحقول أحاذي النهر: ربض الخوف في قلبي لكن رغبتي بالذهاب إلى هناك كانت أقوى مني. نبحت الكلاب، اشتمت رائحتي وسمعت خطواتي على الأعشاب، إنها كلاب السيد تتراكض لالتقاط "المارون". كان الطقس حاراً ومرهقاً والندى لثم وجه التراب ففاحت رائحة أرض طفولتي بعد انهمار المطر. تأملت السماء حيث التهم البدر الغيوم، لم أكن أدري لماذا أسير عبر الحقول لكنني كنت سعيدة واسترجعت كل الأسماء التي عرفتها فيما مضى، تردد صداها في رأسي واصطدمت في صدري وأحشائي: أوزوري، موشي، مكلامو، شينيانكا، سينجبيدا وكيجيمي اسم قريتي، كل أولئك "كيبوفو" الضرير و"كيزيوي" الأبكم و "مجوبا" عمي و "موتو" النار و "نزيجي" الجرادة و "مبو" الناموسة و "ملايكة" أي الملائكة "والدتي" عندما كانت تلف عجينة المنيهوت وتدسها في فمي فأمضغ حلوها وأبصق الألياف، منذ أن اختطفني اللصوص ما تناولت شيئاً يضاهي

(1) - المنيهوت: جنس حبيبات يستخرج من جذورها دقيق نشوي.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مذاقها عذوبةً، اغرورقت عيني بالدموع رغماً عني وسالت على وجنتي حتى البسكويت المحلّى الذي تقدمه لي الآنسة أليكس عندما أضحكها يبدو لي شديد المرارة. لم أبتعد في الليلة الأولى عن حدود الحقول حيث رأيت النيران تلمع أمام أكواخ الرِّق، تناهى لمسامعي دندنة أصواتهم، غناءٌ ناعمٌ جداً يكاد يكون همهمةً رقيقةً. اختبأت ما بين القصب المرتفع لئلا أثير انتباه الوكلاء الذين قد يأتون فيلهبون ظهورهم بالسياط، أرهفت السمع لموسيقاهم وأستنشقت دخان المخيم. قبل بزوغ الفجر، عدت أدراجي إلى منزل سيدتي واندسست على غطائي في الرواق دون أن أصدر أي صوت، بعد أن مسحت قدماي بالأوراق لأتخلص من بقايا التراب الأحمر.

وهكذا اعتدت الخروج كل ليلةٍ إلى مخيم ذوي البشرة السوداء، ما ظننت أنني أقترف إثماً فما كنت أتكلم مع أحد فقط أبقى مختبئة بين الأعشاب الطويلة لأستمع لدندنة أصواتهم ولأستنشق رائحة الدخان. أثناء عودتي في صباحٍ مشؤوم، رأيت السيدة الكبيرة تنتظرني أمام الباب وبرفقتها عبدين أحدهما يرعبني، اسمه "لوبان"، أمسكا بي، أحدهما أمسك بذراعي والثاني بشعري وقالت لي السيدة: "ألا تخجلين من نفسك، تذهبين حين تغمض عيون الناس لتتسكعين في الحقول كالكلبة!".

وددتُ لو أصرخ بأعلى صوتي وأقول أنني لم أقترف إثماً وأن أطلب الصفح لكن العبدان سحباني إلى الخلف وما كان بوسعي سوى الصراخ والبكاء، رغبت أن أنادي الآنسة أليكس لنجدتي لكنهما أبعداني وعلقاني بشجرةٍ وانهالوا عليَّ ضرباً بالقصب حتى فقدت الوعي. أصدرت السيدة أمراً بأن يعقد قراني على "لوبان" بما أنني عديمة الصبر وأن أنتقل للعيش في كوخٍ للزنوج بعيداً عن مينسي. ما رأيت الآنسة أليكس مجدداً لكنني علمت من إحدى الخادمات أن غيابي قد آلمها وذرفت له

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الدموع. ضرب إعصارٌ بنفس العام فدمَّر المزارع وهكذا غادرت الآنسة أليكس برفقة والدتها للعيش في فرنسا.

حمل ذاك العام ١٨٢٢ العديد من حركات تمرد الرق وسكن العبيد (المارون) الجبال. ثار الرّق في فيلباغ بسبب الوكيل "دوفور" الذي قام بسوط رجالٍ حتى الموت. كان زوجي "لوبان" يسكر كل ليلة بالتافية[1] وينهال علي ضرباً، كان يضمر لي الكراهية لأنني كنت أرفضه وعندما كدت أرزق بطفلٍ توجهت إلى إحدى الساحرات التي جعلتني أتناول التراب ممزوجاً ببعض الأعشاب حتى أجهض. تُساء معاملة الرق في كل مكان حتى أنهم يقضون جوعاً، في إحدى المرات أوسع أحد الوكلاء واسمه "كاديو" صبياً لم يتجاوز الثانية عشر عاماً ضرباً لذلك ثارت ثائرة الرق السود وهربوا لينضموا إلى "المارون" في الجبال، تضيء نيرانهم أثناء الليل وتُسمع صرخات الحرب في الجبال أو لعله صوت الرّق الذين يتخاطبون نباحاً من ميدانٍ لآخر. في يومٍ من ذات الأيام، قال لي أحد الرقيق واسمه "فيوليت" بعد أن حماني من لوبان:

"هناك رجلٌ هو ابن القائد الأكبر في "غرانديتر"، فرَّ من السجن واختبأ في الجبال، اسمه "راتسيتاتان"[2] دقّت حروف اسمه عندما لفظها كطبول الحرب، ثم تابع: "مع جيشٌ من الرّق الفارين من فيل باغ وغراندروزالي وبيل فوو امبارا حتى كريف كور. إنهم هناك في أعالي الجبال سينقضون يوماً ما لتحرير كافة العبيد.

تتلألأ نيرانهم في كبد الليالي، لا يتمكن أحدٌ من معرفة مكانهم الذي يغيروه باستمرار.. كرر فيوليت على مسامعي ما كان يقول "راتسيتاتان" حين فرّ من السجن: "اتبعوني سأحرركم".

---

(1) – التافية Tafia: عرق قصب السكر، يستهلك قبل تعتيقه وهو ليس من الأنواع الفاخرة.

(2) – راتسيتاتان: ابن قائد "غراند – تير" وقائد ثورة الرّق.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أسرَّ فيوليت إلي بأسماء أولئك الذين تبعوا راتسيتاتان: ليفيي وتوليب ونيلسون وكوتوفولو وآخرين أيضاً، وأضاف أنه سيلحق بهم ثم طلب مني أن آتي معه.

وهكذا في إحدى الأمسيات ولدى عودتي من أعمال قطع الأشجار، حضرت وجبة لـ"لوبان" ودسست في حسائه عشبةً تُثمل، وما إن تعالى شخيره في فراشه حتى جمعت ملابسي وبعضاً من مؤونة حلوى المنيهوت التي كنت قد احتفظت بها منذ أيامٍ ما بين الحجارة بعيداً عن متناول الجرذان. أخذت طريق الجبل إلى القمة المعتمة والعالية كالجدار ينتصب أعلى مينيسبي. ركضت دون توقف ما بين الحقول إلى أن لامست حجارة الجبل بعد أن أُدميت أقدامي. بدأ المطر بالانهمار فسلكت مجرى السيول متجهة إلى الغيوم لئلا تتقفى كلاب الجنود آثار الدم. لذت إلى مغارة في الغابة واختبأت ليومين آملة أن يعثر فيوليت علي بيد أنني ما رأيت أحداً. أنام في النهار وأتحسس في الليل رائحة نيران "المارون".

تذكرت والدي "أسكاري" وعمي "مجوبا" الذي كان يصطاد الليث برماحه، وتذكرت أيضاً والدتي "ملايكة" التي كانت تتقن الصيد، هي التي كانت تسهر عند باب المغارة لأتمكن أنا من النوم. تناهى لمسامعي ذات مرة نباح الكلاب، فارتعدت فرائصي خوفاً لأن كلاب الجنود يجهزون على كل "المارون" الذين يلتقون بهم ويقومون بقطع يدهم للحصول على مكافأة. لحسن الحظ، كانت الكلاب تتقفى أثر خنازير برية ورحلوا من الجانب الآخر.

كنت في جبل اسمه "لافونيتر أي النافذة" على ارتفاعٍ شاهقٍ بحيث تمكنت من تميز أضواء المرفأ في المساء. في اليوم الثالث، نفذت مؤونة حلوى المنيهوت وبدأت بقضم بعض الجذور، لبسني الضعف وخلت أنني شارفت على الموت لكنني أفضل الموت على العودة لكوخ لوبان.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

في اليوم الرابع، اقتربت من السيل لأشرب فجأة فُتحت الغابة أمام ناظري لأجد نفسي محاطة بذوي البشرة السوداء، ظننت أنهم يريدون قتلي فأطلقت صرخة خوف، إلا أنهم لم يلحقوا بي الأذى على العكس اصطحبوني إلى المضاءة حيث كان صديقي "فيوليت" وإلى جانبه رجلٌ طويلٌ جداً يرتدي وشاحاً أحمر اللون. فأدركت أنه ابن القائد الأكبر "للأرض الكبرى غراند - تير[1]"، المدعو "راتسيتاتان" الذي قال بأنه سيحرر كافة العبيد ويعيدهم إلى بلدانهم.

أنا كيمابي، ولست بلقيس. عدت تلك الفتاة التي كانت منذ حقبةٍ طويلة حين اقتحم اللصوص قريتي وأجهزوا على والدي. والدي المحارب "أسكاري" برمحه الطويل ووالدتي "ملايكة"، مازال فمي ممتلئاً بمذاق كرات "المنيهوت" التي تقدمها لي وهي تداعبني بكلماتها الرقيقة "يا عصفورتي الجميلة Kidege kisuri"، "يا زهرتي uo mangu" وكلماتٍ معسولة كالسكر.

إنه هو "راتسيتاتان"، هو من أعاد لي كل ذلك فأصبحت غابة جبل "لونغ أي الطويل" منزلي الحقيقي، طوى كل شيء آخر تحت جنح النسيان، لم يعد منزل مينيسي موجوداً ولا حدائقه حتى غرفة الآنسة أليكس حيث كنت أرتدي ثياب طفولتها. كذلك اختفى كوخ لوبان وسريره الحقير حيث تختبأ الفسافس وجدران الأغصان حيث تعيش العقارب. بات كل ذلك بعيداً ومختلفاً منذ أن سكنت مع راتسيتاتان والمارون في الجبل وصارت كل تلك المساكن في سافلة الوديان.

نجوب الغابة كل يوم وننتقل من مخبأ لآخر، نغلق أفواه المغارات بأغصانٍ شائكة. صارت عائلتي مكونة من ليفي وتوليب ونيلسون وكوتوفولو وصديقي فيوليت.

---

(1) - غراند – تير: جزيرة شرق غوادلوب في الأنتيل.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

راتسيتاتان هو قائدنا. إنه طويل القامة وقوي، يحمل على صدره قلادة تجعله لا يقهر، قلادةٌ من خشب الكرم الأسود والسبج الأسود. في اليوم الأول، اقتادوني إليه، كنت أرتجف بعد أن عرتني أغصان الأدغال ومزقت ثيابي وأدمت أقدامي. تحدث إلي بهدوء بلغته ووضع يده على رأسي حتى سرت حرارةٌ غريبةٌ في جسدي. صنع لي ذوي البشرة السوداء حمّالة من الأغصان والأوراق وكانوا يحملونني كل يوم إلى منبع النهر.اعتنى فيوليت بي.

كانت هناك نساءٌ أخريات قمن بغسلي والاعتناء بجراحي وقدّمنَ لي جذوراً مطهوة بالرماد وجوافة برية ونهلت من ماء النبع بقصعة من الكرنيب.

في مخيم "المارون"، هناك الكثير من النسوة والأطفال، يتوافد كل يوم عبيدٌ جدد. يضرمون النار في الجبل المجاور ليلاً لخداع الجنود وجعلهم يظنون أننا كثيرو العدد. يعتقد ذوو البشرة البيضاء لدى رؤية هذه النيران المتلألئة أن جيش راتسيتاتان جيشٌ قهار وأنهم سينقضون على المدينة ويضرمون النار في المنازل ويستولون على البلد برمتها.

يتعاظم الغضب كل ليلة، هرب بعض العبيد وبحوزتهم أسلحة وبنادق وسيوف والبعض حمل المؤَن والتافية التي ما إن يشربها الرجال حتى يشرعون بالرقص مطلقين صرخاتٍ وكأنهم يستعدون للحرب.

لم يرغب راتسيتاتان بإطلاق الهجوم بل تنحى جانباً وكأنه مازال يفكر. في إحدى الأمسيات حملت له نبيذ النخيل فغطاني بردائه الصوفي الأحمر عندما شعر أنني أرتعد برداً لكن الرجفة ما فارقتني فحدثني بعذوبةٍ بلغته حتى شعرت أن دفئه يتغلغل داخلي وهكذا أصبح زوجي. كان يناديني باسمي "كيامبي" أما أنا فأناديه "مومي" أي "يا زوجي" Moumé yangy.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كانت هذه المرة الأولى التي شعرت فيها أنني بكنف زوجٍ حقاً فكل الرجال السابقين كانوا يقومون باغتصابي ويوسعونني ضرباً مثل عبيد "موارابو" في كيلوا أو مثل لوبان في مينيسي. ذهبت في الأيام التالية مع راتسيتاتان إلى جبل "لافونيتر" حيث يمكننا رؤية البحر. تأمل راتسيتاتان البحر دون أن يؤتِ بأي حركة وكأنه أبحر بأفكاره على متن القارب الذي سيصطحبنا إلى "الأرض الكبرى"، تخيلت أنني سأبقى بقربه حين يعود للعيش في قصره بجوار الملك "راداما". إنها المرة الأولى منذ غادرت قريتي التي رغبت فيها بالضحك والغناء، شعرت أني حرة طليقة ورغبت بالحياة. كل ليلةٍ أنام مع سيدي في مخبأه متدثرين بغطائه ليمنحني دفئه.

لقد كان عددنا كبيراً، وخِلت أننا لن نقهر يوماً وأنني لن أعود أبداً لأعمال الرِّق عند الغرباء ذوي البشرة البيضاء.

جاء إلينا عبدٌ أسود اللون اسمه "لايزاف" في صباحٍ مشؤوم، توجست منه ريبة، بعثرت الرماد على وجبة المنيهوت لأحذر راتسيتاتان من هذا الخائن لكنه نفخه دون أن يفهم. أذكر أن اسم "لايزاف" تردد على مسامعي وكنت أعلم أنه يتآمر مع "مطاردي المارون" مقابل المال. ذاك اليوم، قبل الظهر، ابتعد لايزاف وأطلق ببندقيته قائلاً أنه إشارة لإرشاد الفارين في الجبل ولكن بالحقيقة كان اتفاقاً يربطه مع "أوريو وليسكاليه" وقادة الجنود. كما ربط خلسة قماشاً أبيضاً حول الأشجار متذرعاً أنه يرغب بإرشاد "المارون" إلى راتسيتاتان ولكنها بالحقيقة كانت إشارة "لمطاردي المارون" ليستدلوا على مخبأ ملكنا. رافقت راتسيتاتان مع بضعة رجال لدى هروبهم إلى جبل "لونغ"، قال أنه يريد لم شمل "المارون" لإعلان حرب شعواء على الجيش سنخرج منها منتصرين وأحرار. قام أحد كهنة "الأرض الكبرى" الذي رافق راتسيتاتان بذبح جدي ليسيل دمه على الأرض وقال أن آلهة الجبل سترسل إلينا

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

غيمة كبيرة تخفينا عن أبصار ذوي البشرة البيضاء ثم ستهب ريح صرصر تطرد كل الجنود وهكذا سنتمكن من الإبحار على متن القوارب والعودة لديارنا، ثم رسم الكاهن على الأرض نجمة اسمها "فينتانا" قال أنها ستحمي "راتسيتاتان من "ماندرافا" المدمر و"مانيتساكا" الساحق، وهكذا قسَّم قلادته السحرية لقسمين، وهبني أحد القسمين مع الأصداف وخشب الكرم الأسود ليمنحني إله غراند- تير حمايته.

قام بذلك والحزن يملأ أحداقه لأنه أدرك أن "لايزاف" خدعه وأن الجنود الإنكليز على وشك مباغتته خلفاً عبر الغابة. وضع يده على رأسي للمرة الأخيرة ليمنحني دفئه ثم غادر من الطرف الآخر للجبل نحو جبل أوراي محاذياً نهر موكا ومينيسي. دخل الغابة مع بعضٍ من رجاله الأوفياء ليفي ونيلسون وكوتوفولو وآخرين. أما أنا فبقيت في المغارة خلف الباب الشائك، كل ما تبقى لي من راتسيتاتان هو قلادته ومعطفه الكبير الذي نمنا تحت جنحه طيلة تلك الليالي. هنا عثر علي بعد مرور يومين جنود الجنرال "رالف دارلينغ" وجنود أوريو وليسكاليه يرشدهم "لايزاف".

تقرير "ويليام ستون" الكاهن الأكبر، تحت قيادة الريان "ف. روسي" جرّاء الأحداث التي دارت رحاها في موريس في العشرين من شباط ١٨٢٢ خلال القبض على حركة تمرد "راتسيتاتان":

ما إن أشيع خبر فرار المدعو راتسيتاتان، الأسير المدغشقري ذو البشرة السوداء من القلعة المركزية في ميناء لويس حتى أصدر اللواء "رالف دارلينغ" وكذلك حاكم هذه المستعمرة وسمو الملك روبرت تونساند فاركهار أوامراً بالقبض عليه بأي ثمن وإنزال أشد أنواع العقوبة بالرّق المتمردين الفارين لتفادي أي خطر لثورةٍ من هذا النوع يكون ضحاياها سكان مستعمرة سانت دومينغ، إذ يحدق الخطر بكل مواطنٍ في الميناء

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وفي المناطق المجاورة لـ"بامبلوموس أي كريفون" إثر هجوم "المارون". أمر الحاكم بتحريك أكبر عددٍ من فصائل الجيش، الفوج ٦٥ بقيادة اللواء دارلينغ والمقدم "دومارسيك" وكذلك المتطوعون في الفوج ٨٢ التابع للأمير دو غال تحت قيادة الفريق "بيفوت" والميليشيا بقيادة MM أوريوو ليسكالي، يتجهون إلى الطريق الواصلة لجبل "بوس" لقطع الطريق على المتمردين. كما تحرك ضباط الأمن في ميليشيا مستعمرة "بارون اونانفيل" للقبض على راتسيتاتان حياً أو ميتاً كما تلقيت الأوامر بالانضمام إليهم لأنني عرفت المدعو راتسيتاتان بينما كان أسيراً قبل هروبه.

عسَّت الحملات خلال يومين سيراً على الأقدام لدراسة وضع المتمردين، في اليوم الثالث قبيل الساعة الرابعة مساءً سلكنا درب نهر "لاتانيه" نحو الجبل. لاحظنا تلك الليلة نيراناً تتقد أعلى جبل "لافونيتر" و أخرى على منحدر "بوس" و "بيتر بوث". خشينا أن يكون عددهم كبيراً، أرسل الجنرال "دارلينغ" قسماً من رجاله الأكفّاء إلى الشمال لاستكشاف الطريق إلى جبل "لونغ" قرب "إيشيل". نصب رجال ميليشيا المستعمرة و رجال أوريو خيمهم أسفل جرف "اسكارغو أي الحلزون" عند منبع جدول بوس. صباح ٢٠ شباط في حرٍ خانقٍ سرت مع الفرقة ٥٦ بقيادة العريف "نيسبيت" في جبل بوس. لا دروب تشق هذا المكان فاضطررنا لتسلق الصخور بأيدينا و أرجلنا كالقردة. أخيراً قبيل انتصاف الظهيرة، سمعنا عياراتٍ ناريةً فأدركنا الإشارة التي أطلقها ذو البشرة السوداء "لايزاف" ليدلنا على المطلوب "راتسيتاتان"، كما ربط نسيجاً على أشجار الأدغال حتى لا نضل الطريق. وصلنا أعلى الجبل قرابة الساعة الثانية، كانت الصخور مزروعةً بالجثث التي أجهز مطاردو المارون عليها سعياً للحصول على مكافأة. سلَّم المتمردون أنفسهم لدى اندلاع المعركة في

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

قمة الجبل الواحد تلو الآخر بعد أن قضَّ الجوع أحشاءهم و حرّق الظمأ حناجرهم كما استسلموا للرعب. يا لهول المفاجأة! لم نقبض سوى على أربعين رجلاً، قالوا أنهم ينتمون لـ"فيلباغ" . علمنا أن قسماً من المتمردين هرب باتجاه موكا مع قائدهم راتسيتاتان و رجاله. قرِّن المقبوض عليهم بالأصفاد في رقابهم و نزلوا باتجاه الميناء. كانت الأوامر أن يتم القبض على راتسيتاتان مهما كان الثمن.

رافقت فرقة العريف "نيسبيت" نحو الوديان للانضمام لميليشيا أوريو الذين سبقونا إلى موكا. أما العبد "لايزاف" فيتم القبض عليه دون أن توثق الأغلال بيديه و يتم اقتياده إلى الميناء.

عثر مطاردو أوريو، في اليوم نفسه قبيل الساعة السادسة مساءً، على راتسيتاتان مع ثلاثةٍ من شركائه مختبئين في أعماق وادي نهر "كاسكاد" على مقربةٍ من "مينيسي".

عندما وصلت إلى الوادي، كان راتسيتاتان مربوطاً إلى الشجرة و تتقطر قدماه دماً لأن المطاردون رموه بالحجارة. و ما راعوه إلا نزولاً عند رغبة الحاكم الذي وعد بمكافأةٍ و قدرها ١٠٠٠ دولار لدى القبض على راتسيتاتان ليحاكم شعبياً فيكون عبرةً للجميع. كما وعد بجائزةٍ و قدرها ٢٥٠ دولار لدى القبض على شركائه.

تعرفت على راتسيتاتان دون عناء، مع كل المحن التي قاساها طيلة الأيام الماضية هرباً في الجبال إلا أنه ما لبس ثوب المهانة كالعبيد الفارين بل بقي شامخاً و تخطّ تعابير وجهه رجلاً حراً أبداً.

استولينا على عربات في منزل " مينيسي". في ذات الأمسية بعد منتصف الليل زُج بالمتمردين في السجن بانتظار المحاكمة.

أضيف أن رجال فرقة أوريو ألقوا القبض في اليوم التالي حوالي منتصف الظهيرة على عبدين أحدهما رجلٌ أربعيني يدعى "فيوليت"

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

والأخرى إمرأة يناهز عمرها الخامسة و عشرين عاماً، تلوذ لكهفٍ في جبل "بوس".

استجوبتها بنفسي و علمت أن اسمها "بلقيس" كانت تعمل في منزل "مينيسي" وهي زوجة راتسيتاتان. لمست فيها علامات صحة متدهورة بل و جنوناً فطلبت إرسالها إلى مستشفى "ذوي البشر السوداء" في ميناء لويس بعهد الجرّاح "هاسكينس" ليتم سجنها فيه، أما العبد " فيوليت" فحكم عليه بالأشغال الشاقة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مريم شريفة
فندق شالي شافوا
شاموني

في ١٢ نيسان

مريم: أرغب أن أحدثك عن "نوكالبان"، لابد أن أذهب إلى هناك، لم أتوقف عن التفكير بها منذ سمعت عن مدينة المهاجرين التي حدثني عنها الأب أندريس حين حاولت تقفي أثر "رويز" و"مارتينا" أولئك الذين التقيتهما عند ناصية الرصيف لدى وصولي وأرسلتهما إلى دير غريرو.

قال لي الأب أندريس أنهما قد يكونا في "نوكالبان" حيث يتجه المهاجرون العاجزون مالياً حين تتقطع بهم السبل. لا خيار آخر أمامهما، أو لعلهما عادا إلى قريتهما التي غادروها أو أنهما وافقا على العيش في مدينة الصفائح[1] في "نوكالبان". يجرب الأكثر جرأة وشباباً حظهم في الشمال ويحاولون عبور الأسلاك الحديدية على الحدود في نوغالي وجواريز.

قمت بشراء خريطة المدينة مكسيكو ٢٠/١٠٠٠ لأستدل على المكان، علقتها في غرفتي الكائنة في شارع لونا، أتأمل كل يوم تلك البقعة المشعّة في الجنوب الغربي في نهاية خط طويل، طريق ١٣٠ الذي يعبر الجبل باتجاه وادي تولوكا، هناك عند طرف هذه البقعة توجد: "نوكالبان"، ظننت أنني سأعثر عليهم "رويز" بسترة رعاة البقر وقبعته، صافِ الذهن رغم الليالي التي أمضاها خارجاً و"مارتينا" بحلتها الطفولية وحركتها اللطيفة حين تكشف عن نهدها من أسفل كنزتها لإرضاع صغيرها. وبشكلٍ خاص إيفا الفتاة الصغيرة التي تقف وراء والدها شعثاء الشعر

---

(1) - مدينة الصفائح: مدينة أكواخ من صفيح يقيمها المعدمون في الضواحي.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

واسعة العينين ووجه كلعبةٍ من القماش، لتملأ نظراتها السوداء الملحّة المكان بالأسئلة. خطرتِ في بالي حين كاد الموت ينتشلك عندما وطأ الجنود الفرنسيون الشارع العريض في وهران.

استقليت الحافلة إلى "أزكابوتزالكو" و"سان جوان تيليهواكان" و "سان بيدرو إكسالبا" و "سان ميغيل أمالتلا". ثم استقليت سيارة أجرة جماعية على طريق "تولوكا" على طول "ريو هوندو". نلمح من هنا مكعبات وردية وزرقاء كالألعاب تشرئب عبر التلوث الذي يغطي "سيوداد ساتاليت". في طرف الشارع، تجثم كنيسة "ريموديوس" في الأعالي، وكأنك قصدت بلداً آخر مع أنك لم تغادر المدينة نفسها مع نفس الشوارع ونفس المنازل ونفس الناس الذين ينتظرون على ناصية الطريق. لا يتفوّه أحدٌ بكلمة في سيارة الأجرة التي تغصُّ بعددِ ركاب كبير والحر خانق. كانت السيارة من نوع "Ford Galaxie" مهترئة، الواقي بلون أزرق وأهدابٍ من اللؤلؤ الأحمر ومزينٌ بهيكلٍ من غوادلوب مصنوع من البلاستيك يضيء مع كل مرة يضغط فيها على المكابح. أما السائق فهو هنديٌ ببشرةٍ غامقة اللون، يقود السيارة ونصفه خارج النافذة، بالكاد يفتح عيناه، يضغضغ العلكة ويلف حول عنقه منشفة. "موقف لو سمحتم parada! Por favor" عندما ينزل أحد الركاب يشير بثلاثة أصابع بيده اليسرى على المكان الشاغر. شعرت أن بإمكاني الذهاب إلى طرف العالم وأنا جالسٌ بين أربعٍ على المقعد الخلفي في سيارة الأجرة هذه، نلامس الرصيف ونتأمل تلك الوجوه العابرة يعبق المكان برائحة الوقود اللاذعة ممتزجة برائحة العرق. نقتحم ذاك الضباب الذي أنارته الظهيرة فتنبثق خيالات الهضاب كالجزر الصغيرة ويلوح حاجز "مالينش" الهائل من بعيد.

فكرت بك يا مريم وكأن سيارة الأجرة ستحملني إليك حيث أنت في "شاموني" Parada "موقف" بعد "Parada". تذكرت ما قال لي أندرس

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

خوري "غوريرو" عندما رأيته للمرة الثانية: "إن حالفك الحظ ووقعت بحبِ أحدٍ ما فلتعد وتبقى بقربه هذه هي مهمتك في الحياة". ربما ما فهمتُ قصده إلا وأنا في هذه السيارة، هذه السيارة القديمة التي تعبر باتجاه نوكالبان.

تركنا السائق أسفل قناة الماء. تبعثر الشمس لهيبها على الهضبة السابحة في خُدرةٍ زغبية، اسمع أصوات المدينة بغموضٍ من ورائي، يزمجر هدير الشاحنات التي تنطلق بحرية في الطريق الجبلي كالزلزال. سرت على الدرب الترابي ومعي بعض الخيالات التي تتدافع في الغبار نحو مدينة المهاجرين، نساءٌ يتدثرنْ بأوشحتهن ورجالٌ يحملون أكياساً من قطع اللحم تتقطر دماً فيتجمع الذباب. جلس بعضهم على الحجارة قرب القناة. لم ينظر إليَّ أحد ما عدا بعض الصبية المشاغبين الذين رموني بالحجارة ثم هربوا وهم يقهقهون.

تنطلق المدينة عند طرف القناة بدربٍ ممرغة بالغبار تصعد عبر الصفوف المبعثرة للمنازل المتناثرة هنا وهناك. كُتبت أرقام الشوارع بالطلاء على الحجارة: ١٣، ٤٧، ٧٣ يصعب قراءتها. كما أن هناك أرقاماً مفقودة. تبدو بعض المنازل عادية لولا الآجر الذي لا يلبسه الإسمنت والأسقف المصنوعة من الأمينت. تنتشر الأكواخ في أعلى الهضبة وأفران الخبز، ألواح خشبية وركام قرميد، حجارة الغسيل وخاصة تلك الأبواب المنخفضة لمنازل لا نوافذ لها، ثُبّت السطح بشيء يشبه الطين على قماشٍ قديم، لعله زفتٌ أو قطران.

اعتليت صهوة الهضبة برفقة تلك السيارات التي تهتز بين الأخاديد. رأيت في أحد الأمكنة شاحنة صهريج توزع الماء، يدفع الناس المال ليملؤوا الماء عبر الأنبوب المطاطي وعندما ينفذ الماء، يسحب السائق الأنبوب ويمضي. اشتريت زجاجتي ماء معدني لدى نزولي من سيارة الأجرة قرب القناة لأعطها لرويز وزوجته، إلا أنني ظمآنٌ جداً الآن فجلست على حجر على ناصية الطريق و شربت زجاجةً بكاملها.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

سألتُ سيدة عجوز في شارع ١٣ : "سيدتي ماذا عن رويز؟" فمضت دون أن تكترث متدثرة بوشاحها. يتصاعد الدخان من المطابخ في كل مكان تقريباً. تقوم النسوة بغلي الفاصولياء على ثلاثة حجارة فتفوح رائحة النفط المكرر للإضاءة والفحم الخشبي، تنقلت من منزلٍ لآخر وأنا أطرق الأبواب وأقول: "رويز، هل تعلمون أين يسكن رويز" فيهز السكان رؤوسهم ويشيحون بأبصارهم.

ظننت أنني لمحت طيف إيفا أعلى الهضبة، اختبأ خيالها الهارب في منزل من الألواح، نظرت عبر شق الباب فلمحت في العتمة امرأة يلفها وشاح المرض ويبدو حملها في آخره، تجلس على سريرٍ خشبي مغطى و إلى جانبها تلك الفتاة التي ظننت أنها إيفا والتي ترمقني بنفس العينين المذعورتين. كدت على وشك الرحيل حين أوقفني صوتها النائح الأجش وهي تناديني: "سيدي، لو سمحت!" انحنت وأبعدت منشفةً تغطي علبةً من الكرتون وهي مهدٌ يلتهب فيه رضيع من الحمى وعلى عنقه جرحٌ غريبٌ قرب الكتف، قالت المرأة: "كاد الجرذان يلتهمونه مساء البارحة بينما كنت ذاهبة لشراء الماء". كان الطفل يتأوّه بهدوء عيناه منتفختان ومغمضتان.

أعطيتها حفنة من النقود وزجاجة الماء التي بقيت معي، حاولت أن أكلمها وأقول لها أن عليها التوجه إلى المستشفى، لكنها لا تصغي، فتحت سدادة الزجاجة وشربت رشفتي ماء وحاولت أن تسقي الرضيع الماء لكنه كاد يختنق. تراجعت القهقرى كاللّص، لم أعد أعرف ما الذي جاء بي إلى هنا. عندما نكون بمفردنا قادمين من البعيد أو لعلنا نؤمن بالمعجزات متذرعين بالدروس التي نتبعها في أحد مستشفيات لندن.

اتجهت في ممرات نوكالبان بالعكس، بلحظةٍ عصفت الريح فالتهمت غيمةٌ من الغبار كل شيء، فجأة اختفى كل شيءٍ وكأنني وحدي على هذه

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الهضبة تائه في عرض بحرٍ بل محيطٍ من الغبار حتى الشمس ابتعدت كثيراً، نزلت إذاً نحو القناة، مازالت السيارات تهتز على الطرقات لتكون مصابيحها ثقوباً تخترق غيمة الغبار. مريم، أريد أن أقول لك الآن أننا سنعقد قراننا وسنرزق بأطفال، سأطلق على أول طفلٍ نرزق به اسم "جيميما – جيم" إحياءً لذكرى جان أوديل وسانتوس. إن كانت بنتاً سندعوها جيميما وجيم لو كان صبياً. أظن أن الفتاة ستشبه إيفا بعينيها الواسعتين السوداوين وشعر أشعث كمن يخوض حرباً، أكتب إليك لأتوقف ولاحزر. إن كنتِ معي ستمنحيني القوة فلن أكترث لزوبعة الغبار التي تبتلع هذه المدينة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

عاد فصل الأمطار وجان على أهبة الرحيل، لابدَّ من هذا القرار ضعفاً لا حاجة. يكاد المعهد العالي يغرق بالإفلاس بعد أن غادر المدير "جوان كوشران" حاملاً أسرار العمل، عهد إلى مارسيل جوسيل وهو مكلّف بالدروس في المعهد الفرنسي في أميركا اللاتينية، شاذٌ يعيش مع شاب اسمه "أكافيفا" عادة ما يتملق له حين يصادفه، كما وعد بمساعدته لتأمين عقد كمترجم في الألعاب الأولمبية التي ستجري في شهر تشرين الأول لكن الموعد مازال بعيداً. على كل حالٍ فإن هذه المدينة شرك من الصعب الإفلات منه، إذ تطردك إلى ضواحيها وتقضمك بتلذذٍ ثم تبصقك. نوكالبان، أزكابوتزالكو، نونوالكو، سيوداد ساتليت، انديو فيرديس، إزتكالكو، ازاتابالابا. رغم المحاولة ولكن من المستحيل أن تكون في كل مكان، لابد من الاختفاء مثل رويز ومارتينا وإيفا ذات العينين المذعورتين.

تخيل جان لدى وصوله أن الناس في هذه المدينة كمن يعيش بجزيرةٍ تائهة وسط المحيط ولا يرتبط ببقية العالم سوى بحركة الأمواج البطيئة، أو بالاهتزازات الصادرة عن الممرات تحت الأرض (لا يقصد المترو) وحَلم أيضاً أننا كنا في فوهة المستقبل أو في منخفضٍ بركاني، يرتمي فيه كل شيء فتمتزج الأعراق والأساطير والمصالح، فيما يشبه لندن ولكنه شاسع كبلدٍ بأكمله بشوارعه الطويلة بمئات الكيلومترات وأبراجه وأطلاله وحقوله المهجورة وأهراماته التي تثقب القشرة الإسفلتية في الشوارع العريضة والحدائق العائمة وخاصة تلك الحشود دائمة الحركة التي لا تهدأ متعلقة بعتبات الترامواي وواقيات الحافلات، تنبض في الشوارع، تلك الحشود المعتمة والعنيدة، أناسٌ بدينون وقصار القامة مشوهون وأحياناً رائعي الجمال بوجوههم المعتقة أو بأقنعة شيطانية وكشرة في أحيانٍ أخرى قبيحون، متسولون ومقعدون يجذفون على دفٍ ذي دواليب وأطفال يتراكضون بين السيارات في التقاطعات

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وومومسات ساحة "غاري بلدي" و"نيزا" و"فلوراسيا" و"لندن". من بينهن أيضاً شاباتٌ أمهات ببطونٍ منتفخة في مدينة "ميرسيد" في كاليفورنيا، ونشالو "بينو سواريز" و"الفيلا"، بائعو النظارات المسروقة في لاغونيلا والمرتزقة الذين يتسببون من بيع الأقلام والساعات ومعجون الأسنان وأشرطة الكاسيت والدمى والمجلات الممنوعة. والباعة المتجولون في المرات ومارياشي، وعازفات ماريمبا[1] بدينات يروين مغامرات شيقة. وأيضاً فرقة ماريجوانوس الموسيقية في منطقة اكسوشيميلكو في العاصمة المكسيكية، وأميركيون من سان أنجلوس وسيّاح فرنسيون وإسبانيون ويابانيون يراوحون أمام البازيليك[2] في غوادلوب وراقصي كونشيروس[3] بلون قرمزي وأغطيةٌ من الريش الملون، والراقصين على أنغام التيبونازتل[4] و بأيديهم مالٌ من الكرتون حيث يضيء البرق. كذلك أولئك الفلاحون الهنود من ناياري وغريرو وشياباس، أولئك الناس المنومين في متحف الانتروبولوجيا والهائمين في الحدائق على طول المرات تحت أوكاليبوس الكبيرة يترقبون بلا نهاية مرور سيارات أجرة أو حافلة أو شيء ينتشلهم ويبعثرهم في متاهات الشوارع المجاورة بكل لحظة يولد كل شيء ويموت كل شيء، تتمدد عضلة هذه المدينة وتتقلص حسب إيقاعٍ لا يتمكن أحد من فهمه.

يسكن السيد روليس لالان في الطابق الأخير من أحد أبراج "كامبوس اليسيوس" (برج يفوق الخيال) يطلُ على حديقة "شالبوليت". تعرَّف جان على السيد روليس عن طريق مارسيل جوسيل العجيب فالآنسة روليس

---

(1) - ماريمبا Marimba: إحدى آلات الإيقاع في أميركا اللاتينية.

(2) - بازيليك الغوادلوب: كنيسة الروم الكاثوليك شمال العاصمة المكسيكية، بناها المعماريان "بيدرو راميرز فاسكيز" و"فرانسيسكو أنطونيو دوغيريرو ي توريس".

(3) - كونشيروس Concheros: رقصة كونشيروس من أهم الرقصات التقليدية في مكسيكو.

(4) - تيبونازتل Teponaztle: نوعٌ من الطبول تستخدم وسط مكسيكو.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لالان واسمها "زوي" كانت بحاجة لدروس خاصة باللغة الفرنسية والإنكليزية من أجل فحص البكالوريا في الثانوية الفرنسية في بولالكو، فضرب جوسيل موعداً مع جان في أحد أمسيات مطلع شهر تموز.

تلاحق روليس لالان جلبةٌ غريبة في أنحاء الوسط الفرنسي حيث كان مظليّاً تابعاً للسفارة بعد الحرب بسبب ماضيه البطولي المقاوم. جمعته صداقات حميمة مع عدة رؤساء وتقلّد وظيفة في إطلاق أكابولكو. تزوج من مكسيكية حين كان ينوي الحصول على الجنسية ثم فرّق الطلاق بينهما وتفرّغ لأعماله. أهم عملية أنجزها هي شراء عدة فيلل قديمة تطل على حديقة شابولتيبيك في الخمسينات من نساءٍ ينحدرن من أصول إسبانية وجدن فيه رجلاً جذّاباً. لدى موتهن شيّد في ساحة هذه الفيلل برجاً أطلق عليه اسم "Torre d Marfil أي البرج العاجي" وأبقى لنفسه الطابق الأخير ليراقب المدينة من أعلى البرج.

روي عنه أشياء أكثر بلبلة حيث كان محتكر ورش الطرقات الجديدة ووظف جيشاً من المهربين الذين يحملون إليه قطعاً أثرية من واكساكا وتاباسكو وشياباس ليبيع أجملها في أميركا في متحف "بي بودي" التاريخي في لندن أو في "سميث سونيان" ويترك الباقي في المكسيك. وقيل أيضاً أنه يمتلك أسطولاً من الطائرات الصغيرة في الشمال للتهريب، ولكن لابد أن كل ذلك مجرد ترهات فالحقيقة أنه يقود طائرته بنفسه يتسوق من ميامي بعد أن استشار طبيباً، ولابد أنه يودع دولاراته التي كلفه جمعها غالياً في مأمنٍ.

أصغى جان لجوسيل وهو يروي كل هذه القصص شارد الذهن، فكل هذا لم يكن شيقاً لكنه بحاجة للمال. حدد موعد الدروس بعد ظهر كل يومٍ من حزيران حوالي الساعة السادسة لساعتين ونصف تتناوبان فرنسي وإنكليزي. كانت زوي فتاة ذات بشرة غامقة مدللة عدائية وترفض الاجتهاد بالعمل.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ذات مرة بعد أن أنهى جان درسه، تأخر بالحديث مع السيد العجوز روليس لالان، إنه رجلٌ جذّاب وكريه بآن واحد، عديم الذمة ومتكبرٌ ينحاز لنخبة المجتمع ولا يخلو من الخطر لكنه ذكي. عرض خلف زجاج واجهة مجموعة من الفن من الحقبة ما قبل الاسبانية[1] التقطها من ورشة: صغار نمر "الجاكوار" الأوليمك وتماثيل صغيرة لليدي جينا وأصنام من الفخار من "ناياريت"[2]، أما التحفة العظيمة فتتبوأ قاعدةً من الرخام وهي رأس الآلهة "تيتونيان" من الرخام السمّاقي حيث نلاحظ آثار سوداء تلطخ فمها، شرح روليس لالان: "هي من تلتهم الخطايا، بالنسبة للإسبان هي عذراء غوادلوب ومازال فمها أسوداً من خطايا البشر".

داعب الآلهة بأنامله بحبٍ ولكن بعد قليل حدثه جان عن خلف "الأزتيك" الذين يعيشون بائسين في غريرو، فضحك روليس لالان باحتقار وقال: "متسولون، متسكعون ما لم تتخلص هذه البلد من الهنود ستجر دائماً أعباء التخلف".

حاول جان كبح جماح غضبه وقال: "ألا يمكننا أن نفعل شيئاً من أجلهم؟ ففي النهاية هم أحفاد من نحت آلهتك". استمتع روليس لالان باستفزازه فقال: "الهنود؟ للضرب بالسوط يا عزيزي جميعهم! جميعهم للسياط!" لمع في عينيه الرماديتين وميضُ مكرٍ. ظن جان أن عديم الوجدان هذا يعرف عنه أكثر مما يبدي، لابد أنه يعلم بزياراته إلى قرى الجبل وبحياته في أرض غريرو ولعله يعلم بلقاءاته مع باميلا وجوكان وعلاقاته مع تمرد البولتيكنيك، لكنه طرح على نفسه السؤال التالي: إلى أي حدٍ يمكننا قبول السخرية؟ إلى أي درجة نتناول بألسنة الاستهزاء كل شيءٍ؟

---

(1) - الحقبة ما قبل الإسبانية في المكسيك: هي المرحلة التاريخية المتعلقة بالأراضي الحالية للمكسيك قبل إمبراطورية "أزتيلا".

(2) - ناياريت Nayarit: إحدى مناطق مكسيكو.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

في إحدى الأمسيات وبعد مرور ثلاثة أسابيع، صرفت "زوي" جان حين جاء حاملاً كتبه، قابلته بهيئةٍ مرحة لم يعتد عليها وقالت له بصوت طفلةٍ صغيرة يشوبه البرود: "سيسدد لك والدي حسابك حسناً إلى اللقاء". دفع السيد روليس لالان الشهر كاملاً دفعة واحدة ولم يقدم شرحاً عن الباقي لكن جان ليس بحاجة له.

أطلت الضفة الزجاجية في غرفة الاستقبال على سماءٍ بلون الحبر، يتراكض البرق على سطح الجبال ليضيء المدينة الزرقاء ويطفئها. تعلقت عينا روليس لالان بالنافذة أيضاً وقال: "هذا رائع، أليس كذلك؟" لا يضاهي ضجيج حركة السير في شرايين المدينة الرئيسية صوت الرعد.

قال: "رغبت بتشييد هذا البرج لأحظى بهذا المشهد، لأكون في الأعلى وأراقب هذا في كل فصلٍ من فصول الأمطار، إنه يضاهي كل تحف الإنسانية، ألا تظن ذلك؟"

لم يجب جان بأن لا نقاط مشتركة في ذلك لعله ظن في أعماقه أن الواحد متصلٌ بالآخر ولكن بقوةٍ أخرى غير الفن. وأن رأس "تيتونيان" المقطوع والآلهة ذات الفم الأسود تتمتع رغم السخرية ونفوذ المال بالقدرة على مراقصة برق الطقس الحار فوق المدينة الأكثر عزلة في العالم.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يصعب القول كيف بدأت "Tlatelolco" "تلاتيلولكو"[1]. في إحدى الأمسيات التي تودع شهر تموز، كان جان في مكتبة سالفادور حين سمع صوت سيارات الشرطة المصفحة تجمع الطلاب في الخارج، كانوا ينتظرون منذ برهة، يتردد صدى الصراخ والشتائم في الأصقاع، لم تأتِ باميلا ذاك اليوم. حاول جان العودة إلى "ألاميدا" لكن الطرقات الرئيسية كانت مغلقةً بالحواجز. كان معظم من في المقدمة من الهنود في مقتبل العمر يرتدون زي محارب أولميك[2] خوذٍ مربوطة عند الذقن وسترٍ محشوة. أحياناً يتناهى لمسامعنا صخب مواكب يتلوها فرقعة انفجارات ثم صافرات الشرطة الحدادية.

حاول جان أن يعود أدراجه إلى أرض غريرو، طرق باب منزل خالة باميلا ولكن ما من مجيب. يسود الهدوء في الحي مع عربات "التاكوس" و"الخيار" المتنقلة. عندما ذهب جان لشراء "تامال"[3] لعشاءه، سأله البائع: "أنت مع أم ضد الطلبة؟" ظن أن البائع يسأله عن الأحداث في فرنسا بعد أن سمع عنها في نشرات الأخبار، فكان جوابه: "أنا مع الطلاب بالطبع". إذ أجرى جان اتصالاً هاتفياً مع والدته وعلم ما يجري في فرنسا من مظاهرات ضد شارل ديغول والإضراب العام والطلاب الذين احتلوا جامعة السوربون والقمامة التي تكدست ووصل ارتفاعها حتى الطابق الأول في الشوارع أسفل الأبنية. ولكن فيما بعد أدرك أن البائع كان يسأله عن الأحداث الجارية في العاصمة مكسيكو. كانت

---

(1) – تلاتيلولكو: ميدان في العاصمة مكسيكو، شهد في عام ١٩٦٨ في ٢ تشرين ١ مظاهرات طلابية على سياسة التعليم ومطالبة بالديمقراطية راح ضحيتها ٣٥٠ معظمهم من الطلاب «سميت فيما بعد "مذبحة تلاتيلولكو" بعهد الرئيس "كوستاف دياز أورداز".

(2) – الأولميك: شعب قديم سابق للكولومبين في موزامبيق من ١٢٠٠ قبل الميلاد حتى ٥٠٠ بعد الميلاد في خليج المكسيك.

(3) – تامال Tamal: طبقٌ يعود لما قبل ٥٠٠٠ عام في المكسيك يحضر من طحين الذرة ويُطهى بأوراق الذرة أو الموز.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الشوارع حول "زوكالو" مغلقة فالمعارك الدائرة بين الجيش وغراناديروس "أي الجنود من الطلاب" تحتل الساحة. تم احتجاز طلاب "بريناراتوريا" و"البوليتكنيك" في مدرسة سان إلديفونسو وآخرون في قاعة المطالعة في أرجنتينا في مسرح بوليفار والبعض تمت ملاحقتهم حتى سجن "لوكوميري" القديم[1].

في اليوم التالي، قصد جان "بوانت دو ألفارادو" لإعطاء درسه، لكن المعهد كان مغلقاً. قال الطلاب أن الأمر انتهى ولن يفتح المعهد أبوابه مجدداً إذ أنه كان بؤرةً للوباء.

التقى جان باميلا في أورغوايا عند مدخل المكتبة العامة التي أغلقت أبوابها أيضاً. لم تتمكن باميلا من الوصول إلى عملها في مكتب الكاتب بالعدل فكل الطرقات المؤدية إلى "جوستوسيرا" و"سان الديفونسو" محاصرة بالمصفحات. سارا جنباً إلى جنب بمحاذاة "جوان دوليتران" نحو قصر "الفنون الجميلة" وهنا أيضاً كان العبور إلى المركز ممنوعاً، لا يحق سوى للجوار بالعبور بعد مفاوضاتٍ مع "غراناديروس". تنفجر بين الفينة والأخرى هبّةُ عنف في مكانٍ ما فنسمع صرخاتٍ ونداءات بمكبرات الصوت ونعيق صافرات الشرطة التي تجوب ساحة "ريفورما".

كان اليأس يطبق على باميلا، حاولت عبور حاجز غراناديروس، وهي تقول: "أخي الصغير هناك، إنه لم يفعل شيئاً، دعوني أعبر لو سمحتم، من فضلكم!" لكن الهنود دفعوها دون أن يجيبوا بكلمة.

فجأة، تحركت حشود خلفهما، لمح جان جمعاً من الرجال، لم يكونوا طلاباً بل راشدون يرتدون قلنسوة تغطي العنق والأذنين ويحملون أكياساً من الحجارة يرجمون بها رجال الشرطة. وشبت المعركة: دروعٌ ومطرقات وهاهم غراناديروس يركضون نحوهما، فسحب جان باميلا نحو "ألاميدا". أثناء هروبهما سمعا انفجار قنابلٍ عند مفرق الطرق، في

---

(1) - سجن لوكوميري القديم: مبنى ضخم شمال المكسيك.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

طريق العودة، رأى جان غيمةً مضيئةً تغطي الشارع العريض فتوقفا عن الركض في مركز "أليدا" وهما يلهثان تعباً. جلسا على أحد المقاعد، ينعم المكان هنا بالهدوء وتنقر الحمامات الرمل، يجلس بعض المسنين على المقاعد لينالوا قسطاً من الدفء تبثه أشعة الشمس، وكأن شيئاً لم يكن. سالت دموع باميلا باكيةً: "ماذا سيفعلون به؟ إنهم محتجزون في المدرسة منذ يومين، ليس لديهم ما يأكلون ولا ما يشربون، ماذا سيحل بهم؟"

حاول جان أن يهدأ من روعها. نال الإرهاق منها وباتت عاجزةً عن السير فاستقلا سيارة أجرة من ساحة "ريفورما" حتى "غويتلاهواك" ثم تابعوا الطريق سيراً على الأقدام حتى شارع لونا. دست باميلا يدها بيد جان وكأنهما عشاق، إنها المرة الأولى التي يشعر أنها قريبة منه إلى هذا الحد فراوده شعورٌ بالرضا وكأن كل ذلك ينبئ بالفراق. فكّر بمريم شعر ببعدها فجأة وكأنها في عالمٍ آخر. تركت باميلا يده عندما وصلا إلى المبنى الذي يسكن فيه، وقالت: "سأعود لمنزل خالتي لعل جوكان على وشك الوصول". ثم ابتعدت بسرعة، لم تكن ترتدي فستانها الأزرق الكهربائي بل بنطالاً سكري اللون وسترةً زرقاء كأي فتاةٍ من جيلها عائدةً من الدرس.

أمضى جان ليلةً قاسية هُيأ له صوت صافرات الشرطة، راوده حلمٌ أنه يركض في شارع جوان دوليتران حتى فقد أنفاسه ثم راوده حلمٌ آخر بالليالي الأولى التي أمضاها في الغرفة تحت السطح في فندق "أورغواي" حين سمع نفس الصافرات وظن أنها صرخات حيواناتٍ برية.

توفيت العمة كاترين قبل قدوم الصيف، سلمت الروح لبارئها في الصباح الباكر أثناء نومها بكل عذوبةٍ كالعصفور. هذا ما كتبته والدته في رسالة وتابعت: "قمنا بمراسم الدفن في مقبرة "الشرق"، كانت تمطر. أعاق المرض والدك من مرافقتنا، لكن أورور دو سوميرفيل رافقتنا مع زوجها. أتعرف إنها بانتظار مولودٍ في شهر أيلول.."

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

شرع جان بكتابة رسالة لمريم بعد أن جافى النوم أحداقه، رغب أن تكون رسالة طويلة جداً مصاغة كجملةٍ واحدة تستمر حتى بزوغ الفجر، إلا أنه لم يصل إلى النهاية، كتب: "أشعر أني بعيدٌ، بعيدٌ جداً، لا أعرف إن... " ثم توقف ووضع الرسالة الغير مكتملة في ظرفٍ وكتب على ظهره عنوانه:

Apartado postal 155, Buzon de Correos, Correo Mayor.

صندوق بريده فارغٌ دائماً يوماً بعد يوم ما عدا تلك الرسالة التي أرسلتها له شارون لتحدثه عن كاترين، والآن لم يعد هناك أي أهمية فمن مات قد مات كما كانت تقول كاتي مارو وكأنه شخص قد غيّر عنوانه.

حاصر جنود الفرقة العسكرية بإمرة الجنرال "جوسي هيرنانديز توليدو" مع مطلع فجر ٣٠ تموز مدرسة إلديفونسو. أحاطت بها دبابات ومدرعات مع مدافع عيار ١٠١ ميليميتر، غاص مركز مكسيكو بالصمت، أضاءت السماء شرقاً، انبثقت قمم جبلي "بوبوكاتيبيل وإيزتاكيهواتل" برؤوسها البيضاء من حضن الضباب الذي غطى المدينة بعد توقف حركة السير. أعلن الجيش الهجوم حوالي الساعة السادسة صباحاً، أما الطلاب فأمضوا ليلتهم دون أن يغمض لهم جفن وبعضهم من استسلم للنوم في مفرات المدرسة رغم الخوف الذي يقضُّ مضاجعهم، متدثرين بمعاطفهم ليتحدوا البرد، ومنهم من سهر الليل وهم يتجاذبون أطراف الحديث بصوتٍ خافتٍ أو بلعب الورق. دندن أحدهم أغنياتٍ وهو يداعب أوتار كمانه "jarocho". في لحظة الهجوم كان الكثير منهم خلف باب المدخل الثقيل الذي أوصدوه بقطعٍ من الأثاث تناثر الزجاج بضربيةٍ واحدة لشظايا وانفجرت القنابل التي رمتها البنادق في قاعات الدروس لتخنق من كان موجوداً وبنفس اللحظة تدافع أحد

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

"غرناديروس" نحو قاعة الاستراحة، حطم صاروخ البازوكة الباب فتدحرجت المكاتب والكراسي التي اتخذها الطلاب كحاجز فلطخ الدم الجدران.

مع نهاية تموز، ضربت العواصف وادي مكسيكو ولكن لم يعرها أحد انتباهاً فالعاصفة سبقت إلى النفوس.

عاد حب "مارسيل جوسيل" المرتعد بالنفع على جان، مارسيل المكلَّف بالدروس في معهد أميركا اللاتينية، فبفضل تدخله حصل جان على وظيفة مترجم رسمي للغة الفرنسية في مفوضية الألعاب الأولمبية في تشرين الأول، حتى أنه اصطحبه بسيارة "كاميرو" البنفسجية إلى بيدراغال دوسان أنجل ليلتقي بمدير المفوضية. الدخل أكثر من جيد فهو يعادل العمل لعدة أشهر في المعهد العالي المرحوم، كما أن المفوضية تتكفل بمصاريف العودة من مكسيكو إلى باريس، كما يتعهدون بتجديد فيزا FM3، ويقدمون سكناً بالجوار غرفة في مستشفى "سيجورو" الاجتماعي في "سان جيرونيمو". دعا جوسيل العجيب لدى عودتهما بعض الأصدقاء إلى منزله في "بولانكو" للاحتفال بهذه المناسبة حيث التقى بعدة شخصيات من المفوضية الفرنسية المحلية ورئيسات جمعيات خيرية من الطبقة البرجوازية المكسيكية "ofrancesada افرنسيسادا" وبالطبع حضر "الوسيم أكافيفا" الذي يذكر جان بالمسكين "أروزا" أيام الثانوية، إنه مثله ثائر الأعصاب دائماً ووردي اللون وخاصةً حين ربط خصره بوزرة بيضاء ليقدم إلى المائدة الطبق الرئيسي الذي استرعى الاهتمام وهو اللحم المفتول المدخن.

دارت الأحاديث حول الأحداث التي تدور في مكسيكو أو بالأحرى عن استحالة معرفة ما يحدث بالضبط.

سأل أحد الأساتذة في الرابطة الفرنسية: "أتظنون أن الألعاب الأولمبية ستقام؟"

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

فصرخت للتو إحدى رئيسات الجمعيات الخيرية اسمها "لوبيتا": كيف! أتظن أننا سنترك مصيرنا بين يدي بضعة غلمان وصغار الهنود!"

حاول جان أن يتحدث عن الطلاب وعن عنف الشرطة وعن الجيش الذي دمّر باب المدرسة بالبازوكة.

تابعت "أنتم تعلم، يا سيدي العزيز، مكسيكو ليست كباريس. فهناك هي مجرد تمرد طلابي أما هنا ربما يتحول الأمر لثورة مع ضحايا وجرحى وأعمال نهب". لم يتذوق جان المدخن الشهير، بالحقيقة أو بالأحرى كان يرغب لو يتقيأ على غطاء طاولة السيد مارسيل جوسيل ذي اللون البنفسجي.

تحسن حاله في الشارع مساء بعد أن استقل المترو إلى "ريفورما" ورأى العاصفة الكهربائية حيث تتصادم الغيوم السوداء فتلقي البرق. يهيمن بناء "روليس لالان" على الحديقة المقفرة، بناء مرتفعٌ حتى يختفي الطابق الأخير بين الغيوم. تدفقت السيارات مجدداً في الجوار نحو "لوماس وبالماس" وإلى جسر "ميغيل أليمان" بلا مبالاةٍ وسرعةٍ كبيرين.. ترى هل يقطن هؤلاء الناس الكوكب نفسه؟

في لحظةٍ ما سمع جان صافرة الشرطة، بشكل مفاجئ في ساحة ريفورما مترامية الأطراف وصرخة حيوان ما قبل التاريخ هاربٍ، انبعثت من هدير محركٍ ينطلق بأقصى سرعة إنها حافلة تمر مسرعة حاملة طلاب وتجرُ خلفها الرايات كالمناخس[1] وكتب عليها بالحروف الحمراء: UNETE PUEBLO et MUERE CUETO ثم انحبس دفق السيارات وانزلقت الحوامات فوق الشارع العريض في خضم الضجيج المثير للنواقيس الضخمة السوداء ثم انحرفت نحو الشمال.

---

(1) – المنخاس: ما يطعن به مؤخرة الحيوانات لتنشيطها.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

عنونت مجلة "أونيفيرسال" في الأول من آب: "اليد الممدودة". يطول الانتظار ومازال جوكان غائباً، في السجن مع طلاب "الفوكاسيونيل" و"البوليتكنيك" وطلاب "أونام". أطلق "دياز أورداز" الرجل ذو النفوذ "الغرانـاديروس" علـى الجامعـة، ثـم علـى "البريباروتاريـا" الـدبابات والمدرعات ضد فتيان سلاحهم الحجارة فقط. شارك جان في السابع والعشرين من آب حين كان في ريفورما في المسيرة الكبرى في "شابولتبيك" حتى "زوكالو". كانت الحشود هائلةً صامتةً. عثر جان على باميلا وسارا معاً يداً بيد حتى الساحة. كان طلاب "البريباراتوريا" هناك برفقة تلاميذ "أونام" Unam و"شابينغو" Chapingo" وكذلك أناسٌ من العامة، يتوافدون دون توقف بحافلات تم الاستيلاء عليها ورفع فوقها أعلام. تعالت الأصوات ودوّت: UNETE PUBLO! MUERE CUETO!. أين الجنرال لويز كويتو راميراز وراول مانديولا الذين أعطيا أوامراً مهاجمة سان إيلديفونسو؟

فكر جان عندما سار برفقة باميلا في شارع ريفورما بالسيد روليس لالان في طابقه العلوي، لابد أن الرعشة قد سرت في جسد ذاك الموظف العجوز الماكر لدى سماعه هدير هذه المسيرة المصمّ للآذان تحت نوافذ منزله ليعبِّر الشباب عن سخطهم البطيء والثقيل الرافض لهذا العالم الفاسد وأعمال التهريب والنهب.

جلس جان وباميلا تلك الأمسية بعد المسيرة على أحد مقاعد "ألاميدا" كعاشقين. ما فتأت تتحدث عن جوكان، حصلت على أخبارٍ عنه من تلاميذ سان إلديفونسو. أصيب بجراح وهو في مستوصف السجن، قالت: "سأذهب، سأصطحبه معي إلى أبعد مكانٍ ممكن، يحدق الآن الخطر بالجميع، لا مأمن حتى في قريتي".

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كانت هذه المرة الأخيرة التي التقى جان فيها بباميلا. طرق عدة مرات على باب منزل غريرو ولكن ما من مجيب وعندما حاول سؤال الجارات اختبأن، ساد الخوف والنميمة. لعله يشبه جاسوساً أو بل أسوأ من ذلك أجنبيٌ متآمر.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الآنسة مريم شريفة
شاموني (سافوا)

مكسيكو ١ تشرين الأول

أكتب لك هذه الرسالة وأنا أجهل إن كانت ستصلك أم لا، أرسلتها إلى عنوان "شاموني" ولكن ربما غادرت إلى باريس مع والدتك بعد أن بدأ البرد هناك. ربما لن أعثر عليك مجدداً في تلك المدينة مترامية الأطراف ولو بقيت مزروعاً على حافة "الشانزيليزيه" سنةً دون حراك.

يسربل الحزن كل شيء هذا المساء، ينهمر المطر في سان جيرونيمو، الطقس لطيف لكنها تمطر. نزلت في المستشفى الكبير الشاغر حيث سيقيم طاقم مفوضية الألعاب الأولمبية وكأنه الثكنة التي لطالما رفضت الذهاب إليها. لم يصل المشاركون بعد. سلموني غرفةً مطلةً على الشارع صاخبةً جداً، طلبت تغييرها حتى حصلت على غرفة تطل على الحديقة الداخلية. كلمة حديقة كبيرةٌ جداً فهو مرجٌ أجردٌ تتلاعبُ فيه الأوراق التي بعثرتها الرياح وتحيط به بعض الجنبات العاجزة التي تتكئ على دعائم.

حارس "سان جيرونيمو" محاربٌ قديمٌ في الثورة، وجهه مليء بالتجاعيد كالندب. يلوذ مساءً إلى حجرته وحيداً، يعتمر قبعته ويتدثر بالغطاء فيغطي حتى ذقنه كحارس "زاباتا"، يشاهد التلفاز قليلاً ثم يذرع ساحة المستشفى بالخطى. أكتب إليك الآن فأنا أعلم أنني سأرحل عما قريب، شارف الفصل على نهايته. سأكون قريباً في فرنسا أو سأتم تدريبي في مستشفى "سوزامبتون Southampton" لأصبح طبيباً في مكانٍ ما. كم حلمت أن ألاقيك هنا ولكنني أعرف أنه أمرٌ مستحيل. سأفتقد للحزن الذي يلف مكسيكو وأعتقد أنه كان لينال إعجابك. ذاك اللون الرمادي الذي يصبغ كل شيء والغروب الذي لا ينتهي مع الضباب

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الذي يمحي كل شيء. الجبال التي تحيط بها "لامانيش" و"اجوسكو" و"تيزابان" و"سان بيرناب" و"سان استيبان هوبتزيلاكاس" والبراكين التي تنتشر في كل مكانٍ جنوب البلاد، سأكتب لك أسماءها حسب السلسلة التي تكونها كعقدٍ واسطته مكسيكو، أرغب أن أهديك إياه:

رأيت هذا المساء أشخاصاً يتجهون سيراً على الأقدام إلى قراهم العالية الجاثمة بين الغيوم مثل "سانتيغو يانهويتلالبان" و"هويكسيكولاكان". أظن أن هذه القرى العائمة في الهواء كانت لتنال إعجابك أيضاً بأزقتها المبلطة بحصىً سوداء كبيرة ومنازل الطين والجسور المنحوتة والأمطار التي تجري في الجداول. لن أنسى هؤلاء الأطفال بثيابهم الرثة والوجنات الحمراوان يشبهون سكان التيبت بشعرهم حالك السواد والعيون الهندية بجوارهن أولئك المسنون الذين يحتمون من الرذاذ بأكياس النايلون التي يضعونها فوق قبعاتهم.

لم أخبر الحارس أنني سأرحل فليس من الأشخاص الذين نشاركهم قصص حياتنا. تحقق من سجلاته وأشار لاسمي من بين خمسين اسمٍ آخر، كل ذلك لا يعنيه. إنه حارس "سيفيرو" الاجتماعية ويمكنه أن يكون حارس "مقبرة" أو سجن. ما حدثته أيضاً عما جرى مع الطلاب، لقد عرف الحرب حين كان عمره يناهز العشرين عاماً حين التقى جنرالات الجيشين الشمالي والجنوبي "بانشو فيلا" و"إميليانو زاباتا" في القصر الرئاسي واعتلا عرش "بورفيريو دياز". لا أهمية لشيء بالنسبة. جلست بجواره أمام حجرته وظهري للتلفاز الذي يخشخش قدمت له سيجارة فتناولها دون تحية كما كان يفعل صديقي "كورنارد ايفتوشيشنكو" على مقاعد مترو لندن.

في الحقيقة هو أيضاً جنديٌ لحقت به الهزيمة من أولئك الناس الذين تغصُ بهم مخيمات اللاجئين والملاجئ. حربه ضاريةٌ بالقدم. أرى

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

هيئته كالباز بوجنتيه العاليتين وفمه المشدود دون ابتسامة حتى يداه القصيرتان الغليظتان وأظافره المكسرة والضاربة لسواد فيذكرني بالمحارب القديم أولئك الذين حاربوا "ألفارادو" حين زُرعت " تونوشليتلان وتلاتيلولكو" بالجثث. فكرت بالعلاقة التي نسختها قديماً في إحدى الكتب في المكتبة العامة الكائنة في شارع سلفادور لدى مجيئي إلى هذه المدينة:

جئنا لنقول لهم أن "Huitzilopochtli" ارتدت زينتها من جديد. ثم وصفوا لها الحلي وملابسها الورقية وكل ذلك.

بعدها شرع المكسيكيون بالغناء هذا ما قاموا به في اليوم الأول، لكنهم لم يفعلوا ذلك في اليوم الثاني، شرعوا بالرقص حين مات سكان توتوشليتلان وتلاتيلولكو.

هذا ما وددت قوله للحارس إلا أنه أسير ماضيه، لن يفهم ما أنوي أن أقول، فاكتفيت إذاً بالتدخين دون أن أنبس ببنت شفة معلقاً ناظري على ساحة المستشفى المقفرة التي اجتاحها الليل.

مريم: الرابع من تشرين الأول

لم أنتهِ بعد، لم أكن أعرف، لم أسمع شيئاً ولم أرَ رغم أنني كنت على بعد خطواتٍ من "لونا" و"ليتران" فجأة هنا تلاتيلولكو. تلك الليلة خطفني النوم، عدت من سان أنجل وقد نال مني الإعياء من تحضيرات الألعاب الأولمبية والتعليمات والنقاشات مع المدير. حتى أنني تناولت الذرة المشوية الممزوجة بالملح والليمون مع كأسٍ من عصير البرتقال لدى بائع " الشينشايوت"[1] عند زاوية "زاركو"، خطرت ببالي فكما قلت لك، تبعثر ذاك النور المسائي العذب والناس بقيت خارجاً حيث يتلألأ المصابيح في المنازل تدغدغها الأمطار الناعمة وصراخ بائعي التامال يجوب الشوارع.

(1) - الشيناشايوت: نوع خضار في المكسيك يشبه الشايوت.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لم يكن أحدٌ يدري ماذا يحدث هناك بعدْ عدة شوارع في ساحة "ترواكولتور أي ثلاث ثقافات". سُمع الحديث عن مظاهرة ولكن كل يوم هناك مظاهرة للطلاب والتلاميذ وحافلاتٌ تجوب " انسورجانت" حاملةً الأعلام والرايات.

في الثامن عشر من شهر أيلول، احتل الجيش مخيم سان أنجيل، يُعرف أن هناك مواجهات أخرى، كنت في جادة "ريفورما" أثناء المسيرة الصامتة حين طالبت أمهات وشقيقات الطلاب المفقودين بالعدالة. سمعت لدى هبوط الليل صافرات الشرطة في " ريفورما" نحو "غويتلاهواك". يتوافد الناس إلى "زاركو" إلى شارع "غريرو". كان الطقس لطيفاً جداً مع المطر.

أظن أن الطلاب وصلوا إلى الساحة حوالي الساعة الخامسة. توافدوا من كل الأنحاء من "غاريبلدي" ومن "غريرو"، لم يتمكنوا من التوجه لمحطة "تلاتيلولكو" لأن رجال الشرطة قاموا بمحاصرتها. وصلوا إذاً إلى الساحة الشاسعة وملؤوا الأصقاع. كان هناك طلابٌ ولكن هناك أيضاً عائلاتٌ وأطفال، توافدوا جميعهم للإصغاء للخطاب وكأنه يوم عيد، إنهم يتحرقون لسماع ما ستعلن الحكومة: إطلاق سراح السجناء وإقالة "كيتو" و"ماندوليا" الذين تلطخت أيديهما بدماء ضحايا السادس والعشرين من تموز. لابد أن باميلا كانت هنا وصورة أخيها معلقة على كنزتها. كما توافد الصحفيون الأجانب وتمركزوا أعلى مبنى "شيهواهوا" لمراقبة المظاهرة، أشخاص من Times وNewsweek ومخرجون سينمائيون وكذلك مصورون.

أما أنا فكنت على بعد أقل من كيلومتر واحد لكنني لم أعرف شيء ولم أسمع. في الساعة السادسة وصلت الحوامة وسمعت طقطقة المروحية ثم حامت أعلى "بلازا" في " لوس انجلس "، قبل أن تتجه إلى تلاتيلولكو، كانت تحلق عالياً بعيداً عن الأبنية. مازلت أذكر انهمار

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الأمطار الناعمة برذاذ كالطحين، نفس الأمطار التي هطلت على تلاتيلولكو.

أولئك الذين كانوا يغنون ويرقصون كانوا مجردي السلاح وكل ما يرتدون هو المعطف المزركش والفيروز ومجوهرات الشفاه والقلائد والقبعات المصنوعة من ريش مالك الحزين والتعويذات من قوائم الأيل. أولئك الذين يقرعون الطبول والمسنون يحملون أواني الكرنيب بالتبغ للاستنشاق وجلاجلهم.... (تتمة القصة).

أطلقت حوامة الجيش حوالي الساعة السادسة صاروخاً أخضر اللون أضاء المكان. اقتحم بهذه اللحظة بعض المظليين القادمين من سان جوان ليتران، هاجموا الحشد بالحراب علناً وفرقعت العيارات النارية من أعلى المباني من زاوية الساحة الشمالية، بدأ كل أولئك الذين جاؤوا للاستماع للخطاب بالركض خبط عشواء نحو المأمن من جانب الهرم للاختباء في الخنادق أو محاولين فتح باب كنيسة سانتيغو. أصبحت الطلقات أكثر دقة وبدأ الجنود بالإطلاق رشاً بالرشاشات وأغلق العساكر كل مخارج الساحة وتابع المظليون بالتقدم وهم يضربون بالعصي والحراب. عامت الساحة ببحرٍ من الدخان ولم تتوقف الرشاشات عن الإطلاق من سطح مبنى "شيهواهوا" ومكبرات الصوت تنبح:

No Companero, no Corranl

أولئك الذين شرعوا بالضرب، دفعوهم وضربوا أيديهم ولطموهم ثم أجهزوا عليهم ومات أيضاً من كان يراقبهم.

لم تتوقف الرشاشات عن الرمي لوقت طويل لنصف ساعة وربما أكثر ولم يتمكن أحدٌ من الهرب من الساحة، سُجنت الناس ما بين المباني الزجاجية وحطام الهرم والكنيسة القديمة موصدة الأبواب. انطوت النساء والأطفال على أنفسهم في الخنادق، أصيبت يد فتى من جيل

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

جوكان بضربة حربة فسال الدم على بلاط الساحة، احتجز البعض بين حاجز المظليين قرب مبنى تعرضوا للضرب بالعصي الركل والتعرية ليرموا في سيارات الشرطة الزرقاء.

لكن ملك zoma Motecuh ومن يرافقه من Tlacochcalcatl وTlatelolco وItzcohuatzin الذين يديرون شؤون الإسبان، صرخ: "أيها السادة! كفى! ماذا أنتم فاعلون؟ يا مساكين هذا الشعب! هل بحوزتهم دروع! هل لديهم هراوات؟ إنهم مجردو السلاح.

ثم أرخى الليل سدوله على الساحة وأضاءت المصفحات أنوارها، جرحى وقتلى في كل مكان، أطفالٌ ممددون على الأرض وصدورهم مثقبةٌ برصاص الرشاشات. وأنا على بعد كيلومترٍ واحد من هنا، لم أعلم بشيء حتى حين سمعت فرقعة القنابل في كبد الليل وأزيز الحوامات التي حملت جثامين الأطفال. علمنا بحقيقة ما جرى في الأيام التالية ومازال ذاك المطر الناعم يهطل على مكسيكو. ساد صمت استثنائي في المركز وللم تحت جنحه الصروح القديمة ومكتبة سلفادور ومبنى الفنون الجميلة و ألاميدا، لم أعلم ماذا حلَّ بجوكان وباميلا وكل فتيان ثانوية "سان الديفونسو"، قيل أن هناك أكثر من ألفي سجين وقيل أن هناك ثلاثمئة دبابة وسيارات رشاش وقيل أيضاً أن ثلاثمئة وخمسة وعشرين شخصاً لقوا حتفهم في تلاتيلولكو وأن آخرين حُرقوا جنوب الوادي قرب كوبيلكو.

ستبدأ الألعاب الأولمبية رسمياً في الثامن عشر من تشرين الأول، أنا، لن أشارك فيها، سأذهب غداً نحو الحدود، سأستقل الحافلة إلى آخر الخط الجنوبي نحو "كيريتارو باشوكا". كم رغبت لو كنتِ معي في مكسيكو. أفكر بك يا مريم و بالزمن الذي عانيت فيه الضياع، بالأيام التي قد أعيشها برفقتك إن كنت ترغبين. أنا أحبك.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

غادرا في صباحٍ من أواخر شهر تشرين الأول، انسحبا بالليل، لم ترغب باميلا أن تودع أحداً حتى والدتها، لا يجب أن يعلم أحدٌ إلى أين هما ماضون. مرّ جوكان ليلتقي بجده، دون بيدرو أولغان، فهو على علم بأن الرجل المسنّ لا ينام. يجلس على الأرومة أمام منزله متدثراً بجورنجو[1] أبيض، يعتمر قبعةً من القش لتغطي أذنيه ولحيته الصغيرة البيضاء المرتجفة بالرياح. نظر إلى حفيده دون أن يراه حقاً فالساد يلقي ستارة على عينيه. قال جوكان: "سنغادر جدي". ابتسم الرجل المسن، لم يبدُ مندهشاً: "إلى أين؟" خالف جوكان تعليمات باميلا وقال: "إلى هناك، نحو الجنوب". قال دون بيدرو: "آه ستذهبان إلى باشوكا؟" ارتسم على وجهه تعبيراً ماكراً وأردف: "لا تمكثا هناك طويلاً، لن أنتظركما دائماً". قبّل جوكان يده ورحل.

اصطحبتهما الحافلة عن الشارع مع الفلاحات اللواتي يتجهن إلى تولكا لبيع الإجاص الناضج. تطفو الغيوم فوق الوادي معلقةً بأشجاره. غابت "تيانغيستينغو" خلف الجبال. أسرعت الحافلة على منحدر الدرب العريض لتسابق الشاحنات الثقيلة بأنوارها المضاءة.

ارتدى جوكان وباميلا زياً شتائياً فالطقس باردٌ هناك في الطرف الآخر. اقتصر متاعهما على حقيبتين، حقيبة الظهر المدرسية مع جوكان والخرج البلاستيكي البني مع باميلا. ضفرت باميلا شعرها الكثيف ودسته تحت القبعة لئلا تلفت الأنظار إليها. قيل أن هناك على الحدود يختطف قطاع الطرق الفتيات اللواتي يرقن لهم ليجدنهن مقطعات إرباً إرباً ومرميات في أكياس قمامة.

حافظ جوكان على مدخراتهما، كل المال الذي ادخرته باميلا من عملها لدى بانشو كالفان الكاتب بالعدل على مرور سنتين. حان الوقت

---

(1) – جورنجو gorngo: زي مكسيكي للرجال يشبه العباءة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الآن فهذا المال يكفي لدفع أجرة السيارة ولشراء مهرب أو بطاقة ميكا تتيح لهما العمل في الطرف الآخر في كاليفورنيا أو في ولاية واشنطن حيث سبقهم الكثير من سكان " تيانغيستينغو" .

سافرا لأيامٍ وأسابيع بالحافلة والشاحنة. تتشابه المدن والفنادق البائسة قرب المحطة الطرقية حتى الساحات مع نبات المغنولية والمقاعد من الحديد المطروق وكذلك الشمس والغبار لا يتغيران. لاحظت باميلا بعد عبور "بارال" أن الشتاء على عجلةٍ من أمره، لم يعد ذاك اللون الرمادي اللطيف الذي يعانق مكسيكو ولا البرد القابض الذي يداعب القرى المجاورة. هنا، السماء مطليةٌ بلونٍ أزرق كالحبر ويلمع الجليد على مزارع القطن.

حملتهما السيارة مع بزوغ الفجر إلى مشهدٍ خارق، ينعم مزارعي الدراق من بعيد بالدفء بمواقد المازوت تنفث حول الأشجار شرائط من الدخان اللاذع والأزرق. في كل قرية تحمل وتفرغ الطرود وصناديق الفاكهة والحزم الثقيلة.

تجثو الهنديات بوجناتٍ مصبوغة بدوائر قرمزية في الممر أربعةٌ بصفٍ واحد. يكيلهن السائق بالشتائم والسخرية حتى أنه لا يوقف السيارة عندما ينزلن مستمتعاً برؤيتهن يتعثرن على طول الطريق.

تتوقف السيارة بين الفينة والأخرى ليستغل كلٌ من جوكان وباميلا الوقت لينزلا تباعاً ويشتريا الصودا والشيبس ويقضيا حاجةً في المرحاض ذي الرائحة النتنة. بعد عبور ديليسيا و شيهواهوا لم يعد هناك فلاحات ولا طرود ولا سلال. وما من رجال أو نساء يقصدون الحدود. اندفعت السيارة مباشرة في الصحراء على مد النظر.

توقفت السيارة في "فيلا اهوموه" لملأ خزان الوقود، نزل جوكان وباميلا لتنشيط أرجلهما وهما يحملان حقائبهما. في إحدى المطاعم في

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الأسفل ذي القناطر الكرتونية، قامت بعض النسوة بطهي رقائق من اللحم وفتائل من الطحين، تناول المسافرون الطعام وشربوا الصودا دون أن يتحدث أحدهم مع الآخر. تحرق الريح الباردة العيون. ترتعد الأرض بدوي الشاحنات التي تعبر مسرعة، تتوقف السيارات على مقربةٍ لنقل المسافرين، نفس المسافرين بنفس القمصان وحقائب الظهر المهترئة. انتعل بعضهم أحذيةً رياضية فهم يعلمون أن عليهم السير والركض على الحصى المتناثرة في الصحراء. تتوقف أحياناً بعض الشاحنات وعلى متنها رجالٌ ونساءٌ غطاهم الغبار وحوّلهم لأشباح.

في جواريز، انتظرا لأيامٍ وأيام مع الحشود المتكدسة عند مدخل الجسر. يشاهدان عن بعد المبنى الأبيض الكبير العائد للبريد في الولايات المتحدة الأميركية وكأنه سفينةٌ جنحت وسط نهرٍ من السيارات. هاما على وجهيهما في شوارع المدينة قرب حديقة "شاميزال" الجرداء كقطعةٍ تنزف من عدن حيث تتعلق الصحف القديمة وأكياس النايلون. الجسر هو المكان الأخير الذي يقصده الجميع بين لحظةٍ وأخرى من اليوم منهم من لديهم الحق بالعبور ومنهم من لن يتمكنوا أبداً، منهم من جاؤوا ليلقوا نظرةً فقط أو ليبيعوا شيئاً ما ومنهم من يداعبهم الأمل الواهم بالمغامرة، ربما سحرٌ يطلي أجسادهم بمرهم يجعلهم غير مرئيين أو دعكوا راحة كفهم بدهن النسر لإغراء كل من يلمسها.

حملت باميلا رسالة صديقتها "ساندرا ويلكوكس" التي تزوجت من جندي أميركي يستقر في "سيتيل"، أما جوكان فأحضر بطاقته كطالبٍ في "البوليتكنيك". أغلقت قاعة الانتظار الكبيرة المكيفة على حوالي ثلاثين متقدمٍ للهجرة، كلٌ يحمل أوراقه الثبوتية أو رسالة "مدعوكة"، بطاقةٌ منتهية الصلاحية بالإضافة لبيان راتب أو عقد يعود لأكثر من عشر سنوات وأحياناً لا شيء سوى الكلمات والحركات. يترافع جدٌ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

طاعنٌ بالسن عن قضيته متلعثماً وبرفقته حفيدتيه بعمر ١٠ و١٢ عاماً فابنته هناك في الطرف الآخر من تكساس وقد نسيت أبناءها، لابدّ أن يطمئن عليها، مجرد ذهاب وإياب حيث يترك لها الفتاتين فليس بمقدوره أن يقدم لهما قوت يومهما. يصغي إليه موظف الهجرة شارد الذهن والسأمٌ بادٍ عليه، تطفو نظراته بين الفينة والأخرى على الشارع في الخارج حيث تتقدم المركبات كحلقاتِ سلسلة، لعله يحلم أن يضغط أحدٌ ما على حين غرة على زرٍ يرفع جناحي هذا الجسر فتتكسر هذه التقنية من دون نهاية.

كل يوم وكل صباح تتلاطم الأمواج البشرية على الجدار البيتوني والأروقة والزجاج مضاد الرصاص والشمس. أُوصدت أبواب القاعات المبرَّدة بالمفتاح تراجعت الموجة خلفاً واختلطت مع زوابع من الحشود ودفقٍ من السيارات بحركاتٍ معطلة يتسلل بينها صبية الأزقة لبيع أعوادٍ الثقاب وأوراق اللعب والعلكة ومعجون الأسنان.

اصطحبت شاحنةٌ صغيرة مغطاة في الصباح قبل الساعة الخامسة كلٌ من باميلا وجوكان من زاوية شارع "مارشي" وجادة ١٦ أيلول. إنهما يتجهان الآن إلى الغرب في شارع "بالوماس" حتى بزوغ الفجر نظر جوكان إلى المشهد الرمادي من ثقوب الغطاء حيث كانت قمم الجبال تضيء كالمنارة، إنه مرجٌ مقفر تملأه أحراج الشوك. الشارع خالٍ من السيارات. فتتت الأمطار زفت الشوارع، فاخترقوا الغبار قبل "بالوماس"، علقت الشاحنة بفتحة في شعب الجبل في مجرى سيل بلا ماء. تنير الهضاب عن بعد بأشعة الشمس المشرقة. هاهي الحدود شبكٌ شاسع مستند على قواعد من الإسمنت المسلح. تشير لافتات من بعيد لشيء ما إلا أنها تحولت لمصفاة بطلقات المسدس. ساد الصمت في الأرجاء، نزلت باميلا من الشاحنة الصغيرة مع البقية لاهثةً وساقاها ترتعدان. سحبها جوكان من ذراعها بقسوةٍ تقريباً وقال: "هيا هلمي لا تتوقفي!".

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

المهرّب رجلٌ قصيرٌ وبدين يشبه باقي المهاجرين لكنه لا يحمل حقيبة. لا يحب أن يعرف اسمه أحد. حصل على المال قبل الرحيل، لفَّ الأوراق النقدية ودسها في مقدمة الشاحنة الصغيرة. يبدو لامبالاياً كما أنه لا يتكلم أبداً. لكن جوكان رأى مسدساً في جيبه مسدساً و لا يكف عن مراقبة المسافرين بطرف عينه. عند منتصف الهضبة تقريباً ثُقب الشبك الجميل وتمت تغطية الثقب بقماش من الشاميزال. تتلألأ الصحراء بقوة في الطرف المقابل للسياج وتُصبغ السماء بلون أزرق غامق مع بعض السحب التي خلفتها الطائرات المحلقة على ارتفاع ٣٠ ألف متر فوق الأرض.

عبر المهاجرون الواحد تلو الآخر من الثقب وهم يزحفون ووجوههم في الرمل ثم انبسط أمامهم دربٌ خالٍ تبعه ممر إلى شارع عريض لا يختلف كثيراً عن السحب التي خلفتها الطائرات في السماء. كلٌ ذهب بطريقه ليخففوا خطورة الإمساك بهم. تلك الأمسية، لدى هبوط الليل وصل جوكان وباميلا إلى الطرف الآخر من جبل "كريستو ري" المرتفع. كانا يتضوران جوعاً ويتحرقان عطشاً وقد غطاهما التراب. في "سانتا تيريزا" أعلى "ريو غراند"، تناهى لسمعهما نباح الكلاب. إنها مدينة بيوت متنقلة معطلة مترامية على التراب الجافة ومحاطة بالشبك على مقربة من مدفنٍ للسيارات على ضفة النهر المقابلة يعبر الطريق نحو الشمال. يسمع كلٌ من باميلا وجوكان من هنا حيث هما الصوت الغامض الذي تنفخه الريح ممتزجاً بالرمل والمطر.

كل شيء جاف رغم ذلك، الهواء جافٌ لدرجة أن تقطرت شفاههما دماً. يكادا يقضيان عطشاً فما شربا سوى الكوكا في سوق جوارس قبل أن يستقلا الشاحنة الصغيرة. استقبلهما رجلٌ في سانتا تيريزا وقدّم لهما الخبز والماء الدافئ. افترشا الأرض محتميان بألواح خشبية في طرف

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

المكان. لم يقل الرجل اسمه ولم يرغب أن يُدفع له المال. مع بزوغ فجر اليوم التالي، اصطحب اليافعين إلى محطة "غريهوند" في لاس كروس. تنحى جانباً حين اشترت باميلا بطاقتين إلى دينيفر و كولورادو.

عندما ركب الفتيان السيارة لم يومئ لهما بل عاد لسيارته. أسندت باميلا رأسها على كتف جوكان وغادر كلاهما نحو الشمال إلى قدرهما. مضت السيارة أسرع فأسرع في الشارع العريض الذي يخترق كبد الشتاء ثم اختفيا.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كيلوا (يتبع)

أنا بلقيس سوداءٌ من موزامبيق، لم أعد أذكر شيئاً عن حياتي الفائتة. هنا، أسماء ذوي البشرة السوداء مجهولة: بامبا، ماتوتا، دومينيغ هندية من لوغراند وبانغ من مدغشقر وليماهي ولاجوا وبونس وفينسين وكاساف وروز ابنة المارون. فايتون وإينوسان زيوبا من بونديشيري وجان غوي وأيضاً ماران وغالوب ولابري ولاغراسيوس. لم أعد أعلم شيئاً عن قريتي الأم. أسمع في الليل أحياناً أصواتاً تناديني بلغةٍ غريبةٍ وتغني بهمهمة صوت الرّق في بطن القارب. لم تكن تلك الأصوات آهات المجانين في المستشفى. أولئك المجانين الذين ما إن يصدروا ضجة كبيرة حتى يدخل الحراس إلى منزلهم ويمسكان باثنين منهما ويسوطاهما وسط الساحة فيطلقان صرخات كالكلاب، صرخاتٍ كحيوانٍ يذبح. كان الحراس يعرفون اسمي ويعرفون أيضاً أنني كنت في الجبل مع "راتسيتاتان Ratsitatane" الذي كان يتوجب على جيشه أن يلحق الدمار بالمدينة ويعتق كافة الرق، لذلك كانوا ينزلون بي عذاباً هائلاً وينسون أن يقدموا لي الطعام، يصفعونني وينقرونني بأصابعهم ويرشون علي مرق الحساء. قال لي أحدهم وهو طويل القامة شديد البنية، ذو بشرةٍ سوداء ولكن عيناه لامعتان مثل ذوي البشرة البيضاء: راتسيتاتان سيموت وستأتين لرؤيته حين يقطع رأسه وقال: سيتم حرقه بنار كبرى أمام السجن وسنرى إن كان حقاً كما يقول هو رسولٌ من الله.

كل يوم أرى لو كان بوسعي الهرب. أحلم أن أكون عصفوراً لأحلق عالياً في السماء وأحلم أن أكون قرداً فأعبر جدار المستشفى بثلاث قفزات. أحلم أن أدخل منزل الحاكم "فاركوهار" في القصر الذي اصطحبتني لرؤيته أليكس بسيارتها. سأعبر كل الأبواب، سأذهب إليه،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

سيسمح لي الحراس بالاقتراب وكأنني خفية أو كأنهم في خُدرة. سأمسك بين يدي القلادة السحرية التي منحني إياها زوجي. لن أتفوه بكلمة في وجهه فقط سأجثو على ركبتي وأمد له القلادة عندها سيكتب الحاكم رسالة لإطلاق سراح راتسيتاتان. لا أعرف إن كان سيطلق سراح باقي العبيد ويرسلهم بالقارب إلى غراند-تيير. شعرت بدموعي تسيل على وجنتي، لم أكن أبكي إلا في أحلامي، عندما فتحت عيني، انتصبت في وجهي جدران المهجع مع ما تنثره فتحةٌ في السقف من نور. أسمع أنفاس المرضى النائمين وهمهمة أصوات الرّق في قعر القارب. أحياناً أرى راتسيتاتان واقفاً أمامي وينظر إلي، نظرته حزينةٌ وبعيدة وكأنه قد لفظ أنفاسه الأخيرة. لم يعد يرتدي ثياب السجناء بل زي القائد بمعطفه الكبير من الصوف الأحمر والتاج الورقي الذي يزين هامته، صبغت الحرب وجهه بألوانها. يمسك بيمناه عصى من خشب الأبنوس، يتدلى من حزامه سكينٌ طويلٌ ويغني أهزوجةً غريبةً وحزينة، تارةً حادةً وتارةً بطيئة وخفيضة، تستجيب له الريح والغبار يلف في ساحة السجن. إن تابع غناءه ستغطي غيمةٌ كبيرة المدينة وستنتزع الريح سطوح المنازل، ستتقوض جدران المستشفى ويجتاح البحر شوارع الميناء ويطرد Wageni وذوي البشرة البيضاء من هذه الجزيرة حتى آخرهم. إنني أسمع صوته يغني وأشعر بالغضب الذي يلتهب في أحداقه. أشعر بحرارة جسده داخلي بقوة حتى تلألأ وجهي ويداي وبطني في عتمة المستشفى. أطلق أحياناً صرخةً قويةً فتضع نساء الحجرة أيديهن على فمي خوفاً من الحراس الذين قد يهمون بضربنا، أقول لهن: سيأتي سيعتقنا. إنهن لا يصدقن كلامي والضغينة تسبح في أحداقهن، يعلمن أن راتسيتاتان زوجي، يقلن بصوت منخفض: "سيموت، سيموت غداً يجب أن تريه يموت". كلا لقد عادً إلى الجبل ولمَّ شمل الرجال والنسوة، إنه يصلي ويقدم الأضحيات لتهبَّ الريح فيحررنا:

Moumé, Moumé yangu وازوجاه!

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بيان وليم ستون، الراهب الأكبر

الخامس عشر من نيسان ١٨٢٢ في الساعة الثالثة والنصف، رافقت انفصال الفوج ٥٢ تحت إمرة قائد الأركان "دارلينغ" بحضور الحاكم فخامة روبر توانساند فاركوهار لحضور تنفيذ حكم الإعدام الصادر من المحكمة ضد ذوي البشرة السوداء المتمردين "لاتوليب و كوتوفولو وقائدهم راتسيتاتان.

بعد تلاوة الحكم الصادر بالمذكورين السود، سيتم اقتيادهم بحراسةٍ مسلحة خشية ثورة الشعب ذوي البشرة الملونة حتى الوصول إلى المكان المذكور " لابلين فيرت أي السهل الأخضر". الحشود غفيرة قادمة من أقطاب المدينة البعيدة ومنهم رقٌ أو محررين كما من بينهم ذوي بشرة بيضاء. في التقاطع الكائن في "بلين فيرت" حيث يلتقي الطريق الآتي من الميناء والمتجه إلى "شوسي " نُصبت مشنقةٌ مصنوعة من ألواح خشبية على جذوع. سيسير المحكومون وسط المفرزة وهم يجرون الأصفاد التي توثق أيديهم وأرجلهم لذلك سيدوم الطريق الواصل بين تقاطع "بلين فيرت" والسجن لأكثر من خمس ساعات. سينفذ هناك حكم الإعدام بالمحكومين دون هوادة. أول من يعتلي منصة الإعدام هو القائد "راتسيتاتان" الذي يبدي شجاعةً كبيرة، لن يتفوه بكلمة بل سيلقي هو برأسه على السندان. يقوم جندي الحرس الأسود "بامبا أندريه" الذي تطوع بقطع رأسه بفأسه ولكن اضطر لتكرار العملية، رعونةً أو خوفاً، ثلاث مرات قبل أن يتدحرج رأس راتسيتاتان على الأرض. سيلقى كلٌ من "لاتوليب وكوتوفولو" المصير نفسه ولكن بمهارة أكبر، ثم توضع الجثامين في طنبر ليتم دفنها في مكانٍ سري على مقربة من مقبرة Cassis. أما الرؤوس، حسب أوامر الحاكم فاركوهار، تعلق على طرف

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

رمحٍ قصيرٍ في جبل "بوس" حيث رأى سكان الميناء النسيج الذي ربطه "لايزاف" كإشارةٍ ليدل على تجمهر المتمردين. يبقى النصب الجنائزي هذا لعدة أيام، لكن في صباح اليوم التالي اختفى رأس راتسيتاتان، قيل أن المارون الهاربين من هجمة ٢٠ شباط هم من أخذوا الرأس للقيام بمعجزة و لإضرام فتيل ثوراتٍ أخرى. بيد أني سمعت أن رجال "لايزاف" هم من قاموا بسرقته و بيعه لصاحب متجرٍ انكليزي يدعى " ريتشارد موريس" ليحنطه و يحتفظ به بالكحول ضمن مجموعة الغرائب النادرة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

اسمي كيامبي، هي التي خُلقت لتكون ابنة المحارب اسكاري وملايكة. استعدت اسمي وأسماء أولئك الذين يعيشون داخلي لكنهم ربما لاقوا حتفهم: عمي "مجومبا" صياد الليوث وأخي "ندجو" وكل تلك الأسماء التي عاشت داخلي والتي ما فارقتني أبداً "موشي، مكالامو، سينجيدا، أوزوري، موتو، نزيج، مبو". أحمل في أحشائي حرارة " راتسيتاتان" كل يوم وكل ليلة منذ رحيله. ترى أين هو الآن؟ أحياناً أشعر بالألم، أخاف ألا يعود. عندما خرجت من المستشفى، سجل الطبيب "هاسكينس" اسمي على السجلات وأعتقني من أجل الطفل الذي أحمله في أحشائي ليولد حراً. لكنه لم يكن يعرف أنه ابن راتسيتاتان. إنه سرٌ لم أبح به لأحد. أعطاني الطبيب كوخاً صغيراً عند مدخل حديقة المستشفى فليس لدي مكانٌ أتوجه إليه. مجرد أربع جدران من الألواح الخشبية وسقف من ورق لكنها المرة الأولى التي أويت فيها لمنزلٍ خاصٍ بي. قمت بتنظيف ممرات الحديقة لدفع الأجرة وكذلك جمعت الأعشاب الصافرة وباقي الأعشاب الضارة وأحرقتها في الساحة، كما أحمل الطعام إلى المرضى في جناح المجانين وأشاركهم هذا الطعام. ولكن لم أعد إلى السجن فها قد أصبحت حرة، كما قال لي الطبيب "هاسكينس" أنني لم أعد ملكاً لأحد. مازلت أحتفظ بقلادة خشب العنب الأسود التي منحني إياها " راتسيتاتان" قبل رحيله، لم أنزعها أبداً حتى حين أخلد للنوم. في الليل، أمسك القلادة بين يدي وأرى وجه زوجي الذي ينظر نحوي. لا يتكلم، نظرته تائهةٌ وحزينة لكنني أشعر بحرارته في أحشائي وكأنني في الكهف حيث نمت بجواره. أحياناً أشعر بحركات ابني في بطني وأتمنى لو كان راتسيتاتان هنا ليضع يديه ويتحسس رفسات الجنين. لعله سيأتي حين يرى الطفل النور.

في يومٍ من ذات الأيام قال لي مساعد الطبيب أن راتسيتاتان قد لقي مصرعه وأن رأسه قد قطع على الملأ في ساحة المدينة على مرأى من كل

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الرقيق. إلا أنني ابتسمت لأنه مخطئ فلا يمكن لراتسيتاتان أن يموت وفي أحشائي يتحرك هذا الطفل الصغير لتكبر حرارته في داخلي كل ليلة، وينتفخ نهداي بالحليب الذي سيرضعه الطفل. كيف سيحدث كل هذا لو أن راتسيتاتان قد مات؟ ليس هو من قُتل، مازال راتسيتاتان مختبئاً في الجبل. عندما سيرى الطفل النور ويصبح في عمرٍ مناسب سأصطحبه إلى الجبل وأضعه على صخرةٍ في وضح النهار، سيبعد راتسيتاتان الحراج ويأتي لرؤية الطفل ويأخذه ليقدمه لإله السماء، إله الريح وسيعطيه اسماً.

مرّت الفصول وعادت الأمطار مجدداً. سيولد الطفل عما قريب، أشعر بحياته التي تستعد للخروج وأشعر بيديه وقدميه الذين يصطدمون بجلد بطني. لدى بزوغ فجرٍ في صباحٍ ما، بينما كنت أغلي الماء لأصنع الشاي، شعرت بفراغٍ كبيرٍ يجتاحني فصرخت ألماً، ثم عضضت على أسناني لئلا أصرخ فكم اعتدت الصمت، علّقت الغطاء على الباب وبرمته ليصبح حبلاً. تذكرت "ملايكة" والدتي حين ولد أخي الصغير، لقد صنعت حبلاً بثوبها ثم جلست على كعبيها وتمسكت بالحبل وباعدت ركبتيها..

أذكر الآن أنها غنت أغنية ليولد الطفل، إن صوتها الآن يغني بحنجرتي حاداً مهشماً من الألم ومن الفرح بآن واحد. ألتقط أنفاسي ما بين كل أغنية حتى ارتمى الطفل على الأرض مع المشيمة والدم ثم قطعت حبل السرة بأسنانها وغسلت الطفل ثم افترشت الأرض ممددة على بطنها مع الطفل دون حراك حتى ظننت أنها ماتت فأجهشت بالبكاء.

ولدت "مويو" بعد الظهر قبل حلول الليل، سميتها مويو "مويانغو" أي "قلبي" تيمناً بتلك الأغنية التي غنتها لي والدتي منذ زمنٍ بعيد.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لم تولد "مويو" بيسرٍ كبير كأخي الصغير، لقد مزقتني لدى ولادتها ولعلي قضيت ألماً لولا أن قدمت لي العجوز "جاجا" يد العون، هي الطاهية في المستشفى وأتت لمساعدتي فهي من ضغطت على بطني وسقتني شراباً من أعشاب مرة تعرفها حتى يفتح بطني. ظلت بجواري طيلة الصباح وبعد الظهر حتى حلول المساء، هي من قامت بغسل مويو عندما ولدت ولفتها بنسيج نظيف وقالت إنها ابنتك وحفيدتي الآن. ثم قالت: ليس لديها أبٌ ولكن لديها أمَّان. وعندما سألتني العجوز عن اسم ابنتي قلت مويو. لكنها رغبت باسم آخر وقالت: ابنتك هذه ستدعى "زيلي". إذاً صار اسمها زيلي بالنسبة للجميع أما بالنسبة لي ولزوجي فهي مويو. أعرف أن يوماً ما سيعود راتسيتاتان وسيعرف اسمها ويصطحبنا بأسمائنا الحقيقية على متن قارب كبير إلى غراند-تير.

أنا فيوليت، أسودٌ من موزمبيق من سجناء الأشغال الشاقة. منذ أن قبض علينا مطاردو المارون في الجبل وأنا أنظر إلى الأعلى نحو قمة جبل "بوس" كما لو أني سأرى مجدداً الدخان والإشارات التي تعلن عودة راتسيتاتان ليحرر كافة الرِّق. قال الجميع أنه قد مات لكنه سيعود إلى الحياة لأنه يعرف أسرار إله الأرض الكبرى.

يفتح الحراس كل صباح شباك السجن الحديدية ونتقدم اثنان اثنان لتوثق أغلالنا ونقرن بالنير كالجواميس لجر العربات في شوارع الميناء. نتقدم ببطء عبر المدينة ويبتعد الناس عن طريقنا حتى ذوي البشرة السوداء الأحرار والرِّق لأننا قذرون وملاعين كالبرص. لم أكن أعرف أسماء أولئك الذين قُرنت معهم، فليس لأحدٍ اسم هنا. إننا عراة وشكّل الطين والبراز قشرةً جافة لا تنقشر. عندما وصلنا إلى ساحة " آرم أي السلاح " قرب "كودان "خبأت النسوة وجههن خوفاً وقرفاً، ترصدنا الأطفال خلف الأشجار وهم يطلقون صفيراً ويرموننا بالحجارة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ضاحكين. تنهش سياط الحراس مناكبنا، نركض بشكل أسرع مقرنين بأصفاد أدمت ظهورنا. يتصبب العرق على أعيننا ووجوهنا لكنه لا يخلف ثلوماً على الدرن الذي يغطينا. عندما وصلنا إلى الحفرة الكبرى قرب البحر حلّ الحراس النير الذي يطوق أعناقنا وبقيت الأغلال توثقنا اثنين اثنين. تكابد الشمس في الولوج لأعماق الخندق، فوقنا يوجد قوسٌ من الآجر وهناك بعيداً نافذةٌ يتسلل منها شعاع نور. ننغرز في الوحل الدافء حتى الحوض ثم نغرف بدلاء ونسكبها في قواديس دوّارة تخرج الطين إلى سطح الأرض. لا نتكلم بل ليس بوسعنا فتح أفواهنا بسبب الرائحة المنبعثة. نتقدم في الخندق تحسساً لجرف الوحل من قعر القناة أبعد فأبعد، من عُلِّق بسلسلتي رجلٌ عجوزٌ وهزيل، يتعثر أحياناً في الوحل فأسمع أنفاسه التي تعاني، أقاوم وأسحبه بالسلسلة لكي ينهض فلو وقعنا كلانا للقينا حتفنا. لو مات سأحاول سحبه إلى السلم حيث سيفتح أحد الحراس قفل السلسلة، بيد أن العجوز لا يستسلم للموت إذ يتوصل إلى الصعود إلى السطح بعد انتهاء العمل. ثم نركض مجدداً في الشوارع مربوطين بالنير لنصب ما في الطنبر في البحر عند مصب النهر. صار جلدنا لامعاً وأسوداً كالإنقليس الخارج من النهر بسبب الوحل الرطب. لو مات العجوز لرموا جثته في وحل الطنبر ويشدُ وثاقي مع آخر فنحن دائماً مقرنين اثنين اثنين كجواميس المحرات.

نعود إلى السجن مع رحيل النهار، ظهورنا للشمس. يلوح في طرف الشارع، فوق المنازل، الجبل المتلألأ بأحضان الشمس الغاربة لينثر بقعةً كبيرة من النور أرى فيها كل شجرة وكل صخرة وكل مخبأ كنت فيها فيما مضى مع راتسيتاتان. لم أعد أشعر بسياط الحوذي التي تنهش ظهري ولم أعد أسمع ضحكات الأطفال وشتائم الرجال حتى أنني لم أعد أرى النساء الجميلات اللائي يغطين وجوههن خلف مظلاتهن.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أركض، يخيل إليَّ أني أسمع الطبول التي يدفئها المحاربون في طرف الغابة حيث نصب راتسيتاتان مخيمه لقضاء الليل، أستنشق العبق الذي تنثره النيران التي أضرموها بين الصخور ليعلنوا للرّق أن ساعة الخلاص باتت وشيكة. أسمع صوت الكاهن الذي ضحى بجدي على حجرٍ مسطح ورمى الدم في وجه الرياح الأربع حتى يقدم لنا إله العواصف العون فيحملنا إلى أرض أجدادنا.

نصل لاحقاً أمام الشباك الحديدية وندخل اثنان اثنان تحت القبة السوداء. نتناول الطعام ونفترش الأرض كالحيوانات دون أن ننبس ببنت شفة. لا تفارقنا روائح المياه الآسنة، نغفو قرب الجدران في غلافٍ من وحلٍ. هنا حيث نحن قابعون حتى الأحلام لا تحمل إلينا البشرى.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

هبّت العاصفة التي بشّر بها كاهن راتسيتاتان بعد سنتين بالضبط من وفاته في ليل ٢٢ و٢٣ شباط من ١٨٢٤ . في البدء كان هناك ريحٌ قوية والتي يبدو أنها سحبت قوة هبةَ ريحٍ حقيقية. عند مطلع فجر الثالث والعشرين من شباط أشار مقياس الضغط الجوي إلى ٢٨ بوصة مما ينبه بحلول العاصفة، مع أن السماء صافيةٌ تماماً لا تتخللها سحب الغيوم. هبط مؤشر مقياس الضغط بعد الظهر أيضاً مع ذبذبة تشير لاضطرابٍ شديد في الجو ثم تدافعت الغيوم بلونٍ كالحبر في السماء. أشار مقياس الضغط الجوي لـ٢٦ بوصة، ٩ خطوط و٩٠ سنتيم على الشاطئ الغربي، قرأتُ على مقياس الضغط الجوي في أحد المتاجر في ميناء لويس ٢٦ بوصة، عشرة خطوط و٣٠ سنتيم من درجات Réaumur بالقياس الإنكليزي ٢٠ بوصة سبعة خطوط وسنتيم.

اجتاح عمود الماء[1] الجزيرة حوالي الساعة الرابعة وفق خطٍ مستقيم يعبر من مخيم "ديلورت" في الثانوية الملكية ويتجه نحو أعالي جبل "بوس". رُميت الطوابق الخشبية وتقوضت بعض الجدران. جُرح رأس الأستاذ " بيرتان" بإحدى الدعائم وشارف على الموت. أما مدير الثانوية السيد "كودراي" فقد نجح برباطة جأشٍ من جمع ٤٤ طالباً وإيصالهم لمكانٍ آمن.

على طول خط عمود الماء في المدينة تدمرت المنازل الخشبية وتقوّضت الأبنية الحجرية. دبّ الخراب في مخيم "ديلورت" حيث اجتمع جيوش جنود "أوريو" قبل الهجوم على العبيد المارون التابعين لراتسيتاتان، دُمرت المنازل أو تبعثرت واقتلعت الأشجار وانتزعت مساكب قصب السكر والقرنفل وحصدت أرواح الكثير من السكان ذوي البشرة البيضاء كما من الخلاسيين وذوي البشرة السوداء.

---

(1) - عمود الماء: إعصارٌ من أوقيانوس يتخذ شكل كتلة هواء مدومة ويبدو أشبه بعمود مائي صلب ينطح السحب.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

اندلعت الحرائق في المدينة لكن العاصفة حالت دون إخمادها على محمل السرعة. فشاع بين الرّق وذوي البشرة الملونة أن روح راتسيتاتان قد عادت لتأخذ بثأرها فلاذ الكثير منهم إلى الجبل ليعلنوا الحرب من جديد. وظلوا مرابطين هناك حتى تحسنت ظروف معيشتهم أي في السنة التالية حيث تم إبطال العبودية بقرارٍ سنته الحكومة الإنكليزية كما وعدهم راتسيتاتان قبل أن يوارى الثرى.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ماري آن ناور

تركنا كل شيء خلف ظهرنا في إيبين. إذا حاولتُ معرفة سبب مغادرتنا لفكرتُ أولاً بالعاصفة الهوجاء التي ضربت في شباط من عام ١٨٢٤ . غيّرت هذه العاصفة مجرى حياتنا ،لم تكن الخسارات المادية هي الدافع طال الأذى مستودعات الميناء إلا أننا لم نحصد سوى القليل من الخسارات. لم يتعرض أي قاربٍ ذي أهمية للغرق باستثناء جرّافة البحرية الملكية Delight. لحسن الحظ تمكنت ناقلة البريد التي كادت تقترب من الميناء من تغيير مسارها نحو مستعمرة رأس الرجاء الصالح وهكذا وصلت البضائع على متنها سالمة.

بفضل الله تعالى، راعى الفيضان منزلنا في شارع موكا وقاومت جدرانه الحجرية وسطحه القرميدي عنف الرياح الضاربة، وبقينا نحن وأبناؤنا في مأمنٍ من الخطر. لكن عمّ الخراب كل مكانٍ في الخارج وخاصة في الأحياء الغربية التي يسكنها الخلاسيين وحصدت العاصفة أرواحاً كثيرة. أما أنا فتلقيت هذه العاصفة كإشارة إلهية لمغادرة هذه المدينة. لطالما كرهت هذا الميناء الذي أصبح على مر السنين رمزاً لقسوة وأنانية غالبية السكان هنا.

كنت أنا وأبنائي شهوداً ولعدة مرات حين اصطحبهم إلى المدينة، على مشاهد ظلمٍ وسوء معاملة بعض السكان للناس من ذوي البشرة الملونة، رغم الأوامر التي أصدرها الحاكم " فاركوهار"، إلا أننا كثيراً ماصادفنا في طريقنا أرتالاً من الرِّق موثقين بسلاسل قاسية أو مصفدين بالأغلال حتى النساء. لم يلغَ العقاب على الملأ كما سنّ القانون إذ رأيت نسوة يتم سوطهن بالساحة لسرقة أشياء بسيطة ومنهن من علّقن بجذوع أشجار أمام منازل أسيادهن وبقين في وجه الشمس لأيام. كم صادفنا في الصباح أرتال المحكومين بالأشغال الشاقة وهم يتوجهون لتنظيف

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

المجـرور الكـبير. حطـوا بالرجـال إلى درك الحيوانـات عـراة تغطـي أجـسادهم الجـراح والقـذارات وقرنـوا بعربـات كـالبعير. وعنـدما يـثير سـخطي هـذا السلوك أجـرُ علـى نفسي سـخريةً نساء الطبقة المخملية اللـواتي يقلـن لي: "مـاذا؟ أتـدعين لمـساواتنا بتلـك الأشـكال ذات الأرواح والبشرة السوداء؟"

حتى جان، أثارت هـذه المعاملة سـخطه وقـال: أمـن أجل هـذا قاتلت علـى الحـدود ضـد الطغيـان باسـم الجمهوريـة؟ لكـي يمحـي الطاغيـة بونابرت بـشخطة قلـم مرسـوم "المؤتمر القـومي" الـذي ألغـى العبوديـة في كل امتداد المستعمرات الفرنسية؟ من أجل رجالٍ عديمي الذمة. اسـتغلوا تصريح الصيد الليلي الذي سُنّ بعد هبـوب العاصفة ليبحـرون بالخفاء من خلجان الجزيرة مع أعدادٍ من العبيد ليبيعهم للمالكين الأثرياء؟

لطالما حدثني عن المرتفعات الداخليـة التي زارهـا مـع البـائس "لـويس بيللـوتير": الوديـان الخـصبة والجبـال المغطـاة بأشـجار التـوت الأسـود والأبنوس وجداول المياه الرقراقة التي تسيل كشلالات متدفقة.

وهكذا نبتت في أذهاننا فكرة مغادرة الميناء والإقامة في الداخل، نـبني مملكتنا الخاصة ونحيا فيها مع أبنائنا بعيداً عـن الفساد والظلـم. أطلنـا النقاش بالأمر وكان بالنسبة إلينا رحيلٌ لمرة ثانية نبتعد فيـه أكثـر فـأكثر عن موطننا "بروتاني". لم تعد تصلنا أخبارٌ كالمعتاد ولم نعد نسمع جديد المسافرين القادمين حديثاً ولم نعد نرى صوارياً تلوح بالأفق.

حاول ميرفان ثني عزيمتنا قـائلاً لجـان: أتخـشى أن تقـع فريـسة بيـد المـارون؟ فأجـاب جـان: ولم يهاجموننـا ونحـن نعـيش بعيـداً عـن العبوديـة متـصالحين مـع ضـمائرنا. لـو هـاجم المـارون لـدمروا هـذه المدينـة كمـا حاولوا أن يفعلوا سابقاً وكما فعلوا في "سانت دومينيغ".

قـرر جـان شـراء الأرض المحتكـرة الـتي تـصل حتـى الجبـل في مكـانٍ يـدعى "إيـبين" لنـستثمر مافيـه مـن أشـجار غنيـة أشـجار العنـب الأسـود

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وصمغ البطم والأبنوس. وهكذا شُيّد المنزل وأعطيناه اسم القارب الذي حملنا إلى آخر العالم "روزيليس".

عقدنا قبل الرحيل آخر اجتماع احتفالي في منزل "الميناء". عندما تحدثت إلى جان بالأمر ابتسم لكنه قبل نزولاً عند رغباتي. اجتمعنا حول المائدة الكبيرة في حين عيل صبر البغال في الشارع مكدنة بالعربة المحملة بمعظمها. ثم بدأنا بتحرير الوثيقة التي تسجل رحيلنا إلى مقرنا الجديد. قام ابننا البكر جان بول المكلّف بالدراسة في " سلافات" بتحرير النص وفحواه:

تصريح

نحن الموقعين أدناه،

- جان أود مارو، عمر ٥١ عام، مواليد: رونيلو موربيهان. العمل: مقاول.
- ماري آن ناور، عمر ٤٩ عام، مواليد: رونيلو، لا مهنة. زوجته.
- جان أوجيني، ٣٠ سنة، مواليد: موربيهان لوريان.
- جان بول، ٢٣ سنة، إدوارد ٢١ ولوسي ١٩ وأبنائهم مواليد: الميناء الشمالي الغربي في إيل دو فرانس.

اتفقنا على ما يلي:

سيتم تشييد منزل أطلقنا عليه اسم روزيليس على الأرض التي احتكرتها المفوضية في سهول "ويلهيلم" المشتركة برئاسة " شازال وبوجيديست أندري" والمسموح بها بقرار من الحاكم السيد "روبرت فاركوهار".

المادة ١ — سيبقى المنزل المذكور غير قابل للتقسيم بين الورثة ويكلفون بتقسيم تكاليف البناء والصيانة كلٌ بحسب إمكانيته.

المادة ٢ — سيقوم العمل في المنزل على زراعة النباتات المثمرة ويتم توزيع الفاكهة بالتساوي على كافة الأعضاء.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يكرس القسم الشمالي الغربي والجنوبي الشرقي من الأرض المذكورة للانتفاع من الغابة. ستجلب غراس الأبنوس من إفريقيا لتحسين الغابة الحالية، كذلك بعض الأنواع التي يمكنها التأقلم مع الجو في الهند الشرقية والغربية: الكاجو والمكاسار[1] وجوز الهند والناصري والأرز المر والبلساندر[2] الخ..

ستبنى منشرة على ضفة نهر "تير روج أي الأرض الحمراء" يقسم نتاج بيع الخشب على كافة الأعضاء.

المادة ٣ — ستبقى العبودية ممنوعة في كل ملك روزيليس وكذلك كل الأعمال الشاقة. كما يمنع عمل المحكومين بالأعمال الشاقة والمجرمين الهنود.

المادة ٤ — الهدف الأول من بناء هذا المنزل هو إحلال التناغم الطبيعي ومبادئ الحرية والمساواة ولن يقبل أي سلوك مغاير وخاصة فيما يتعلق بالمزارعين والعمال. كل من يخل بمبادئ محاصصة العائدات وحرية العمل سيتم طرده وتوزيع حصته على البقية.

المادة ٥ — أخيراً، تخصص حصة من الأرباح سنوياً كصدقة للسكان المجاورين. ويخصص جزء آخر لإنشاء وبناء مدرسة لذوي البشرة الملونة على نمط تلك التي تم بناؤها في الميناء الشمالي الغربي.

تم في إيبين

حي "سهول ويلهيلم"

٢٥ نيسان ١٨٢٥

---

(1) – المكاسار: خشب أبنوس أسمر مضلع بالأسود موطنه في مكان يحمل نفس الاسم في جزيرة سيليب.

(2) – البلساندر: خشب فاخر بنفسجي اللون.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وهكذا بعد إمهار تواقيعنا أسفل الصفحة، في صباحٍ خلاب من نيسان ١٨٢٥، سلكنا الطريق المحاذي للنهر الشمالي الغربي نحو"سهول ويلهيلم" حاملين أمتعتنا ومؤونتنا وكل ما قد نحتاج إليه. كنت في العربة مع "جان أوجيني ولوسي" والحوذي "كابور" أما جان وابنينا فامتطوا صهوة الخيل وظلوا على مقربةٍ منا غطى التراب الدرب وارتفع ببطء نحو الأراضي المرتفعة حيث تنتظرنا حياة جديدة. رغم الخوف الذي يساورني، أحلف أنني لم أستدر ولو لمرة واحدة لإلقاء نظرةٍ أخيرة على خليج "بور" حيث أقمنا زهاء ٣٠ عاماً، شقت العربة طريقها في أحضان الغابة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

العودة إلى إيبين

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كان كل شيء عادياً في باريس، عادي جداً، خلفت العاصفة بعض الآثار المرئية، نوافذ متهشمة وأشجار مجتثة تقريباً في شارع سان جيرمان وضربات على الباب الحديدي " فوشون" في ساحة "مادولينو" وآثار سوداء على الجدران في "بورس" بمحاذاة الوزارات. كما توزعت جماعاتٌ من الطلاب في الشوارع هنا وهناك قرب المدارس والجامعات، تجمعوا ليتجاذبوا أطراف الحديث والاستذكار كعصافير تنقر البقايا. اتجه ديغول إلى بادين – بادين، طرح مشكلته وأدار ظهره للجميع[1]. سلوكٌ من الكبرياء يستحق الإجلال. أخيراً انتهى العيد وعاد كل شيء كسابق عهده.

التقى جان بمالاتيستا صدفةً في ساحة بانتيون، صافحه بحرارة إحياء لذكرى أيام دروس الفلسفة في الثانوية. بعد بعض الأحاديث السخيفة فيما يتعلق بمدرسة "نورمال" حيث دخل في السنة الثانية. ثم سحب جان إلى المقهى بشكل سري وقال: "ما سأقول لا يقال في الشارع".

سأله وأمامه فنجانٌ من القشدة: أين كنت في شهر أيار؟" أجاب جان بنبرةٍ ساخرة: "أنا كنت على أحد شواطئ المكسيك، لمَ تسأل؟"

يضجُ مالاتيستا بالمشاريع، يبدو العالم في عينيه أفضل وأكثر حريةً بل مليئاً بالمعاني.

-: "يصعب عليك معرفة ما جرى هنا، إنه تمثيل نفساني حقيقي، كم كان ممتعاً تفريغ كل شيء".

كان يتحدث بلهجة غامضة حتى أنه عهد إليه بسرٍ هكذا ربما لأول عابرٍ وكأنه شارك في صلوات الأب "بلاسما": "انتسبت للحزب إنهم يعهدون إلي الآن بمهام. مثلاً: علي كتابة الخطاب القادم لرجلٍ مهم ربما الوزير القادم".

---

(1) – ٢٩ أيار ١٩٦٨ اتجه الجنرال ديغول إلى بادن – بادن وهي مدينة ألمانية ليؤكد إخلاص الجيش أثناء الهدنة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تظاهر جان بالدهشة وقال: "حقاً؟ الوزير القادم؟ ألا يكتب خطاباته بنفسه؟" يدخن مالاتيستا سيجارة تلو السيجارة حتى أصبحت أنفاسه نتنة: "بالنهاية، إنك لم تدرك بعد! عندما تمتهن السياسة لا يعد لديك متسع من الوقت، ثم إنه عملٌ سام، لا يتعلق بالفرد فقط، إنها حركة عامة إنه التيار الجارف". يبدو أنه أعجب بالعبارة، هزَّ رأسه وكرر: "إنها التيار الجارف، هل تفهم؟"

الناس في ذهابٍ وإياب في الساحة، كان هناك حواجزُ هنا دون شك ولكن رُمم البلاط. تلاشت الشعارات دون أن تترك صدى وتلطخت الجدران بالإعلانات القديمة الممزقة ولعل الطلاب احتلوا حتى ساحة "بانتيون".

والآن الناس في ذهابٍ وإياب، يدخنون والشباب يتحدثون مع الفتيات ليغرقن بموجاتٍ من الضحك، تزدحم السيارات في الشارع العريض حتى تكاد تتلامس. سيحل الشتاء عما قريب هنا. إنها تمطر، رأى جان الدماء التي تدفقت في تلاتيلولكو في ساحة "ترواكولتور"، مازال يسمع أزيز الحوامة التي حلقت فوق مستعمرة غريرو تلك الأمسية. فكر بجوكان وباميلا التائهان في ساحة "تيانغوسيتينغو" في ولاية واشنطن. فكر بساحة "تيانغيستينغو" حين اجتاح الليل. في المساء، السماء خلف سطوح القرميد ونشر الدخان في شوارع المنحدر، والرجل المسن "دون بيدرو أولغان" جالساً على الحجر أمام منزله الطيني، متدثراً بغطائه ذي النقوش الأزتيكية، معتمراً قبعته الدافئة. رغب جان بالتسلية قبل أن يترك مالاتيستا لمشاريعه السلطوية، فتظاهر بدوره بالغموض وقرّب كرسيه وقال بصوتٍ خافت كمن يريد البوح بسرٍ خطير، سأله: "هل ترى كل أولئك الناس الذين يسيرون في الخارج"، أومأ مالاتيستا موافقاً برأسه.

- "حسناً سأقول لك، جميعهم يمثلون، يعطون لأنفسهم أهمية، يتأبطون محافظهم وملفاتهم، تطقطق النسوة بكعب أحذيتهن ويتأبطن

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

حقائبهن ويرفعن معاصمهن عصبية لمعرفة الساعة... كل ذلك صدقني مجرد خداع". نظر مالاتيستا إلى جان فاغر الفم، تابع جان بصوتٍ خفيضٍ:

- "هل أعطيك الدليل؟ كل من تراه عينيك يختفي مع الطقس البارد جداً شتاء والحار جداً صيفاً. سيفعلون مثلنا، سيدخلون إلى المقاهي، لن يسيروا في الخارج".

لاح طيفُ معاناة على ملامح مالاتيستا وقال:

- هل تهزأ مني أو ماذا؟

هزَّ جان رأسه ثم صافح مالاتيستا وأضاف:

"هاهو الدليل، فكّر بالأمر". ثم ولّى دبره راكضاً.

بعد لحظة، بينما كان يعبر بين الحشود في "بول ميش" حتى انتبه أنه لم يدفع حساب مشروبه، فهزَّ كتفيه وقال بصوتٍ مرتفع: "سيعلمه هذا قراءة سيلين Celine". [1]

تقيم مريم في غرفة صغيرة في المدينة الجامعية في الجناح الافريقي وسط الأشجار. عندما ذهب جان لرؤية والديه، وجد رسالةً مكتوبةً بخط يدها المنتظم. كلماتٌ مباشرة لا تصنّع فيها كان لها أثرٌ جميلٌ في نفسه: "أرغب برؤيتك". دونت بالأسفل رقم هاتفها في المدينة في باريس. استقل جان القطار متوجهاً إليها في المساء نفسه.

كم تغيرت مريم خلال طيلة ذاك الوقت. لم تعد تلك الفتاة الخجولة والقلقة التي هام برفقتها لفصلٍ كامل حول المطار. لقد كبرت ونقص وزنها دون شك. إنها ترتدي الآن حسب آخر صيحات الموضة، كنزة سوداء بقبة ٧ وبنطال جينز بأرجل وسيعة من الأعلى للأسفل. قصَّت شعرها الكثيف وتزينت بقرط ذهبي على شكل هلالٍ يتدلى من شحمة أذنها.

---

(1) - لويس فيرديناند سيلين Céline ١٨٩٤ - ١٩٦١ طبيب وكاتب فرنسي ذائع الصيت بكتاباته اللاذعة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

سارا خبط عشواء حول المدينة الجامعية، ودَّ جان لو يعود كل شيء كالسابق وكأنه قد ودّعها أمس ولم يفصل بينهما الزمن. دارت بينهما أحاديث سطحية لا قيمة لها عن الأفلام والكتب ودروس علم النفس التي تحضرها مريم في السوربون. أخبرته أنها شاركت بتعليم الرقص أيضاً. وقع والدها بالتبني السيد "مانسيت" بشرك المرض وهذا أمرٌ يقضُ مضجعها أما والدتها "لو" فعاودت دروس التمريض.

كونت مريم صداقات باتت تخرج كثيراً. انضمت في شاموني[1] لمجموعة تقوم بتسلق الجبال وتخطط لتسلق جبل نيبال[2]وهبوط قمة إيفرست. علَّقت على أحد جدران غرفتها الصغيرة في المدينة خريطةً كبيرة أُشير فيها لكل دربٍ ولكل قمة.

تكاد تكون المدينة فارغة، فغالبية الطلاب قد غادروا في إجازة "عيد جميع القديسين" لزيارة أهاليهم أو أصدقائهم. نال التعب من جان بعد أن أمضى ليلته محدباً في مقعد في القطار، أرسلته مريم ليستحم في صالة كبيرة مبلَّطة تضم حُجراً لا أبواب لها. هنا حمام الفتيات ولكن هناك شاب يغتسل هنا، غير آبهٍ، جسده مغطى بطبقةٍ من الشعر الأسود.

شرحت له مريم أنه: "عادة ما توضع إشارة فإذا كان بنطالاً لا تدخل الفتيات وإن كان صداراً أو حذاء نسائياً ينتظر الشبان في الخارج". تأثر جان برؤية مريم وقد أصبحت طالبة وتستخدم المصطلحات اللازمة بثقةٍ واضحة.

يلف الليل باريس سريعاً في شهر تشرين الثاني. أمضيا وقتاً طويلاً في الغرفة الصغيرة دون أن يتفوها بكلمة. شعرت مريم بالجوع فقشرت

---

(1) – شاموني: مدينة جنوب شرق فرنسا حيث قمة "مون بلان" جبال الألب بين الحدود السويسرية والإيطالية والفرنسية.

(2) – Népal نيبال: جنوب آسيا، الجمهورية الديمقراطية الفيدرالية.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تفاحة وفتتت حب عنقود عنب في كأس أما جان ففتح علبة من شرائح الأناناس، ما تناول منذ زمنٍ بعيد ما يضاهي هذه اللذة.

بلحظة قالت مريم: "حسناً إنني مرهقة سأخلد للنوم، هل ترغب؟"

خلعت ملابسها متدثرةً بالعتمة، يتسلل وميض المصابيح من النوافذ ذات المزلاق. "لحسن الحظ لا يسكن أحد بالمقابل، ليس هناك سوى الأشجار لذلك لا أسبل الستائر أبداً". ضحك جان وقال: "أذكر أنك لا تحبين عتمة الليل".

- "من الممتع العيش مع ضوء النهار في الخارج أما في الليل فأحب ضوء المصابيح، إنه شعور لطيف باردٌ قليلاً. والصباح بوابة من اللؤلؤ تتقطر على النوافذ". شعر جان بجدارٍ خفي يفصل بينهما، لعل الزمن هو من بناه. لن تكون علاقتهما بالبساطة التي كانت عليها. خلع بدوره ملابسه بعصبيةٍ وترك ملابسه على الأرض قرب السرير واندس مرتجفاً بين الأغطية، يا للسرير الناعم! سريرٌ قصير، ضيق بعض الشيء، ثم للتو شعر بجسد مريم يلامس حوضه. تلاشى الجدار الخفي.

ربما هي من بدأت بمداعبته أولاً، داعبت جسده من الأعلى إلى الأسفل وأطالت أسفل البطن على الجانبين حيث يرقّ جلد المرء ونشعر بنبض الشرايين. فجأة عاد الحب يسيراً، الرغبة والجسدين الذين يمتزجان ليصبحا قلباً واحداً وأنفاساً واحدة ونظرة واحدة. استمتعت مريم كالسابق برؤية بؤبؤ العين الذي يحتل الساحة حين تلامس ذروة اللسان قوس الحلق فيجهل جان إن كانت هي فيه أم هو فيها. لا شيء آخر، لا شيء حولهما بعيداً عن المدينة، تاركين كل شيء، يذهبان بعيداً يعومان، يحلّقان أو يحلمان. لقد مرَّ زمن طويل، ظن أنه بات مستحيلاً كما يروى أن التاريخ لا يعيد نفسه وما انتهى لا يعود مجدداً. كما قال بارميندس:

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كل شيء واحد من حيث أبدأ لأني سوف أعود إلى المكان نفسه.

وهيراقليطس. ولكن هل هي اللحظة المناسبة للفلسفة؟

يخفق القلب وتضيق الأنفاس وتعمى الأبصار ويسيل العرق على الظهر ليجمع جسدان ويصقل النهدين والكتفين فيلمعان كحصى الشاطئ بين الأمواج ويلمع السران سر الرجل وسر المرأة، يشعان نوراً ويلتهبان بنار ولكن لا ترى العين هذا النور ولا تلك النار، ولا تستلم عتمة الغرفة لهما، فهو نور ونارٌ تشعُ في كل الاتجاهات تمدّ يدها حتى الأصل وتقترب آتية من البعيد، بعيد جداً من البدء من الحقبة الأولى من أول انقسام خلوي من الخليقة الأولى، تهز نبضات القلب أعماق الصدر والأحشاء وحتى الحنجرة تهز شبكية العين وتنبض في كل شعاب الجسد. وفي الأفكار يذوب كل شيء يتفتت، يتلاشى، العوائق والعادات والذكريات، لا إلى الفراغ بل إلى النهاية. نسماتٌ ومياهٌ تطهر وتنسكب. تجتاح الأحلام الاستسلام للمد والجزر. شعر جان بأنه ينعم بحريةٍ أكبر، رمى الجلد المصطنع والبهرجة والحرائر التي نبدلها، وهاهو عارٍ لا يشد وثاق شعره ولا أعضائه أي خيط. لحظةٌ مجرد لحظة في هذه الحياة لتنعم بالحرية. لتنبض الحياة في حياتك في كل عصبٍ من أعصابك ولتشعر بالسرعة كحيوانٍ شاردٍ، تتعلم الطيران، مارس الحب وعش الحاضر وتلذذ بالواقع.

ثم وبعد أن استمتعا معاً واستسلما لرغباتهما، تشابكت أحداقهما الواحد بالآخر يغشيهما البخار قلبٌ نابض وأنفاس قوية، يتبخر العرق مغلفاً جسديهما بغيمة باردة، دون كلام ودون تفكير.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

فتح جان الصفحة الأولى من الدفتر. أعطته إياه شارون لدى عودته من السفر. إنه الشيء الوحيد الذي رغب بالاحتفاظ به كذكرى من العمة كاترين. إنه دفترٌ ذو غلافٍ ضاربٍ للون البني من الأشياء التي كانت تشتريها من المتجر الصيني في "كاتر بورن". طُبع عليها في الأعلى "دفتر تمارين" وفي الأسفل "٦٤ صفحة". تلاصقت الأوراق بعد ان نثر عليها الزمن لونه الرمادي. خط القلم واضح وفخمٌ تشبه كتابة شاب بالعشرين من العمر. ها قد مرَّ على هذه الكتابة أكثر من ستين عاماً لكنها مازالت تضجُ بالحياة وكأنها فرغت من كتابتها للتو.

ما نفع اختراع القصص وكتابتها؟ تكفي قراءة ما كُتب. قرأ بصوتٍ مرتفع، له فقط، بلهجةٍ تكاد تكون محايدة وكأنها سلسلة من الأحداث في صحيفة.

لم تكن هذه السطور تتحدث عنه ولا عنها ولا عن أي شخصٍ يعرفه. إنها أحداثٌ مضى عليها زمنٌ بعيد في آخر العالم.

الأيام الأخيرة في روزيليس

الأربعاء الأول من كانون الأول ١٩٠٩

غداء عادي، لا نبيذ، كانت الوجبة رائعة دجاجةٌ مشوية مع الفاصولياء وبعض الفطائر. تناولنا بعضاً من الفاكهة كتحلية وكعكة المرنغ[1] صنع الأمس.

مضينا اليوم إلى "روزهيل"، لم نصادف الكثير من الناس على دربنا ويلف الطقس حرارةٌ مزعجة. حملنا معنا زوادة كجندي المشاة فيها ثلاث قوالب من الكاتو كورن فلور، صنعت والدتي اثنان وأنا صنعت واحداً بمساعدة "مُود".

---

(1) - المرنغ: مزيجٌ من السكر وبياض البيض تكسى به الحلوى.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

٢- يتربع الصيف في "غوريبيب". القطار ممتلئ بالركاب الغالبية من الهنود. إنه يوم المسير إلى روزهيل، حاولت عبثاً العثور على سومابرابا.

٣- أمضينا الوقت بإزالة الركام من السقيفة. الحر خانق. انبعثت أنغام أسطوانةٍ من قلب الحديقة بعد العشاء، أنغام الزمن الماضي. اغرورقت عينا مود بالدمع.

٤- أمضينا الصباح بحزم مكتبة، رغب "هيري في "بإرسالها إلى فرنسا. نقل لي "غوبال "حوارٌ دار بين خدم "شومان"، الذي سيقوم بقطع أشجار العنب الأسود والأبنوس حتى ضفة النهر لن يبقي سوى سهلاً لزارعي القصب الملاعين. أوه يا للهمجية! سيعود الأموات لقبورهم.

٥- اليوم الأحد تم إرسال المكتبة إلى المدينة هذا الصباح. حرق بعض الأوراق من الركام. دفاتري ورسائلي. رحلت عائلة "كماليك" إلى فرنسا اليوم عبر " معبر الكاب "، كم أحسدهم!

٦- شحن كتب، تناولت الغداء مع والدي في غلانور طعام لذيذ مثل الزهرة (ما عدا الكاتو)، الحر خانق.

٧- شحن المزيد من الكتب، قطعنا بعض الخشب للطهو ودفعنا حساب "غوبال". أرسل شومان رجالاً لقطع الأشجار المتاخمة للنهر الأوكاليبتوس وخشب العنب الأسود والأبنوس. يريد ان يحصل على المال من الخشب وعما قريب لن يبقى شيء.

٨- شحن المزيد من الكتب هذا الصباح. ذهبت للتنزه مع مود وهيري بمحاذاة النهر. عندما أفكر أننا في غضون أيام سنترك كل هذا ونذهب إلى منزل روزهيل، حقاً إنه لأمر أكثر سوءاً من المنفى!

٩- قطع رجال شومان المزيد من الأشجار هذا الصباح. لن يتمكنوا حتى انتظار رحيلنا! ساعدت والدي في تفكيك المنظار النحاسي الذي يجب أن يبقى بحوزتنا فهو هدية. نسي عديم الوجدان شومان وجود هذه الآلة وإلا لما فاته تسجيلها في سجل الجرد.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

١٠- شحن صندوق من الكتب هذا الصباح. المزيد من الأشجار المقطوعة، حضر شومان ليتحقق من حسن سير العمل. لمحته قرب المنزل، يلوح بعود القصب وكأنه يشير إلى أشجار أخرى ليتم قطعها. يستحيل وصف الحزن الذي ساورني حين فكرت بكل تلك الزوايا التي ستتعرض للنهب. ماذا سيحل بعصافيري وطيور الترغلة؟

١١- استمر تنظيف الغابة.

هطول أمطار صباحية. ضرب إعصار عمود الماء. أسمع خرير الأنهار وهي تفيض طيلة النهار.

١٢- مايزال المطر ينهمر في طريق عودتنا من القداس هذا الصباح. استقليت أنا ومود عربةً بأحصنة (عربة والد سومابرايا).

١٣- ذهبنا إلى روزهيل لأخذ قياسات سيمون لخياطة زي موحد من أجل التحاقه بـMVI، توقفنا في طريق العودة على الجسر لرؤية النهر تطل على ضفافه الغابة بحرية وتزقزق الكثير من العصافير.

١٤- أصبح الزي جاهزاً يوم الأربعاء. سيلتحق سيمون بـMVI في إنكلترا خلال شهرين. عليه الذهاب يوم غد إلى "فاكواس" للقيام بأعمال متعبة.

١٥- رافقنا سيمون إلى "فاكواس" حيث عملوا طيلة اليوم كالجواميس لجر عربات، كجزءٍ من التدريبات العسكرية.

١٦- وصول عربتي من الأثاث إلى روزهيل. المنزل هناك صغيرٌ وقذرٌ، حجرةٌ درنة ومنخورة. يا إلهي! يجب العيش هنا!

١٧- في روزهيل، تم دفع ٣٫٠٥ روبية للزي الموحد، الطقس ماطر.

١٧-١٨- تخييم ليومين في "فاكواس" تحت الخيام، هربت أنا ومود إلى السينما لرؤية فيلم "كارمن". لدى العودة إلى روزيليس، كانت الغابة قد أُتلفت كلياً! بيعت كل أشجار الأبنوس. انتهى كل شيء!

١٩- لم نذهب اليوم إلى القداس. الطقس فظيع، تعلن الأرصاد الجوية عن إعصارٍ يضرب الشمال قادمٌ من الشرق والجنوب الشرقي. إنه آخر يوم أحد نقضيه هنا، من كان يتوقع!

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

٢٠- طقسٌ فظيعٌ وهباتٌ من الأمطار.

٢١- قطع الأشجار مستمر على قدم وساق. يقف رجال المصلحة الإدارية خلف الاصطبل. تبدو الساحة بمظهرٍ مثير للشفقة. لا شيء سوى حبالٍ من الخشب في كل مكان!

٢٢- اليوم الأربعاء، هبط السطح فوق غرفة الاستقبال، كان منخوراً فكثرةُ المياه التي ابتلعها سببت هبوطه، أمضينا نحن والفتية اليوم في إزالة الأنقاض.

٢٣- إرسال العربة إلى روزهيل مع الأثاث وصندوق الجد مارو الخشبي. مازالت أعمال قطع أشجار المصلحة الإدارية جارٍ على قدمٍ وساق. سيزرع شومان مساحات من القهوة والقصب عوضاً عن الشجر.

٢٦- حضرنا القداس في آخر يوم أحد في روزيليس.

٢٧-٣١- التحضيرات الأخيرة. أقام "هيريف" وزوجته والصغير"رايموند" في روزهيل، سيتجهان إلى فرنسا الشهر القادم على متن القارب. سيغادر سيمون إلى إنكلترا وانضم جيلدا للربانية. لن يبقى مع والدي المسكينان غيري أنا ومود.

الأول من كانون الثاني ١٩١٠

إنه آخر صباح لي في روزيليس.

لم أتمكن من الذهاب إلى النهر إلا في الساعة الحادية عشرة والنصف، الماء عذبٌ والعصافير تملأ ضفة النهر مذعورة بهبوط الأشجار.

أنا ومود للمرة الأخيرة في الغابة، يعتصر الحزن فؤادنا والأسى يملأ قلوبنا. انتهى الغداء وأمضينا وقتاً طويلاً ثم سبقنا والدي في عربة "غوبال"، أما نحن فذهبنا مع والدتي بالسيارة التي أعارنا إياها "كمالاك".

وداعاً يا روزيليس، وداعاً يا إيبين.. وداعاً إلى الأبد.. لن أتنزه أبداً في فيء الأشجار ولن أنال قسطاً من الراحة في مياه النهر العذب.

كل شيء انتهى، سأنهي اليوم هذه الصحيفة فمن الآن فصاعداً لن يكون في حياتي ما يستحق الكتابة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

سان أوبان دو كورميه

تموز ١٩٦٨

سافر. فكر أنه يجب أن يذهب بهذا البحث إلى النهاية، أن يصل لنهاية القصة، لبدايتها، فالبداية هي النهاية. يجب أن يجد أصل الحكاية التي سردتها العمة كاترين على مسامعه في لاكاتافيفا يوماً بعد يوم. لم تعد رونيلو موجودة ولكن هل كانت موجودة؟ مع النهايات العشبية المعانقة لنهر "ايلي"، شيدت منازلٌ وبعض المزارع الفخمة من الغرانيت والنوافذ المزينة بزهور الأرطنسية والكاميليا ذات اللون الأحمر. أعطى كل الناس الذين سألهم الإجابة عينها: اختفت الطاحونة دون أن تترك أثراً، كما أن اسم "مارو" لم يعد موجوداً ولا ماري آن ناور. عثر جان على فرنٍ عادي في الطريق المحاذية لـ"ايلي" أعلى أكمة يجتاحها العوسج. كوخ من الحجر تغطيه الطحالب ويشقه ثقبٌ بالكاد يعبر منه شخصٌ واحد. ربما مضت عدة حُقب زمنية على استخدامه، إنه بناءٌ بسيط ورائع كضريحٍ يعود لحقبة الكهنة الغالين، توقع جان حين عثر على الفرن أن طاحونة رونيلو يجب أن تكون قريبة ربما على هذا الشاطئ عند قوس النهر حيث تجري الساقية.

كان الطقس لطيفاً حاراً، تتراكض غيومٌ بيضاء صغيرة في السماء مثل اليوم الذي اتجه فيه جان أود إلى الحرب.

اختفى شارع "فولفي" في لوريان أيضاً. حصد قصف الحرب كل شيء حتى الأسماء القديمة.

ولكن كان عليه أن يعود إلى الوراء إلى أصل كل الهجرات من بروتاني قبل أن يعيد السيارة التي استأجرها إلى محطة "رين"، قرر أن يسلك الدرب الذي سلكه من قبل سلفه حين اتجه إلى الحرب عام ١٧٩٢ عبر غابات "لانوي" و "بيمبون" ثم عوض أن يتجه نحو "لاغروفال"، اتجه شمالاً نحو "ليفري" حتى وصل إلى "سان اوبان دو كورميه".

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ركن السيارة في ساحة القرية أمام حانةٍ صغيرة، أشار له أحد الرجال الذين كانوا يلعبون الورق كيف يذهب إلى "لاند دو لا رانكونتر" أي "أرض اللقاء" وتدعى أيضاً "بيير دو بروتون أي حجرة بروتاني". أما بقية الرجال وحتى النادلة فما كانوا يعلمون شيئاً. إنه أمرٌ ضاربٌ بالقدم ولفّه النسيان. أمرٌ حدث منذ ٤٨٠ سنة بالضبط، فما عاد يعنيهم بل إنهم لا يتخيلون أن هنا وفي هذا المكان الهادئ تغير تاريخ بلادهم في ٢٨ تموز ١٤٨٨. [1]

خرج جان من القرية سيراً على الأقدام وعبر منعطف النهر فوجد نفسه فجأة في المكان.

منحدرٌ مغطى بأشجار الصنوبر والبلوط ثم يهبط بين يدي مضاءة مترامية الأطراف تصل إلى مستنقع أرض "أوي" البور. مساحةٌ من أرض خاليةٌ كلياً ربما هي مرعى ولكن قد نتوقع أن هذا المنحدر العاري كان فيما مضى مثل بقية الأراضي تجتاحها نباتات الجولق الشائكة الرمادية وأدغال العوسج ثم تلوح من بعيد أيكةٌ من البلوط والبيلسان. تلفها بالجوار من الشمال حتى الشرق غابة "أوسيل" شديدة العتمة بأشجارها الكثيفة التي بالكاد تسمح لأشعة الشمس بالتسلل. غابةٌ تعجُ بالأسرار والرّقيات المؤذية مثل غابة "بروسيلياند" ولكن الرّقية المؤذية الوحيدة هنا هي التاريخ. تنفخ رياح الشتاء بقسوةٍ على أشجار الصنوبر فتنتزع التراب عن الأرض البور الجافة.

فقد سكان بروتاني استقلالهم هنا في ٢٨ تموز ١٤٨٨ بعد معركة حامية الوطيس. انتصر جيش شارل VIII بعد خيانة روهان، نفذت اوامر "لا تريموال في باريس"، وهكذا وبأمسية واحدة لقي ستة آلاف جندي من بروتاني مصرعهم وكان من بينهم عددٌ هائلٌ من الطبقة

---

(1) - معركة سانت أوبان دوكورمير في ٢٨ تموز ١٤٨٨ انتصر الملك الفرنسي شارل VIII على الدوق البريطاني فرانسوا II وحلفاءه.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

النبيلة في بروتاني. كما لاقى ذاك اليوم خمسمئة نبّال إنكليزي حتفهم في خدمة "تالبوت" مع الكومت "سكالس"، كذلك لاقى المصير نفسه ثمانمئة ألماني من سان أمبير تحت إمرة القائد "بليهر" وأيضاً ثمانمئة مرتزق غسقوني[1] وبسكي[2].

لفَّ النسيان كل هذه الحكايا الضارية بالقدم. تنزه جان بين نباتات الجولق الشائكة على المنحدر وهبط إلى صخرة الغرانيت حيث انطلق هجوم الجيش الفرنسي. لابد أن هذا هو المكان حيث رصدت " لاتريموال" ولأول مرة الجيش البروتاني، من أعالي الهضبة، بأرتالٍ منتظمة تماماً خيالة مدرعين يحملون رايات سوداء وبيضاء ومرتزقة إنكليز مزينون بالصلبان الحمراء ومدججين بالأقواس.

من المعروف أن الأماكن الأكثر سكينة في العالم تشهد معارك ضارية. تتلألأ الشمس على الأعشاب التي تغطي تخوم الغابة وعلى أزهار الجولق، لابد أن السماء كانت زرقاء صافية مثل اليوم تتراكض فيها غيومٌ من ريش. ثم صار الاصطدام، اصطدم الجيشان الواحد بالآخر عند منحدر وتتلألأ قطرات الدم على أشواك الجولق. هزَّت الصرخات وضربات الأسلحة وطلقات الحفثية[3] الأجواء وحصد الموت الأرواح من كل الاتجاهات وهشَّم الخوذ والواقيات. تعالت صرخات الغضب "سامسون! سامسون!" وأيضاً "واراوك " و "تورين" كما في غابة أرغون. عندما باغتت الخيالة الفرنسية الجيش البروتاني بالجهة المقابلة والشمس في أحداقهم، قاتل المحاربون وظهورهم للأشجار حتى النهاية، حتى لفظوا أنفاسهم الأخيرة مسمّرين على الأرض الرطبة كما تخلّص الجنود الفرنسيون، في المساحة المشجرة، من الخدم والطهاة والسائسون بعد قتلهم دون شفقة بضربات الخناجر والفؤوس. بعدها في الساعة

---

(1) – الغسقوني: منطقة جنوب غرب فرنسا في العصور الوسطى.

(2) – البسكي: نسبة إلى بلاد البسك بين فرنسا وإسبانيا.

(3) – الحفثية: مدفعٌ قديمٌ يشبه الحفث والحفث هو جنس من الثعابين غير سامة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

السادسة من تلك الأمسية، مازالت الشمس تعتلي الجانب الغربي وتنثر دفئها على الأرض، انتهى كل شيء.

تساقطت الساحات القوية الواحدة تلو الأخرى فيتري وفان وسان مالو في غضون الأسابيع والأشهر التالية المتقاربة أكثر فأكثر.

سار جان في فيء الغابة نظر في كل الاتجاهات وأصاخ السمع. هنا في كبد هذه الغابة انتهى كل شيء، ونجم عن ذلك انهيار اقتصادي وأخلاقي في "بروتاني". كانت هذه البلد تنعم بحريتها وتقوم بأعمال التجارة مع حلفائها في الشمال إنكلترا وألمانيا ومع إسبانيا والبرتغال حيث كانوا يوردون نسيج الأشرعة والحبال وخشب السفن. بعد المعركة أصبحت بروتاني أرضاً خاضعة بل مسخّرة. أصبحت الجزء الأكثر بعداً عن المملكة التي احتلتها والأكثر هجراناً. يسير جان أود مارو بعد ثلاثمئة عام ويعبر القرية ليلتحق بالجيش الثوري، بنفس اللحظة بعد عدة سنوات كتب "انغلي يونغ young Anglais" علاقته مع الشعر حيث وصف منطقة رين ومورديل كالمنطقة الأكثر بؤساً بأطفالها الذين يركضون بثيابهم الرثة وأقدامهم الحافية على طول الطرقات ليشحذوا كسرة خبز والطاعنين بالسن الذين يقضون جوعاً.

من هذا البلد هرب سكان بروتاني إلى آخر العالم ليبقوا على قيد الحياة. في الغابة في الجزء الذي يدعى بالضبط "شارنيه"، سار جان على الأرض الملطخة بدماء الجنود. تتلألأ مياه المستنقع بين الأشجار في الطرف المقابل لأرض "أوي". كانت الشمس لطيفةً جداً مع نهاية هذه الظهيرة كما كانت مساء المعركة، سماءٌ صافيةٌ تزينها مُزقٌ من الغيوم. يلقي عصفور وحيد صرخاته المملة التي تثقب الصمت بـ"الوي" "وي" بينما يلف الصمت الأرض البور ويلف الصمت التاريخ.

عاد جان إلى القرية، اشترى القليل من الشوكولا وزجاجة ماء من الحانة ثم اتجه إلى رين، تنتظره مريم في باريس.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

نزل جان ومريم في مطار "بليزانس" في جزيرة موريس أوائل أيلول من عام ١٩٦٩ بعد أن عُقد قرانهما في ٣٠ من آب في بلدية المنطقة الخامسة عشرة في باريس، لم يشهد على زواجهما سوى رجلٌ مسنٌ التقاه صباحاً في المقهى عند الزاوية وبحضور ماما "لومانسيت" من طرف مريم. حصل جان على إذن لعشرين يوماً قبل تجنيده بعدها سيذهب إلى ليون في فوج "كويراسوري دو روي" (نعم هذا موجود). بعد مضي ثلاثة أشهر سيلتحق بالمدرسة الطبية العسكرية التي ستتكفل بإكمال دراسته. لن تحذف السنوات التي أمضاها في لندن في مستشفى سان توماس ولكن ذلك أفضل من السجن للتخلف عن الخدمة العسكرية أو من الهرب، هذا ما حبذه الملازم ماريني. على كل حال، سيكون من المثير للسخرية أن يتجاوز لجنة الفحص وأن يُعفى من الخدمة كل من "أموريتو" و"شارون" وكل أولئك الذين يعرجون ويلوكون الصابون ليتظاهروا بالصرع خشية أن يَقتلوا أو يُقتلوا في الجهة الأخرى من البحر المتوسط.

ستتابع مريم دراسة "علم النفس" وهي تعمل في حانة في دينفرت روشيرو اسمه "لوي دو سيكلوب أي عين سيكلوب"[1] لأربع أمسيات في الأسبوع من الساعة السابعة مساء حتى بعد منتصف الليل. سيلتقيان لمرتين أو ثلاث مرات خلال الشهر، أثناء الإجازات سينطلق القطار بسرعة ويحظى العساكر بتخفيضات.

كانت رحلتهما إلى موريس بمثابة شهر عسل، رغب جان بالذهاب إلى وهران لزيارة المدينة القديمة والشارع العريض حيث فقدت مريم رغيفي الخبز لكن مريم لم تشاء، لعلها غير مستعدة لمواجهة ماضيها؟ ولعلها خشيت أن ينتزع العسكر هناك جواز سفرها الفرنسي.

---

(1) - سيكلوب: هو كائنٌ أسطوري عملاق بعينٍ واحدة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

موريس أكثر يسراً، إنها محايدة. لم يبقَ أحدٌ يحمل اسم "مارو" لقد باتوا مجرد أطياف.

استأجرا غرفة في نزل في ماهيبورج تابع لعائلة "فرانسوا ايكزافيه ليو" يطل على الجبهة القديمة للبحر. تطلُّ الشرفة على جبل "ليون" والمرسى والجزر السوداء الصغيرة على طول الرصيف الشاطئي حيث شهدت عام ١٨١٠ الانتصار الساحق الأخير الذي أحرزته البحرية الفرنسية. خلال تلك الأيام الثلاثة التي تغير فيها تاريخ "إيل دوفرانس"، لم يعد جان أود في إيبين لعله وصل في اليوم الثاني إلى "غراندبور" على صهوة الخيل مع الحرس الوطني ليشهَد سير المعركة. لابد أنه كان يؤمن بالنصر حين تحطم قارب "ويلوغبي" على الرصيف الشاطئي وأصيب الأميرال وأصبح أسيراً بيد الفرنسيين.

اليوم تغفو مدينة ماهيبورج الصغيرة في أحضان الشمس تهدهد لها نسمات الشرق العليلة. يعجُ السوق بالنسوة والأطفال. تمشّى مع مريم في الطريق الطويلة عبر الأشرعة الطويلة الذهبية والحمراء التي تتطاير في الهواء. تدور الحافلات حول الساحة المغبرة حيث رأت مريم الكلاب الجائعة التائهة تبحث عن الفتات.

بينما كانت مريم تأخذ قسطاً من الراحة في نزل "ليو" مساءً، استقل جان الحافلة إلى "غوريبيب" ثم حافلة أخرى إلى "كاتر بورن" ثم توقف في روزهيل قرب مفرق طريق إيبين. يعرف تماماً أنه لن يرى شيئاً ومع ذلك خفق قلبه بسرعة حين كان يسير في درب القصب متجهاً إلى نهر "الأرض الحمراء". إنها نهاية يوم العمل، تعود النسوة تلفهن الأوشحة، تتوازن المجرفات على رؤوسهن. ألقين نظرةً خاطفةً على هذا السائح الشاب الذي لا يحمل كاميرا تصوير ويهيم بعيداً عن الشاطئ. يتحدثن بلغتهن الزلقة ويضحكن قليلاً. كما في نوكالبان، هناك أطفالٌ يتوارون

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

خلف الأحراج وهم أيضاً يضحكون، إلا أنهم لم يرموه بالحجارة. تشعُّ من وجوههم المستديرة نظراتهم الخبيثة وتلمع أسنانهم ناصعة البياض حين يضحكون.

ينتهي الدرب وسط الحقل حيث تنزلق الريح على فرو القصب دون أن تصدر ضجيجاً، يبحث جان في ذاكرته عن أسماء تلك القمم الضاربة للزرقة والتي تغلق الحلقة مع كل امتداد للأفق. جنوباً سلسلة ثلاث "ماميل" وغرباً "لوكور دو غارد أي جسد الحارس" ومرتفعات فلوريال التي تغرق في الضباب. شرقاً جبل "بلانش أي الأبيض" و"بيتون دوميليو". أخيراً في الشمال مباشرة أمامه هناك جبل "أوري" تعلوه سلسلة " غوبيي" وعمالقة موريس "لوبوس" و"لوبيتربوث". هنا دخل جان إلى إيبين دون أن يدري. السماء لا حدود لها تغزل فيها الغيوم وتجري بسرعة نحو الشمال الغربي. تشققت إحدى الغيمات في أعالي "كريف كور" وزرفت مطراً، في المقابل أعلى ميناء لويس الخفي لمع شعاع الشمس. سار جان في أحضان حقول القصب التي كانت في بعض الأماكن طويلة لدرجة تعانقت ريشها الرمادية فوق رأسه والأرض حمراء بلون الدم مرصعةٌ بحجارةٍ حممية. تلطم الريح العابرة وجه الأوراق المدبب، تلتهب الشمس بقوةٍ حتى سالت قطرات العرق من جبينه وغطت عينيه. سار خبط عشواء طويلاً حتى وصل إلى أكمة. فجأةً هناك أمام ناظريه على بعد بضعة أمتار، شق الوهد حقل القصب كثلمٍ داكنٍ في أعماقه يجري النهر. يتابع حقل القصب على الضفة المقابلة مينيي وباغاتل. أما أعماق الوهد فتغطيها الأشجار مترامية الأطراف أشجار التوت الأسود والأبنوس والبليساندر، يشقّ النهر طريقه بين الحجارة البازلتية. يلج النور كالشلال في هذه الساعة من اليوم.

تغفو بعض الأنقاض عند عالية النهر إلى اليسار قليلاً ولكن لا يمكن أن تكون بقايا روزيليس في أي حالٍ من الأحوال، فالمنزل كان خشبياً

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يطلُ على الوادي، أما هذه الأنقاض فهي تشبه قُناً قديماً أو حظيرة للماشية اجتاحتها النباتات. اختفت روزيليس إذا ما كانت الإشاعة التي وصلت للعمة كاترين صحيحة فهذا يعني أن المنزل قد دُمّر لدى إنشاء مفرق "إيبين" أما ما تبقى منه فقد التهمه القصب. شهد الدرب المؤدي إلى "ريدوي" الكثير من العمران، منازلٌ عاديةٌ من الحجر والسقف المصنوع من صفائح معدنية والحظائر، حتى أن هناك بناءً يشبه مدرسة ولكن لابد أنه مقر رجال الإطفاء محاطٌ بقصبٍ متشابك. نزل جان إلى أعماق الوادي متمسكاً بالعليق والجذور ثم سار بمحاذاة نهر "تيرروج أي الأرض الحمراء". يضيق المعبر في بعض الأماكن فيضطر للقفز من صخرة إلى أخرى وماء النهر يتدفق كالشلال مصدراً إيقاعاً موسيقياً. الحر خانقٌ في بطن الوادي، إنه مكانٌ ضائع منفصلٌ عن موريس الحالية ومختلفٌ كلياً، راود جان شعورٌ أنه يرى بعيني جده ما رأى منذ مئة وخمسين عاماً خلت حين وطأ هذا المكان بحثاً عن موطنٍ لمملكته. إنه عالمٌ لم يمسسه بشر حيث ينسى برفقة ماري آن وأطفاله العقاب والكفاف ودون شك نسيان مساعيه التي باءت بالفشل لتكوين ثروة، بعيداً عن البحر وعن الحرب في أحضان الطبيعة.

عبر جسر السكة الحديدية والدرب المؤدية إلى "ريدوي" فاتسع المضيق وأصبح وادي. تتدفق الشلالات بعنف عند ملتقى الأنهار ويغطي الزبد الأبيض وجه الماء. تنمو على حافة النهر أشجارٌ ضخمةٌ أفلتت من براثن الخراب الحديث، أشجار أبنوس عاليةٌ جداً وملساء بزهورها المتفتحة البيضاء والتيريبنت[1] وخشب البطم والخشب الحديدي[2] والخشب الوردي وسالف العروس والمايدو والمكاسار. جانبي الوادي وعرة

(1) – التيريبنت: نباتات ذات أزهار وردية اللون.

(2) – الخشب الحديدي: شجرة ذات خشب شديد الصلابة ويسمى أيضاً الرافدة الخشبية القريبة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ومليئة بالنباتات والعرائش. يشوش خرير الماء المستمر بنعومته وسلطانه الصمت الذي يبسط جناحيه على الوادي. وصل جان إلى آخر العالم، هنا حيث كانت تأتي كاترين في الزمن الغابر تراءى له وجودها قربه بل يكاد يسمع صوت خطواتها وهي تسير وتمسك بيد سومابرابا، إنهما في ملك "أراناني" قرب المعبد السري وسط الصخور. هنا أصغت لمغامرة "داماياتي" التائهة في الغابة بحثاً عن زوجها الملك نالا.

توقف جان هنا، تتعالى خفقات قلبه ويسكن رأسه الدوار. إنه الآن بالضبط في المكان حيث انقطع دفق حياة كاترين وكأنها خلفت وراءها قطعةً من جسدها. ذاك اليوم المحتم الأول من كانون الثاني ١٩١٠ يوم طردت هي وعائلتها من الجنة. تتعانق الأنهار هنا في هذا المكان لترسم حوض ماءٍ ضاربٍ بالعمق عند أقدام الحجارة البازلتية. تنثر الغابة لونها على الماء فيتشح بلون الليل ويرتجف من لمسة البعوض والبرغش. تتراقص نوّارات زهرة اللوتس المتفتحة البنفسجية على الضفاف البعيدة عن المنحدر. تضرب جذور أشجار العنب الأسود لتنهل من هذا الماء. هاهو معبد "الآلهة السبع" وهو أول معبد بناه المهاجرون الهنود الذين رسو على ضفاف "أبرافازي تشات" في ميناء "لويس" حيث تزاوجت أرواح المارون الذي طارده قائد الأركان "دارلينغ" إبان ثورة راتسيتاتان.

يتحرق جان ظمأ فجثى قرب الماء الأسود ونهل منه بعد أن أبعد الأوراق والأعشاب ثم تمدد على الصخرة الدافئة إلى أن لفَّ الظل وبسط جناحيه على الوهد، عندها حاذى النهر حتى وصل إلى جسر السكة الحديدية. ارتمى في حافلة بعد برهة وبينما كان يرتقي الدرب الرجاج نحو ماهيبورج، تملكه شعور بالحرية والسعادة وكأن مياه بركة آخر العالم قد غسلت أدرانه.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كيلوا (النهاية)

أنا بلقيس ابنة بلقيس وحفيدة كيامبي الساحرة. ولدت في كاندوس في حي "كاتربورن أي الحدود الأربعة" وترعرعت هناك. خطف الموت والدي وأنا في الرابعة من العمر ولم يترك لي ذكرى منه. كان يعمل كنجارٍ في روزهيل، سقطت فوقه عارضةٌ خشبية وهشمته. تربع فقر الحال في حياتنا فما لدينا مالٌ ولا مأكل. كوخنا عبارةٌ عن ألواح خشبية تعلوها صفيحةٌ معدنية لترد هطول المطر فيه. بعد أن وافت المنية والدي، رزقت والدتي بثلاثة أطفالٍ آخرين، ثلاثة صبية من ثلاثة رجال مختلفين. الوحيد الذي كنت أفضله هو بروتاني من رودريج يدعى "لوبان". أسماء إخوتي هي صاموئيل وإيمانيل والأخير جيلداز والذي كان محبباً إليَّ ببشرته الضاربة للحمرة وشعره كشعر الذرة، لطالما هزأت والدتي منه و لقبته "الجرذ الأبيض". تعرفت على جدتي كيامبي وعمري اثنتا عشر عاماً. ما حبذت والدتي أن ألتقي بها ربما لأن جدتي لم تكن تحب أن والدتي تغير أزواجها باستمرار. ظهرت علي أوائل علامات البلوغ حين صار عمري اثنتا عشر عاماً فقالت لي والدتي أن عليّ لقاء جدتي كيامبي في "كريف كور"، لكنها لم تقل لي ما السبب، ملأت كيساً بالفاكهة وحلوى الفليفلة الحلوة وبعضاً من الشاي الأخضر وقنينة عرق.

إنها المرة الأولى التي استنشق هواءً بعيداً عن كاندوس، كم بدا الطريق بالحافلة طويلاً وهو يدور حول الجبل الذي يستحم بدموع الغيوم السوداء في طقسٍ باردٍ. توقفت الحافلة في "ريبالن" وتابعنا طريقنا سيراً على الأقدام باتجاه قمة الجبل، كنت حافية القدمين في درب موحلة، توجست خيفة خلت أن والدتي قررت هجري في الغابة لأننا نفتقر إلى الطعام، كما يروى في حكايا الأطفال. آلمتني قدماي فبقيت خلفاً مما أثار حفيظة والدتي وسحبتني من ذراعي. أنا أشبه والدتي بلقيس بالشجرة السوداء

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

والقامة المشوقة الهيفاء. سال المطر على شعرها وثوبها. لم يلقِ العمر عليها جبته بقيت رشيقة وقوية، ترسم عضلات رجليها أقواس حبالٍ، كنت أرى ذلك حين تستحم بالدلو في الغرفة وأدلكها بأوراق عطرية (الماركوز)[1] قطفتها من جبل كاندوس، حسب قولها أن الأجداد قد حملوها إلى الجبل إبان حقبة العبيد البائسة.

رزقت والدتي بلقيس بأربعة أطفال أما الخامس الذي ولد قبلي فقد توفي ساعة ولادته إلا أنها ظلّت جميلةً وقوية كما لو أن الشباب لم يودّعها يوماً.

عبرنا أعالي جبل ريبالي، في الطرف المقابل تبدو السماء صافية ويبرز وادٍ كبير أخضر اللون يحتضن العديد من المنازل ومن بعيد يلوّح البحر. يشبه هذا ما قرأت في الكتب التي تعلمت فيها القراءة والكتابة حيث نرى بلداً يدعى "لابروتان" بحقوله وأنهاره ومنازله المتشابهة إلا أنني لم أكن أصدق وجودها.

توقفنا هنا لنيل قسط من الراحة. جلست على صخرةٍ كبيرة وتأملت "كريف كور" وفي الجهة الأخرى جبل "بيتربوث" تعلوه كتلةٌ كروية. جلست والدتي بلقيس بجواري وحطت ذراعها حول كتفي ثم ضمتني كما لو كنت صغيرة، ظننت أنها ستهجرني هنا فأجهشت بالبكاء. إلا أنها حدثتني بهدوء، حدثتني عن جدتي كيامبي الساحرة وقبلها بلقيس أخرى وقبلهما كيامبي أخرى ولدن جميعهن قبلها وعشن في الزمن الغابر إلى بلقيس التي تشبهني أنا ووالدتي والتي كانت أول من وطأ هذه الجزيرة في الطرف الآخر من الكرة الأرضية. أخبرتني أنها اصطحبتني عدة مرات إلى جدتي حين كنت فتاة رضيعة حتى تغمرني جدتي بصلواتها وتمنحني كل قوتها.

---

(1) - الماركوز: فاكهة استوائية تنمو في افريقيا.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أصغيت إلى هذه الحكايا فكفكفت دمعي، حتى أنني تشوقت حالياً للنزول إلى "كريف كور" ولقاء جدتي فركضت على الطريق. وصلنا مع نهاية اليوم إلى الأسفل. تسكن جدتي كيامبي في كوخٍ صغيرٍ خارج القرية في أعالي الجبل حيث لا يوجد سوى العليق والحجارة السوداء. ظننت أن جدتي كيامبي مثلي أنا ووالدتي، طويلة القامة ومرعبةٌ قليلاً إلا أنني فوجئت حين خرجت امرأة مسنة قصيرة القامة جداً ببشرة ناصعة مثل أخي جيلداز عدا أن وجهها مغطى بالنمش كالسمندل[1]. كما لاحظت أنها ضريرة. لا يشاركها أحدٌ السكن وتقتات مما يحمل إليها الناس كل يوم. بدت مسرورة بزيارتي، أمسكت بيدي وسرنا خلف المنزل حيث تنمو شجرة مانغو وارفة الظلال، إنها أكبر شجرةٍ رأتها عيني وأقدمها، تعلقت بالجبل بجذعها المنتصب وأغصانها الممدودة بأوراق شديدة الخضرة كأيدٍ لامعة.

بقيت والدتي في الكوخ في حين اتجهت مع جدتي إلى الشجرة، تتكشف الجذور عن مغارةٍ في أعماقها حجارةٌ سوداء تحمل شموعاً وأواني فخارية محطمة مع أوراقٍ معطرة.

حلَّ الليل ولم نبرح المكان، طهت والدتي رزاً في الكوخ وحملته إلينا. أضرمت جدتي حين اشتدت حلكة الليل ناراً صغيرة وطلبت مني أن أغذي النار بالعساليج. أحضرت والدتي زجاجة العرق والسجائر، تأملت في هذه الأثناء وادي "كريف – كور" بأنواره المشعَّة حتى ملعب كرة القدم جانب المدرسة وفي المقابل مازالت تتلألأ الجبال الكبيرة "بيتريوت" وجبل "سانج أي القرود" وجبل "لونغ" بأشعة الشمس في كبد الليل. راودني شعورٌ أنهم أفرادٌ من عائلتي تسهر على راحتي منذ الأزل. اشتدت حلكة الليل، لا نور يخترقها سوى وميض النار التي غذيتها بالعساليج. شرعت جدتي تغني من أجلي بصوتٍ خافتٍ وحادٍ جداً، صوتٌ ما سمعته قط

---

(1) – السمندل: حيوانٌ من رتبة البرمائيات صغير الحجم يشبه العظاءة في شكلها العام.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وكلمات لا أفهمها لكنه غناءٌ يعيش داخلي إذ كان بوسعي الغناء وأنا أتأمل ألسنة النار تتطاول في أعماق مغارة شجرة المانغو. لم تتناول جدتي شيئاً احتست العرق فقط، بصقت على الجذور ونفخت دخان السجائر، أخذت حفنةً من التراب ومررته على جبيني وعيني ثم رسمت بعسلوج على التراب أمام النار نجمة كبيرةً اسمها "فانتانا" فهي الإشارة التي تلقتها من والدتها وجدتها، تناقلت الواحدة تلو الأخرى هذه الإشارة كدليل على قوة "الله". ثم استمرت بالشرب والتدخين والغناء طيلة الليل. خمدت النار حين نفذت العساليج، غفوت قرب جذور شجرة المانغو، استيقظت أحياناً لأسمع صوت جدتي وهي تتابع الغناء كما لو أنني فتاة رضيعة.

داعبت أحداقي أشعة الشمس وأيقظتني صباحاً، الطقس حارٌ في أحضان الحذور. لم تعد جدتي كيامبي هنا. عادت لتخلد إلى النوم في كوخها، أنزلت الستارة امام سريرها، لا لمنع نور النهار من الولوج فهي لا تراه بل لتتوارى عن أنظارنا.

أعطتني والدتي بلقيس قلادةً باركتها جدتي من أجلي ووضعتها حول عنقي. إنه عقدٌ مصنوعٌ من خيطٍ أسود اللون فيه قطع خشبية قاسية وأصداف وحجارة صفراء لم أر مثلها قط. قالت لي والدتي إنها قلادة القوة، وهبتني إياها جدتي لأرتديها طيلة حياتي وحين أرزق بفتاة سأهبه لها بدوري. إنها السلسلة التي تجمعنا يوم "الحساب" حين ينشق البحر ويبدي لنا الرب الدرب إلى "غراندتير" الأرض التي يعود أصلنا إليها.

بعدها، عدنا أدراجنا نحو كاندوس. علمت أن المنية وافت جدتي بعد عدة أيام، لقد أرسلت إلى والدتي حلماً لألاقيها فتهبني القلادة. والآن أنا مع والدتي بلقيس في مخيم كاندوس قرب الجبل مع إخوتي الأربعة، لم أعرف الغناء ولا الصلوات فأنا لست بساحرة ولكن يمكنني الغناء ورسم نجمة فينتانا على الأرض ومعرفة المستقبل بالأحلام.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الحب في موريس عذبٌ جداً، تموجت الستائر مع الريح المتسللة إلى الغرفة ليلاً، مما ينسيك كل شيء ويحملك إيقاع البحر بعيداً على الرصيف الشاطئي. في إيقاع يشبه ما عاشه كلٌ من "جان أود" و"ماري آن" في ذاك الزمن في منزل "دوباسان" عند نهر "تاماران"، تعزف الريح لهما بأوراق شجر الفيلاو[1] الإبرية وتتكسر الأمواج على الشاطئ يرافقه أحياناً جلبةُ أصوات أو نباح كلاب.

ها قد مرّ زمنٌ طويل، ترى هل يعود مجدداً ما جرى فيما مضى؟ هل يمكننا أن نحيا عدة أزمنة بآنٍ واحد؟

اصطحب جان مريم هذا الصباح إلى ميناء لويس، تركتهما الحافلة عند كنيسة "كاسيس" قبل الدخول إلى المدينة. يعرف جان إلى أين هو ماضٍ. لطالما فكّر بالأمر عندما كان يسكن مع والديه ويتأمل خريطة موريس الكبيرة التي حملها والده من لندن وعلّقها على الجدار فوق المذياع الذي ما انفك يبثُ أخبار BBC. بعد عبور مصب النهر "الشمال – الغربي" الكبير عند مدخل الميناء تلوح شبه جزيرة بنى الإنكليز على أطرافها قلاعهم. تتوسط مقبرة "الغرب" المركز ضائعة بين خبايا البحر، وتحتضن جان أود وزوجته ماري آن. قام جان بهذه الرحلة الطويلة لكي يراهما.

إنه حيٌ مدمرٌ بل يمكننا القول حيٌ مهجور. يقيم الحارس في بناء صغير من الاسمنت وسقف صدء يلامس جداراً عالياً بكتلٍ من البازلت عند بوابة المقبرة. يلعب بعض الأطفال بالكرة تحت أشعة الشمس عند مفرق الطرق. تغفو بعض الكلاب بفيء الأشجار وتدس أنوفها بالتراب. تنتصب أشجارٌ ضخمة في الطرف الآخر للجدار، أشجارٌ مضاعفة وأشجار "انتندانس". نبتت في بعض الأماكن على الجدار وقوضت جوانباً بأكملها وكأن هزةً أرضية قد ضربت.

---

(1) – شجر الفيلاو: شجرة من أصلٍ استرالي أوراقها إبرية تعيش أيضاً في أندونيسيا وماليزيا والسنغال وغيرها.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الحارس رجلٌ أصلعٌ ذو بشرةٍ سوداء في ربيع العمر، يجلس وراء طاولة عليها مروحة وإبريق شاي يعود للعصور القديمة. لم يبد أي ردة فعل رغم أنه فوجئ بدخول جان ومريم حيث يشبه أحدهما سائحاً فرنسياً والأخرى تشبه سكان موريس الهندية. استقبلهما بحفاوة ودعاهما إلى الجلوس سأله جان عن سجل العام ١٨٤٣ فنهض وأدار المفتاح في قفل خزانة ذات شبك حيث تقبع السجلات عاماً بعد عام وهي كتبٌ ضخمة بغلافٍ بلون البشرة وقد تمزق ظهرها. الكتاب طاعنٌ بالقدم لدرجة أن صفحاته تمزقت بين يدي الوكيل وهو يقلّب فيها مما أثار حفيظته ومدَّ العمل إلى جان وقال له بالإنكليزية: "عليك أن تبحث بنفسك".

هبَّت نفحاتٌ من ريحٍ قوية عصفت في المكتب هاربةً من زوبعةٍ ضربت في الميناء مبعثرة عبق التراث، قلَّب جان الصفحات الواحدة تلو الأخرى منحنياً على الطاولة. أسماءٌ تكاد تختفي وأخرى مكتوبة بخط اليد بألوان حبرٍ مختلفة تدون أسماء كل أولئك الذين واروا الثرى ذاك العام، أسماء مجهولة ولكن لابد أن جان أود وماري آن عرفوهم يوماً، أسماء رجالٍ وأسماء نسوةٍ عاشوا هنا، مارسوا مهنةً ورزقوا بأطفالٍ وأحاط بهم الأصدقاء والجيران، إلا أنهم الآن مجرد أسماء، أسماء فقط لا غير يتبعها تاريخ الدفن ورقم التسلسل دون أي تعليق: ريتشاردسون، سيدلي، ريفوار، هيربرت، شاستيل، ليموناي، علي خان، بيريت، أركان سينغ، لومونغ، جوليان، ليسترانج، رادامسي، بهردواز، كاراديك، بيتول، مان شيرام، بيتوت، زاشاري، أرلاندا، بونامي، كالديمار.

كان الحر خانقاً رغم المروحة التي تصر وهبات الريح التي تقذفها النافذة. خرجت مريم لتجلس في الخارج على درجات السلم في الظل، تنفخ دخان السجائر وهي تتأمل الأطفال وهم يلعبون بالكرة.

لم يعثر جان على شيء في المجلد الأول ففتح الثاني حيث تم إحصاء القبور المرحّلة. تم نقل مقبرة "ميناء لويس" المركزية عام ١٨٤٧ ليحل

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

محلها مبان إدارية ونقلت القبور إلى الجانب الغربي. هنا، فجأة رأى جان اسم "مارو"، دوّن دون اسمٍ ولا تاريخ ولا وصف فقط ما يلي: مارو والرقم ٣٣٧ ورقم التسلسل.

نادى الحارس أحد الصبية الذين يلعبون بالكرة وهو صبي كريول يتراوح عمره بين ١٢ و١٣ عاماً، وجهه مستديرٌ وعيناه ضاحكتان، سيقودهما إلى اللحد. سار سريعاً بين الممرات بل ركض أحياناً، تشوّق لرؤية أصحابه عند المفرق. عانت مريم باللحاق به، عبر الحي الصيني، كانت القبور سيئة العناية بل مهجورة. نمت الأشجار بشكلٍ عشوائي وضربت جذور تين البنغال وسط اللحود، اجتاحت الأعشاب الضارة وخصلات الكمارة[1] وأحراج الشوك الممرات. لابد من السير فوق القبور في بعض الأماكن والقفز من شاهدة لأخرى. المكان معتمٌ ومشؤوم، تنبعث من الأرض روائح العفونة.

بقيت مريم في الخلف، لم ترغب بمتابعة السير، إلا أن جان تابع سيره خلف الصبي المرشد فتوقف عند طرف المقبرة حيث يشكل الجدار زاوية، لم يقل شيئاً، وقف عند حافة لحد كبير غريب حيث تلاشى رسم ملاك مبتور. لاحق جان نظرات الفتى فوجد شاهدةً من البازلت عاريةً تماماً ممددة في أحضان العليق. حُفر وسطها بالمقص كلمة واحدة مازالت مقروءة رغم الزمن الغابر والهجران القاتل:

MARRO "**مارو**"

لم يأمل جان بشاهدةٍ أكثر بساطة وأكثر جمالاً من هذه إحياءً لذكرى جان أود وماري آن. هذه الشاهدة السوداء الكبيرة المطروحة على الأرض تنثر الشمس أشعتها على وجهها وتداعب الريح أوراق الأشجار من حولها. كما لو أنهم تفردا هنا فما من أحدٍ قبلهما ولا بعدهما، شعورٌ

---

(1) - الكمارة: جنس جنبات للتزيين.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

غامضٌ وبسيطٌ بآن واحد. هنا على هذه الشاهدة ليس في أي مكانٍ آخر نجا حلم روزيليس. جلس الصبي على أحد القبور القديمة بانتظار قطعة نقدية وقد عيل صبره.

لحقت مريم بجان وقفت بقربه وأمسكت بيده فشعرت بحرارة جسده وعبق شعره الناعم الذي يطرد العفونة.

عادا أدراجهما وهما يتأملان السيرك العجيب الذي تفرضه الجبال أعلى المدينة "كوردوجارد" وجبل "سينيو" شديد السواد والجرف الناتئ منه كالجبين وتلاقي أعماق "الميناء" مع جبل "لافونتير" والمنحدر الجاف حيث ودع راتسيتاتان الأفق قبل أن يودع الحياة. تلوح جبال "لوبيك" و"لوبوس" و"بيتربوث" من بعيد كرسومٍ في كتاب الحكايا الأخاذة. قبل مغادرة المدفن، نظرا خلفاً إلى المحيط ذي اللون الأزرق القاتم كسورٍ لا يقهر مع الأفق دون زورق ولا شراع.

ليلاً في الغرفة الصغيرة المبيضة بالكلس حيث تداعب الريح التول الشفاف، مارس جان ومريم الحب بعذوبةٍ فائقة ولوقتٍ طويل حتى لامسا تلك النقطة، ذاك الارتعاش المضيء الذي يعجز الجميع عن وصفه، ذاك الارتعاش الذي يصله الأحياء أحياناً ويمهر مستقبلهم بالاستمرار. لاحقاً وبعد وقتٍ طويل ستقول مريم أنه حان الوقت لولادة جيميما – جيم، تلك اللحظة التي يبدأ عندها كل شيء حين يظهر وجهٌ جديدٌ في مجرى حكايتهما.

غادرا المقبرة ثم عبرا بالحافلة المنطقة الصناعية الجديدة في كوروماندیل التي ولدت في "مناطق تجهيز الصادرات"، تلي مفرق إيبين مباشرة.

ألقى جان نظرةً خاطفةً على الدرب الضيقة الغائرة بين القصب الناجع باتجاه الوهد. أثقلت الشمس ورياح البحر كاهل مريم فألقت رأسها على كتف جان ونامت بهدوء مع هزات الطريق، ثم بسط الليل جنحه.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

جان ماري جوستاف لوكليزيو

نشر لوكلوزيو عام ١٩٦٣ روايته الأولى «المحضر الرسمي» التي حصلت على جائزة رنودو. وحصل عام ١٩٦٤ على دبلوم الدراسات العليا، بعد أن أنجز بحثاً حول «العزلة في أعمال هنري ميشو». ثم أصدر عام ١٩٦٥ كتابه الثاني «الحمى» الذي كان عبارة عن تسع قصص عن الجنون.

كان عام ١٩٦٧ عاماً حاسماً في حياته الشخصية والأدبية، حيث أدى خدمته العسكرية في بانكوك من خلال نظام مهام التعاون، غير أنه أرسل فيما بعد إلى المكسيك بعد أن تّم طرده من بانكوك بعد إدلائه بأقوال لصحيفة الفيغارو عن دعارة الأطفال في تايلند. غير أن اكتشافه للمكسيك كان صدمة حقيقية، حيث يبدأ بالعمل على تراث الهنود الحمر. فقد شارك لوكليزيو، ما بين ١٩٧٠-١٩٧٤، الشعوب الهندية في مقاطعة دارين البنمية حياتها، حيث كتب عن هذه التجربة «إنها صدمة حسية كبيرة، صعبة، كان الجو حاراً، وكان عليّ أن أمشي مسافات طويلة على الأقدام. كان عليّ أن أصبح خشناً، صلباً. منذ تلك اللحظة. اللحظة التي لامست فيها هذا العالم لم أعد كائناً عقلياً. أثرت هذه اللاعقلية فيما بعد في كلّ كتبي.»

وهكذا يكرس لوكليزيو العديد من الكتب حول المكسيك والهنود الحمر منها ترجمات عن النصوص القديمة «نبوءات شيلام بالام» (١٩٧٦) «علاقة ميشوكان» «الحلم المكسيكي» (١٩٨٥) «أغاني العيد» (١٩٩٧) ديغو وفريدا (١٩٩٤).

ما بين عام ١٩٧٨ و١٩٧٩، أصدر لوكليزيو «المجهول على الأرض»، و«موندو وقصص أخرى» الذي حقق نجاحاً كبيراً في المكتبات، وفي ذات الفترة يصبح عضواً في لجنة قراءة منشورات غاليمار. وفي عام ١٩٨٠ يمنح جائزة بول موران من قبل الأكاديمية الفرنسية، وينشر « ثلاث مدن مقدسة» و«الصحراء» التي ستحوذ على جائزة غونكور.

يعود عام ١٩٨١ إلى جذوره الموريسية عبر رحلة إلى جزر موريس ورودريغس. وعن ذلك، يمكننا قراءة العبارة الآتية في «رحلة إلى رودريغس» التي صدرت بعد خمس سنوات: «حتى اللحظة الأخيرة أشعر بهذا الدوار، كما

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لو أن كائناً ما انسل إلى داخلي. ربما لست هنا إلا لهذا السؤال، السؤال الذي فُرض أن يطرحه جدّي على نفسه، هذا السؤال الذي هو أصل كلّ المغامرات وكل الرحلات: منّ أنا؟ أو بالأحرى: ماذا أكون أنا.» وقد أنتجت هذه العودة العديد من الأعمال لعل أهمها «الباحث عن الذهب» (١٩٨٥) «رحلة إلى رودريغس» (١٩٨٦) «العزلة» (١٩٩٥).

يقع عام ١٩٨٨ في مواجهة مع الأوساط الصهيونية في فرنسا التي عدته مشبوهاً على غرار جان جينيه بعد أن نشر جزءاً من روايته نجمة تائهة التي كان يعمل على كتابتها في مجلة الدراسات الفلسطينية، متناولاً فيه مأساة اللاجئين الفلسطينيين والمراحل الأولى من تشكل المخيم الفلسطيني.

وقد تتابعت إصدارات لوكلوزيو، حيث أصدر الربيع وفصول أخرى(١٩٨٩) أونيتشا ونجمة تائهة (١٩٩٣) سمكة من ذهب (١٩٩٧) صدفة (١٩٩٩)، قلب يحترق (٢٠٠١) ثورات (٢٠٠٣).

يمثل لوكليزيو في أعماله الكاتب الذي يبحث عن صوت الآخر، سعياً إلى رفض أساطير العالم الغربي الزائفة المدمرة والهارب من معطياتها وشروطها: «من خلال علاقتي بالهنود غيّرت الصورة التي أحملها عن الزمن. قبل ذلك، كنت مذعوراً بكثير من الأشياء التي لم تعد ترعبني: الخوف من الموت، المرض، القلق من المستقبل. ذلك لم يعد يرعبني الآن... ترعبني فكرة أن أطفالي يمكنهم أن يعرفوا المرض أو الموت، كذلك الحروب العبثية أو الوحشية مثل التي عشناها، وكذلك احتمال وقوع الكوارث البيئية. إن مسئوليتنا أمام أجيال المستقبل مسؤولية كاملة. إذا تعلمنا العيش مثلما يعيش الهنود الأميركيون أو مثل هؤلاء سكان الصحراء، بالتأكيد لن يكون لدينا هذا القدر من الكوارث. بالتأكيد لن نكون بالدرجة ذاتها من الكمال التقني، ولكننا لن نهدر بهذه السهولة فرصتنا للحياة....... هناك ضرورة ملحة لسماع أصوات أخرى، للإنصات إلى أصوات لا ندعها تجيء إلينا. أصوات أناس لا نسمعهم لأنهم استهين بهم لوقتٍ طويل، أو لأن عددهم ضئيل، ولكن لديهم الكثير من الأشياء لنتعلمها.»

كان لوكليزيو أحد الكتاب الغربيين الذين اقتحموا العالم الهامشي للمجتمع المعاصر، ليكشف عن التعايش ما بين قسوة الحياة ورقة المشاعر

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

والعواطف، ناقلاً هذا الهامش إلى قلب الحياة (ولعل سمكة من ذهب تمثل أنموذجاً على ذلك).

ولعل معظم شخصياته الرّوائية ترحل في عالم من التيه والتطواف، التطواف الذي يؤسس وجود الشخصية ويبرهن على حريتها. وغالباً ما تكون هذه الشخصيات شخصيات مراهقين، أنقياء جداً.. وفي الوقت ذاته، قساة جداً. ينطلقون في الحياة، عليهم واجب التغلب على الصعاب لإنقاذ العالم وأنفسهم من التدمير والفساد. وكذلك فإن الحضور القوي للشخصيات النسائية يثير الاهتمام، إنهن من ينقلن الذاكرة والتجربة والنقاء.

في روايته «سمكة من ذهب»، التي أصدرها عام ١٩٩٧، يتابع لوكليزيو سيرة فتاة مغربية، ليلى، في مقتبل العمر، تنتمي إلى بني هلال اختطفت وهي لا تتجاوز السادسة من عمرها. جالت في رحلتها الطويلة عوالم مختلفة من الملاحة في المغرب، إلى الولايات المتحدة، مروراً بفرنسا، لتعود في النهاية إلى قبيلة بني هلال في الصحراء جنوب المغرب حيث تصل إلى المكان الذي تتذكر ملامحه قبل اختطافها، بغية أن تجد حلاً لمأساة لبست حياتها.

تجدر الإشارة هنا إلى أن لوكليزيو أصدر مع زوجته ذات الأصل الصحراوي المغربي، في العام ذاته، كتاب «أناس الغمام» ليرويا فيه حكاية رحلتهما في الصحراء الغربية. يقول لوكليزيو فيه: «كنت أذهب نحو المجهول، فيما كانت جيما تعود نحو ماضيها».

كتبت فصول سمكة من ذهب بقدرة عالية على السرد كما لو أنها كانت شلالاً يتدفق بلا توقف. عن ذلك يقول لوكليزيو: «كانت سمكة من ذهب حكاية لا ينبغي لها أن تستغرق أكثر من خمسة عشر صفحة، غير أنها أصبحت رواية بالرغم عني. لم أستطع فعل شيء، لدرجة أن فصولاً لم أحسب لها حساباً كتبت فيها. لا أتكلم تماماً على الشخصيات التي أفلتت، ولكن عن الحكاية نفسها، عن النص الذي تضخّم فجأة. يدفعني ذلك لأن أسأل إن لم يكن ذلك يشبه نوعاً من الغزو الجرثومي. إن للخيال جانب يشبه الغرغرينا.. جانبٍ غازٍ.»

في سمكة من ذهب يظل لوكليزيو وفياً لكتابته ولروحه: روح تفلت من هذا العالم كي تجد ملجئها الوحيد في الفطرة الأولى..!

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

من أعماله:

- "المحضر الرسمي" ١٩٦٣
- "يوم تعرّف بومون الى الألم" ١٩٦٤
- "الحمى" ١٩٦٥
- "الطوفان" ١٩٦٦
- "النشوة المادية" ١٩٦٧
- "الأرض المحبوبة" ١٩٦٧
- "كتاب الهروب" ١٩٦٩
- "الحرب" ١٩٧٠
- "العمالقة" ١٩٧٣
- "أسفار الجهة المقابلة" ١٩٧٥
- "نبوءات شيلام بالام" ١٩٧٦
- "المجهول في الأرض" ١٩٧٨
- "نحو الجبال الجليدية" ١٩٧٨
- "رحلة الى بلاد الشجر" ١٩٧٨
- "موندو وقصص أخرى" ١٩٧٨
- "الصحراء" ١٩٨٠
- "ثلاث مدن مقدسة" ١٩٨٠
- "الرجل الذي لم ير البحر" و"جبل الاله الحي" ١٩٨٢
- "علاقة ميتشواكان" ١٩٨٤
- "بالابيلو" ١٩٨٥
- "المنقب عن الذهب" ١٩٨٥
- "يوم تعرف بومون الى وجعه" ١٩٨٥
- "رحلة الى رودريغيز" ١٩٨٦
- "الحلم الاميركي أو الفكر المبتور" ١٩٨٨
- "الربيع ومواسم أخرى" ١٩٨٩
- "شعب السماء" ١٩٩٠
- "أونيتشا" ١٩٩١
- "النجمة التائهة" ١٩٩٢
- "دييغو وفريدا" ١٩٩٣
- "المحجر الصحي" ١٩٩٥
- "السمكة الذهبية" ١٩٩٦

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ثورات

ليست الجنة هي ما نفتقد، وإنما عصر الثورات في الخمسينيات والستينيات.

كانت مدينة ينس أرض المرام التي تأمُّ السرائر اليائسة في جزيرة موريس، جزيرة أسلافي.

يبدو أن الواقع لا يكفُّ عن التغيير، شعوبٌ يائسة تأتي من أصقاع أوروبا وآسيا، من روسيا وإيطاليا واليونان، حتى أولئك المهاجرون من افريقيا وأوائل الفارين من حرب الجزائر، كلهم يلتقون على هذه البقعة الصغيرة التي تداعبها الأفكار التقليدية، أي الفلسفة التي كانت في متناول اليد.

ربما بدرجة مختلفة في عوالم أخرى، سواء كانت في الجزائر أو في بيروت آنذاك.

المنفى والبحث عن أرض جديدة هما أول ما تعلمت، كما قال (فلانري أوكونور) «يجب على الروائي أن يكتب عن سنواته الأولى حيث اكتسب جوهر ما اكتسب»

نينوى
للدراسات والنشر والتوزيع

9 789933 509361

@ketab_n
Follow Me
www.kutub-pdf.net